شرح ديوان المتنبي

وضعه
عبد الرحمن البرقوقي

وقد امتازت هذه الطبعة بالدقة والبسط والاستيعاب، بحيث تلاقت في هذا الشرح جميع شروح المتنبي وشرحت فيه الشواهد والنظائر وما إليها وصار بذلك مغنيا عن جميع الشروح

الجزء الأول

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها: مصطفى محمد

مطبعة السعادة
ميدان احمد ماهر باشا (باب الخلق سابقا)
١٢ شارع الجداوى ت ٧٩٤٢٩ ص . ت ٨٠٧٨

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

وسلام على عباده الذين اصطفى

أما بعد : فهذا شرح ديوان المتنبي * أُخْرِجُهُ بعد شرحى ديوانَ حسّان الذى أخرجته فى العام الماضى ، ورآه القراء وعرفوا من مقدمته ما كابدت فيه

(*) أبو الطيب المتنبي : هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفى الكندى الكوفى ، ولد بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة فى محلة تسمى كندة ، فنسب إليها ، وليس هو من كندة التى هى قبيلة ، بل هو جعفى القبيلة — بضم الجيم وسكون العين — وهو جعفى بن سعد العشيرة بن مذحج — واسمه مالك — بن أدد بن زيد ابن يشجب ابن عريب بن زيد بن كهلان . نشأ بالكوفة - كما ترى - ويقال: إن أباه كان سقاء بالكوفة ، ثم انتقل إلى الشام بولده ، ونشأ ولده بالشام ، وإلى هذا أشار بعض الشعراء فى هجو المتنبي حيث قال :

أىُّ فَضْلٍ لِشَاعِرٍ يَطْلُبُ الفَضْـ ـلَ مِنَ النَّاسِ بُكْرَةً وَعَشِيّاً

عَاشَ حِيناً يَبِيعُ فِى الكُوفَةِ المَا ءَ وَحِيناً يَبِيعُ مَاءَ المُحَيّا

قدم الشام فى صباه ، وجال فى أقطاره ، وما زال إلى أن ادعى النبوة فى بادية السماوة ، وتبعه خلق كثير من بنى كلب وغيرهم ، فخرج إليه لؤلؤ — أمير حمص نائب الأخشيدية — فأسره وتفرق أصحابه وحبسه طويلا ؛ ثم استتابه وأطلقه ، ومن ثم سمى المتنبي ؛ ثم التحق بالأمير سيف الدولة بن حمدان - سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة - وما زال منقطعاً له حتى وقع بين المتنبي وبين ابن خالويه — النحوى — كلام فى مجلس من مجالس سيف الدولة ، فوثب ابن خالويه على المتنبي ، فضرب وجهه بمفتاح كان معه ، فشجه ، وخرج ودمه يسيل على ثيابه ، فغضب ، وفارق سيف الدولة ،

وفى الحق : إنى لم أعانِ فى المتنبى ما عانَيْتُ فى حسان — على بُعد ما بينهما — وذلك أنَّ المتنبى رَبٌّ المعانى الدقاق — كما قال — فَللذهن فى شِعره جولان وما دامَ هناك ذِهنٌ يَلقفَ ، وذوق يستدقّ ، وملكةَ بيانية ، وبَصَر بمذاهب الشعر : أمكن إدراكُ ما يَترامَى إليه مِثلُ المتنبى ، ولو بشىء من

وذهب إلى مصر سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، ومدح كافور الأخشيدى ، وكان يقف بين يدى كافور ، وفى رجليه خفان ، وفى وسطه سيف ومنطقة ، ويركب بحاجبين من مماليكه ، وهما بالسيوف والمناطق ، ولما لم يرضه كافور هجاه وفارقه ليلة عيد النحر سنة خمسين وثلاثمائة ، ووجه كافور خلفه رواحل إلى جهات شتى ، فلم يلحق ، وكان كافور وعده بولاية بعض أعماله ، فلما رأى تغاليه فى شعره وسموه بنفسه ، خافه ، وعوتب فيه ، فقال : ياقوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أما يدعى المملكة مع كافور ؟ فحسبكم ، ولما كان بمصر مرض وكان له صديق يغشاه فى علته ، فلما أبل انقطع عنه ، فكتب إليه : وصلتنى ـ وصلك الله ـ معتلا وقطعتنى مبلا ، فان رأيت أن لا تحبب العلة إلى ، ولا تكدر الصحة على ـ فعلت إن شاء الله . ولما رحل عن كافور قصد بلاد فارس ومدح عضد الدولة بن بويه الديلمى ، فأجزل جائزته . (وكذلك مدح ابن العميد) ولما رجع من عند عضد الدولة قاصداً بغداد ثم إلى الكوفة فى شعبان لثمانية خلون منه ـ عرض له فاتك بن الجهل الأسدى فى عدة من أصحابه ، وكان مع المتنبى أيضا جماعة من أصحابه ، فقاتلوهم ، فقتل المتنبى وابنه محسد وغلامه مفلح بالقرب من النعمانية فى موضع يقال له الصافية ، وقيل جبال الصافية ـ من الجانب الغربى من سواد بغداد عند دير العاقول ـ وذلك يوم الأربعاء لست بقين ـ وقيل لثلاث بقين ، وقيل لليلتين بقيتا ـ من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ، ولما قتل : رثاه أبو القاسم مظفر بن على الطبسى بقوله :

لا رَعَى اللهُ سِربَ هَذَا الزَّمَانِ ... إِذْ دَهَانَا فِى مِثْلِ ذَاكَ اللسَانِ
مَا رَأى النَّاس ثانِىَ المُتَنبِّى ... أىُّ ثانٍ يُرَى لِبِكْرِ الزَّمَانِ
كانَ مِنْ نَفْسِهِ الكَبِيرَةِ فِى جَيْشٍ وَفى كِبْرِيَاءِ ذِى سُلْطَانِ
هُوَ فى شِعْرِهِ نَبِىٌّ وَلكنْ ... ظَهَرَتْ مُعْجِزَاتُه فى المَعَانى

« ا هـ ملخصا من ابن خلكان »

الجهد اللذ ، والتعب المريح ، ذلك إلى أن المتنبي مخدوم ، وشروحه متوافرة ، ومادته زاخرة ، فكان شرحه لذلك يكاد يكون هينا لينا ، لا إرهاق فيه لخاطر ، ولا إعنات لروية . وهنا قد يبدو لك أن تقول : وإذا كان المتنبي مخدوماً وشروحه متوافرة ـ كما تزعم ـ فعلام هذا الشرح وما حاجتنا إليه ؟ فعلى رسلك

شيء من أخلاقه وشمائله

حدث علي بن حمزة قال : بلوت من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة ، وذلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط ، وبلوت منه ثلاث خلال مذمومة ، وذلك أنه ما صام ولا صلى ولاقرأ القرآن . . . أما هذه الأخيرة ـ وهي أنه ماقرأ القرآن ـ فإني أظن الراوي يريد أنه ماقرأ القرآن تهجداً وتعبداً ، وإلا فإن مثل المتنبي في فضله وأدبه ودهائه لايفوته أن يقرأ القرآن الكريم ويتدارسه ويستظهره ! وأي قيمة لأديب لم يقرأ القرآن ؟ ! وقال ابن فرزجه : كان المتنبي رجلاداهية مر الاسان ، شجاعا ، حافظا للآداب ، عارفا بأخلاق الملوك ، ولم يكن فيه مايشينه إلا بخله وشرهه على المال . .

أقول : وهذا بخل المتنبي هو على الحقيقة مما استتبعه طماحه وكبرياؤه وسموه إلى الرفعة والمجد والعلاء . وقد سئل في ذلك فقال : إن للبخل سببا ، وذلك أني أذكر ـ وقدوردت في صباي من الكوفة إلى بغداد ـ فاتخذت خمسة دراهم في جانب منديل ، وخرجت أمشي في أسواق بغداد ، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة ، فرأيت خمس بطيخات باكورة فاستحسنتها ونويت أن أشتريها بالدراهم التي معي ، فتقدمت إليه وقلت : بكم هذه الخمس بطاطيخ ؟ . . فقال ـ بغير اكتراث ـ اذهب ، فليس هذا من أكلك ؛ فتماسكت معه وقلت : أيها الرجل : دع ما يغيظ واقصد الثمن ، فقال : ثمنها عشرة دراهم ؛ فلشدة ما جبهني به ما استطعت أن أخاطبه في المساومة ، فوقفت حائراً ، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل ، وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهبا إلى داره ، فوثب إليه صاحب البطيخ من دكانه ودعا له وقال : يامولاي : ها بطيخ باكورة بإجازتك أحمله إلى منزلك ، فقال الشيخ : ويحك ! بكم هذا ؟ فقال : بخمسة دراهم ، فقال : بل بدرهمين ، فباعه الخمسة بدرهمين ، وحملها إلى داره ودعا له ، وعاد إلى دكانه

ياهذا . فالمتنبي وإن كانت شروحه كثيرة إلا أنها كثرة قِلة . . ذلك أن المتنبي وإن كان من حسن حظه أنْ شَرَحَه وعلق عليه ، ونقده وتعصب له وعليه ، نَيِّفٌ وخمسون أديباً ، بَيْدَ أنَّ المتداوَل من شروحه إنما هو العُكْبَرِى والواحدى واليازجي حَسْبُ : أمّا الواحدى : فلأنّهُ لمْ يُطبَع إلا فى أورُبّة وفى الهند فقط ، كانت لذلك نسخه قليلة التداول فى أيدى الناطقين بالضاد لِنَدْرَتِه وغلاء ثمنه ، ومن ثَمَّ كان فى حكم غير المتداوَل . ثم هو ـ الواحدى ـ وَمِثلهُ العُكبَرِى كلاهما موضوعٌ ذلكَ الوَضعَ الخلق البالىَ العقيم ـ بَعثرَةَ الأبيات وإثباتَ البيت ثم شرحَه ، وهكذا دَوَاليك ـ وَضْعٌ لايتّفق ومزاج هذا الجيل ، ولا سيما من يبتغى حفظ الديوان واستظهاره ، هذا إلى التحريف الكثير الذى ألَمَّ بالواحدى والعُكبرى معًا ، وهنا لا يسع المرء إلا أن يأسَفَ كل الأسف وتتقطعَ نَفْسه حَسَرَاتٍ جرّاء

مسروراً بما فعل ؛ فقلت : ياهذا ما رأيت أعجب من جهلك ! استمت على فى هذا البطيخ وفعلت فعلتك التى فعلت ، وكنت قد أعطيتك فى ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولا ! ! فقال اسكت : هذا يملك مائة ألف دينار ... وأنا لاأزال على ماتراه حتى أسمع الناس يقولون : إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار . . .

وقد كان أبو الطيب مغروراً إلى أقصى حدود الغرور ، وكان ذا طماح وزهو وكبرياء ، بل كان لا يطاق غطرسة وشموخا وخيلاء ، ولا تنس قصته مع الحاتمى وما جره عليه هذا الكبر . وكان أبو الطيب مصاباً بذلك الداء : داء جنون العظمة . . ـ وكثيراً ما يصيب هذا الداء النوابغ والعبقريين ـ ولك أن تجعله علة ، ولك أن تجعله معلولا . . . وقد كان أبو الطيب عزهاة لا تطبيه النساء . . وكان لا يشرب الخمر . . وجملة القول أن أبا الطيب كان ذا شخصية من الشخصيات الغريبة ، وكان عظيما ، وكان عبقريا ، وكانت حياته لذلك زاخرة بكل ما يجلب له الحب والإشفاق والإجلال من قوم ، وبكل ما يجلب عليه الحسد والبغض والعداء من آخرين : شأن كل عبقرى عظيم . والله أعلم . .

ذلكَ الداء الخبيثِ العَياء الذى ألمّ – ولا يزال يُلِم – بالمطبوعات العربية – داء التصحيف والتحريف – حتى لايكاد يسلم منه كتاب عربى ، فذهب بجمال التواليف وشوّه خَلقَها وصارَ بها إلى حَيثُ تنبوعنها الأحداق ، وتتجافى عن قراءتها الأذواق ، ويتخاذل الذهن ، ويتراجع الفكر . ولست أدرى : ما مصدر هذا الداء ، ولامَن تقع عليه تبَعَةُ هذا الجرم : هل هو الناسخ ؟ – بل الماسخ – [ولقد حاولت – أخيراً – أن أنسخ رسالة فى سرقات المتنبى بدار الكتب المصرية ، وكلفت أحد الناسخين فى تلك الدار بنسخها ، ولما أتمّ نقلَ الكرّاسة الأولى ذهبت إليه وأخذنا نقابل ما نسخ على الأصل ، فوجدت الأصل لا يكاد يوجد فيه بيت صحيح ، ووجدت ما نسخ منه ضغثا على إبّالةٍ . . . فما كان إلا أن انصرفَتْ نفسى عن المسألة برُمّتِها] . . أم هو الطابع وجهله وتهاونه ؟ !

ولقد لقيت الألاق فى تصحيح « بروفات » – أو تجارب – المتنبى ، ومن قبله حسان ، حتى لا أكون مغالياً إذا قلت: إنّ الجهد الذى يُبذَلُ فى سبيل التأليف أهونُ على المرء من الجهد الذى يقاسَى فى سبيل التصحيح .

وتصوّرْ مقدار ما يَعرُو الإنسان من المضض والامتعاض حين يرى الكتاب – بعد هذا العناء الذى يبذل فى التصحيح – لم يسلم من الأغاليط . ولا تنسَ أن المؤلف قد لا يفطن إلى الخطإ المطبعى أثناء التصحيح و يمرّ به مرّاً ، وعذره فى ذلك واضح : وهو أنه إنما يقرأ ما فى ذهنه ، لا ما هو بين عينيه ؛ ومِن هُنا كان له – للمؤلف – هو الآخر نصيب من هذا الخطإ وإن كان عذره فى ذلك قائما . . .

أقول : إنّ عيب الواحدى والعكبرى هو ما ذكرت : وَضع لا يتفق وروح العصر ، وتحريف كثير شائع فى الكتابين ، ذلك إلى هفواتٍ تلحق كُلاً على حِدَتِه ، وَقصورٍ أو تقصير أو إقصار يلمّ بِساحتِهِ ؛ فإذا أردت أن تجتزىء

بالعكبرى ـ مثلا ـ وتستغنىَ به عن غيره فإنه لايغنى كل الغناء ، وكذلك الواحدى. ويَزِيد الواحدى على العكبرى أنه لايَحفل بتفسير المفردات ولا بالإعراب ، و بأنه لايفسر كثيراً من الأبيات ، فكأنه موضوع للمنتهين . ولذا لايؤاتى الشادِين . أما اليازجي أو اليازجيان ـ الشيخ ناصيف وابنه الشيخ إبراهيم ـ فهما ـ على فضلهما الذى لاينكر ، وعلى ما طنطن به الثانى فى ذيل الشرح ، مما قد يخرج منه القارىء وهو مفعم يقيناً بأن هـذا الشرح هو سيد الشروح ، وهو وحده الشرح الذى طَبّق المفصل وأصاب مقطع الحق وأوفى على الغاية ، أقول : إنهما ـ على الرغم من ذلك ـ يَصْدُق عليهما قول الواحدى فى ابن جِنّىّ : وأما ابن جنى فإنه من الكبار فى صنعة الإعراب والتصريف ، والمحسنين فى كل واحد منهما بالتصنيف ، غير أنه إذا تكلم فى المعانى تبلد حماره ، وَلجّ به عثاره . . . نعم ، وحسبك أن ترجع إلى ما قالاه ـ أى اليازجيان ـ فى شرح هذا البيت على انسجامه ووضوحه وروعته :

قَحا اللهُ ذِى الدُّنيا مُناخاً لِرَاكِبٍ
فَكلُّ بَعيدِ الهمِّ فِيها مُعذَّبُ

قالا : يذم الدنيا . يعنى أنها دار شقاء حتى إن من لا همّ له لا يخلو فيها من العذاب ، فما الظن بصاحب الهموم ؟ ! ولست أدرى : كيف لم يفطنا إلى معنى هذا البيت وهو من الوضوح والجلاء ـ كما ترى ـ ؟ . . . على أنهما ـ فى شرحهما عامة ، لافى شرح هذا البيت ـ لم يحيدا عن الواحدى والعكبرى قِيدَ أُنمُلة ؛ فهما عمدتاهما ، وعليهما معولهما ، فإذا هما حاولا أن يتفصيّا منهما ، و يستقلاً بالشرح دونهما ، و يأتيا بشىء من عندهما : زلت قدماهما ، وكبا جواداهما ، أوتبلد حماراهما .. ووقعا فى مثل ما وقعا فى هذا البيت . . .

ذلك : إلى أن القسم الذى تولى شرحه الشيخ ناصيف قصّر فيه وَمَرّض ولم يتعرض لشرح المعانى ، وإنما اقتصر على شرح المفردات ، وإلى أنهما

– اليازجيين – تركا كثيراً من شعر المتنبي الذى يريان فيه خمشاً لوجه الأدب ، وإلى أنهما لم يتعرضا لسرقات المتنبي وذكر الأشباه والنظائر أصلا ، وهذه مزية من المزايا قد وفيناها حقها فى هذا الشرح ...

على أنَّا لا نبخس النـاس أشياءهم ، ولا ننكر خصائص الطبائع البشرية وما قد يعروها الخَطْرَةَ بَعْدَ الخَطْرَةِ : من الفتور والانتكاس ، وانغلاق الذهن ، وتبلد الحس ، وإظلام البصيرة ، وغؤور الروح ، وخمود الذكاء ، حتى لقد يخفى أحياناً على العيلم الألمعى وجه الصواب وهو منه على حبل الذراع وطرف الثمام – كما يقولون – فيعتسف الطريق ، ويتخبط تخبط العشواء ...

وهذا ابن جنى – الإمام العالم المجتهد الثبت الثقة ، بل فيلسوف اللغة العربية ، العليم بخصائصها ، الطَّبُّ البصير بدقائقها – تراه فى شرحه على المتنبي على الرغم من ذلك ، ومن أنه كان معاصراً للمتنبي – متعصباً له محامياً عنه ، وكان إذا سأل المتنبي سائل عن معنى بيت من أبياته يقول : اسألوا الشارح – يعنى ابن جنى – . وكان ابن جنى يراجع المتنبي فى كثير من شعره ويستوضحه المعنى الذى يغزوه . وبرغم ذلك تراه فى كثير من المواضع – كما قال الواحدى – وقد تبلد حماره ، ولَجَّ به عثاره .

وهكذا تتبعت جميع من تعرض للمتنبي بالشرح أو النقد – كابن فورّجه ، والعروضى ، والتبريزى ، وابن وكيع ، وابن القطاع ، وابن الأفليلى – فوجدت لهم جميعاً بجانب حسناتهم سيئات ، وإلى سَدَادهم زلات وهفوات .

وهذا حقاً من غريب طبائع البشر ؛ فسبحان من تفرد بالـكمال ! !

ولقد وجدت ذلك من نفسى : مع أن الطريق معبد ، والمـادة متوافرة ؛ فقد أكون – فى بعض الأوقات – مستجما ، نشيطاً ، مهزوزاً ، مُرهَفَ الطَّبْعِ ، مَصْقُولَ الذهن ، صافى الحس ، منبسط النفس ؛ فأشرح ما أشرح – من قوافى المتنبي – فآتى بمـا أرضى به عن نفسى ، ويعرونى له من الطرب ما يستخفنى ، وأكون

فى أوقات أخرى منقبض النفس ، مظلم الحس ، مغلق الذهن ، فَدما ، بليداً ، لا أكاد أذْهَنُ شيئاً ، وأكون مضطرا إلى العمل ؛ فأشرح ـ وأنا على هذه الحال ـ بعض الأبيات ، ثم أعود فى وقت أكون فيه على جمام من نفسى إلى ما شرحت ، وأنظر ماذا قلت ، فأدهش : كيف يصدر هذا من رجل له بقية من فهم ؟ وأتهم نفسى ، حتى لا أكاد أصدق أن شيئاً من هذا نَدَّ به القلم . . .

ثم لا تنس اختلاف القرائح والأفهام والنزعات ، وأن هذا ينزع فى تفكيره نزعة لغوية ، وذاك نزعة نحوية ، وذلك نزعة فلسفية منطقية ، وآخر قد تأثر بالأدب والفن وحسن التخيل ، وأن هذا أصح تمييزاً من ذاك ، وأنفذ بصيرة ، وأبعد مدارك ، وأصفى نفساً ، وألطف حسا ، وأكثر ألمعية ، إذا أذِنَتْ أذناه شيئاً شاءها ذهنه . فإذا هم أراغوا تأويل بيت من أبيات المعانى الدقاق : تشعبت آراؤهم ، وذهب كلٌّ فى تأويله مذهباً قد يباين مذهب الآخر ، تبعاً لتباين قرائحهم ومحصولاتهم ، كما قال المتنبى :

ولَـكِنْ تأخذُ الآذانُ منه عَلَى قَدْرِ القَرائحِ وَالْعُـلومِ

وإليك شيئاً يحور إليه سر هذا التباين الذى نرى بين الشراح فى تأويلاتهم لمثل شعر أبى الطيب . ذلك أن المتنبى كان رجلا ماكراً باقعة داهية ، فكان من دهائه يعمد إلى بعض المعانى التى سبق إليها فيحاول أن يبعد بها عن أصلها ويُعميها على الناظر فيها ويريغها ويديرها عن ذلك حتى لا يُفطَنَ إلى أن غيره أبو عُذْر هذا المعنى ، فيلجأ إلى التعمية والجمجمة والتعقيد والإبهام ؛ لأن تلك طريقته ـ كما سنبينه ـ فيجىء البيت متنافر اللحمة ملتاث التعبير ، لا يشف ظاهره عن باطنه ، ولا يتجاوب أوله وآخره ، حتى لكأنه ضرب من الرُّقَى ، فيظن بعض الشراح أن هناك معنى دقيقاً عميقاً فيكد ذهنه ، ويجهد فكره ، ويسافر فى طلب المعنى أميالا وهو لا يفوت أطراف بنانه ، وينضى إليه رواحل ذهنه وهو على حبل ذراعه ، فيعتسف ويشتط وينحرف عن جادة الصواب ، كما قال المتنبى :

أَبْلغ ما يُطلَبُ النَّجَاحُ بِهِ الـــطَبعُ وعِنْدَ التعمقِ الزَّلَلُ

وهناك شيئاً يرجع إليه ذلك التعقيد الذى نراه فى بعض شعر المتنبى . هو أن أبا الطيب له حساد كثيرون من أهل الفضل ومن فحولة الشعراء وأعيان البيان يتعثر بهم على أبواب سيف الدولة فى حلب ، وتقع عينه عليهم أنى ذهب — فى الشام وفى مصر وفى بغداد وفى فارس — وكانوا له بالمرصاد يتلمسون له الهفوة والمأخذ ، وكان كثير — ممن يمدحهم كذلك — شعراء أدباء — وناهيك بسيف الدولة وابن العميد — فكان لذلك كله — يحتشد لكثير من قصائده ويتعمل لها ، ويتنطس فى ألفاظه ومعانيه ، ويحتفل ، ويمعن فى الاحتفال إلى ما وراء طبعه ؛ فيجىء بعض نظمه كزًّا جافاً معقداً حُرم طُلاوة الطبع ورونقه ، وفَقَدَ نصف الجمال الشعرى .

وهنا لا نرى مندوحة من أن نعرض لشىء لم يفطن إليه أحد ، أو فطنوا إليه ولم يَصِفوه ، أو وصفوه ولكن لم يصفوه الوصف الذى هو به أليق ، ذلك أن المتنبى — للأسباب التى أسلفناها ، ولسبب آخر سنبينه — تراه فى أكثر شعره ينقصه التعبير الشعرى ، ويظهر لك ذلك إذا أنت وازنت بينه و بين إمامه فى الصنعة والاحتفال بالمعنى — وهو أبو تمام .

و إنى لأذكر كلمة لأحد نقدة العرب وهى : إنما حبيب أبو تمام كالقاضى العدل : يضع اللفظ موضعها ، ويعطى المعنى حقه ، بعد طول النظر ، والبحث عن البينة ، أو كالفقيه الورع : يتحرى فى كلامه ، ويتحرج خوفاً على دينه ، وأبو الطيب كالملك الجبار : يأخذ ما حوله قهراً وعَنوة ، كالشجاع الجرىء : يهجم ما يريده ، ولا يبالى ما لقى ولا حيث وقع اهـ .

فأنت — إذا نظرت إلى أبى تمام تجد الفحولة والجزالة والقوة ، وترى المعانى الدقاق وترى الصنعة — من الجناس والمطابقة وما إليهما — وترى — مع ذلك كله —

التعبير الشعرى : أى ترى النصاعة والإشراق ، ووضوح المعالم ، واطراد النظام ، وتساوق الأغراض ، وإحكام الأداء ، والروعة ، والجمال ، والروح القوى الذى يطالعك من بين فِقَرِه ، ومن هنا يفضل أبو تمام : أبا الطيب .

قال ابن الأثير : وهؤلاء الثلاثة ـ أبو تمام ، والبحترى ، والمتنبى ـ هم لات الشعر ، وعُزّاه ، ومَنَاتُهُ ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء ؛ وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء .

أما أبو تمام : فإنه رب معان ، وصيقل الباب وأذهان ، وقد شُهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الإغراب ، الذى برّز فيه على الأضراب ، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير ، فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه ، أطاعته أَعِنَّةُ الكلام ، وكان قوله فى البلاغة ما قالت حذام ، فخذ مِنِّى فى ذلك قول حكيم ، وتعلَّمْ ، ففوق كل ذى علم عليم .

وأما أبوعبادة البحترى : فإنه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنَّى ، ولقد حاز طرَفَىِ الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينا يكون فى شظف نجد إذ تشبث بريف العراق ، وسئل أبو الطيب المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن نفسه فقال : أنا وأبو تمام حكيمان ، والشاعر البحترى . ولعمرى إنه أنصف فى حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاط الغالية ، ورق فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

وأما أبو الطيب المتنبى : فإنه أراد أن يسلك مسلك أبى تمام فقصرت عنه

خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظى فى شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع فى وصف مواقف القتال ، وأنا أقول قولا لست فيه متأثماً ، ولا منه متلثماً : وذاك أنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا ، فطريقه فى ذلك تضل بسالكه وتقوم بعذر تاركه ، ولاشك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ، ما أدى إليه عِيانه ، وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ومهما وُصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء ، ولقد صدق فى قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تَطْلُبَنَّ كَرِيماً بَعْدَ رُؤْيَتِهِ ... إنّ الكِرَامَ بأسْخَاهُمْ يَداً خَتَمُوا
وَلا تُبَالِ بِشِعْرٍ بَعْدَ شَاعِرِهِ ... قد أُفْسِدَ القَوْلُ حتى أُحْمِدَ الصَّمَمُ

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التى ما ضل صاحبها وما غوى ، وجدته أقساماً خمسة : خمس فى الغاية التى انفرد بها دون غيره ، وخمس من جيد الشعر الذى يساويه فيه غيره وخمس من متوسط الشعر ، وخمس دون ذلك ، وخمس فى الغاية المتقهقرة التى لا يُعبأ بها ، وعدمها خير من وجودها ، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها ؛ فإنها هى التى ألبسته لباس الملام ، وجعلت عِرضَهُ غرضاً لسهام الأقوام » اهـ كلام ابن الأثير .

وقد آن لنا أن نقول : إن هذا الذى يعاب على أبى الطيب ويُظن أنه يَتَخَوَّنه ويَشِينُهُ : هو على الحقيقة سر من أسرار شاعريته لأن مرجعه التوليد الذى لا يؤتاه إلا الشاعر المطلق .. فالكلام إنما هو من الكلام وإنما يستحق الشاعر هذا اللقب بالتوليد ، و بطريقته فى التوليد تقوم طريقته فى الشعر ؛ فمن ثَمَّ يختلف الشعراء ويمتاز واحد من واحد وتَبينُ طَرِيقة منْ طريقة وإن تواردوا جميعاً على معنى واحد يأخذه الآخر منهم عن الأول .

ولقد يأتى مائة شاعر بالمعنى الذى لايختلف فى الطبيعة ولا فى السياق ولا فى الفهم ،

فيديرونه فى مائة بيت تكون فى مائة ديوان ، ومع ذلك ترى أحوالهم فيه متباينة ، وصناعتهم فى أخذه مختلفة ، وتراهم قد تناولوه بوجوه كثيرة تُحقق فيه عمل أمزجتهم، وتلقى عليه اختلاف أزمانهم ، وتجرى به فى طرق حوادثهم ، كأنه مع كل منهم قد ولد ونشأ[(١)] فهو مع هذا قوى ، ومع الآخر جبار ، ومع الثالث ضعيف ، ومع رابع متهالك ؛ وتارة بدين ، وأخرى هزيل ، وثالثة بينهما ، وهكذا . ولولا ذلك لم يكن الكلام إلا تكراراً ؛ و بطل فيه عمل العقل ، وأصبح رثًا باليا ؛ وذهب مع الذاهبين الأولين ، ولم يبق فيه لشاعر إلا إقامة الوزن ، ولو كان هذا لنسخ لقب الشاعر من الأرض ، ولم تعد للبيان صناعة ، ولا بقيت فى القرائح مادة إلٰهية من الإلهام .

وشأن المتنبى كالشأن فى نوابغ الدنيا : فالشاعر النابغة لا يمهر بإرادته ، ولا ينبغ بأن يخلق فى نفســه مادة ليست فيها ، و إنما هو يولد مُهَيَّئاً بقوى لا تكون إلا فيه وفى أمثاله ، وهو زائد بها على غيره ممن لم يرزق النبوغ ــ كما يزيد الجوهر على الحجر أو الفولاذ على الحديد ، أو الذهب على النحاس ــ ثم تتفاوت هذه القوى فى النوابغ ؛ فتتنوع وتتباين ، وتعمل فيها أحوالهم وأزمانهم وحوادثهم ، ومن ثم يجتمع لـكل منهم شخصية ؛ ويستقل منها بطريقة ومذهب ؛ فإذا تناول معنًى من المعانى تناوله على طريقته : فإما حذف منه ، و إما زاد فيه ، و إما غيَّره وقلبَهُ ، و إما صبَّ على حذوه معنى جديداً يلم به أو يشبهه ، أو لا يكون فيه إلا أنه جاء على طريقه حسب . فـكثيراً ما يقرأ النابغة كلاماً لغيره ، أو يتأمل خاطراً ، أو يشهد أمراً ؛ فإذا كل ذلك قد أوحى إليه وانعكس على مرآة ذهنه بمعان مبتكرة طريفة لا تشبه ما كان

---

(١) ومن هنا لاينبغى لك أن تظن حين ترى فى شرحنا هذا مثل قولنا ــ بعد شرح بعض الأبيات ــ : إن هذا المعنى مأخوذ من قول فلان أو منقول منه أو ينظر إليه : أنا نقصد بذلك إلى أن أبا الطيب سرقه كما يسرق ضعاف الشعراء ، وإنما هو التوليد الذى هو من خصائص النوابغ ؛ وإنما ذكرنا هذه الأشباه والنظائر : هو أترى كيف يكون التوليد . وانختار مايحلو . .

بسبيله وجها من الشبه – لا قريباً ولا بعيداً – وليس فيها إلا أنها جاءت من ذلك الطريق ، وهو بعدُ لم يتعمل لها ولم يتكلف ولم يصنع شيئاً ، وإنما هو تلقى من ذهنه وتلقى ذهنه من قوة لا يدرى ما هى ولا أين هى ؟

وكما يُختار النبى يُختار النابغة – وليس كل الناس أنبياء ، ولا كلهم نوابغ – ولا يصنع النبى أكثر من أن يتلقى عن الوحى ، وكذلك يتلقى النابغة عن البصيرة وهى تكون فيه هو وحده بمقام المَلَك من الملائكة أو الشيطان من الشياطين ، على حين تكون فى سواه بمقام الإنسان من الناس ، فالرجل الذكى أشبه بإنسانين : أحدهما هو ، والآخر بصيرته ، وهو بذلك أقوى من غيره ، ولكن النابغة – و بصيرته أشبه بإنسان وملك ، أو إنسان وشيطان – فهو دائماً أقوى من القوة ، وهو دائماً متصل بشىء فوق الإنسانية .

وإذا تقرر هذا : فليس للنابغة اختيار فيما يأتى به ، وليس عليه إلا أن يأخذ ما يؤتاه كما يتهيأ له على طريقته ؛ ومن هنا ترى المتنبى يأتى أحياناً بالتعقيد المستكره واللفظ المتكلف ، وتراه يتعسف ويتخبط ويُسِفّ ، ومع ذلك لا ينفى مثل هذا من شعره ولا يحذفه ، وهو قادر على أن يَغْنَى عنه وليس فى حاجة إليه ، ولكنه بعض طريقته التى انطبع عليها ، فلا يستطيع حين يجيئه الردىء أن يجعله جيداً ، وليس إلا أن يأخذه كما هو ، لأنه هو الذى انبثق له عن الجيد ، كما تضرم النار من مادة ، فإذا هى شُعَل ودخَان ، ثم تضرمها من مادة أخرى فإذا هى لهب صاف يتألق ؛ ولو أنك أردتها من المادة الأولى كما تجىء من الثانية لأطفأتها وذهب دخانها ونارها معاً .

وهذا سر لم يتنبه إليه أحد ممن كتبوا عن المتنبى ، فاشْدُدْ يدك عليه ، وادرس المتنبى على هذه الطريقة ، فستجده نابغة فى جيده ورديئه ، وستجده لا يستطيع غير

المستطاع ، وستجد طريقته كأنما فرضت عليه فرضاً ، لأنه كذلك أُلهم ، وعلى ذلك ركب طبعه ، وكان ظلامه ظلاماً لتسطع فيه النجوم .

***

أما الإفاضة فى ترجمة المتنبي ونشأته وأخلاقه وما إلى ذلك ، فلا يأتى فيها أحد بجديد . . . وقد أصبح المتنبي — دون غيره من شعراء العربية — كأنه فى غير حاجة إلى الترجمة ، إذ هو كالقطعة من تاريخ الأدب ، فالكلام عنه متداول مشهور ، وهذا بعض ما اختص به ؛ فقد تحتاج مع شعر كل شاعر إلى ترجمته ، ولكنك لا تحتاج من أبى الطيب إلا إلى شعره ، وترى شعره ترجمة روحه ، ولذلك اجتزأنا فى هذه الكلمة ببيان سره الشعرىّ ، ثم أنت — بعد ذلك — فى حقيقة الرجل : أى شعره وشرح شعره الذى نقدمه إليك . . .

***

و بعد ؛ فأما هذا الشرح فلا يلقينّ فى رُوعك أنه بدْع فى الشروح ، وأنه شىء مبتكر جديد ، وهل غادر الشُّرّاحُ مِنْ متَرَدَّمِ ؟ و إنما كل مزية هذا الشرح أنه تلاقت فيه كل الشروح بعد شىء من التهذيب والتنقيح والتحوير ، أو بعد أن خلصت من عَكَرِها خلاص الخمر من نسجِ الفِدَام — كما يقول أبو الطيب — و بذلك توافر فيه مالم يتوافر لأىّ شرح من شروح المتنبي على حدته ، فليس يغنى عنه شرح ، ولكنه هو — بحمد الله — يغنى عن سائر الشروح ؛ فهو كما يقول أبو الطيب :

يُدِلُّ بِمَعْنًى وَاحِدٍ كلُّ فاخر وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمٰنُ فِيهِ المَعَانيا

١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٤٩ هـ

٥ أكتوبر سنة ١٩٣٠ م

عبد الرحمن البرقوقى

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله.

«أما بعد» فلما أمضيتُ النية – سنة ١٣٤٩ هـ – سنة ١٩٣٠ م – على أن أضعَ شرْحاً على ديوان أبي الطيب المتنبي، وأخذتُ في معالجة هذا العمل – وكان الناشرُ إذ ذاك يحْفِزُني حفزاً، ولا يكاد يُبلعني ريقي، وكان يتناول مني «أصول» هذا الشرح دِرَاكاً «أولاً بأول» ويقدمه إلى المطبعة نيئاً لم تنضجه نار التثبت والرّوية، وأخيراً تمثل بالطبع ولم يمض على وضعه وطبعه أكثر من عشرة أشهر – لمّا حدث هذا طفقتُ أقلّبُ النظر في هذا الكتاب وأُعيدُ الكرّة، الخطْرَة بعدَ الخطْرَة، وكلما أنعمت النظر في الشرح بدا لي ما يَسُوء ويُكمِد، ويَحزّ في الكبد، من أخطاء مطبعية، وتقصير في شرح بعض الأبيات، وهَنَيات من هذا القبيل، شأن كل عمل لم يُتريّث فيه، ولم يُوفَّ حقَّه من الأناة والتحقيق.... فلم يك مني إلاّ أن صححت النسخة التي بين يديّ، وتناولتها بالتنقيح والتهذيب، والحذف والزيادة، وتداركت جميع المآخذ، حتى إذا قدر لهذا الشرح أن يعاد طبعه، طبع على هذه النسخة..

وما زلت على هذه الحال مستعصما بالصبر حتى نفِدَت نسخ هذه «الطبعة»، ولم يك بُدٌّ من إعادة طبع هذا الديوان، فكانت فرصة جميلة مؤاتية أحيَتْ ميّتَ الأمل، وحفزتني إلى استئناف العمل، فكان أن وجَّهْتُ عَزيمتي إلى التوسع في هذا الشرح وجعله شرحاً وافياً من كل نواحيه، شرحا أورد فيه جميع تفاسير الشراح، وأقوال النقاد، وأستوعب مزايا كل الشروح؛ وليس ذلك أثَرَةً مني

واستبدادا بالمتنبي . . ولكنه حب الكمال ، وما يسمونه المثل الأعلى . . . فلقد رأيت بعض الشراح قد اختصر الطريق ، واكتفى بتفسير الكلمات اللغوية ، وبعضهم قد جعل وَكْدَه الإعراب وما يتعلق بالأبيات من جهة النحو والتصريف، وآخرين قصروا عنايتهم على إيراد السرقات والأشباه والنظائر . بَيْدَ أن هذه الأشباه – ومثلها الشواهد النحوية التي أوردها العُكْبَرِي ، ومن قبله الإمامان : أبو الفتح بن جني ، والواحدي تحتاج – هي الأخرى – إلى الشرح والتفسير . . . ورأيت في بعض عبارات القدامى من الشراح غموضاً يجمل أن يوضح أو يستبدل به غيره ، مما يوائم أذهان هذا الجيل . . فكانَ كلُّ أولئك مما حفزني إلى الاحتفال والاحتشاد لهذا الشرح . . فكانَ أن أورَدتُ فيه جميع تفاسير الشراح – من متقدمين ومتأخرين – وأقوال نَقَدَة المتنبي – من متعصبين له ومتعصبين عليه – وأكثرت من إيراد الشواهد ، والأشباه والنظائر ، وشرحت ما غمض من هذه الشواهد والأشباه . ومن عبارات الشراح ، فضلا عن تصحيح الأخطاء التي ألمت بالشرح الأول ، حتى أرْبَى هذا الشرح على الشروح كلها مجتمعة ، وحتى صار هذا الشرح شرحاً للمتنبي ، وشرحاً لشروح المتنبي . . .

على أنني لا أدّعي أن الكمال الذي نَشَدْتُ قد تحقق ، وحَسْبي أني لم آل جهداً ، ولم أدخر وسعا ، وإن كان جُهدَ المُقِلّ ، وغاية المستطيع ؛ ورحم الله العماد الأصفهاني حين يقول : إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زِيدَ لكان يستحسن . ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل . . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر .

« وأما بعد » فلمناسبة هذا الشرح الجديد ، والاحتشاد فيه ، والعمل على جعله مغنياً عما عداه : رأيت أن أتبسط شيئاً في سيرة المتنبي – ولا سيما ما كان منها عوناً على معرفة المناسبات والظروف التي قيلت فيها قوافيه – وكذلك رأيت أن أترجم

شراح المتنبي ممن ورد ذكرهم في هذا الشرح ، وإتماماً للفائدة جمعت أمثال المتنبي وَحِكَمَهُ وألحقتها بهذه الكلمة .

وإنما نترامى بهذا كله إلى أن يكون هذا الكتاب ـ ديوان المتنبي وشرحه ومقدماته ـ كفيلا بتحقيق كل ما يصبو إليه دارس شعر المتنبي .

وإني أسأله ـ سبحانه ـ أن يهبه من السلامة ما يحقق له رضا المنصفين ، ويُضْفِي عليه من القبول ما يَعُمُّ به انتفاع المتأدبين ، إنه سبحانه بذلك كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

عبد الرحمن البرقوقي

١٣٥٧ هـ — سنة ١٩٣٨ م

سيرة المتنبي *

نسبه :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفى الكندى الكوفى ، أو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفى . . الخ ، كما روى الخطيب وابن خلكان ، وروى بعض المؤرخين : أحمد بن محمد . . الخ .

وجُعفى جد المتنبي : هو جعفى بن سعد العشيرة من مَذْحِج من كهلان من قحطان ، وكندة التى ينسب إليها ، محلة بالكوفة ، وليست كندة القبيلة كما ظن بعضهم خطأ .

وكان والد المتنبي يعرف بعبدان السقاء ، يسقى الماء لأهل المحلة ، أما جدته لأمه فهى هَمْدانية صحيحة النسب ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات وكان جيرانهم بالكوفة من أشراف العلويين ، وكان لأبى الطيب منهم خلصاء وأصدقاء .

ولم يذكر المتنبي فى شعره نسبه أو قبيلته ، ولا أشار إلى والده أو جده ، وإنما ذكر جدته لأمه ، وكان يدعوها والدته ، فى أشعار منها :

أُمُنْسِيّ السكُون وحَضْرَمَوْتا   ووالدتى وكندة والسبيعا

وقد روى الخطيب عن على بن المحسّن عن أبيه قال : « وسألت المتنبي عن نسبه فما اعترف لى به وقال : أنا رجل أخبط القبائل وأطوى البوادى وحدى ، ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذنى بعض العرب بطائلة بينه وبين

(*) قام بتلخيص هذا الفصل : هلال شتا ؛ وعمدته فى هذا التلخيص : كتاب « ذكرى المتنبي » للدكتور عبد الوهاب عزام .

القبيلة التى أنتسب إليها . وما دمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لسانى » .

على أن المتنبى قد دافع عن نسبه هذا ، فى القصيدة التى مطلعها :

لا تحسبوا رَبعكم ولا طَلَلَه أوَّلَ حَيٍّ فِراقُكم قتله

وإن يكن لم يذكره ، وإنما أشاد بآباء له عظام ، فى قصيدته هذه ، وفى مواضع أخرى من شعره ، دون أن يذكر رحله أو عشيرته أو قبيلته .

ولم يكن المتنبى يُعنَى بأن يعرف عنه إلا أنه المتنبى ، لا يفخر بقبيلة ، إنما تفخر به القبيلة التى هو منها ، قال فى إحدى قصائد الصبا :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى وبنفسى فخرت لا بجدودى

وقال فى رثاء جدته لأمه :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما

ويقول بعض مؤرخى الأدب العربى : إن بعض شعر المتنبى قد يدل على عصبية يمانية ، فأكثر ممدوحيه فى أيامه الأولى من قبائل يمانية ، مدح شجاع ابن محمد الأزدى ، وعلى بن أحمد الطائى ، وغيرهم ، ومدح التنوخيين فى اللاذقية . وقال للحسين بن إسحق التنوخى يمدحه ـ بعد أن هجاه بعض الناس ونسب الهجاء إلى المتنبى ـ :

أبت لك ذمّى نخوةٌ يمنية ونفس بها فى مأزقٍ أبداً تَرمى

على أن ذلك الذى يكتم نسبه عن الناس فينسى الناس ذلك النسب ، والذى يختلف المؤرخون فى تسمية آبائه ، ليس ذا نسب نابه على كل حال ، ثم إن خلط كندة التى ولد بها المتنبى ، بكندة القبيلة ، شىء يحقق خمول نسب شاعرنا الكبير وتفاهته ، وهو ـ على الرغم من كل أولئك ـ عربى قح ، عريق فى عروبته ، فلا يعيبه أن كان من بيت فقير .

أسرته :

ولقد اتفقت روايات المؤرخين على أن أبا المتنبي كان سَقَّاء ، وقد هجاه ابن لنكك البصرى لما سمع بقدومه بغداد راجعاً من مصر فقال :

لكن بغداد جاء الغيث ساكنها   نعالهم فى قفا السقاء تزدحم

وقال شاعر آخر :

أى فضل لشاعر يطلب الفضـــل من الناس بكرة وعشيا
عاش حينا يبيع فى الكوفة الما   ء وحينا يبيع ماء المحيا

وروى أن والد المتنبى سافر به إلى الشام ، وتنقل به بين حضرها وباديتها ومدرها ووبرها ، وردده فى القبائل .

على أن الثابت الذى ينطق بأن والد المتنبى لم يكن رجلا نابه الشأن ـ كما يرجح الرواة ـ أنه مات فما رثاه ولده بكلمة واحدة .

أما والدة المتنبى ، فلم يذكر الرواة عنها شيئاً ، ويرجح أنها ماتت فى حداثته قبل سفره إلى الشام ، وأما جدته لأمه فقد تقدم ذكرها ، وهى التى تفردت من بين أسرته جميعاً برثائه لها واحترامه الفخم . قال إبّان اعتقاله :

بيدى أيها الأمير الأريب   لا لشىء إلا لأنى غريب
وَلأُمّ لها إذا ذكرتنى   دم قلب فى دمع عين يذوب

وتلك هى جدته التى أخبرنا فى شعره ـ كما أخبرنا الرواة ـ أنها ماتت فرحاً بكتاب جاءها منه بعد غيبة طويلة موئسة . وإنك لواجد أثرها البليغ فى حياته وسيرته ولامس ثورة نفسه وحزنه عليها فى قصيدته التى مطلعها :

ألا لا أرِى الأحداث مدحاً ولاذما   فما بَطْشُها جهلا ولا كفُّها حِلما

وأجمع رواة أخبار المتنبي على أن مولده كان فى محلة كندة ، إحدى محلات الكوفة ، سنة ثلاث وثلثمائة من الهجرة ، وهذا هو كل ما نعرفه من أخبار نشأته الأولى اللهم إلا النزر الذى لا ينقع غلة ، جاء فى الإيضاح أنه « اختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف العلويين ، فكان يتعلم دروس العربية شعراً ولغة وإعرابا » وكان – إلى جانب ذلك – يختلف إلى الوراقين ليفيد من كتبهم ، وقد تميز منذ الطفولة بالذكاء وقوة الحفظ ، واشتهر بحبه للعلم والأدب ، وقد لزم الأدباء والعلماء وأكثر ملازمة الوراقين فكان علمه من دفاترهم .

ومما يستطرف هنا ما ذكره بعض الرواة عن قوة الحفظ فى المتنبي ، وهى أن أحد الورّاقين أخبره أن أبا الطيب كان عنده يوماً ، فجاءه رجل بكتاب نحو من ثلاثين ورقة ليبيعه ، فأخذ أبو الطيب الكتاب وأقبل يراجع صفحاته ، فلما ملّ صاحب الكتاب ذلك استعجله قائلا : ياهذا لقد عطلتنى عن بيعه ، فإن كنت تبغى حفظه فى هذه الفترة القصيرة ، فذلك بعيد عليك . قال المتنبي : فإن كنت حفظته فمالى عليك ؟ قال الرجل : أعطيكه . قال الورّاق : فأمسكت الكتاب أراجع صفحاته والغلام يتلو ما به حتى انتهى إلى آخره ، ثم استلبه فجعله فى كمه ومضى لشأنه .

وروى أن المتنبي صحب الأعراب فى البادية فعاد إلى الكوفة عربياً صرفا ، أما مدة إقامته فيها فهى أكثر من سنتين ، قال العلوى : إنه أقام فى البادية سنين ، وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية أنه أقام فيها سنتين . ويُرَجّح أن مغادرة المتنبي إلى البادية كانت سنة اثنتى عشرة وثلثمائة ، حينما أغار القرامطة على الكوفة ، ويرجح كذلك أنه غادر الكوفة مرة أخرى سنة خمس عشرة وثلثمائة عند ما عاود القرامطة الغارة وهزموا جيش الخلافة ، وقد كان لذلك أثر بَيِّنٌ فى نفس المتنبي فاض فى بعض أحاديثه وأشعاره .

وقدرحل المتنبي بعد ذلك إلى بغداد . جاء فى «الصبح المنبى» : أن أبا الطيب قال: « وردت فى صباى من الكوفة إلى بغداد » وإنه وإن لم يذكر المؤرخون موعد ذهابه إلى بغداد ، فمن الراجح أنه ذهب إليها سنة تسع عشرة وثلثمائة فقد جاء فى النجوم الزاهرة فى حوادث تلك السنة : أن القرامطة أغاروا على الكوفة فرحل أهلها إلى بغداد . فليس بعيداً أن تكون هجرة المتنبي إلى بغداد مع الراحلين إليها من أهل الكوفة ، ومن المحتمل أيضاً أن يكون المتنبي قد ذهب إلى بغداد قبل ذلك مرة أو مرات .

ويبين — بعد ذلك — من سيرة المتنبي ، ومن روايات المؤرخين ، أن ثقافة الشاعر العربى لم تكن جماع ما تلقاه فى كُتّاب الكوفة ، وما أفاده من مصاحبة الأعراب فى البادية ، وما تعلمه فى بغداد فحسب ، بل لقد زاد على ذلك أنه هاجر إلى العلماء وصاحبهم ، فدرس على السكرى ونفطويه وابن دستويه،ولقى كذلك أبا بكر محمد بن دريد فقرأ عليه ولزمه ، ولقى بعده من أصحابه أبا القاسم عمر بن سيف البغدادى ، وأبا عمران موسى ، وأنه «طلب الأدب وعلم العربية ، ونظر فى أيام الناس وتعاطى قول الشعر من حداثته حتى بلغ الغاية التى فاق فيها أهل عصره ، وطاول شعراء وقته » .

رحلته إلى الشام :

وكانت رحلة أبى الطيب إلى الشام سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ، كما يقول المعرى فى رسالة الغفران ؛ وفى دائرة المعارف الإسلامية : أنه رحل إلى بغداد سنة ست عشرة وثلثمائة ، ثم رحل بعد ذلك إلى الشام ، ويقول بعض شراح الديوان: إن القصيدة التى مطلعها :

ذِكَرُ الصبا ومَرَاتع الآرام   جَلبت حِمامِى قبل يوم حِمامى

نظمها الشاعر فى رأس عين ، وأرجأ قولها إلى أن لقى سيف الدولة

بأنطاكية ، ولا ريب أن مرور الشاعر برأس عين كان فى إبان ذهابه إلى الشام ، وقد كان ذلك سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ؛ فإن صح هذا ، يكون المتنبى قد رحل إلى الشام وسنه ثمانى عشرة سنة .

وقد وضع الواحدى فى شرحه القصيدة التى أولها :

أحيا وأيسر ما قاسيتُ ما قتلا والبين جارَ على ضعفٍ وما عدلا

فى القصائد الشامية ، أى أنها وما بعدها إلى الكافوريات ، قيلت فى الشام ، أما ما قبلها ، فقيل فى العراق ، وليس ما قبلها بكثير .

ولم يبد شاعرنا الكبير حناناً إلى وطنه العراق ، الذى سلخ فيه ثمانى عشر سنة من عمره ، وإنما ذكره فى بعض قصائده ، وذكر أن وطن الإنسان هو الأرض التى حلَّ فيها فلقى خيراً وصحاباً ، ويبدو أن وطنه ذلك قد نَبا به ، وضاق بآماله وأحلامه وطموحه .

ولم تكن رحلة المتنبى إلى الشام ومكثه به وقوله الشعر ، إلا فى طلب المجد والسؤدد ورفعة الشأن ، ولا ندرى أسافر إليها وحده ، أم سافر فى صحبة والده ؟ .

وجدير بنا ، قبل أن نمضى فى ترجمة شاعرنا إبان إقامته فى الشام – أن نلمع إلى الحالة السياسية بها فى هذه الفترة ، لما لها من أثر كبير فى حياة الشاعر وسيرته .

فلقد كانت الشام – على عهد المتنبى – مقسمة بين الأخشيد وابن رائق ، ثم بين الأخشيد وسيف الدولة . وقد استمرت المنازعات عليها منذ سنة ست عشرة وثلثمائة فى خلافة المقتدر بالله العباسى . وقد ولى محمد بن طغج على الرملة ، ثم أضاف إليه دمشق سنة ثمانى عشرة وثلثمائة ، وكانت حلب فى أيدى ولاة يرسلون من بغداد ، ثم ولى محمد بن طغج مصر أيضاً ثم عزل عنها ، وفى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة فى عهد الراضى بالله العباسى عظم أمر ابن طغج ، فأعيدت ولايته على مصر ،

وامتد سلطانه على الشام كلها ، وخلع طاعة الخليفة ؛ فأرسل إليه ابن رائق ، فاستولى على الشام وولى ابن يزداد حلب ، ثم دمشق ، وكان الأخشيد قد استقر على الرملة، فسير جيشاً يقوده كافور إلى الشام ، فهزم ابن يزداد واستولى على حلب ، ثم استقر سلطان الأخشيد على الشام كلها ، وفى سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة استولى سيف الدولة على حلب ، و بقى الأخشيديون فى دمشق .

وقد مدح أبو الطيب من رجال هذه الوقائع مساور بن محمد الرومى ، والحسين بن عبد الله بن طغج، وهو ابن أخى الأخشيد، وطاهر العلوى، قال فى مساور القصيدتين اللتين مطلعاهما :

جَللا كَمَا بى فَلْيَكُ التَّبريح أَغِذاءُ ذا الرشإ الأغَنِّ الشِّيحُ

(و)

أمساور أم قرن شمس هــذا أم ليث غاب يقدم الأستاذا

ويعنى الشاعر بلفظة «الأستاذ» : كافوراً .

وكانت طريق أبى الطيب إلى الشام هى طريق الجزيرة ، فمر برأس عين وانتهى إلى مَنْبِج ، حيث أقام يمدح جماعة من رؤساء العرب ، وأول قصائده الشامية فى الديوان يمدح بها سعيد بن عبدالله الكلابى المنبجى — وهى القصيدة التى أشرنا إليها من قبل — ثم مدح الشاعر جماعة أخرى فى مَنْبِج وطَرابلسَ وغيرهما من بلاد الشام الشمالية .

ولا نحب أن نمضى قُدُماً فى سيرة الشاعر ، دون أن نقف بحادثة ادعائه النبوة ، وهى الحادثة التى أثرت أكبر التأثير فى صوغ سيرته فى كتب الأدب ، لنعلم أحقاً كان ذلك أم كذباً ؟ فإن كان كذباً فلماذا لقب بالمتنبى ؟ .

***

لا جدال فى أن أبا الطيب سجن بالشام فى أيام شبابه ، فقد أجمع على ذلك

رواة سيرته جميعهم — كما أنبأ به فى شعره — أما سبب سجنه فذلك ما اختلف فيه الرواة بعضهم مع بعض ، وما اختلف فيه أبو الطيب ، مع رواة سيرته ، ويقول الخطيب البغدادى: إن أبا الطيب « لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادّعى أنه علوى حسنى ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ، ثم عاد يدعى أنه علوى ، إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب فى الدعويين ، وحبس دهراً طويلا ، وأشرف على القتل ، ثم استتيب وأشهد عليه بالتوبة وأطلق » ويقول أيضاً رواية عن خَلق يتحدثون: « إنه تنبأ فى بادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الأخشيدية ، فقاتله وأسره ، وشرد من اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب ، وحبسه فى السجن حبساً طويلا فاعتل وكاد أن يتلف ، حتى سئل فى أمره ؛ فاستتابه وكتب عليه وثيقة أشهد عليها فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام .

ويروى المعرى فى رسالة الغفران : أنه لما حصل فى بنى عدى ، وحاول أن يخرج فيهم ، قالوا له —وقد تبينوا دعواه— : ههنا ناقة صعبة ، فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل ، وأنه مضى إلى تلك الناقة وهى رائحة فى الإبل فتحيل ، حتى وثب على ظهرها فنفرت ساعة ، وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ، ومشت مشى المسمحة ، وأنه ورد الحلة وهو راكب عليها ، فعجبوا له كل العجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم .

وروى كذلك : أنه كان فى ديوان اللاذقية ، وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام ، فجرحته جرحاً مفرطاً ، فتفل عليها أبو الطيب من ريقه وشد عليها ، وقال للمجروح : لا تحلها فى يومك ، وعدّ له أياماً وليالى ، فقبل الكاتب ذلك وبرئ الجرح ، فصاروا يعتقدون فيه النبوة ، ويقولون : إنه كمحيى الأموات .

وفى الصبح المنبى : أن أبا الطيب قدم اللاذقية بعد نيف وعشرين وثلثمائة

فأكرمه معاذ ثم قال له : والله إنك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير . فقال : ويحك ! أتدرى ما تقول ؟ أنا نبى مرسل ؛ ثم تلا عليه جملة من قرآنه ـ وهو مائة وأربع عشرة عبرة ـ ثم أراه معجزة ، فمنع المطر عن بقعة وقف فيها ، فأصاب المطر ما حولها ولم تصبها قطرة ، فبايعه معاذ ، وعمت بيعته كل مدينة فى الشام ، ثم إنه لما شاع ذكره ، وخرج بأرض سلمية من عمل حمص قبض عليه ابن على الهاشمى، وأمر النجار بأن يجعل فى رجليه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف ، وقد كتب أبو الطيب من حبسه إلى الوالى :

بيدى أيها الأمير الأريب . . . . الخ

تلك بعض الروايات التى ألصقت بأبى الطيب دعوى النبوة ، وهى روايات واضحة الكذب واهية الأسانيد ، فأما أولاها فدعوى النبوة فيها مقحمة إقحاماً تسبقها وتعقبها دعوى العلوية ، فكأنما صح فى ذهن جمهرة الرواة أنه تنبأ فجعلوا فى رواياتهم مصداق ما سمعوه وصح فى أذهانهم ، وأما الثانية فهى رواية عن خَلق يتحدثون ، وهذه مقطوع ببطلانها مقضىّ بكذبها ، فأحاديث الخلق دائماً مزوقة الجوانب موشاة الحواشى ، بالكذب القصصى الشيق ، وأما رواية المعرى فهى حديث خرافة أيضاً ، لا تقرر شيئاً ، إلا أنه قام بالمعجزات وأن الناس صدقوا به ، وذلك شىء بعيد الحدوث ، بل مستحيله أيضاً ؛ فلو أن المتنبى تنبأ فعلا فمن المقطوع به أن أحداً من الناس لم يؤمن بنبوته ، وأما رواية معاذ فناطقة بالكذب الصريح والتلفيق البين . لأن فيه قرآناً ومعجزات وتصديقاً بدعوته ، وحديثاً مفككاً يناقض أوله آخره.

والذى يسهل على التصديق ويدخل فى نطاق الواقع من أيسر سبيل أن أبا الطيب لقب بالمتنبى لبعض أبيات من شعره ، ولتعاليه وتعاظمه ، ففى الديوان قطعة جاء قبلها « وعذله أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقى على ما كان قد شاهد من تهوره فقال :

أيا عبد الإله معـــاذ إنى خفى عنك فى الهيجا مقامى

وليس فى هذه القطعة إلا المخاطرة ومصاولة الخطوب فى سبيل ما يطمح إليه من المجد والسؤدد ، وليس فيها ذكر لدعوى النبوة أو إشارة إلى خارق المعجزات التى حفلت بها الرواية السابقة .

ويقول الثعالبى : إنه بلغ من كبر نفسه وبعد همته أنه دعا قوماً من رائشى نبله ، على الحداثة فى سنه ، والغضاضة من عوده ؛ وحين كاد يتم أمر دعوته ، تأدّى خبره إلى والى البلدة ، ورفع إليه ما همّ به من الخروج ، فأمر بحبسه وتقييده .

وهذه رواية معقولة مقنعة مسايرة للمنطق والصدق . وقد روى الثعالبى بعد ذلك أنه « يحكى أنه تنبأ فى صباه ، وفتن شرذمة بقوة أدبه وحسن كلامه » وهو يقصد بذلك أن يشير إلى ما تجاذبه الناس من حديث التنبؤ ، وما لاكته الألسن من خرافة قصصية مشوقة .

وروى الخطيب عن التنوخى : « فأما أنا فسألته بالأهواز سنة ٣٥٤هـ عنـد اجتيازه بها إلى فارس فى حديث طويل جرى بيننا عن معنى المتنبى ، لأنى أردت أن أسمع منه هل تنبأ أم لا ؟ فأجابنى بجواب مغالط لى وهو أن قال : هـذا شىء كان فى الحداثة » .

ويقول ابن جنى فى شرحه : « وكان قوم قد وشوا به إلى السلطان فى صباه وتكذبوا عليه ، وقالوا له : قد انقاد له خلق كثير من العرب ، وقد عزم على أخذ بلدك ، حتى أوحشوه منه فاعتقله ، وضيق عليه ، فكتب إليه يمدحه » .

أما رأى ابن جنى فى تلقيبه بالمتنبى فهو قوله :

أنا فى أمـــة تداركها اللـــه غريب كصالح فى ثمود

وذلك رأى نميل إلى الأخذ به . فواضح من قصيدته فى الاعتقال ومطلعها :

أَيَا خَدَّدَ اللهُ وَرْدَ الخدُودِ   وقدَّ قُدُودَ الحِسانِ القُدُود

إن التهمة التى ألصقت بالمتنبى لم تكن ادعاءه النبوة ، وإنما كانت دعوى أخرى تكشف عنها العقيدة ، ويعترف بها الشاعر ولا يحاول إنكارها ، وهى اتهامه « بالعدوان على العالمين » أى بالخروج على السلطان .

ويصح كذلك أن يكون سبب تسميته بالمتنبى ذلك البيت :

ما مقامى بأرض نخلة إلا   كمقام المسيح بين اليهود

وليس أيسر من أن يسمع حاسدوه هذا الشعر فيلقبوه بالمتنبى ، وفى أيامنا هذه من أمثال ذلك كثير فى الصحف والمجلات ، فإذا أطلق عليه هذا اللقب وذاع وسرى فى الناس ، ثم مضت مدة رجع فيها الناس إلى الاستقصاء استطاع أصحاب الخيالات القصصية أن يخلقوا قصة طريفة يفسرون بها هذا اللقب ، ويسندون فيها إليه ادعاء النبوة .

***

ونعود إلى سيرة المتنبى فنقول :

كان سجنه سنة أربع وعشرين وثلثمائة ، أو فى السنة التى بعدها ، ويؤخذ ذلك من أنه قال فى قصيدته التى أرسلها من سجنه إلى الوالى يمدحه :

فَوَلَّى بِأشياعِهِ الخرشَنِيُّ   كشاء أحس زئير الأسود

والخرشنى هو : بدر الخرشنى والى حلب من قبل الخليفة العباسى ؛ وثابت فى كتب التاريخ أن الأخشيد استولى على حلب سنة أربع وعشرين وثلثمائة بعد أن تركها الخرشنى إلى بغداد ، فإن كان أبو الطيب يقصد بهذا البيت نزوح الخرشنى إلى بغداد ، قبل استيلاء الأخشيد على حلب ؛ فيكون سجنه فى هذه السنة أو فى التى تليها .

ولقد لبث أبو الطيب بالشام خمس عشرة سنة ، وهو دائم الترحال غير

مستقر على حال ، يقصد الممدوحين ، فيخيبون أمله ، فتثور نفسه ، وتتحكم كبرياؤه ، ثم يعود فيكبت النفس الأبية ، ويمسك كبرياءه بيده ، وتلجئه الحاجة الملحة إلى معاودة المدح . وقد مدح أثناء ذلك اثنين وثلاثين رجلا بأربع وأربعين قصيدة ، ومنهم التنوخيون باللاذقية ، وبدر بن عمار الأسدى نائب ابن رائق فى طبرية ، ومساور بن محمد الرومى وإلى حلب ؛ وقد لزم التنوخيين وابن عمار زمناً . وأكثر البلاد نصيباً من مدائحه : منبج ، وأنطاكية ، واللاذقية ، وطبرية ، ومدح كذلك فى طرابلس ، وطرسوس ، وجبل جرش ودمشق ، والرملة .

وقد نظم فى تلك المدة خمس قصائد لنفسه ، يعرب فيها عن مطامعه ويفخر ويثور . وهى القصائد التى أبانت عن آماله وأوضحت عن أحلام نفسه الكبيرة .

***

ولم يفِدْ أبو الطيب من مديحه إلا العطاء النزر ، على كثرة ما بالغ واحتفل . روى ياقوت فى معجم الأدباء : أن المتنبى لما مدح محمد بن زريق الطرسوسى بقصيدته :

هذِى بَرَزْتِ لنا فَهِجْتِ رَسِيسَا ثم انثنيتِ وما شَفَيتِ نَسِيسا

وصله عليها بعشرة دراهم . فقيل له : إن شعره حسن . فقال: ما أدرى أحسن هو أم قبيح ، ولكن أزيده لقولك هذا عشرة دراهم ، فكانت صلته عليها عشرين درهما . وروى الثعالبى : أن عليا بن منصور الحاجب أعطى أبا الطيب ديناراً حينما مدحه بقصيدته :

بأبى الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلاببا

فسميت القصيدة الدينارية ، وروى كذلك أن أبا الطيب مدح بدون العشرة

والخمسة من الدراهم ، ولكن الذى لا ريب فيه ، أن كبار الممدوحين أعطوه عطاء ضخماً ، يلائم شعره ومكانته .

* * *

ولقد كان المتنبى فى عهده هذا ، يبغى المجد والسؤدد ، ويلهج بالملك ، ويبنى صروح الآمال الجسام . قال فى صباه :

ومن يبغ ما أبغى من المجد والعلى تساوى المحايى عنده والمقاتل

وعند ما لامه معاذ اللاذقى على توعده قال :

أيا عبد الإله معاذ إنى خفى عنك فى الهيجا مقامى

وكثير جداً من شعره ينحو هذا المنحى ويسلك هذا السبيل . وكان يرى الوسيلة إلى الملك الكفاح والقتال ومصارعة الخطوب ، وقد جاء ذلك فى شعره فى غير موضع ، فإذا عاقته الأيام عن ذلك ، وتوانى عن إدراك أحلامه العريضة ، لام نفسه وأنّبها تأنيبا .

والذى يقرأ الديوان يدرك أن المتنبى كان يستعمل هذا الضرب من ذكر الآمال وطلب المجد والسؤدد ، فى أول قصائده التى يمدح بها كما كان الشعراء يستفتحون قصائدهم بالنسيب . وقد جرى على ذلك فى قصيدته التى مدح بها علىّ ابن إبراهيم التنوخى والتى مطلعها :

أحاد أم سداس فى أحاد لليلتنا المنوطة بالتناد

وكذلك فى قصيدته التى مدح بها المغيث بن على بن بشر العجلى ، والتى مطلعها :

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما تهب اللئام

وبلغ من ولع شاعرنا بهذا اللون من ألوان الكلام ، وقلة مبالاته بالناس أنه توعد بقتل الممدوحين أيضاً ، وذلك فى قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الله الخصيبى .

وفى شعر المتنبى : أنه حارب فى سبيل غايته، وعارك وقتل ، ولا ندرى متى حارب ومن قتل ، ولعل ذلك وهم وسوس به إليه شيطانه النافر الجامح :

ومن عجب أن ذلك الشاعر الطامح إلى الملك والسلطان ، الذى وسع صدره هذه الآمال الكبار ، كان فقيراً معسراً لم ينل من حياته عيشاً رغداً ، يقول فى إحدى قصائد صباه :

أين فضلى إذا قنعت من الدهـــر   بعيش معجل التنكيد
ضاق صدرى وطال فى طلب الرز   ق قيامى وقل عنه قعـــودى

ويقول بعض القصيدة الديناريه :

أظمتنى الدنيا فلما جئتها   مستسقياً مطرت علىّ مصائبا

ويقول الثعالبى : إن أبا الطيب كان يجشم نفسه أسفاراً أبعد من آماله ، لا يستقر ببلد ولا يسكن إلى أحد ، وكان من وفرة مالاقى فى سبيل غايته من مشقة ، وشح مالقى من مكافأة ، وطول ما عانى ونصب ، يكره الدنيا ومن فيها ، ويخالها بناسها حرباً عليه ، وليس يغيب عن الذهن ماقاله فى تحقير الناس ، من شعر ممعن فى الذم . قال :

أذم إلى هذا الزمان أهيله   فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد

إلى آخر الأبيات .

وليس يخفى أنه كان متعالياً على الناس ، شديد الاعتداد بنفسه ، والإيمان بحقه على أهـــل زمانه ، ونحسبه كان محقاً فى ذلك ، وإلا لما حفل الناس به إلى يومنا هذا ، ولما سعى إليه الممدوحون بدل أن يسعى إليهم . يقول فى إحـدى قصائد صباه :

إن أكن معجباً فعجب عجيب   لم يجد فوق نفســـه من مزيد

إلى آخر ماهو من هذا القبيل .

ولم يكن أبو الطيب يتغنى بالثورة والمجد عبثاً ، ولا كان عاجزاً يمنّى نفسه بالقول

دون الفعل ، وإنما كان يسعى لآماله سعى المشيح المجدّ ، فلقد هم بالثورة وترقب لها الفرص ، ثم سكت عن أشباه ذلك بعد أن بارح عتبة الصبا ، وأوغل فى سنى الرجولة الحكيمة ، فتركزت آماله فى عقله الباطن ، وراح يعمل على تحقيقها فى هدوء ويقين وثقة بالنجاح ، وقد استمر يُمَنِّى النفس ، ويبسط أمامها سبل الأمل الباسم الخلاب ، حتى قتل الزمان هذا الأمل فى رأسه وخياله . فآب صامتاً محتملا يشكو لنفسه مطل الزمان ، ولا يشكو لبنى الإنسان ، فهو يراهم دونه بكثير .

* * *

تلك كانت حالة الشاعر فى بلاد الشام ، منذ ألقى بها عصا التسيار ، حتى سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، بيد أنه على سوء حاله وإغراقه فى شكوى الزمان ، قد سار ذكره ونبه شأنه ، وبسط شعره سلطانه على الناطقين بالضاد ، حتى رغب فى مدائحه الأمراء والحاكمون ، فدعاه الحسن بن عبيد الله بن طغج إلى الرملة ليمدحه — وهو أخو الأخشيد كما قدمنا — ثم تيسر له سبيل الاتصال بأبى العشائر بن حمدان ، فمهد له الوصول إلى سيف الدولة على بن حمدان ، الذى هيأ له السعادة والمجد ، وأعانه على الدخول فى زمرة الخالدين ، وكان له على خطوب الأيام خير معين .

وكان لقاء الشاعر للحسن بن طغج فى شعبان سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، إذ أوسل إليه رسوله بركوبة يركبها ، فامتنع الشاعر عليه ، فأقسم ألا يبرحه ، فدخل أبو الطيب فكتب قصيدة وعاد ومدادها لم يجف ، ثم ركب مع الرسول ، فدخلا على ابن طغج فأنشده إياها وهى :

أنا لائمى إن كنتُ وقت اللوائم علمت بما بى بين تلك المعالم

وكان هذا أول شعر للمتنبى أجيز عليه إجازة كبيرة . جاء فى الإيضاح : « أن المتنبى حدّث بأنه أعطى من أجلها ألف دينار ، وقد أقام الشاعر مدة عند ابن طغج ، وفى الديوان غير هذه القصيدة : أرجوزة قصيرة ، وثلاث وعشرون قطعة قصيرة

أ كثرها بيتان ، وقد قيلت قطعتان منها بعد عشر سنين من هذا التاريخ ، حين مر الشاعر بالرملة قاصداً مصر وهما قوله :

ترك مدحيك كالهجاء لنفسى   وقليل لك المديح الكثير

و

ماذا الوداع وداع الوامق الكمد   هذا الوداع وداع الروح للجسد

***

ومدح أبو الطيب فى الرملة أيضاً أبا القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوى ، وفى شرح للمعرى وشروح أخرى : أن ابن طفج سأل الشاعر مدح أبى القاسم مرات عدة ، وألح عليه فى ذلك كثيراً فكان يمتنع ، ثم سأله الأمير قصيدة فى أبى القاسم بدل قصيدة كان يريدها لنفسه فرضى أبو الطيب ؛ ولما ذهب الشاعر إلى أبى القاسم ومعه حاشية ، وجده فى فريق من أشراف قومه يجلس على سريره ، وقد نزل لأبى الطيب عن سريره ولقيه بعيداً ، وأقبل عليه يحدثه ويؤنسه ويجلسه على سريره ، ثم يجلس هو بين يديه ، وقد كان ذلك بدعاً فى المديح حقاً ، فلم يسمع أحد قبل أبى الطيب أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه ، وهذه القصيدة هى :

أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب   وردوا رقادى فهو لحظ الحبائب

***

ويجمل بنا أن نشير هنا إلى أنه لما غُلِبَ العباسيون على أمرهم ، وأصبح الخلفاء فى أيدى القواد والأمراء ، نشأت فى قبائل العرب أربع دول : هى بنو حمدان بالموصل وحلب (٣١٧ — ٣٩٤ هـ) وبنو مرداس ، وبنو المسيب ، وبنو مريد ، وإنما يعنينا من هذه الدول دولة بنى حمدان التغلبيين ، التى أنجبت سيف الدولة الحمدانى ، وتنسب هذه العشيرة إلى حمدان أحد رؤساء بنى تغلب ، وهو ابن حمدون بن الحارث

ابن لقمان بن راشد ، يقول المتنبي :

وحمدان حمدون ، وحمدون حارث وحارث لقمان ، ولقمان راشد

وكان للحمدانيين نفوذ وسلطان إبان الخلافة العباسية منذ سنة ٢٦٠ ، وولى أمراؤهم ولايات كثيرة ، وكان على سيف الدولة الحمدانى يملك واسطاً وما حولها ، ثم أخذ لنفسه بسيفه مملكة من الأخشيديين فى شمال الشام ، واستولى على حلب وحمص سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة كما تقدم وكانت له وقائع مع الأخشيديين ، وقد استولى على دمشق والرملة بعد موت الأخشيد ، ثم غُلب عليهما ، فاصطلح مع الأخشيديين على أن تكون له حلب ولهم دمشق ، وتزوّج بنت الأخشيد ، واستمر له الملك ولذريته حتى أخذه الفاطميون .

وفى تاريخه : أنه صمد للروم يحاربهم عن العرب ، فكانت له معهم وقائع قبل أن يملك حلب ، فلما استقرّ له الملك وبسط يده على المدائن كان عليه أن يحمى ذمار ملكه ، وأن يناضل عن بنى دينه ولغته ، وأن يقيم عرشه على السيوف المسلطة والدماء المراقة ، وقد استطاع أن يقف وحده عشرين عاماً شوكة وخازة فى جسم الروم ، وسيفاً مشهراً يذود عن العروبة والإسلام. لم تمض منها سنة واحدة إلا كان له فيها حروب ونضال ، فقدر له النصر مرات عدّة ، وأوغل فى بلادهم سنة ٣٣٩ حتى قارب القسطنطينية وقدّر له كذلك أن يلقى الهزائم المرّة ، وكان شر هزائمه واقعة سنة ٣٥١ التى زحف فيها الروم على حلب ، فذبحوا فيها وقتلوا تقتيلا ، ونهبوا دار الأمير وخربوها .

على أن سيف الدولة – الذى أصيب بفالج فى يده ورجله سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة – لم يقعده ذلك عن حرب الروم ، فثأر منهم وانتصر عليهم فى السنة التالية .

وكان ذلك الأمير الأديب الشاعر شجاعاً فى انتصاره وهزيمته معاً ، ماضى

العزيمة ، عظيم البلاء ، وقد توفى فى حلب سنة ست وخمسين وثلثمائة ، ودفن فى ميافارقين .

وأضاف فتى الحرب والنضال إلى شجاعته وأدبه كرماً وسماحة بالغة ، فكان مقصد العلماء والأدباء والشعراء ، وقبلة آمالهم ومحط رحالهم ، فيروى أنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء مثل ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر وفحول الأدب والعلم .

وممن قصده من الشعراء ـ غير أبى الطيب ـ أبو فراس ، وأبو العباس النامى ، وعلى بن عبد الله الناشىء ، والسرى الرفّاء ، وكثيرون غيرهم ، وبلغت مدائحه عشرات الألوف من الأبيات ، اختار منها بعض الأدباء عشرة آلاف بيت وجمعوها فى كتاب ، وصحبه من الأدباء كثيرون أيضاً منهم ابن خالويه وأبو على الفارسى ، وأهداه أبو الفرج الأصفهانى كتاب الأغانى فأعطاه ألف دينار ، ولجأ إليه كذلك الفيلسوف الكبير أبو نصر الفارابى وعاش فى كنفه ، وكان سخاؤه يشمل من بَعُد عنه ، وله شعر يدل على أنه شاعر مطبوع ، ونقد يدل على سلامة الذوق والعلم بلغة الضاد.

***

وبارح شاعرنا الرملة سنة ٣٣٦ قاصداً أنطاكية ، ماراً ببعلبك ، وكان فيها علىّ ابن عسكر ، فخلع عليه ، وسأله أن يقيم عنده ، فمدحه بأربعة أبيات ورحل إلى أنطاكية فمدح فيها أبا العشائر بالقصيدة التى مطلعها :

أتراها لكثرة العشاق   تحسب الدمع خلقة فى المآقى

ثم مدحه بثلاث قطع أخرى ، وأنشأ فى أنطاكية كذلك أرجوزة أولها :

ما للمروج الخضر والحدائق   يشكو خلاها كثرة العوائق

وذلك عند ما شهد الثلج يكسو أديم الأرض ويغشى الربا والوهاد .

وأثناء إقامته فى أنطاكية ، أغار عليها بانس المؤنسى ـ قائد الأخشيديين ـ وفوجىء أبو العشائر فقاتل عن نفسه حتى بلغ حلب ، فقال المتنبى قصيدته :

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

ثم رجع أبو العشائر إلى أنطاكية ، وكان أبو الطيب عاد إلى الرملة ، فلما سمع بقدومه خرج يقصده ، فلما غدا بطرابلس أراده إسحاق بن كيغلغ على مدحه — وكان جاهلا — وكان بعض الناس قد أغروه به ، وقالوا : إنما يترك مدحك استصغاراً لك ، فلما راسله يستمدحه احتج أبو الطيب بيمين ألا يمدح أحداً إلى مدة ، فأخذ عليه الطرق حتى تنقضى المدّة ، فهجاه أبو الطيب بقصيدة أملاها على من يثق به ، ولما ذاب الثلج عن لبنان خرج إلى دمشق ، واتبعه ابن كيغلغ خيلا ورجلا فأعجزهم ، ثم ظهرت القصيدة ، وقد أقذع فيها المتنبى وأفحش إلى جانب ما أودعها من الحكمة الرائعة .

ولما بلغ الشاعر أنطاكية ، لقى أبا العشائر ومدحه بقصيدتين وثمانى قطع .

***

وأراد الله للشاعر الكبير أن يلتقى ممدوحه الكبير ، وأن يمتزج تاريخهما على مر العصور والأيام ، فقد كان أبو العشائر بن حمدان والياً على أنطاكية من قبل سيف الدولة ، فلما قدم الأمير أنطاكية سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، قدم أبو العشائر إليه أبا الطيب ، وأثنى عليه ، ولم يشأ أبو الطيب أن يمدح الأمير إلا بعد أن اشترط عليه ألا ينشده وهو واقف ، وألا يقبل الأرض بين يديه ، فقبل سيف الدولة شروطه ، وكانت مما تميز به المتنبى على الشعراء جميعاً ، ومما أوحت به إليه نفسه الطموح التى لا تقبل الهوان ، فقد تعوّد أن يتخذ من ممدوحيه أصدقاء له وصحاباً . وكان سيف الدولة سمح النفس كريم الخلق ، فمن الهين عليه أن يتخذ المتنبى صديقاً صدوقاً ، وأن يكون هو له نعم الصاحب أيضاً ، فهو الشاعر المجيد الذى يستطيع أن يشيد بمآثره ، ويخلد بطولته ، كما رأى المتنبى أن سيف الدولة هو الأمير العربى الذى يجدر

بدرره الغوالى وآياته الخالدات ، بل إنه لشاعر المجد الذى يبغى مصاحبته شاعر اللفظ والبيان ، قال المتنبى :

شاعر اللفظ خدنه شاعر المجـــد كلانا رب المعانى الدقاق

وقال :

لك الحمد فى الدر الذى لى لفظه فإنك معطيــــــه وإنى ناظم

وصحب أبو الطيب سيف الدولة ثمانى سنوات ، نظم فيها اثنى عشر وخمسمائة وألف بيت ، فى ثمانٍ وثلاثين قصيدة ، وإحدى وثلاثين قطعة : منها أربع عشرة قصيدة فى وصف وقائعه مع الروم ، وأربع فى وقائعه مع العرب ، وخمس عشرة فى المدح المجرد عن وصف الوقائع ، وخمس فى الرثاء ، ومن القطع اثنتان فى حوادث الروم ، والباقى فى مقاصد مختلفة ، يضاف إلى كل هذا قصيدة :

ذكر الصـــبا ومراتع الآرام جلبت حمامى قبل يوم حمامى

نظمها الشاعر سنة إحدى وعشرين وثلثمائة فى ثلاثة وثلاثين بيتاً ، وألحقها بمدائح سيف الدولة ، وقد اتفقت روايات المؤرخين على أنه قالهـا فى ذلك التـاريخ ، ولـكن الدكتور عبد الوهاب عزام لا يميل إلى تصـديق ذلك ، مرتكناً على أسباب وجيهة ، يراها القارىء فى كتابه عن المتنبى الذى اعتمدنا عليه فى تلخيص هذه السيرة .

وقد مدح الشاعر سيف الدولة غير ذلك بقصيدتين ، وعزاه عن أخته بأخرى ، وذلك بعد أن رجع إلى العراق .

وكان سيف الدولة يغدق على شاعره أيمـا إغداق ، ويكرمه ويبالغ فى العطف عليه وإكبار شأنه ، فـكان يعطيه كل عام ثلاثة آلاف دينار ، وكان يمنحه غير ذلك عطايا أخرى ومكافآت . قال المتنبى قطعته :

موقع الخيل من نداك طفيف ولو أن الجياد فيهـا ألوف

حين سأله الأمير عن فرس يرسله إليه ، وقال قطعته :

اخترت دهماءتين يا مطر ومن له فى الفضائل الخير

حين خيَّره فى فرسين ، إحداهما دهماء والأخرى كميت ، وقال قطعته :

فعلت بنا فعل السماء بأرضه خِلَعُ الأمير وحقّه لم نقضه

فى خلع أنفذها إليه ، وقال قطعته :

أيا رامياً يُصْمِى فؤاد مرامه تربّى عداه ريشها لسهامه

وهو خارج إلى أقطاع أقطعه إياه الأمير فى معرة النعمان ، وجاء فى الشروح ذكر لهدايا جمة منحها الأمير للشاعر بعد أن تصالحا إثر تنافرهما .

وينطق شعر المتنبى فى سيف الدولة ، بالغبطة والرضا ، ويفيض بالشكر الأوفر ، يقول :

أسير إلى إقطاعه فى ثيابه على طرفه من داره بحسامه

وقد سكن أبو الطيب إلى صحبة الأمير الكريم ، وطاب له زمانه ، فسكت عن حديث الثورة والقتل الذى غمر شعره الأول وفاض فى كل قصائده إلا قليلا ، وكان يصحبه فى أغلب حروبه ، فتمكن من وصفها وصف الشاهد كما بين فى الديوان .

ثم . . . ثم أراد الله مرة أخرى أن يفرق بين الرجلين ، وأن يتم ما خطه فى أم الكتاب . . . وذلك بعد ثمانى سنوات لبثها الشاعر فى كنف الأمير كانت أولى قصائد مدحه فيها :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وذلك سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، وكانت آخر قصيدة فى سنة خمس وأربعين وثلثمائة وهى :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك فى إقدامك القسم

وأما سبب فرقة الصديقين فهو حسد أكل قلوب شعراء سيف الدولة والمحيطين به غير أبى الطيب ، وهو كذلك ضيق الأمير ذرعا بالشاعر

المتعالى الذى لا يقول فيه القصيدة إلا بعد أن يطلبها و يستعجلها أشهرا طوالا .

أجل : فلقد كان حول سيف الدولة شعراء كُثْر ينشدون الخير والنعمة ، وكانت شمس المتنبي غالبة على شموسهم ؛ فلا غرو أن ينقموا عليه ويحسدوه ، سيا وهو المتكبر المتعالى ، الضارب فى ذرى الأنفة والكبرياء ، الفخور بشعره ، والمتفرد وحده برضى الأمير و إيثاره . وذلك الشاعر الذى يقول :

أنا السابق الهادى إلى ما أقوله   إذ القول قبل القائلين مقول

لا يستطيع أن يلقى من شاعر آخر حباً أو وفاء أو إخلاصا .

على أن من غير الشعراء كثيرين كانوا ينقمون عليه كذلك ويحسدون مكانته عند الأمير وعظمته بين الناس . قال المتنبي :

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم   فأنت الذى صيرتهم لى حسدا

ولا مراء فى أن أولئك الشعراء قد غلبهم حسد أبى الطيب فبيتوا له المكائد وناصبوه العداء ، يقول الشاعر العملاق :

وفى كل يوم تحت ضبنى شويعر   ضعيف يقاوينى قصير يطاول

و يقول غير ذلك كثيرا بين يديك فى صفحات الديوان .

هذ ، وكان سيف الدولة مغرما بشعر أبى الطيب ، يود أن يسمع كل يوم قصيدة له فى مدحه ، وكان الشاعر ينظم أربع قصائد فى كل سنة أو خمسا غير القطع ، فكان الأمير يغضب عليه . فنحن نرى فى الديوان قصيدة قيلت فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة ، وأخرى قيلت يوم الأضحى من تلك السنة ، و بين التاريخين زهاء خمسة أشهر ، نظم الشاعر فيها سبع قطع وقصائد قصيرة يعتذر فى اثنتين عن تأخير مدحه :

وجاء فى الصبح المنبى : أن أبا فراس قال للأمير : « إن هذا المتشدق كثير الإدلال عليك . وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، و يمكن أن تفدق مائتى دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره » .

وفى شرح ابن جنى : « وكان سيف الدولة إذا تأخر عن مدحه شق عليه ، وأكثر أذاه ، وأحضر من لاخير فيه ، وتقدم إليه بالتعرض له فى مجلسه بما لا يحب ، فلا يجيب أبو الطيب أحداً عن شىء ، فيزيد ذلك فى غيظ سيف الدولة . . الخ »

وقويت النفرة بين الرجلين ، فأنشد الشاعر قصيدته المشهورة :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمى وحالى عنده ألم

وقد اضطرب المجلس عند إنشاد هذه القصيدة ، وثارت حاشية الأمير مطالبة بدمه ، فرخص الأمير فى ذلك ، حتى كاد الشاعر يهلك . يقول الشاعر فى السامرى ـ وهو أحد كتاب الأمير ، وكان قد طالب بدمه ـ :

أسامرى ضحكة كل راء فطنت وكنت أغبى الأغبياء

إلى آخر الأبيات .

ولما خرج أبو الطيب بعد ذلك لقى عناء كبيراً من رجال سيف الدولة : وقد أشهر سيفه فيهم حتى اخترقهم ولم يصنعوا به شيئاً ، وأرسل أبو العشائر جماعة من غلمانه وقفت فى سبيل الشاعر ففرقهم بسيفه ولم يصبه منهم أذى وفى ذلك يقول :

ومنتسب عندى إلى من أحبه وللنبل حولى من يديه حفيف

ثم عاد أبو الطيب إلى المدينة مستخفيا فأقام عند بعض أصدقائه وراسل الأمير ، فأنكر الأمير أنه أمر له بسوء ، وكتب الشاعر الأبيات :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتبا

فداه الورى أمضى السيوف مضاربا

ثم دخل الشاعر دار الأمير بعد تسعة عشر يوما ودخل على الأمير فخلع عليه ورحب به وسأله عن حاله ، فقال : رأيت الموت عندك أحب من الحياة عند غيرك ؛ فقال : بل يطيل الله بقاءك ؛ ثم ركب الشاعر وأتبعه

الأمير هدايا فقال القصيدة :

أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل
دعا فلباه قبل الركب والإبل

* * *

على أن الشاعر كان يهدد بالفراق قبل ذلك ، فقد أشار إليه فى القصيدة :

دروع لملك الروم هذى الرسائل   يَرُدُّ بها عن نفسه ويشاغل

وتبرم فى قصيدته :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب
وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

وقد صرح الشاعر بكل ما فى نفسه بعد أن رحل إلى كافور ، وفى قصائده التى مدحه بها تعريض بسيف الدولة والحمدانيين ، يراه القارىء واضحا فى الديوان ؛ من ذلك قوله لكافور :

حببتك قلبى قبل حبك من نأى   وقد كان غداراً فكن أنت وافيا

على أنه لم يشأ أن يخفى ذلك عن سيف الدولة نفسه ، فقد صارحه به فى القصيدة التى أرسلها إليه من العراق إجابة لدعوته ، وذلك بعد أن مدحه بقصيدتين ، وهى :

فهمت الكتاب أبر الكتب   فسمعاً لأمر أمير العرب

من أجل ذلك فارق المتنبى سيف الدولة ، ولو أنه من المعقول أيضاً أن تكون آماله الواسعة فى السلطان هى التى حملته إلى مصر ، يبغى ما عز عليه فى رحاب بنى حمدان . ويقول ابن جنى : إن المتنبى قد اعترف بأن قصيدته :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم   ماذا يزيدك فى إقدامك القسم

كانت وداعاً . . . وياله من وداع .

* * *

ولم يكن سيف الدولة على علم بأن وجهة المتنبى بعد مبارحته إياه ستكون مصر ، فقد استأذنه الشاعر فى الرحيل إلى إقطاعه فأذن له ، وكان أبو الطيب يبيت فى نفسه أمراً : أن يبرح حدود مملكة سيف الدولة ، وأن ينشد بابا آخر غير بابه . جاء فى شرح المعرّى « فأجمع رأيه على الرحيل من حلب ، فلم يجد بلداً يأوى إليه أولى من دمشق ، لأن حمص من عمل سيف الدولة » وقال فى الصبح المنبى ما يقارب ذلك . وواضح من هذا أن المتنبى لم يرض أن يستأذن سيف الدولة فى الرحيل خوف ألا يأذن له ، ولا ريب أن سيف الدولة لم يكن ليأذن له . وقد يكون المتنبى أوجس خيفة من بطش الأمير ، فلا يبعد عليه ذلك وهو الذى عرض بغدره ـ بعد ـ فى إحدى الكافوريات وسار المتنبى من حلب إلى دمشق ، فانتقل من مملكة سيف الدولة الحمدانى إلى مملكة أبى المسك كافور الإخشيدى . وقد لبث الشاعر فى دمشق مدة ، ثم دعاه كافور إليه فسار إلى مصر ؛ ويذهب بعضهم إلى أن أبا الطيب لبث فى دمشق متلكئا لا يريد الذهاب إلى كافور ، فلما دعاه كافور إليه مرتين لم يستطع إلا الذهاب ، وهم بذلك يضعون مقدمة للهجاء المرّ الذى هجا به الشاعر كافوراً بعد أن مدحه خير مديح .. ولكن الواضح أن أبا الطيب لم يخرج من بلاد سيف الدولة إلا قاصداً أبا المسك كافوراً دون غيره ، ولذلك يروى أن والى كافور على دمشق أراده على مدحه ـ لما كان نازلا ببلده ـ فلم يرض ذلك . وثابت أن أبا الطيب ـ لما نزل الرملة فى طريقه إلى مصر ، ولقى فيها أميرها الحسن بن عبد الله بن طغج ـ لم يقل فيه مدحاً ، إلا قطعتين صغيرتين تقدم ذكرهما ، وهما :

ترك مدحيك كالهجاء لنفسى   وقليل لك المديح الكثير

(و)

ماذا الوداع وداع الوامق الكمد   هذا الوداع وداع الروح للجسد

وكان قد مدحه من قبل ، ويغلب على الظن أن الشاعر لم يشأ أن يمدح أحداً قبل كافور وهو فى طريقه إليه ، وأنه كان سائراً إلى هناك عن عمد ، ونية مبيتة وأمر محزوم .

فأما كافور الأخشيدى هذا ، فلا مندوحة من أن نوجز تاريخه فى لمحة خاطفة ، وهو تاريخ لا نخال القارىء إلا عالماً به .

هو مولى أسود كان لمحمد بن طغج الأخشيد ، ومحمد بن طغج كان والياً من قبل المقتدر بالله العباسى على دمشق سنة ثمانى عشرة وثلثمائة ، ثم ضم إليه الراضى بالله مصر سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ، ولقبه بعد ذلك « الأخشيد » واستتب الأمر له ولذريته فى مصر إلى عهد الفاطميين .

ويقول صاحب النجوم الزهراء : إن الأخشيد اشترى كافوراً بثمانية عشر ديناراً من بعض رؤساء مصر ، وأعتقه ، ثم رقاه حتى جعله من كبار القواد ، لما رأى منه الحزم والعقل وحسن التدبير . ولما أضحى كافور قائد الجيوش الأخشيدية حارب ابن رائق ، ثم سيف الدولة فى الشام ، وقد قدمنا أن أبا الطيب ذكره فى مدحه لمساور بن محمد .

وعند ما توفى الأخشيد أخذ كافور البيعة لابنه أنوجور وعاد به إلى مصر . وقد ظن سيف الدولة أن موت الأخشيد يمكنه من دمشق ، فاستولى عليها وتقدم إلى الرملة ، ولكن كافوراً ــ وكان الحاكم الفعلى ــ سار إليه فهزمه وأخرجه من حلب ، ثم اصطلحا ، فأخذ سيف الدولة حلب ، وأخذ أنوجور دمشق . وتوفى أنوجور سنة تسع وأربعين وثلثمائة ، فاجتهد كافور فى أن يبقى الأمر لبنى الأخشيد ، ونجح فى ذلك ، إذ نال من الخليفة المطيع لله تولية لعلىّ بن الأخشيد مكان أخيه ، على أن علىّ بن الأخشيد لم يلبث أن مات سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، وبقيت مصر أياماً بغير أمير ــ وكان أمرها فى يد كافور ــ فاتفق أعيانها على تأميره ،

فأصبح بذلك هو السلطان – اسماً وفعلا – حتى توفى سنة ست وخمسين وثلثمائة وعمره خمسة وستين سنة بعد أن حكم مصر وقسما من الشام اثنتين وعشرين سنة .

وكان كافور الأخشيدى داهية فى السياسة ، شجاعاً حكيما ، استطاع أن يكسب صداقة العباسيين والفاطميين معاً ، ويقال : إنه هو الذى أخر غزو جيوش المعز لمصر حتى مات ، نخلى لها السبيل ، وإن حزمه وكياسته جعلت منه سياسياً قديراً ، وداهية خطيراً ، وكان له – إلى هذا – بصر بالعربية والأدب ، وكان محباً للعلماء والأدباء ، يقرب الشعراء ويجزيهم ، وكان ديناً متواضعاً ، سخيا كثير الهبات والخلع والعطايا والصدقات .

ولا بأس من أن نقول إن كافوراً الذى عرفه التاريخ السياسى ، غير كافور الذى عرفه كثيرون من رواة تاريخ الأدب ؛ فمن هؤلاء من صوره فى أقبح الصور ، متأثراً بما لطخه به أبو الطيب من صفات أدوعها كل نقمة وبغضاء ؛ فمن الخير أن نعرف الرجل على حقيقته ، ولا ننكر عليه مكانته وفطنته وكفايته ، لنسير فى سيرة شاعرنا – بعد ذلك – سير المحايد غير المحابى أو المتجنى .

***

وقدم أبو الطيب مصر فى جمادى الثانية سنة ست وأربعين وثلثمائة ، فأقام بها أربع سنين ونصف سنة ، حتى بارحها فى ذى الحجة سنة خمسين وثلثمائة ، وقد مدح كافوراً حين قدم عليه بقصيدته :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وختم مدائحه بقصيدة أنشدها سنة تسع وأربعين وثلثمائة ، وبقى بعد ذلك سنة وشهرين لم ينشده شيئاً ، وبين فاتحة مدائحه وخاتمتها أربعة أشهر وثلاث سنين مدح فيها المتنبى كافوراً بتسع قصائد وقطعتين ، فيها كلها سبعون وثلثمائة بيت ، وهو ربع ما مدح به سيف الدولة .

وكانت بغية أبي الطيب من ذهابه إلى أبي المسك ، أن يقطعه ضيعة أو إمارة ، وكان شديد الأمل فى ذلك عظيم الرجاء ؛ ولكن رجاءه خاب ، وأمله تبخر وطواه الهواء ــ وسيبين كل ذلك بعد ــ وظاهر فى مدائح أبي الطيب الأولى لكافور ، أنه لم يكن كارها لمدحه ولا مسوقا إليه عن رهبة أو مثلها ، فهو يكشف فى أولى قصائده عن حزنه من صديقه الأول الذى غدر به ، وهو سيف الدولة ، وعن أمله الواسع فى صديقه الجديد كافور ، وقد رضى الوقوف بين يديه مبالغة فى تعظيمه وابتغاء معونته . ولن ننسى أن نقول إن كافوراً عندما نزل أبو الطيب فى مصر أخلى له داراً وكفله وأضافه وخلع عليه . وفى هذه القصيدة أشار الشاعر إلى سيف الدولة وإلى بنى حمدان فى مواضع مختلفة ، وأطنب فى مدح أبي المسك ، ثم لمح إلى غايته فلم يشأ أن يخفيها ، يقول :

إذا كسب الناس المعالى بالندى   فإنك تعطى فى نداك المعاليا

وغير كثير أن يزورك راجل   فيرجع ملكا للعراقين واليا

وفى الشهر التالى قال أبو الطيب قصيدته الثانية يهنىء بها كافوراً بدار بناها ، وهى التى أولها :

إنما التهنئات للأكفاء   ولمن يدنى من البعداء

وأنا منك لا يهنىء عضو   بالمسرات سائر الأعضاء

وتلك كانت طريقة المتنبى فى المدح ، لا يغفل نفسه والإشادة بها ، وإشراكها مع الممدوح فيما يغدق عليه من صفات طيبات .

وفى هذه القصيدة يقول الشاعر :

وفؤادى من الملوك وإن كا   ن لسانى يرى من الشعراء

ويقول المعرى : « ولما أنشده أبو الطيب حلف ليبلغه جميع ما فى نفسه ، وإنه لأكذب ما يكون إذا حلف » .

ثم بعد شهرين ، قال أبو الطيب يمدح الأستاذ أبا المسك كافور قصيدته :

من الجآذر فى زى الأعاريب   حمر الحلى والمطايا والجلاَبيب

وفيها يقول أيضاً :

إلى الذى تهب الدولات راحته   ولا يمنّ على آثار موهوب

ثم أنشد الشاعر كافوراً فى عيد الأضحى قصيدته الرابعة :

أود من الأيام مالا توده   وأشكو إليها بيننا وهى جنده

وفيها بين الشاعر عن آلام نفسه ، لأنه قصر عما يبتغيه ، و بدأ بالشكوى الخفية والبينة من مطل أبى المسك . ولا ريب أن كافوراً كان قد وعد الشاعر فعلا بولاية ، فهو هنا يستنجزه وعده و يسأله أن يجربه فيقول :

ووعدك فعل قبل وعد لأنه   نظير فعال الصادق القول وعده

ثم بعد ثلاثة أشهر من ذلك قال الشاعر قصيدته الخامسة ، وكان فرس المتنبى قد جرح فحزن عليه . فتبين كافور ذلك وأرسل له فرساً أدهم ، وأول القصيدة :

فراق ومن فارقت غير مذمم   وأمٌّ ومن يمَّمْتُ خير ميمم

وفى هذه القصيدة يعاود الشاعر مدح سيف الدولة ، وذكر الحمدانيين بالخير ، كأنما ضاق بكافور ووعده ، وفى آخرها يقول :

ولو كنت أدرى كم حياتى قسمتها   وصيرت ثلثيها انتظارك فاعلم

ثم قال : الشاعر بعد ذلك قصيدة حكمية مدح فيها كافورا ، وذلك إثر شقاق قال بين أبى المسك و بين الأمير أنوجور انتهى بالصلح .

على أن حال أبى الطيب لا يطيب لها أن تسير فى طريق واحدة أو تستقر على وتيرة ، فها هو يمل انتظار بغيته ، ويطفح الكيل فلا يستطيع اصطبارا

وها هو يقول ـ بعد أن أرسل إليه أبو المسك ستمائة دينار ذهباً عسى أن تلهيه عن رجائه ـ قصيدته :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

وذلك فى عيد الفطر سنة سبع وأربعين وثلثمائة ، أى بعد مقام الشاعر بمصر سنة وشهرين ، وفى هذه القصيدة ـ كما يبين من الديوان ـ يندم أبو الطيب على مبارحته سيف الدولة وقصده كافوراً ، ويعتب فيها على سيف الدولة وعلى بنى حمدان ، ثم يختمها بمدح كافور لعلمه بأنها ستبلغه وإن لم ينشده إياها .

وهنا أخذت النفرة بين الرجلين مظهراً واضحاً ، فقد سكت الشاعر عن المديح ، بعد أن كان يواصل قصائده غيرَ وانٍ ولا متمهل ، ثم يضطر بعد ذلك لإنشاده ، وذلك أن كافوراً كان قد ولى شبيباً العقيلى الخارجى عمان والبلقاء وما يليها ، فخرج على كافور وسار إلى دمشق فى جيش كثيف ودخل المدينة ، وفى غمرة من الهرج والمرج ألفى شبيب ميتاً ، فارتاع جيشه ، وهرب جنده وتفرقوا ، ولم يعرف الناس كيف مات ، وجاءت الأخبار مصر فطالب كافور أبا الطيب بأن يذكر هذا فى شعره فقال قصيدته التى مطلعها :

عدوك مذموم بكل لسان وإن كان من أعدائك القمران

وذلك فى جمادى الثانية سنة ثمان وأربعين وثلثمائة ، وإنك لواجد ـ من قراءة القصيدة ـ أن الشاعر الذى سكت عن مدح أبى المسك ثمانية أشهر ، ثم لقيه فى هذه القصيدة ، لم يكن مادحا ، وإنما كان كمن يقصد الهجاء وكأنما أراد أن يؤبِّن القتيل ويرثيه بدل أن يغتبط لمقتله .

ثم انقطع المتنبى بعد هذه القصيدة المريبة عن مدح أبى المسك سنة وأربعة أشهر ، وأصابته فى أثناء ذلك حُمَّى فقال قصيدته :

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

وقد عرض فيها بكافور و بخله ومنعه عن الرحيل عن مصر ، وأعجب بها أهل مصر برغم أنها ساءت كافوراً لما بلغته .

وفى أثناء ذلك أيضاً اتصل المتنبى بأبى شجاع فاتك الملقب بالمجنون ، وقد كان روميا وأسر وربى فى فلسطين ، ثم اغتصبه كافور من سيده بالرملة بلا ثمن فأعتقه صاحبه ، فكان معه فى عدة المماليك ، كريم النفس ، حر الطبع ، بعيد الهمة ، ويقول المعرى : إنه كان فى أيام كافور مقيما بالفيوم ، أنفة من الأسود وحياء من الناس أن يركب معه ، وأنه مرض وأحوجته العلة إلى دخول مصر فدخلها ، وأن أبا الطيب لم يتمكن من عيادته على أن فاتكا كان يسأل عنه و يراسله بالسلام ، وأنه لما لقى أبا الطيب فى الصحراء أهداه هدية قيمتها ألف دينار ذهباً ، ثم أتبعها هدايا بعدها ، ويقول ابن خلكان : إن الفيوم كان أقطاعاً لفاتك ، و إن أبا الطيب كان يسمع بكرمه وشجاعته ، ولا يستطيع أن يقصده خشية كافور ، ثم استأذن كافوراً فى مدحه فأذن له ، و يروى أن ذلك كان بعد استقرار ما بين فاتك والأستاذ كافور .

و يظهر أن الشاعر لم يرغب فى مدح فاتك ـ مع ما بينه و بين كافور من المنافسة ـ إلا ليأسه من أبى المسك ، وقد مدح أبو الطيب فاتكا فى جمادى الثانية سنة ثمان وأربعين وثلثمائة بقصيدته :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

وفى هذه القصيدة تعريض بكافور .

ثم عاود أبو الطيب مدح كافور ، بعد أن انقطع عن ذلك ستة عشر شهراً كاملة ، و بعد أن قال قصيدة الحمى التى تقدم ذكرها ، و بعد أن تعرض لكافور فى مدح فاتك ، و يرى بعض المؤرخين أن عودة أبى الطيب إلى مديح كافور كانت خارجة

عن إرادته ، فقد طالبه كافور بذلك فلم يستطع إلا إجابته ، وقد يكون تطلع كافور إلى مدح الشاعر قد أحيا فى نفسه الرجاء فعاد يلقى آخر سهم ، وينفض عن نفسه اليأس والإشفاق من أن يخيب ، وأما القصيدة فهى :

مُنًى كن لى إن البياض خضابُ   فيخفى بتبييض القرون شبابُ

وفيها يتحدث الشاعر عن نفسه وعن آماله ، وعن وعد كافور له فى غالب أبياتها ، ويمدحه فيها باثنى عشر بيتاً .

ثم بقى أبو الطيب بمصر بعد هذه القصيدة سنة وشهرين دون أن يمدح كافوراً فما كان يلقاه إلا أن يركب فيسير معه فى الطريق لئلا يوحشه ، وكان الشاعر ضيف كافور مدة مقامه فى مصر ، فكان ذلك هو الصلة بينهما بعد انقطاع الشاعر عن مدحه وحضور مجلسه .

وواضح غاية الوضوح من شعر المتنبى فى كافور ، أنه لم يكن يبغى منه مالا فحسب ، بالغاً ما بلغت قيمة ذلك المال ، وإنما كان يبغى ضيعة أو ولاية كما تقدم ، يقول :

إذا لم تَنُطْ بى ضيعة أو ولاية   فجودك يكسونى وشغلك يسلب

ولو أنه كان يطلب المال لأعطاه كافور فوق ما أعطاه ، ألوفاً مؤلفة ، ونحسب أن كافوراً لم يدر بذهنه أن يقطعه هذا الذى يريد ، وإن كان يعده ويمطله فذلك شىء من التلطف والمداجاة ، وقال بعض الشراح : إنه قال لأبى الطيب : « أنت فى حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سمت نفسك إلى النبوة ، فإن أصبت ولاية وصار لك أتباع فمن يطيقك؟» ولا نخاله قال ذلك ، وإن كان من السهل أن يفكر فيه ، ويقول بعض الشراح أيضاً : إن كافوراً كان ينوى إقطاعه ما يريد ، وقد حلف له بذلك ، ولكن أموراً بدرت من الشاعر لم تلق رضاه ، منها أنه ذكر سواده فى قصائده ، وكان كافور يكره ذلك غاية الكراهة ، ولا نظن ذلك سبباً

معقولا ، فقد ذكر الشاعر سواد الممدوح فى مواضع طرب لها كافور واهتز لها وكان ذلك منذ أول عهد الشاعر بمدحه ، فلو أدرك منه امتعاضاً من هذا لما كرره فى قصائده بعد ذلك .

وليس بعيداً أن يكون كافور كره من الشاعر إلحاحه فى طلبه ومداومته على التذكير بالوعد فى لغة يصح أن تسمى توبيخاً وتأنيباً ، فصح فى عزمه ألا ينيله طلبته ، ثم إن تمادى الشاعر فى أشباه ذلك ، ورثاءه لشبيب فى القصيدة التى تقدم ذكرها ، وتعريضه بكافور فى قصيدة الحمى ، ومدحه لفاتك ــ كل أولئك كان سبباً فى أن يخيب أمل الشاعر فى بغيته ، وأن يجعل بينه وبينها سداً ، وكانت صراحة المتنبى وعلو نفسه ، يأبيان له إلا أن يقول ما يجول بخاطره ، فلم يشأ إلا أن يقول ما قال ، داخلا فى نطاق التوبيخ ، لا الاستعطاف والطلب الذليل .

ومما كان له أثر بين فى خيبة الشاعر فى أمله فى كافور ، أنه لم يشأ أن يمدح الوزير ابن الفرات ، كما مدحه شعراء آخرون ، ليكون له عوناً يساعده على بلوغ غايته ومبتغاه ، وكان الوزير ابن الفرات هذا ، وزيراً خطيراً من أسرة وزراء ومحدثاً أديباً ميالا لأهل العلم والأدب .

وكان أبو الطيب فى آخر مقامه بمصر ، يود الرحيل ويبغى الفكاك من ذلك النطاق المضروب ، فلقد طالما ردد ذلك فى قصائده ، ولقد طالما تبرم بمطل كافور وضاق به ذرعاً . ولكن كافوراً كان يمسكه عن الرحيل ويضع حوله العيون .

وليس خافياً أن كافوراً ــ لما نزل الشاعر بمصر ــ أنزله داراً ، وأغدق عليه من ماله وأغرقه فى عطائه ، وقد حسب أن ذلك يكفيه ، فلما طالبه الشاعر بولاية أو ضيعة ، وعده إجابة طلبه ، ثم خاف كافور الشاعر ، حين أدرك علو نفسه ، ولمس بُعد أمانيه ، وعلم ما حفل به ماضيه من حبس وادعاء

النبوة وما إلى ذلك ، وقد أدرك القارىء أن الشاعر بدأ يستعجل الوعد ، و يندد بالماطلة ، بعد بقائه بمصر ثلاثة أشهر ليس غير ، وأدرك كذلك أنه سكت عن مديح كافور - بعد أن قال قصيدة شبيب والقصيدة الأخرى الأخيرة - سنة وشهرين ، وأنه ذكر الرحيل فى شعره مرات عِدّة ، كأنما كان كافور يحرص على ألاّ يفلته ، ابتغاء مدحه من ناحية ، واتقاء هجوه من أخرى . . . بل إنه لمن الثابت أن كافوراً منعه عن الرحيل منعاً ، ففى هجاء الشاعر له من بَعْد ما ينطق بذلك فى صراحة و بيان ، وجاء فى شرح المعرى وشروح أخرى : أن الشاعر كتب إلى كافور يستأذنه فى المسير إلى الرملة ليتنجز مالاً بها ، وأراد أن يعرف رأيه فى مسيره فأجابه : لا ، والله ، أطال الله بقاءك ، لا نكلفك المسير ، ولكن ننفذ رسولا يأتيك به ، فلما قرأ الجواب قال : أبياته التى أولها :

أتحلف لا تكلفنى مسيراً إلى بلد أحاول فيه مالا

ولما ضاق صدر الشاعر الكبير بذلك الذى لقيه بمصر ، ولم يطق بعده اصطباراً ، رحل إلى الكوفة رحيل هارب لا رحيل مودع مشيع ، فلم يعد له ما يتعزى به بعد وفاة أبى شجاع فاتك ، الذى اتخذه صديقاً مؤنساً طوال مدة بقائه بمصر بعد سكوته عن مديح كافور ، وكانت وفاة فاتك فى شوال سنة خمسين وثلثمائة ، وقد لبث الشاعر بعدها شهرين يدبر لرحيله ، جاء فى شرح المعرى وشروح أخرى « وقد أعد كل ما يحتاج إليه على مر الأيام فى لطف ورفق ولا يعلم به أحد من غلمانه ، وهو يظهر الرغبة فى المقام ، وطال عليهم التحفظ ، فخرج ودفن الرماح فى الرمل ، وحمل الماء على الإبل فى الليل من النيل لعشر ليال ، وتزود لعشرين » .

وفى ليلة عيد الأضحى قال الشاعر قصيدته الحزينة الثائرة التى مطلعها :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

وقد هجا فيها كافوراً هجاء مراً ، وعرض بإمسا كه إياه عن الرحيل .

وقد انتهز أبو الطيب غفلة كافور وانشغاله بالعيد و بما يصحب العيد من سنن ، وهمّ بأخذ طريقه التى بَيّتَ سلوكها . ولمـا اجتاز أبو الطيب بلبيس نزل على عبد العزيز بن يوسف القيسى فأضافه وأ كرمه وسيره . وقد كتب إليه الشاعر أبياته التى أولها :

جزى عربا أمست بِبُلبَيْسَ ربها بمسعاتها تَقَرُّ بذاك عيونهـا

وكان الشاعر يعرف عبد العزيز من قبل ، وله فيه أبياته الثلاثة التى أولها :

لئن مر بالفسطاط عيشى فقد حلا بعبد العزيز المـاجد الطرفين

ولا ريب فى أن كافورا ثار لما بلغته القصيدة التى قالها الشاعر ليلة العيد ، ولا ريب كذلك أنه غضب لرحيله وتوجس خيفة من هجائه المر الذى سوف يلاحق بعضه بعضاً . ويقول بعض الرواة : إن كافوراً أتبع الشاعر بالخيل والرجل ، وكتب إلى عماله ليسدوا عليه الطرق .

وعبر أبو الطيب بموضع يعرف بنجة الطير حتى خرج إلى مـاء يعرف بنحل بعد أيام ، فلقى عنده فى الليل ركبا وخيلا صادرة عن كافور فأخذهم وتركهم ، ولما قرب من النقاب رأى رائدين لبنى سليم على قلوصين ، فركب الخيل وطردهما حتى أخذهما ، فذكرا له أن أهلهما أرسلوهما رائدين ، فلما أمنهما استبقاهما ورد عليهما متاعهما . وسار معهما حتى توسط بيوت بنى سليم آخر الليل ، فأ كرمه ملاعب بن أبى النجم وذبح له ، ثم غدا فسار إلى النقع فنزل ببادية من معن وسُنْبُس ، وهناك أ كرمه عَفيف المعَنِّى وذبح له . ثم غدا من عنده فسار يومه و بعض ليلته ، وعند الصباح دخل حِسْمى . وهى أرض طيبة خصبة ، و بها جبال شاهقة .

وكان بنو فزارة شاتين بها ، فنزل الشاعر بقوم من عدى فزارة ، وطاب له المقام فلبث شهراً . ثم ظهر له فساد عبيده ــ وكان كافور قد كتب لمن حوله

من العرب ووعدهم ـ فأنفذ رسولا إلى فتى من بنى فزارة ثم من بنى مازن ، وهم قوم يؤثر عنهم رعاية الجوار . ثم سار إليه فى الليل ، والقوم لا يعلمون رحيله ، ولا يشكون أنه يريد البياض ، فأخذ طريق البياض حتى بلغ رأس الصوان فتوقف ، وأنفذ رسولا إلى عرب بين يديه . وأراد أحد عبيده أن يخونه فضرب أبو الطيب وجهه بالسيف ، وأمر الغلمان فقطعوه ، وفى ذلك العبد قال أبو الطيب :

أعددت للغادرين أسيافا . . . الخ

ويقول ارتجالا فى هجاء وردان :

إن تك طيء كانت لئاماً فألأمهم ربيعة أو بنوه

إلى آخر الأبيات .

وكان رسول أبى الطيب قد عاد إليه وليس معه خبر عن العرب التى طلبها ، فسار على بركة الله إلى دومة الجندل ، وذلك لإشفاقه من أن تكون عليه عيون بِحِسْمَى تعلم أنه يريد البياض . وورد الشاعر البويرة بعد ثلاث ليال ، ولما توسط الشاعر بسيطة ـ وهى أرض بقرب الكوفة ـ رأى بعض عبيده ثوراً ، فقال : هذه منارة الجامع ، ونظر آخر إلى نعامة ، فقال : هذه نخلة ، فضحك أبو الطيب وقال :

بسيطة مهلا سقيت القطارا تركت عيون عبيدى حيارى

إلى آخر الأبيات .

وورد العقدة بعد ليال ، واجتاز ببنى جعفر بن كلاب وهم بالبرية فبات فيهم ، ثم دخل الكوفة فى شهر ربيع الثانى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة .

ولم يسلك أبو الطيب من مصر إلى الكوفة الطريق المعهودة ، فقد سار « على الحلل والأحياء والمفاوز المجاهيل والمناهل الأواجن » كما يقول صاحب

الإيضاح ، وهو بذلك يؤيد ما ادعى فى شعره من الجرأة والدربة على الأسفار بالليل والنهار .

وكانت أولى قصائد الشاعر فى الكوفة هى التى أولها :

ألا كل ماشية الخيزلى   فدى كل ماشية الهيدبى

وقد عدد فيها المواضع التى مر بها فى سيره ، وفخر ، وهجا كافوراً .. وقد استغرقت رحلته من الفسطاط إلى الكوفة ثلاثة أشهر . وكان رجوع الشاعر الفحل إلى بلده ومسقط رأسه بعد غيبة طويلة عدتها ثلاثون سنة .

ولم يستطع الشاعر – وقد بارح الديار المصرية – أن ينسى صديقه أبا شجاع فاتك ، ولا أن يحرر قلبه من التحسر عليه والأسى لفقده ، ولم يستطع كذلك إلا أن يفيض نقمة على كافور وكراهة وبغضاء . وقد رثى فاتكا فى ثلاث قصائد . أنشأ أولاها بعد خروجه من مصر وأولها :

الحزن يقلق والتجمل يردع   والدمع بينهما عصىٌّ طيع

وأنشأ ثانيتها فى الكوفة ، وقد أخرج تفاحة من الند عليها اسم فاتك ، وأولها :

يذكرنى فاتكا حلمه   وشىء من الند فيه اسمه

وأنشأ الثالثة سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة ، بعد خروجه من بغداد ، وأولها :

حتام نحن نسارى النجم فى الظلم   وما سراه على خف ولا قدم

وشاء الشاعر أن يهجو كافوراً أقذع الهجاء ، وأن يطلق من صدره جذوة مشتعلة من النقمة البالغة ، وذلك لأنه لم ينل عنده ما يبتغى ، ولأنه وعده فأخلفه ، ولأنه حبسه عن الرحيل ، ولأنه – فى كل ذلك – أهمله لشماتة الأعداء والحاسدين .

وقد ضمن الشاعر ثلاث قصائد – تضمنت أغراضاً أخرى – هجاء كافور

وهى قصيدة العيد التى تقدم ذكرها ، والقصيدة التى وصف فيها سيره من مصر إلى الكوفة ، والقصيدة العينية التى رثى بها فاتكا ، وقد تقدم ذكرها أيضاً . ثم ضمن هجاءه كذلك ، القطعة التى رثى بها فاتكا حين أذكرته به تفاحة الند .

وخصص الشاعر غير ذلك ـ لهجاء كافور ـ ست قطع فيها أربع وأربعون بيتاً . منها القطعة التى أولها :

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا   وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيًا

ومنها القطعة التى أولها :

أنوكُ من عبد ومن عرسه   من سلط العبد على نفسه

ومنها القطعة التى أولها :

وأسودَ أما القلب منه فضيِّق   نخيب وأما بطنه فرحيب

وقد نظمت فى شوال سنة خمسين وثلثمائة .

ومنها القطعة التى أولها :

لو كان ذا الآكل أزوادنا   ضيفا لأوسعناه إحسانا

وقد نظمت حينما همّ بالرحيل عن مصر .

***

وكانت العراق لما قدمها أبو الطيب فى أيدى بنى بويه ، وقد نشأت دولة بنى بويه هذه فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، فتعاون الإخوة الثلاثة : على والحسن وأحمد على التسلط فى فارس والعراق . واستولى أصغرهم أحمد على بغداد سنة أربع وثلاثين وثلثمائة . فمنحهم الخليفة المستكفى بالله الولاية على مابأيديهم ، ولقب علياً عماد الدولة ، والحسن ركن الدولة ، وأحمد معز الدولة : وبقى ملك بنى بويه على العراق حتى سنة سبع وأربعين وأربعمائة حين استولى عليه السلاجقة .

ولم يكد معز الدولة يمكث فى العراق أسابيع ، حتى خلع الخليفة وسمل عينيه وولى مكانه الخليفة المطيع ، وانتقل بذلك الملك جملة من أيدى الخلفاء إلى أيدى البويهيين . وكان ذلك إيذانا بالخراب والدمار وانتشار الظلم والطغيان والفوضى الآخذة بالعنان .

وقدم أبو الطيب العراق بعد ستة عشر عاماً من استيلاء معز الدولة عليها وأقام بالكوفة التى هجرها من قبل مراراً فراراً من القرامطة والأعراب ، فشهد بعد سنتين غارة بنى كلاب عليها وشارك هو فى الحرب والدفاع عنها .

وكان يلى الوزارة الحسن بن محمد المعروف بالوزير المهلبى . وكان أديبا شاعراً اجتمع حوله أدباء ، منهم القاضى التنوخى ، وأبو الفرج الأصفهانى وشعراء منهم السرى الرفّاء ، وكان جواداً مسرفا كَلِفاً باللهو والمجون .

وقد لبث أبو الطيب بالعراق ثلاث سنين منذ قدمها حتى غادرها إلى فارس سنة أربع وخمسين ـ وكانت إقامته بالكوفة ـ وقد سافر فى أثناء ذلك إلى بغداد مرة أو يزيد . ثم قدمها بعد فى طريقه إلى فارس . ولا ندرى ما فعله بالكوفة إلا ما يتصل بقوله الشعر . ففى جمادى الثانية سنة ثلاث وخمسين هجا ضبة بن يزيد العينى ، و يروى أن ابن يزيد العينى هـــذا جاء من سفاح ، يغدر بكل من نزل به وأكل معه وشرب . وكان أبو الطيب قد نزل بالطف بأصدقاء له وسارت خيلهم إلى هذا العبد واستركبوه فلزمه السير معهم ، فدخل العبد الحصن وأخـــذ يشتمهم أياما من وراء الحصن أقبح شتم ، ويسمى أبا الطيب و يشتمه . وأراد القوم أن يجيبوه بمثل ألفاظه ، وسألوا أبا الطيب ذلك فتكلف لهم على مشقة وعلم أنه لوسبه لهم معرضاً لم يفهم ولم يعمل فيه عمل التصريح نخاطبه على ألسنتهم من حيث هو فقال . . الخ » .

وفى هذه القصيدة أقذع المتنبى غاية الإقذاع . وفاض حقده فغمر القصيدة وأفعمها .

وجاء فى شرح ابن جنى : أن أبا الطيب أنكر إنشاد هذه القصيدة ، وقال الواحدى مثل ذلك .

ثم وقعت بعد ذلك حوادث بالكوفة اشترك فيها أبو الطيب وقاتل ، ومدح قائد الجيش الذى قدم من بغداد لصد غارة الأعراب من بنى كلاب على الكوفة . وكان أبو الطيب قبل قدوم ذلك القائد يقود الجيش المدافع عن المدينة لعدة أيام ، فلما حضر جيش بغداد كان بنو كلاب قد رحلوا عن الكوفة ، فنزل القائد وأنفذ إلى أبى الطيب ثياباً نفيسة من ديباج وخزّ ، فأنشده هذه القصيدة فى الميدان وهما على فرسيهما ، وذلك فى ذى الحجة سنة ثلاث وخمسين ، وأول القصيدة :

كدعواك كل يدعى صحة العقل ومن ذا الذى يدرى بما فيه من جهل

وخرج أبو الطيب من الكوفة — قبل أن يبرحها إلى فارس — فى شعبان سنة اثنتين وخمسين ، قاصداً بغداد ، وفيها لقى الوزير المهلبى ، ويرجح أنه أقام بها من جمادى الآخرة إلى شعبان ، أو قبل ذلك بقليل ، وقد نزل فيها بدار على بن حمزة البصرى اللغوى الذى روى ديوانه ، و بقى ضيفه إلى أن رحل عنها ، ولم يطل فيها مقامه .

وكان ببغداد معز الدولة بن بويه والوزير المهلبى .

وقد زار أبو الطيب المهلبى وجلس معه مرتين ، ولكنه لم يمدحه ، ولا هو مدح معز الدولة ، وقد كان أبو الطيب يود مدح المهلبى ، وأن يتخذه سبيلا إلى معز الدولة ، وإنما صده عن ذلك ما سمعه عنه من تماديه فى السخف واستهتاره واستيلاء أهل الخلاعة عليه . وقد أغرى المهلبى بالمتنبى شاعراً ماجناً هو ابن حجاج فعلق بلجام دابته وقد تكأكأ الناس عليه وأخذ ينشده :

يا شيخ أهل العلم فينا ومن يلزم أهل العلم توقيره

فلم يحفل به المتنبي وانصرف إلى منزله .

وقد كان الوزير المهلبي راغباً فى مدح أبى الطيب ، مغيظاً مُحْنَقاً من إغفاله إياه ، وقد روى أنه أحضر على بن يوسف البقال فأنشده فى حضرة المتنبي ، فقال المتنبي : « ما رأيت ببغداد من يجوز أن يقطع عليه اسم شاعر إلا ابن البقال » .

ولما كان الوزير المهلبي وسيلة الشاعر إلى معز الدولة ، فإن الشاعر لم يجد إلى معز الدولة من سبيل ، ولم يمدحه تبعاً لذلك .

ولم يشأ المهلبي أن ينسى إساءة الشاعر إليه وإغفاله إياه ، فأغرى به جماعة من شعراء بغداد ، حتى نالوا من عرضه وتباروا فى هجائه ، ومنهم ابن الحجاج ، وابن سكرة الهاشمى ، والحاتمى . فلم يجبهم المتنبي ولا حفل بهم ، وقيل له فى ذلك ، فقال : إنى قد فرغت من إجابتهم بقولى لمن هم أرفع طبقة منهم فى الشعراء :

أرى المتشاعرين غروا بذمى ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

وقولى :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعر ضعيف يقاوينى قصير يطاول

إلى آخر الأبيات .

وقولى :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

ومما كان بين أبى الطيب وبين أعوان المهلبي ما حكاه الحاتمى من مناظرته لأبى الطيب ببغداد ، ولا ريب أن الحاتمى كذب فى ذلك على خصمه وبالغ فى دعواه إرضاء للمهلبي ، وقد قال ياقوت عن الحاتمى هذا : إنه كان مبغضاً لأهل العلم ، وفى الفترة التى أقامها الشاعر ببغداد ، قرىء عليه ديوانه وسمعه جماعة ، منهم على بن حمزة البصرى ، وابن جنى ، والقاضى أبو الحسن المحاملى .

***

وشاء الله أن يعاود قلب الشاعر الكبير الحنين إلى الأمير العربي الجليل سيف الدولة بن حمدان ، فإنه لما سمع سيف الدولة بخروج أبي الطيب من مصر مراغماً كافوراً ، وبلوغه الكوفة ، كاتبه معرضاً برجوعه إلى حلب ثم أهدى إليه هدايا متعاقبة . فأجابه أبو الطيب فى شوال سنة اثنتين وخمسين بقصيدته التى مطلعها :

مالنا كلنا جو يا رسول   أنا أهوى وقلبك المتبول

وفيها يبين حزن الشاعر ، ومعاودته مدح الأمير الهمام . وقد قالها لما بلغه خروج سيف الدولة ـ وهو مريض ـ للقاء الروم ورجوعهم عن غزو طرسوس .

ثم توفيت أخت سيف الدولة الكبرى فى جمادى الثانية سنة اثنتين وخمسين وورد العراق خبرها ، فقال الشاعر فى شعبان قصيدته :

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب   كناية بهما عن أشرف النسب

فكان لهذا الرثاء أبلغ الأثر فى نفس سيف الدولة ، فأرسل إلى الشاعر هدية ومالا وأماناً بخطه وكتاباً يستدعيه ، فكتب أبو الطيب فى ذى الحجة سنة ثلاث وخمسين قصيدته التى مطلعها :

فهمت الكتاب أبر الكتب   فسمعاً لأمر أمير العرب

وبعد أن عاد الشاعر إلى الكوفة ولبث فيها عاود الذهاب إلى بغداد ، فى طريقه إلى فارس قاصداً ابن العميد ، وقد بارح بغداد للمرة الثانية فى صفر سنة أربع وخمسين ، وذلك بعد مبارحته لها فى المرة الأولى بسنة وخمسة أشهر . وقد أخذ طريق الأهواز وبها لقيه التنوخى . وبلغ أرّجان فى الشهر نفسه . فلما أشرف عليها وجدها ضيقة البقعة والدور والمساكن ؛ فضرب بيده على صدره وقال : تركت ملوك الأرض يتعبدون بى وقصدت رب هذه المدرة فما يكون منه ؟ ثم وقف بظاهر المدينة وأرسل غلاماً على راحلته

إلى ابن العميد ودخل عليه وقال : مولاى أبو الطيب خارج البلد ، فثار من مضجعه ثم أمر حاجبه باستقباله . فركب واستركب من لقيه فى الطريق ، فتلقوا الشاعر وقضوا حقه وأدخلوه البلد ، فدخل على أبى الفضل بن العميد فقام له ، وطُرح له كرسىٌ عليه وسادة ديباج . وقال أبو الفضل : كنت مشتاقاً إليك يا أبا الطيب .

وقد أفرد أبو الفضل له داراً نزلها ، وكان يغشى أبا الفضل كل يوم ويؤاكله . وابن العميد هذا ـ كما لا يخفى ـ هو الأديب الكبير أبو الفضل ابن العميد ـ وزير عضد الدولة ، وقد كان أبو الفضل ناقماً على الشاعر من قبل لأنه لم يمدحه ، وكان يريد أن يخمل ذكره ، حتى إنه ليروى أن بعض أصحابه دخل عليه يوماً قبل دخول المتنبى فوجده واجماً ـ وكانت أخته قد ماتت ـ فظنه واجداً لأجلها ، فسأله الخبر ، فقال : إنه ليغيظنى أمر هذا المتنبى واجتهادى فى أن أخمل ذكره ، وقد ورد علىّ نيف وستون كتاباً فى التعزية ما منها إلا وقد صدر بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر فزعت فيه بآمالى إلى الكذب

حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

ويروى أن ابن العميد لم يرسل إلى المتنبى ليدعوه ، ولكن الذى لاريب فيه أنه فرح بمقدمه وطرب لمدحه ، فذلك كان أملا من آماله وأمنية من أمنياته المعسولات .

وقد لبث الشاعر شهرين عند ابن العميد ، وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذى جمعه ويتعجب من حفظه وغزارة علمه . ومدحه الشاعر بثلاث قصائد ، كانت أولاها القصيدة التى مطلعها :

بادِهواكَ صبرت أم لم تصبرا وبكاك مالم يجر دمعك أو جرى

وكانت ثانيتها القصيدة التى مدحه بها فى النوروز وهى التى أولها :

جاء نَيروزُنا وأنتَ مُراده ووَرَتْ بالذى أرادَ زِنادُه

وفيها يتواضع الشاعر ويتحذر ، كأنما أحس بأنه يخاطب بها أديباً كبيراً متميزاً على غيره من الممدوحين :

و بعد هذه القصيدة ـ وقبل القصيدة الثالثة ـ قطعتان قال الشاعر إحداهما حين ورد ، كتاب من أبى الفتح بن أبى الفضل ابن العميد وأولها :

بكتب الأنام كتاب ورد فدت يد كاتبه كل يد

وثانيتهما قالها يصف مجمرة رآها عند ابن العميد وأولها :

أحب امرىء حبّت الأنفس وأطيب ما شمـه مَعْطِسُ

ثم تأتى بعد ذلك القصيدة الثالثة ، التى يودع فيها الشاعر أبا الفضل ابن العميد وهى التى مطلعها :

نسيت وما أنسى عتاباً على الصد ولا خفراً زادت به حمرة الخد

وما كاد المتنبى ـ بعد قصيدة الوداع ـ يتأهب للرحيل إلى أهله بالكوفة حتى جاء ابن العميد كتاب من عضد الدولة فى طلب المتنبى ، فأنبأه ابن العميد به فقال : مالى وللديلم ؟ فقال أبو الفضل : عضد الدولة أفضل منى ، ويصلك بأضعاف ما وصلتك به ، فأجاب : بأنى ملق من هؤلاء الملوك أقصد الواحد بعد الواحد ، وأملكهم شيئاً يبقى ببقاء النيرين ويعطوننى عرضاً فانياً ، ولى ضجرات واختيارات فيعوقوننى عن مرادى فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه . فكاتب ابن العميد عضد الدولة بهذا الحديث ، فورد الجواب بأنه مملك مراده فى المقام والظعن .

وكان عضد الدولة بصيراً بالأدب ، له شعر جيد ، وكانت دولة بنى بويه عامة دولة للأدب العربى ، فتولى الوزارة لهم ابن العميد والصاحب والمهلبى .

وسار المتنبى من أرّجان ، فلما كان على أربعة فراسخ من شيراز استقبله عضد الدولة بأبى عمر الصباغ أخى صاحب كتاب حدائق الآداب ، ثم دخل البلد فأنزل

داراً مفروشة ، ولما نفض غبار السفر واستراح ركب إلى عضد الدولة فتوسط الدار وانتهى إلى قرب السرير فقبل الأرض واستوى قائماً ، وقال : شكرت مطية حملتني إليك ، وأملا وقف بي عليك .

وأنشأ أبو الطيب عند عضد الدولة ست قصائد وأرجوزة وقطعة ، وأولى هذه القصائد هي :

أوْهِ بديل من قولتي واها   لمن نأت والبديل ذكراها

وهي التي يعزى بها عضد الدولة في وفاة عمته ـ وكانت قد توفيت ببغداد ، وثانية القصائد هي التي أولها :

مغاني الشعب طيباً في المغاني   بمنزلة الربيـــع من الزمان

وفيها يحن الشاعر إلى العربية التي افتقدها في فارس فما وجد لها أثراً .

ووصل عضد الدولة الشاعر صلات كثيرة ، قدرت بأكثر من مائتي ألف درهم ، ولما استأذنه في المسير أمر أن يخلع عليه ويقاد إليه ويوصل بالمال الكثير ـ وقد ظهر أثر ذلك في شعر المتنبي .

وأقام أبو الطيب في شيراز زهاء ثلاثة أشهر ، وقرىء عليه ديوانه ، ثم أنشد قصيدة الوداع في شعبان سنة أربع وخمسين ، وفيها يطنب في شكر الأمير ، ويرغب في الرجوع إليه ، ويحن إلى أهله، ثم يتوقع أن شراً سيصيبه في طريقه ، وهي القصيدة التي أولها :

فِدًى لك مَن يُقَصِّر عن مَدَاكا   فلا مَلِكٌ إذَنْ إلا فَدَاكا

***

وكان خروج أبي الطيب من شيراز ، في الثامن من شعبان ، قاصداً بغداد فالكوفة ، وسار الشاعر بمراكبه وأحماله وغلمانه حتى بلغ الأهواز ، فقطع بذلك واحداً وخمسين فرسخاً ، ثم سار خمسين فرسخاً أخرى حتى بلغ واسط ونزل بها ، وبين واسط وبغداد زهاء أربعين فرسخاً ، كان على الشاعر أن

يجتازها قبل أن يصل مدينة السلام ، وعلى الطريق إليها بلاد ذكر منها فى الروايات التى وردت عن مقتل أبى الطيب : النعمانية ، ودير العاقول ، والصافية ؛ فأما النعمانية فهى فى وسط الطريق ، وهى قائمة اليوم على الشاطىء الغربى من دجلة ، وإلى الجنوب الشرقى من « دير العاقول » وعلى مقربة منه دير قنى أو (قنة) وهو يبعد عن الشاطىء قليلا ، وبينه وبين بغداد ستة عشر فرسخاً . وأمام دير العاقول « الصافية » وهى على فرسخين جنوب شرقى دير العاقول .

وسار أبو الطيب من واسط قاصداً بغداد فى طريقه إلى الكوفة فى اليوم السابع عشر من رمضان ، وفى ذلك اليوم كتب عنه على بن حمزة البصرى — على روايته — القصيدتين الأخيرتين فى شعره .

وبلغ جبّل بعد أن قطع زُهاء سبعة عشر فرسخاً ، فنزل عند أبى نصر الجبّلى ، ثم أخذ طريقه حتى أصبح حيال النعمانية ، ثم سار فمر بجرجرايا على أربعة فراسخ من الجنوب الشرقى من دير العاقول ، وتقدم بعد ذلك حتى قارب الصافية وبينه وبين بغداد ستة عشر فرسخاً ، وهنالك خرج عليه فاتك بن أبى جهل الأسدى خال ضبة بن يزيد الذى هجاه أبو الطيب ، وكان فاتك فى نيف وثلاثين فارساً رامحين وناشبين ، ولا ريب أنه كان يتربص لأبى الطيب ، لينتقم لابن أخته ضبة ، وليستولى على مايحمله معه من ثروة ، فقد روى أنه ومن معه كانوا ممن يقطعون طريق الحجاج .

وكان مع أبى الطيب ابنه محسد وغلمانه ، وقد وصفهم من قبل فى قصيدة رثاء فاتك الميمية ، وفى قصيدة توديع ابن العميد ، ولا شك أن غلمانه هؤلاء كانوا أقل عدداً من عدوهم .

وقاتل الشاعر الشجاع حتى قتل ، وقتل ابنه ، ويقول صاحب الإيضاح : إنهم « قتلوا كل من معه » وإن كان ذلك يبدو بعيداً ، ويروى أن أبا نصر قال : « ولما صح خبر قتله وجهت من دفنه ودفن ابنه وغلمانه وذهبت دماؤهم هدراً » .

ومن المرجح أن اليوم الذى أودى فيه الشاعر هو يوم الأربعاء الثامن والعشرون من رمضان سنة أربع وخمسين وثلثمائة هجرية .

وقد رثى أبا الطيب من معاصريه ، أبو الفتح عثمان بن جنى بقصيدة أولها :

غاض القريض وأودت نضرة الأدب وصوحت بعد رى دوحة الكتب (١)

ورثاه أبو القاسم المظفر بن على الطبسى بأربعة أبيات رواها الثعالبى فى اليتيمة وأولها :

لا رعى الله سرب هذا الزمان إذ دهانا فى مثل ذاك اللسان

ورثاه ثابت بن هارون الرقى النصرانى ، وحرض عضد الدولة على عقاب من قتلوه بقصيدة أولها :

الدهر أخبث والليالى أنكد من أن تعيش لأهلها يا أحمد

***

وقبل أن نختم سيرة المتنبى ، نقول : إنه تزوج بعد سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، ولكننا لا ندرى متى تزوج ، وكان له عيال حنّ إليهم فى شعره وتشوق للقائهم ، وقد ورد فى أخبار المتنبى ذكر لابنه محسد ، ولم يرد ذكر لغيره ، ويرجح أن زوجه كانت من الشام .

***

ذلكم كان أبو الطيب المتنبى ، الشاعر الذى خُلّد مع فنه الخالد وشعره الشاعر ، ولا ريب أن القارىء أدرك من مجمل سيرته ما كان يدين به من خلق واضح الحدود ، بيِّن المعالم ، فقد كان الشاعر — كما يبين فى شعره — متكبراً

---

(١) انظر ترجمة ابن جنى .

أبيًا معجبًا بعيد الهمة ، وكان شجاعاً عظيم الإقدام ، وقد سيطرت عليه أخلاقه هذه ولعبت بحياته ، فجعلته متعاليًا عن شعراء وقته عزوفاً عن مسايرتهم فى اللهو والمجون ومعاقرة الخمر ، وكان كذلك صادق القول صريحه ، قال على بن حمزة : إنه لم يكذب قط ، ومن آثار هذا أنه كان ينفر من التكلف ويفضل البداوة على التحضر .

وكان أبو الطيب عدا ذلك ، حاقداً على الناس ، يحقرهم ، ويطوى كشحه لهم على الموجدة والضغينة ، وذلك أثر من آثار اعتداده بنفسه وطموحه إلى السؤدد ، ثم قصوره عن بلوغ أمله ، على أنه — برغم هذا — كان وفيًا لأصدقائه محبًا لهم متأسيًا لفراقهم ، جازعاً لموتهم ، ثم كان فى كل هذا حزين الطبع ، ثائراً ، يتنزّى قلبه ألماً وحسرة على ما أمل وفشل .

ومما أثر عن المتنبى أنه كان بخيلا ، حريصاً على المال ليبلغ به غايته ، ويستعين به على تحقيق آماله الجسام ، وأحلامه الواسعة .

ولا نحسب الشاعر — ولم تسعده الحال فى حياته على تحقيق مراده — إلا بالغاً المبالغ فى مماته ، وواجداً فوق ما أمل وأراد ، وكفاه خلوداً أن يظل على الأيام صاحب الذكر الدائم ، الباقى بقاء الضاد .

ترجمة المتنبى

« بقلم أحد معاصريه »

وقد استحسنا ـ لمناسبة كتاب إيضاح المشكل من شعر المتنبى الذى ورد ذكره فى هذه السيرة ، لمصنفه أبى القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى ـ أن نورد هنا ترجمة هذا الأصفهانى لأبى الطيب المتنبى . قال عبد القادر البغدادى صاحب خزانة الأدب : وهذه ترجمة المتنبى نقلتها من كتاب « إيضاح المشكل لشعر المتنبى من تصانيف أبى القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى » وهذا الإيضاح قاصر على شرح ابن جنى لديوان المتنبى ، يوضح ما أخطأ فيه من شرحه . وهو ممن عاصر ابن جنى ، وألف الإيضاح لبهاء الدولة بن بويه قال : « وقد بدأت بذكر المتنبى ومنشئه ومغْتَربه ، وما دل عليه شعره من معتقده إلى مختتم أمره ، ومَقْدَمِه على الملك ـ نضر الله وجهه ـ بشيراز وانصرافه عنه ، إلى أن وقعت مقتلته بين دَيرقنة ، والنعمانية واقتسام عقائله وصفاياه . . حدثنى ابن النجار ببغداد : أن مولد المتنبى كان بالكوفة فى محلة تعرف بِكِنْدَة بها ثلاثة آلاف بيت ، من بين رَوّاء ونسّاج .

واختلف إلى كتّاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، فكان يتعلم دروس العلوية(١) شعراً ولغة وإعراباً ؛ فنشأ فى خير حاضرة ، وقال الشعر صبيًّا ، ثم وقع إلى خير بادية ـ بادية اللاذقية ، وحصل فى بيوت العرب ، فادعى الفضول الذى نبز به ، فنمى خبره إلى أمير بعض أطرافها ـ فأشخص إليه مَنْ قيّده وسار به إلى محبسه ، فبقى يعتذر إليه ويتبرأ مما وُسم به ، فى كلمته التى يقول فيها :

فمالك تقبلُ زورَ الكلام   وقدرُ الشهادةِ قدر الشهود
وفى جود كفك ما جُدْتَ لى   بنفسى ولو كنْتُ أشقى ثمود

(١) كذا فى الأصل ويحتمل أن تكون « العربية » .

وقد هجاه شعراء وقته ، فقال الضبي :

الزَمْ مقالَ الشعر تَحْظَ بقربةٍ وعن النبوّة ، لا أبالك ، فانتزحِ
تربح دماً قد كنت توجبُ سفكه إن التمتع بالحياة لَمن ربحْ

فأجابه المتنبي :

أمري إليّ فإن سمحتُ بمهجة كرُمَتْ عليّ فإن مثلي من سمح

وهجاه غيره فقال :

أطلتَ يا أيها الشقيُّ دمَك بالهذيان الذى ملأت فمك
أقسمتُ لو أقسم الأميرُ على قتلك قبل العشاء ما ظلمك

فأجابه المتنبي :

همُّك فى أمردٍ تقلّب فى عين دواةٍ من صُلبه قلمك
وهمتى فى انتضاء ذى شُطَب أقُدُّ يوماً بحدِّه أدَمَك
فاخسَ كلبيا واقعدُ على ذَنب وأطلِ بما بين أليتيك فمك

وهو فى الجملة خبيث الاعتقاد ، وكان فى صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوّسه وأضله كما ضل ، وأما ما يدل عليه شعره فمتلوّن ، وقوله :

هون على بصر ما شق منظره فإنما يقظات العين كالحُلِمِ

مذهب السوفسطائية ، وقوله :

تَمَتَّع من سُهادٍ أو رُقادِ ولا تأمل كَرًى تحت الرِجام
فإن لثالث الحالَينِ معنى سوى معنى انتباهِك والمنام

مذهب التناسخ ، وقوله :

نحن بنو الدنيا فما بالنا نعافُ ما لابدَّ من شُربِهِ

فهذه الأرواح من جَوِّه وهذه الأجسامُ من تُربه

مذهب الفضائية . وقوله فى أبى الفضل بن العميد :

فإن يكن المهدىُّ مَنْ بان هَديُه فهذا ، وإلا فالهدى ذا ، فما المهدى

مذهب الشيعة . وقوله :

تخالَف الناسُ حتى لا اتفاق لهم إلا على شَجَبٍ، والخُلْفُ فى الشجب

فقيل : تخلُدُ نفس المرء باقية وقيل : تَشرَكُ جسمَ المرء فى العطب

فهذا من يقول بالنفس الناطقة ، ويتشعب بعضه إلى قول الحشيشية . والإنسان إذا خلع ربقة الإسلام من عنقه ، وأسلمه الله عزّ وجل إلى حوله وقوّته ، وجد فى الضلالات مجالا واسعاً ، وفى البدع والجهالات مناديحَ وفُسَحا . ثم جئنا إلى حديثه وانتجاعه ، ومفارقته الكوفة أصلا ، وتطوافه فى أطراف الشام ، واستقرائه بلاد العرب ، ومقاساته للضرّ وسوء الحال ، ونزارة كسبه ، وحقارة ما يوصل به ، حتى إنه أخبرنى أبوالحسن الطرائفى ببغداد — وكان لقى المتنبى دفعات فى حال عسره ويسره — أنّ المتنبى قد مدَح بدون العشرة والخمسة من الدراهم وأنشد فى قوله مصداقاً لحكايته :

انصُرْ بجودك ألفاظاً تركتُ بها فى الشرق والغرب من عاداك مكبوتا

فقد نظرتك حتى حان مرتَحِلٌ وذا الوَداعُ ، فكن أهلا لما شيتا

وأخبرنى أبو الحسن الطرائفى قال : سمعت المتنبى يقول : أوّل شعر قلته وابيضت أيامى بعده ، قولى :

أنا لائمى إن كنتُ وقتَ اللوائم

علمتُ بما بى بين تلك المعالم

فإنى أعطِيتُ بها بدمشق مائة دينار . . . ثم اتصلَ بأبى العشائر ، فأقام ما أقام ثم أهداه إلى سيف الدولة ، فاشترط أنه لاينشد إلاّ قاعداً وعلى الوحدة ، فاستحملوه وأجابوه إليه . فلمّا سمع سيف الدولة شعره حكم له بالفضل ، وعدّ ماطلَبه استحقاقاً .

وأخبرنى أبو الفتح عثمان بن جنى : أن المتنبى أسقط من شعره الكثير وبقى ما تداوله الناس . . . وأخبرنى الحلبى أنه قيل للمتنبى : معنى بيتك هذا أخذته من قول الطائى . فأجاب المتنبى : الشعر جادَّة ، وربما وقع حافر على حافر . وكان المتنبى يحفظ ديوانى الطائيَّين ، ويستصحبهما فى أسفاره ويجحدهما ، فلما قتل توزعت دفاتره ، فوقع ديوان البحترى إلى بعض من درس علىّ ، وذكر أنه رأى خط المتنبى وتصحيحه فيه . وسمعت من قال : إن كافوراً لما سمع قوله :

إذا لم تَنُطْ بى ضيعةً أو ولاية … فجودُك يكسونى وشُغلك يَسْلُبُ

يلتمس ولاية صَيدَاء . فأجابه : لستُ أجسُر على توليتك صيداء ، لأنك على ما أنت عليه ، تحدِّث نفسك بما تحدث ؛ فإن وليتك صيداء ، فمن يطيقك ؟ !

وسمعتُ أنه قيل للمتنبى : قولك لكافور :

فَارْمِ بى حيثما أرَدْتَ فإنى … أسَدُ القلب آدمِىُّ الرُّواء
وفؤادى من الملوكِ وإن كا … ن لسانى يُرَى من الشعراء

ليس قول ممتدح ولا منتجع ، إنما هو قول مضادّ ! فأجاب المتنبى إلى أن قال : هذه القلوب ، كما سمعت أحدها يقول :

يَقَرُّ بعينى أن أرى قِصَدَ القَنَا … وصَرْعى رجالٍ فى وغى أنا حاضرهُ

وأحدها يقول :

يقرُّ بعينى أن أرى من مكانها … ذرا عَقِدات الأجرَع المتقاوِدِ

ثم أقام المتنبى عند سيف الدولة على التكرمة البليغة : فى إسناء الجائزة ، ورفع المنزلة . ودخل مع سيف الدولة بلاد الروم ، وتأثّل حالاً فى جنبته بعد أن كان حويلة . وكان سيف الدولة يستحبُّ الاستكثار من شعره والمتنبى يستقله ، وكان

مُلَقًى من هذه الحال ، يشكوها أبداً ؛ وبها فارقه حيث أنشده :

وما انتفاعُ أخى الدنيا بناظرِه إذا استوتْ عنده الأنوارُ والظُلَمُ

وآخرها :

بأىِّ لفظ يقول الشعرَ زِعْنِفَةٌ تجوز عندك لا عُرْبٌ ولا عَجَمُ

وقال فى أخرى :

إذا شاء أنْ يلهو بلحية أحمقٍ أراه غُبـارِى ثم قال له الحق !

فلما انتهت مدَّته عند سيف الدولة استأذنه فى المسير إلى أقطاعه ؛ فأذن له وامتدَّ باسطاً عنانه إلى دمشق ، إلى أن قصد مصر فألمَّ بكافور ، فأنزله وأقام ما أقام . إلا أن أول شعره فيه دليلٌ على تدمه لفراق سيف الدولة ، وهو :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسبُ المنـايا أن يكُنَّ أمانيا

حتى انتهى إلى قوله :

قواصدَ كافور توارِكَ غيره ومن قصدَ البحر استقَلَّ السواقيا

وأخبرنى بعض المولدين ببغداد ، وخالهُ أبو الفتح يتوزَّر لسيف الدولة . أن سيف الدولة رسم لى التوقيع إلى ديوان البر بإخراج الحال فيما وصل به المتنبى ، فخرجتْ بخمسة وثلاثين ألف دينار فى مدة أربع سنين .

ثم لما أنشد الثانية كافوراً خرجت موجّهة يشتاق سيف الدولة . وأوّلها :

فراقٌ ، ومَنْ فارقتُ غيرُ مذمَّم وأَمٌّ ، ومن يمَّمتُ خيرُ مُيَمَّم

وأقام على كره بمصر إلى أن ورد فاتك غلام الأخشيدى من الفيوم — وهى وبيئة ، فنبتْ به واجتواها — وقادوا بين يديه فى مدخله إلى مصر أربعة آلاف جَنِيبة مُنعَّلة بالذهب ؛ فسماه أهل مصر بفاتك المجنون . فلقيه المتنبى فى الميدان على رِقْبَةٍ من كافور فقال :

لا خيل عندكَ تهديها ولا مالُ فليُسْعِدِ النطق إن لم يُسعدِ الحالُ

فوصل إليه من أنواع صلاته وأصناف جوائزه ما تبلغ قيمته عشرين ألف دينار ، ثم مضى فاتك لسبيله ، فرثاه المتنبي وذمّ كافوراً :

أيموتُ مثل أبي شجاع فاتكٍ ويعيشُ حاسدُهُ الخصِيُّ الأوكعُ!

فاحتال بعده فى الخلاص من كافور ، فانتهز الفرصة فى العيد — وكان رسم السلطان أن يستقبل العيد بيوم ، وتعدّ فيه الخِلع والحملانات وأنواعُ المبارّ ، لرابطة جنده وراتبة جيشه ، وصبيحة العيد تفرّق ، وثانى اليوم يذكر له مَنْ قبِل ومن ردّ واستزاد — فاهتبل المتنبي غفلة كافور ، ودفن رماحه برًّا ، وسار ليلته وحمل بغاله وجماله وهو لا يألو سيراً وسُرى هذه الليلة مسافة أيام ؛ حتى وقع فى تِيه بنى إسرائيل ؛ إلى أن جازه على الحلل والأحياء والمفاوز المجاهيل ، والمناهل الأواجن ، ونزل الكوفة ، وقال يقص حاله :

ألا . كل ماشية الخيزلى فِدًا كلّ ماشيةِ الهيذبَى

وفيها يقول :

ضربتُ بها التيه ضربَ القِما ر : إمّا لهـذا ، وإما لذا

ثم مدح بالكوفة دلّير بن لشكرَوَزْ ، وأنشده فى الميدان ؛ فحمله على فرس بمركب ذهب .

وكان السبب فى قَصْدِهِ ، أبا الفضل بن العميد ـ على ما أخبرنى أبو علىّ بن شبيب القاشانى ـ وكان أحد تلامذتى ، ودرس علىّ بقاشان سنة ثلثمائة وسبعين وتوزّر للأصبهبذ بالجبل وأبوه أبو القاسم توزر لوشمكير بجرجان ـ عن العلوى العباسى نديم أبى الفضل بن العميد الذى يقول فيه :

أبلغ رسالاتى الشريفَ ، وقلْ له : قدكَ اتئدْ أربيتَ فى الغُلواء

إن المعروفَ المطوّق الشاشى كان بمصر وقت المتنبي فعمد إلى قصيدته فى كافور :

* أغالب فيك الشوق والشوق أغلب *

وجعل مكان أبا المسك أبا الفضل،وسار إلى خراسان وحمل القصيدة ، أعنى قصيدة

المتنبي إلى أبي الفضل ، وزعم أنه رسوله ، فوصله أبو الفضل بألفى درهم ، واتصل هذا الخبر بالمتنبي ببغداد ، فقال : رجل يعطى لحامل شعرى هذا ، فما تكون صلته لى؟ وكان ابن العميد يخرج فى السنة من الرىّ خرجتين إلى أرّجان ، يَجْبِي بها أربع عشرة مرة ألفَ ألفِ درهم . فنما حديثه إلى المتنبي بحصوله بأرّجان ، فلما حصَل المتنبي ببغداد نزل رَبَضَ حُميد ، فركب إلى المهلّبى ، فأذن له فدخل وجلس إلى جنبه ، وصاعد خليفته دونه ، وأبو الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى ، فأنشدوا هذا البيت :

سقى الله أمواهاً عرَفتُ مكانها　　جُراماً وملكوماً و بَذَّرَ فالغمرا

وقال المتنبي : هو جُراباً ، وهذه أمكنة قتلتها علماً و إنما الخطأ وقع من النقلة ! فأنكرَه أبو الفرج . قال الشيخ : هذا البيت أنشده أبو الحسن الأخفش صاحب سيبويه فى كتابه جراماً ، بالميم ، وهو الصحيح وعليه علماء اللغة ، وتفرق المجلس عن هذه الجملة ، ثم عاوده اليوم الثانى وانتظر المهلبى إنشاده فلم يفعلْ و إنما صدّه ما سمعه من تماديه فى السخف ، واستهتاره بالهزل ، واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه ؛ وكان المتنبي مُرّ النفس صعبَ الشكيمة حادًّا مجداً نخرج ، فلما كان اليوم الثالث أغروا به ابن الحجّاج حتى علّق لجامَ دابته فى صينية الكرخ وقد تكابسَ الناسُ عليه من الجوانب ، وابتدأ ينشد :

يا شيخَ أهلِ العلم فينا ومن　　يلزم أهلَ العلم توقيرُه

فصبر عليه المتنبي ساكتاً ساكتاً ، إلى أن نجزّها ، ثم خلّى عنان دابته ، وانصرف المتنبي إلى منزله ، وقد تيقن استقرارَ أبى الفضل ابن العميد بأرّجان وانتظاره له فاستعدّ للمسير .

وحدثنا أبو الفتح عثمان بن جنى عن علىّ بن حمزة البصرىّ قال : كنت مع المتنبي لما ورد أرّجان ، فلما أشرف عليها وجدها ضيقة البقعة والدور والمساكن ، فضرب بيده على صدره وقال : تركت ملوك الأرض وهم يتعبدون بى ، وقصدتُ

ربّ هذه المدَرَة ، فما يكون منه ! ثم وقف بظاهر المدينة وأرسل غلاماً على راحلته إلى ابن العميد ، فدخل عليه وقال : مولاى أبو الطيّب المتنبي خارجَ البلد ـ وكان وقت القيلولة ، وهو مضطجع فى دَسته ـ فثار من مضجعه واستثبته ، ثم أمر حاجبه باستقباله ، فركب واستركبَ من لقيه فى الطريق ، ففصل عن البلد بجمعٍ كثير ، فتلقوه وقضوا حقّه وأدخلوه البلد . فدخل على أبى الفضل ، فقام له من الدست قياماً مستوياً ،وطُرِح له كرسى عليه مَخِدّةُ ديباج ، وقال أبو الفضل : كنتُ مشتاقا إليك يا أبا الطيّب ثم أفاض المتنبي فى حديث سفره ، وأن غلاماً له احتمل سيفاً وشذّ عنه، وأخرج من كمه عُقَيب هذه المفاوضة دَرْجاً فيه قصيدته :

* بادٍ هواكَ صَبرتَ أو لم تصبرا *

فوحَى أبو الفضل إلى حاجبه بقرطاسٍ فيه مائتا دينار ، وسيف غشاؤهُ فضة ، وقال : هذا عوضٌ عن السيف المأخوذ ، وأفرد له داراً نزلها ، فلما استراح من تعب السفر كان يَغشى أبا الفضل كل يوم ويقول : ما أزورك إكباباً إلا لشهوة النظر إليك ! ويؤاكله ، وكان أبو الفضل يقرأُ عليه ديوان اللغة الذى جمعه ، ويتعجب من حفظه وغزارة علمه ، فأظلهم النيروز فأرسل أبو الفضل بعض ندمائه إلى المتنبي : كان يبلغنى شعرك بالشام والمغرب وما سمعته دونه ، فلم يُحرْ جواباً ، إلى أن حضره النيروز وأنشده مهنئاً ومعتذراً فقال :

هل لعُذرى إلى الهمام أبى الفضـــل قبولٌ ، ســـواد عينى مدادُهْ

فأخبرنى البديهىّ ، سنة ثلثمائة وسبعين : أن المتنبي قال بأرّجان : الملوك قرود يشبه بعضهم بعضا ، على الجودة يعطون ، وكان حمل إليه أبو الفضل خمسين ألف دينار ، سوى توابعها ، وهو من أجاود زمان الديلم وكذلك أبو المطرف وزير مرداويج ، قصده شاعر من قزوين فأنشده وأمّله مادة نفقة يرجع بها إلى بلده ، فكتب إليه أبياتاً أولها :

أأقــلامٌ بِكفِّك أم رماح   وعزمٌ ذاك، أم أجلٌ متاح

فقال أبو المطرف: أعطوه ألف دينار ، وكذلك أبو الفضل البلعمِيّ وزير بُخارى أعطى المطرانى الشاعر على قصيدته التى أولها :

* لا شُرْبَ إلا بسير النّايِ والعودِ *

خمسة عشر ألف دينار ، وكذلك خلف صاحب سجستان ، أعطى أبا بكر الحنبلىّ خمسة آلاف دينار على كلمة فيه ، وكان سيف الدولة لا يملك نفسه ، وكان يأتيه علوىّ من بعض جبال خراسان كل سنة فيعطيه رسماً له جارياً على التأييد ، فأتاه وهو فى بعض الثغور ، فقال للخازن : أطلق له ما فى الخزانة ، فبلغ أربعين ألف دينار ، فشاطر الخازنَ وقبض عشرين ألف دينار ، إشفاقاً من خلل يقع على عسكره فى الحرب ، وأخبرنى بعض أهل الأدب أنه تعرض سائلٌ لسيف الدولة وهو راكب، فأنشده فى طريقه :

أنت علىٌّ وهــذه حَلَبُ   قد فَنِى الزادُ وانتهى الطلبُ

فأطلق له ألف دينار ، وتعرض سائل لأبى علىّ بن إلياس وهو فى موكبه فأمر له بخمسمائة دينار ، فجاءه الخازن بالدواة والبياض ، فوقع بألفى دينار ؛ فلما أبصره الخازن راجعه فيها فقال أبو علىّ : الكلام ريح ، والخط شهادة ، ولا يجوز أن يشهد علىّ بدون هذا . . . ثم إن أبا الطيب المتنبى لما ودّع أبا الفضل بن العميد ، وورد كتابُ عضدِ الدولة يستدعيه ، فعرّفه ابن العميد فقال المتنبى : مالِى وللديلم ؟ فقال أبو الفضل عَضُدُ الدولة أفضــل منى ، ويصلك بأضعاف ما وصــلتك به ، فأجاب بأنى مُلَقى من هؤلاء الملوك : أقصد الواحد بعد الواحد ، وأملكهم شيئاً يبقى ببقاء النيرين ، ويعطوننى عَرَضاً فانياً ، ولى ضجَرات واختيارات ، فيعوقوننى عن مرادى ، فأحتاج

إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه ! فكاتب ابنُ العميد عضد الدولة بهذا الحديث ، فورد الجواب بأنه يملك مُرادَه فى المقام والظَّعن . فسار المتنبى من أرّجان ، فلما كان على أربعة فراسخ من شيراز ، استقبله عضد الدولة بأبى عمر الصباغ أخى أبى محمد الأبهرى صاحب كتاب حدائق الآداب . فلما تلاقيا وتسايرا ، استنشده فقال المتنبى : الناس يتناشدون فاسمعه . فأخبر أبو عمر أنه رُسم له ذلك عن المجلس العالى . فبدأ بقصيدته التى فارق مصر بها :

ألا كُل ماشيةِ الخيزَلى فِدَا كلِّ ماشية الهيدبى

ثم دخل البلد فأنزل دارا مفروشة ، ورجع أبو عمر الصبّاغ إلى عضد الدولة فأخبره بما جرى ، وأنشده أبياتًا من كلمته وهى :

فلما أنخْنا ركزْنا الرِما ح حولَ مكارمنا والعُلا

وبتنا نُقبّل أسيافنا ونمسحها من دماء العِدا

لِتعلمَ مصر ومن بالعراق ومَن بالعواصم أنّى الفتى

وأنى وفيتُ وأنىَ أبيت وأنى عتوت على من عتا

فقال عضد الدولة : هونًا ، يتهدّدنا المتنبى ! . . .

ثم لما نفضَ غبارَ السفر واستراح ، ركب إلى عضد الدولة ؛ فلما توسط الدار انتهى إلى قرب السرير مصادمة ، فقبّل الأرض واستوى قائمًا وقال : شكرتُ مَطية حملتنى إليك ، وأملاً وقف بى عليك . ثم سأله عضد الدولة عن مسيره من مصر ، وعن على بن حمدان ، فذكره وانصرف وما أنشده . فبعد أيام حضر السماط وقام بيده دَرْج ، فأجلسه عضد الدولة وأنشد :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى

فلما أنشدها وفرغوا من السماط ، حمل إليه عضد الدولة من أنواع الطيب فى الأردية الأمنان من بين الكافور والعنبر والمسك والعود ، وقاد فرسه الملقب

بالمجروح ـ وكان اشترى له بخمسين ألف شاة ـ وبَدْرة دراهمُها عدلية ، ورداء حشوهُ ديباجٌ روميٌّ مفصَّل ، وعمامةً قوّمت بخمسمائة دينار ، ونصلا هِنْدِيًّا مرصَّع النجاد والجفن بالذهب . وبعد ذلك كان ينشده فى كل حدَث يحدث قصيدة ، إلى أن حدث يوم نثرِ الورد . فدخل عليه والملك على السرير فى قبة يَحْسِر البصر فى ملاحظتها . والأتراك ينثرون الورد ، فمثل المتنبي بين يديه وقال : ما خدمتْ عيني قلبي كاليوم ؟ وأنشأ يقول :

قد صدق الورد فى الذى زعما   أنك صيّرت نثره ديما
كأنما مائجُ الهواء به   بحرٌ حوى مثلَ مائهِ عَنَما

فحُمل على فرس بمركب ، وأُلبِس خِلعة ملكية ، وبدرةٌ بين يديه محمولة .
وكان أبو جعفر وزير بهاء الدولة مأموراً بالاختلاف إليه ، وحَفِظ المنازلَ والمناهل من مصر إلى الكوفة وتعرّفها منه ، فقال : كنت حاضرَه ، وقام ابنهُ يلتمس أجرةَ الغسّال ، فأحدّ المتنبي إليه النظر بتحديق فقال : ما للصّعلوك والغسال ! يحتاج الصعلوك إلى أن يعمل بيده ثلاثة أشياء : يطبخ قِدْرَه ، ويُنعِل فرسه ، ويغسل ثيابه ؟ ثم ملأ يده قطيعات بلغت درهمين أو ثلاثة .

وورد كتابُ أبي الفتح ذى الكفايتين بن أبى الفضل ـ وكان من أجاود زمان الديلم ، فرّق فى يوم واحد بِشبْدِيز قرميسِينَ ، ألفين وخمسمائة قطعة إبريسَم ـ ومضمونُه كتاب الشوق إلى لقاء المتنبي وتشوّفه إلى نظرته فأجابه المتنبي :

يكتب الأنام كتابٌ وَرَدْ   فدتْ يدَ كاتبهِ كلُّ يدْ

فلما عاد الجواب إلى أبي الفتح ، جعل الأبياتَ سورة يدرسها ، ويحكم للمتنبي بالفضل على أهل زمانه . . . فقال أبو محمد بن أبى الثبات البغدادىّ :

لوَاردُ شِعرٍ كَذَوْبِ البَرَدْ   أتانا به خاطر قد جَمَدْ
فأقبل يمضُغــه بعضُنا   وهمْ السنانير أ كل الغُدَدْ

وقالوا : جوادٌ يفوق الجيادَ ويسبق من عفوه المقتصدْ
ولو ولىَ النقــدرِ أمثالُه لظلّتْ خفافيشُنا تنتقِدْ

فاستخفّ أبو الفتح به وجرّه برجله ففارقهم وهاجر إلى أذرِبيجان ، والأميرُ أبو سالم ديسم بن شادكويه على الإمْرة ، فاتصل به وحظى عنده على غاية الإكرام.

وقال عضد الدولة : إن المتنبي كان جيدَ شعره بالغَرْب . فأخبر المتنبي به فقال الشعر على قدر البقاع . . . .

وكان عضد الدولة جالساً فى البستان الزاهر يوم زينته ، وأكابرُ حواشيه وُقوف . فقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الحكارىّ : ما يُعوِز مجلس مولانا سوى أحد الطائيين . فقال عضد الدولة : لو حضر المتنبي لناب عنهما فلما أقام مدّة مقامه وسمع ديوان شعره . ارتحل وسار بمراكبه وظهوره وأثقاله وأحماله إلى أن نزل الجسر بالأهواز . وأخبرنا أبو الحسن السوسىّ فى دار الوقف بين السورَين ، قال : كنت أتولى الأهوازَ من قبل المهلّبىّ ، وورد علينا المتنبي ونزل عن فرسه ومِقوَده بيده ، وفتح عِيابَه وصناديقَه لبللٍ مسّها فى الطريق ، وصارت الأرضُ كأنها مطارفُ منشورة تحضرتهُ أنا وقلت : قد أقمت للشيخ نُزُلا . فقال المتنبي : إن كان ثَمّ فآتيه . ثم جاءه فاتك الأسد بجَمْع وقال : قدم الشيخ فى هـذه الديار وشرّفها بشعره ، والطريق بينه وبين دَيرقُنّة خشِنٌ قد احتوشَتهُ الصعالكة ، وبنو أسدٍ يسيرون فى خدمته إلى أن يقطع هذه المسافة ويبر كلّ واحد منهم بثوب بياض . فقال المتنبي : ما أبقى الله بيدى هذا الأدهم وذبابَ الجراز الذى أنا متقلدّه فإنى لا أفكر فى مخلوق ! فقام فاتك ونفض ثوبه وجمع من رُتوت الأعاريب الذين يشربون دماء الحجيج حَسْواً ، سبعين رجلا ورصد له ، فلما توسط المتنبي الطريق خرجوا عليه فقتلوا كل من كان فى صحبته ، وحَمل فاتكٌ على المتنبي وطعنه فى يساره ونكّسه عن فرسه . وكان ابنه أفلت إلا

أنّه رجع يطلب دفاتر أبيه فقنع خلفه الفرسَ أحدُهم وجزّ رأسه ، وصبّوا أمواله يتقاسمونها بطُرُطورة :

وقال بعض من شاهده : إنه لم تكن فيه فروسيّة ، وإنما كان سيف الدولة سلمه إلى النخّاسين والروّاضِ بحلب ، فاستجرأ على الركض والحُضر فأما استعمال السلاح فلم يكن من عمله .

وجملة القول فيه : أنه من حفاظ اللغة ورواة الشعر ، وكل ما فى كلامه من (الغريب المصنف) سوى حرف واحد هو فى (كتاب الجمهرة) وهو قوله :

يَطْوِى المُجَلَّحَةَ العُقُدْ(١)

وأما الحكم عليه وعلى شعره : فهو سريع الهجوم على المعانى ، ونعتُ الخيل والحرب من خصائصه ؛ وما كان يرادّ طبعَه فى شىء مما يسمح به ، يقبل الساقط الردىء كما يقبل النادر البدع ، وفى متن شعره وَهْى ، وفى ألفاظه تعقيد وتعويص اهـ كلامه مع بعض اختصار .

---

(١) من بيت هذا نصه :

وَأَمْضِى كما يَمْضِى السنانُ لِطِيَّتِى وَأَطْوِى كما تَطْوِى المجلَّحَةَ العُقُدْ

شراح المتنبي

وإليك تراجم بعض شراح المتنبي ، ممن ورد ذكرهم في هذا الشرح . . . وقولنا هنا : « شراح المتنبي » إنما هو ضرب من التسامح ؛ لأن منهم من لم يضع شرحا بالمعنى المتعارف ، أي أنهم لم يضعوا شروحا تامة كاملة ، وإنما تصدّوا لشرح بعض مشكلات الأبيات . أو لنقد بعض الشراح فيما ذهبوا إليه من شرح وتفسير أو لسرقات المتنبي ، مثل أبي السعادات بن الشجري ، وابن فورّجه ، وأبي الفضل العروضي . وابن وكيع ، والصاحب ابن عباد ، وأبي بكر الخوارزمي . ولم نتبسط في هذه التراجم . ولم ننهج فيها منهجا تحليليا يخرج بنا عما قصدنا إليه منها وهو التعريف بمن تتعثر بأسمائهم في هـذا الشرح حتى تـكون على بصيرة تامة بكل ما يتصل بهذا الشاعر المحظوظ ، ومن ثم لم نَعْدُ أن نسرد لك في هذه التراجم تاريخ مولد المترجم له وتاريخ وفاته وطرفا من أخباره وسيرته وتواليفه ومكانته العلمية وآراء الناس فيه .

ابن جنى

أظنني في غير حاجة إلى التعريف بأن أبا الفتح عثمان بن جني هو أول من شرح المتنبي ، فله بذلك فضل السبق ، ومن ثَمَّ كان حقيقا بأن نبدأ بترجمته . . .

***

جاء في معجم الأدباء لياقوت وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ما تلخيصه :

أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي : كان أبوه جني مملوكا روميا لسليمان ابن فهد بن أحمد الأزدي الموصلي ـ أقول : فهو إذن من أبناء يونان ، لامن

أبناء عدنان . . و بعبارة أخرى : هو من أبناء الموالى ، شأنه شأن أكثر حملة العلم ، ونوابغ الشعراء والأدباء فى الإسلام — وإلى أصله أشار بقوله :

فإنْ أُصْبِحِ بلاَ نَسَبٍ فَعِلْمِي فى الورى نَسَبِي
على أنِّى أَؤُولُ إلى قُرُومٍ سادَةٍ نُجُبِ
قَيَاصِرَةٌ إذا نَطَقُوا أَرَمَّ الدَّهْرُ ذو الخُطَبِ[1]
أُولاكَ دعَا النبيُّ لَهُمْ كَفَى شرَفًا دُعَاءُ نَبِى

ولد ابن جنى بالموصل قبل الثلاثين والثلثمائة للهجرة ، وتوفى يوم الجمعة لليلتين بقيتا من صفر سنة ٣٩٢ ﻫ ببغداد . وكان أبو الفتح مُمَتَّعًا بإحدى عينيه ، وما أظرفه حين يقول لأحد أصدقائه :

صدودكَ عَنِّى ولا ذَنْبَ لى دليل على نِيَّةٍ فاسِده
فَقَدْ وحياتك مما بَكَيْتُ خَشِيتُ على عَيْنِيَ الواحِدَه
ولولاَ مَخَافَة ألاَّ أراكَ لما كان فى تَرْكِها فائِدَه

وَحَدَّثوا أنه صحب أبا على الفـارسى[2] أربعين سنة ، وكان السبب فى

---

(١) أرم الرجل إرماما : سكت ، ويقال كلمه فما ترمرم : أى مارد جوابا وما ترمرم فلان بحرف : أى ما نطق ، وفى حديث عائشة رضى الله عنها ـ : كان لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحش ، فإذا خرج ـ أى رسول الله ـ لعب ـ أى الوحش ـ وجاء وذهب ، فاذا جاء ربض ولم يترمرم مادام فى البيت : أى سكن ولم يتحرك

(٢) كان أبو على الفارسى إمام وقته فى علم النحو ولد سنة ٢٨٨ وتوفى سنه ٣٧٧ ببغداد : وأقام بحلب عند سيف الدولة ، وكان قدومه عليه سنة ٣٤١ وجرت بينه وبين أبى الطيب المتنبى مجالس ، ثم انتقل إلى بلاد فارس ، وصحب عضد الدولة بن بويه ، وحظى لديه وعلت منزلته حتى قال عضد الدولة: أنا غلام أبى على فى النحو وقد صنف له كتاب الإيضاح والتكملة فى النحو . . يحكى أنه كان يوما فى ميدان شيراز يساير عضد الدولة فقال له : لم انتصب المستثنى فى قولنا قام القوم إلا زيدا؟

صحبته له : أن أبا على اجتاز بالموصل ، فمر بالجامع وأبو الفتح فى حلقة يُقرِىء النحو وهو شاب ، فسأله أبو علىّ عن مسألة فى التصريف فقصّر فيها ، فقال له أبو علىّ : تَزَبَّبْتَ وأنت حِصرِم . . . فسأل عنه ، فقيل له : هذا أبو علىّ الفارسىّ ، فلزمه من يومئذ ، واعتنى بالتصريف ، فما أحد أعلم منه به ولا أقوم بأصوله ، وفروعه ، ولا أحسن أحد إحسانه فى تصنيفه ؛ فلما مات أبو علىّ تصدر أبو الفتح فى مجلسه ببغداد ، فأخذ عنه كثير من أعلام العلماء . . . وحدّث أبو الحسن الطرائفى قال : كان أبو الفتح عثمان بن جنى يحضر بحلب عند المتنبى كثيراً ويناظره فى شىء من النحو من غير أن يقرأ عليه شيئاً من شعره ، أَنَفَةً واستكباراً لنفسه ، وكان المتنبى يقول فى أبى الفتح : هذا رجل لايعرف قدرَه كثير من الناس . . . وسئل المتنبى بشيراز عن قوله :

وكان ابنا عُدُوٍّ كاثَرَاهُ . له ُ ياءَىْ حُروفِ انيسيانِ[1]

فقال : لو كان صديقنا أبو الفتح حاضراً لفسرَه . . . وكان لابن جنى من الولد علىّ وعالٍ وعلاء ، وكلهم أدباء فضلاء قد خَرّجهم والدهم وحَسّن خطوطهم ، فهم معدودون فى الصحيحى الضبط وحسنى الخط . . . ولابن جنى شعر ــ ولكنه كسائر شعر العلماء ــ فمنه :

فقال أبو على : بفعل مقدر ، فقال له : كيف تقديره ؟ فقال : أستثنى زيدا ، فقال له عضد الدولة : هلا رفعته وقدرت الفعل امتنع زيد ؟ فانقطع أبو على وقال له : هذا الجواب ميدانى . . . ولما رجع إلى منزله وضع فى ذلك كلاما حسنا وحمله إليه فاستحسنه . . وذكر فى كتاب الإيضاح أنه انتصب بالفعل المتقدم بتقوية إلا . .

(١) من قصيدة يمدح بها عضد الدولة وولديه أبا الفوارس وأبا دلف ويذكر طريقه بشعب بوان . انظر القصيدة التى مطلعها :

مغانِى الشعبِ طِيباً فى المغانى . بمنزلة الربيع من الزمان

غَزالٌ غيرُ وَحشيٍّ حَكى الوحشيَّ مُقْلَتَهُ

رآهُ الوَردُ يجني الوَرْ دَ فاستكساهُ حُلَّتَهُ

وَشَمَّ بأنفِهِ الرّيحا نَ فاستهداه زَهرتَه

وذاقت رِيحَهُ الصهبا ءُ فاختلسته نَكْهتَهُ(١)

وقال الباخَرْزى فى دمية القصر : ليس لأحد من أئمة الأدب فى فتح المقفلات ، وشرح المشكلات ، ماله ، وما كنت أعلم أنه ينظم القريض ، أو يسيغ ذلك الجريض(٢) حتى قرأت له مرثية فى المتنبى أولها :

غاضَ القَريضُ وأودَت نضرَةُ الأدَبِ
وصَوَّحَت بعد رِيٍّ دَوحةُ الكُتُبِ(٣)

ما زِلتَ تَصحَبُ فى الجُلَّى إذا انْشَعَبَت
قَلْباً جميعاً وعَزماً غيرَ مُنْشَعِبِ(٤)

وَقد حَلَبتَ لعَمرِى الدَّهرَ أشْطُرَهُ
تَمطُو بِهِمَّةِ لاوَانٍ وَلاَ نَصِبِ(٥)

---

(١) الصهباء من أسماء الخمر ، والنكهة رائحة الفم .
(٢) الريق الذى يغص به
(٣) صوح النبات يبس وتشقق ، والدوحة الشجرة العظيمة .
(٤) الجلى الأمر العظيم وجمعها جلل مثل كبرى وكبر ، وقلب جميع ورأى جميع ومجتمع : شديد غير منتشر ، ومنشعب متفرق .
(٥) يقال حلب الدهر أشطره ، مارس الأيام وخبرها ، والمطو الجد والنجاء فى السير ، ووان : متمهل ، ونصب : تعب .

مَنْ لِلهَوَاجِلِ يُحْيِي مَيْتَ أَرْسُمِهَا
بِكُلِّ جَائِلَةِ التَّصْدِيرِ والحَقَبِ (١)
قَبَّاءَ خَوْصَاءَ مَحْمُودٍ عُلاَلَتُهَا
تَنْبُو عَرِيكَتُهَا بِالْحِلْسِ وَالقَتَبِ (٢)
أَمْ مَنْ لِبِيضِ الظُّبَا تَوْكَافُهُنَّ دَمٌ
أَمْ مَنْ لِسُمْرِ الْقَنَا وَالزَّغْفِ وَالْيَلَبِ (٣)
أَمْ لِلجَحَافِلِ يُذْكِي جَمْرَ جَاحِمِهَا
حَتَّى يُقَرِّبَهَا مِنْ جَاحِمِ اللَّهَبِ (٤)
أَمْ لِلمَحَافِلِ إِذْ تَبْدُو لِتَعْمُرَهَا
بِالنَّظْمِ وَالنَّثْرِ وَالأَمْثَالِ وَالْخُطَبِ
أَمْ لِلصَّوَاهِلِ مُحْمَرًّا سَرَابِلُهَا
مِنْ بَعْدِ مَا غَرَبَتْ مَعْرُوفَةُ الشُّهُبِ (٥)
أَمْ لِلمَنَاهِلِ وَالظَّلْمَاءُ عَاطِفَةٌ
يُوَاصِلُ الْكَرَّ بَيْنَ الْوِرْدِ وَالقَرَبِ (٦)

---

(١) الهواجل : الصحراوات ، وجائلة التصدير والحقب : أي ناقة هذه صفتها ويقال صدر بعيره إذا شده بحبل من حزامه إلى كركرته ، والحقب : حبل يشدبه الرحل فى بطنه .

(٢) القباء من الخيل : الخميصة البطن . والأقب الضامر البطن : والخوصاء الغائرة العينين ، والحلس : كساء تجلل به الدابة يوضع تحت البرذعة .

(٣) الظبا : أطراف السيوف ، والتوكاف مصدر وكف يستعمل فى الدمع والمطر إذا نزلا ، وسمر القنا : الرماح ، والزغف : الدروع ، واليلب : الدروع اليمانية

(٤) الجحفل الجيش العظيم .

(٥) محمراً سرابلها : فالسرابيل : الثياب. يقول : مضرجة بالدماء.

(٦) المناهل موارد الماء . والقرب : طلب الماء ليلا .

أم لِلقساطِلِ تعتمُّ الحُـــزُونُ بها
أم منَ لِضَغمِ الهِزَبرِ الضَّـيغمِ الحَرِبِ (١)
أم لِلمُلوكِ يُحَلّيها وَيُلبِسُـها حَتَّى تمايَسُ فى أبرادِها القُشُبِ (٢)
باتَت وِسادِىَ أطرابٌ تُورِّقُنِى لَـمّاغدَوتَ لَقًى فِى قبضةِ النُّوَبِ (٣)
عُمِّرتَ خِدنَ المَساعِى غيرَ مُضطَهَدٍ كَالنَّصلِ لَم يَدّنِس يوماً وَلَم يُصَبِ
فاذهَب عَليكَ سَـلامُ المَجدِ ما قَلِقَت
خُوصُ الرَّكائِبِ بالأكوارِ وَالشُّعُبِ

ومن شعر ابن جنى :

رأيتُ محاسِنَ ضِحكِ الرَّبيعِ أطَالَ عليها بُكاءُ السَّحابِ
وَقَد ضَحِكَ الشَّيبُ فى لِمَّتِى فَلِمْ لا أُبكِّى رَبيعَ الشبابِ
أأشرَبُ فى الكأسِ ـ كَلاَّ وحاشا ـ لأبصرَهُ فى صَفاءِ الشراب

ومنه :

تَحَبَّبْ أو تَدَرَّعْ أو تَأَبَّى فَلاَ وَاللهِ لاَ أَزْدادُ حُبًّا
أَخَذْتَ بِبعضِ حُبكَ كلَّ قَلبى فإنْ رُمتَ المَزيدَ فهاتِ قَلبا

قال ياقوت : وقرأت بخط الشيخ أبى منصور بن الجواليق : قال لنا

---

(١) القساطل : جمع قسطل : الغبار المنعقد فوق الرؤس فى حومة الوغى ، والضغم العض أو النهش ، والهزبر الضيغم الحرب : الأسد .

(٢) تمايس : بحذف إحدى التاءين . أى تتمايس وتتخايل

(٣) اللقى ، الشىء الملقى فى الطريق ونحوه .

أبو زكريا : رأيت بخط ابن جنى : أنبأنا أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد القَرميسِينى عن أبى بكر محمد بن هارون الرويانى عن أبى حاتم سهل بن محمد السجستانى قال : قرأ علىّ أعرابى « طِيْبَى لهم وَحُسنُ مآب » فقلت « طُوبَى » فقال « طِيبَى » فقلت ثانياً « طُوبَى » فقال « طِيبَى » فلما طال على قلت : « طُوطُو » فقال الأعرابى « طِى طِى » أما ترى إلى هذه النحيزَة ما أبقاها وأشد محافظة هذا البَدَوى عليها حتى أنه استُكره على تركها فأبى إلا إخلاداً إليها ! ونحو ذلك قال عمرو الكلبى وقد أنشد بعض أهل الأدب :

بانت نَعيمةُ والدنيا مفــرَّقَةٌ ... وحال من دونها غَيرانُ مزعــوجُ

فقيل له : لايقال مزعُوج ، إنما يقال مُزعَجٌ ، فجفا ذلك عليه ، وقال يهجو النحويين :

ماذا لقينا من المستعربين ومن ... قياس نحوهم هذا الذى ابتدعوا
إن قلت قافية بِكراً يكون بها ... بيت خلاف الذى قاسوه أو ذرعوا
قالوا لَحَنتَ وهذا ليس منتصبا ... وذاك خفض وهذا ليس يرتفع
وَحرّضُوا بين عبد الله من حُمُقٍ ... و بين زيد فطال الضرب والوجع
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم ... و بين قوم على إعرابهم طُبعوا
ما كل قولِىَ مشروحاً لكم فخذوا ... ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا
لأن أرضِىَ أرض لا تُشَبُّ بها ... نار المجوس ولا تبنى بها البِيَع

قال ابن جنى : وعلى نحو ذلك فخضرنى قديماً بالموصل أعرابى عَقيلى جَوْنِىٌّ تميمىٌّ ، يقال له محمدُ بنُ العسّافِ الشَّجَرِىّ ، وقلما رأيت بدوياً أفصح منه ، فقلت له يوماً ـ شَغفاً بفصاحتِهِ والتذاذاً بمطاولته ، وجرياً على العادة معه فى إيقاظ طبعه واقتداح زَنْدِ فِطنته : كيف تقول : « أكرم أخوك أباك » فقال كذاك ، فقلت له : أفتقول : « أكرم أخوك أبوك » فقال : لا أقول

« أبوك » أبداً فقلت : فكيف تقول « أ كرمني أبوك » فقال كذلك ، قلت : ألَسْتَ تزعُم أنك لا تقول « أبوكَ » أبداً ؟ فقال « إيْش هذا ؟ اختلفت جهتا الكلام » فهل قوله اختلفت جهتا الكلام إلا كقولنا نحن هو الآن فاعل وكان فى الأول مفعولا! فانظر إلى قيام معانى هذا الأمر فى أنفسهم وإن لم تقطع بعبارتهم.

أخبرنى أبو علىّ عن أبى بكر عن أبى العباس قال : سمعت عمارة بن عقيل ابن بلال بن جرير يقرأ : « وَلاَ اللَّيلُ سَابِقُ النهَار » فقلت له : ما أردت ؟ قال أردت سابقَ النهارِ ، فقلت له : فهلا قلته ؟ فقال لو قلته لكان أوزن أى أقوى وأفصح ، ففى هذه الحكاية من فقه العربية ثلاثة أشياء : أحدها : أنهم قد يراعون من معانيهم ما ننسبه إليهم ونحمله عليهم ، والثانى : أنهم قد ينطقون بالشىء وفى أنفسهم غيره ، ألا ترى أنه لما نص أبو العباس عليه واستوضح ما عنده قال : « أردت كذا » وهو خلاف ما لفظ به ، والثالث : أنهم قد ينطقون بالشىء وغيره أقوى منه استلانة وتخفيفاً ، ألا تراه كيف قال : لو قلته لكان أوزنَ ، أى أقوى وأعربَ . .

قال ابن جِنىّ : وسألت الشجرىّ صاحبنا ، هذا الذى قد مضى ذكره ، قلت له : كيف يا أبا عبد الله تقول : « اليوم كان زيد قائماً ؟ » فقال : كذلك ، فقلت : فكيف تقول «اليوم إن زيدا قائم ؟» فأباها ألبتة ، وذلك أن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها ، لأنها إنما تأتى أبداً مستقبلة قاطعة لما قبلها عما بعدها وما بعدها عما قبلها قلت له يوماً ولابن عمّ له يقال له غصن — وكان أصغر منه سناً وألين لساناً : كيف تحقران « حَمْرَاء » فقالا : حُميرَاء ، قلت : فصفراء قالا : «صفيراء» قلت : « فسوداء » قالا : « سويداء » واستمررت بهما فى نحو هذا ، فلما استويا عليه دسست بين ذلك « عِلْبَاء » فقلت « فعلباء » فأسرع ابن عمه على طريقته فقال : « علبياء » وكان الشجرى يقولها معه ، فلما هم بفتح الباء استرجع مستنكرا

فقال إهْ « عُلَيْبَى » وأشم الفتحة دائماً للحركة فى الوقف ، وتلك عادة . . . قال ابن جنى : فسألته يوماً : يا أبا عبد الله ، كيف تجمع مُحرَنْجماً ـ وكان غرضى من ذلك أن أعلم ما يقوله : يكسّر فيقول حَراجم أم يصححُ فيقول محرنجماتٌ فذهب هو مذهباً غير ذين فقال : « وإيش فرقه حتى أجمعه ؟ وصَدَق ، وذلك أن المحرنجم هو المجتمع : يقولها ماراً على شكيمته غير مُحِسٍّ لما أريده منه والجماعة معى على غاية الاستغراب لفصاحته ، قلت له : فدع هذا : إذا أنت مررت بإبل محرنجمةٍ وأخرى مُحرَنْجمةً ، وأخرى محرنجمة . تقول : مررت بإبل ماذا ؟ فقال ـ وقد أحس الموضع ـ « ياهذا هكذا أقول : مررت بإبل محرنجماتٍ » وأقام على التصحيح ألبتة استيحاشاً من تكسير ذوات الأربعة لِمُصاقبتها ذوات الخمسة التى لا سبيل إلى تكسيرها لاسيما إذا كان فيها زيادة والزيادة قد تُعتَدُّ فى كثيرٍ من المواضع اعتداد الأصول حتى إنها لتلزم لزومها نحو : كوكب ، وحوشبَ(١) ، وضَيْوَنَ(٢) ، وهَزَنبرانَ(٣) ، ودَودرّى(٤) ، وقرَنفُلَ ، وهذا موضعٌ يحتاج إلى إصغاء إليه وإرعاء عليه ، والوقت لتلاحمه وتقارب أجزائه مانع منه ويعين الله فيما يليه على المعتقد المنوى فيه بقدرته ، وسألته يوماً كيف تجمع سرحاناً ؟ فقال : سراحين ، قلت : فدكاناً ، قال : دكاكين قلت : فقُرطَاناً ، قال : قراطين ، قلتُ : فعثمان ، قال : عثمانون ، قلت ، هلا قلت عثامين كما قلت سراحين وقراطين ؟ فأباها ألبتة وقال : « إيش ذا ؟ أرأيت إنساناً يتكلم بما ليس من لغته ؟ والله لا أقولها أبداً . . استوحش من تكسير العلم إكثاراً له لاسيما وفيه الألف والنون اللتان بابهما فعلان الذى لا يجوز فيه فعالين نحو : سكران وغضبان ...

---

(١) الأرنب أو ولد البقرة الذكر والثعلب الذكر (٢) السنور الذكر أو دويبة تشبهه (٣) يقال : رجل هزنبر وهزبران ، أى حديد وثاب (٤) الذى يذهب ويجىء من غير حاجة .

ونكتفى بهذا المقدار من التعريف بأبى الفتح بن جنى شارح المتنبى ، وإذا أردت الزيادة والوقوف على فهرس مؤلفاته فارجع إلى معجم الأدباء ج ١٢ طبعة فريد الرفاعى .

الواحــدى

وهذا الإمام أبو الحسن علىّ بن أحمد بن محمد بن علىّ الواحدى النيسابورى أحد شراح المتنبى هو ـ كما قال ياقوت وابن خلكان وغيرهما ـ الإمام المصنف المفسر النحوى أستاذ عصره ، وواحد دهره ، أنفق صباه ، وأيام شبابه فى التحصيل ، فأتقن الأصول على الأئمة ، وطاف على أعلام الأمة ، وتتلمذ لأبى الفضل العروضى (١) ، وقرأ النحو على أبى الحسن الضرير القهندزى ، ولازم مجالس الثعلبى (٢) فى تحصيل التفسير . . . ثم أخذ فى التصنيف ، وقعد للإفادة والتدريس سنين ، وتخرج به طائفة من الأئمة سمعوا منه وقرأوا عليه وبلغوا محل الإفادة ، وكان حقيقاً بكل احترام وإعظام ، لولا ما كان فيه من غمزه وإزرائه على الأئمة المتقدمين و بسطه اللسان فيهم بغير ما يليق بماضيهم . قال الحسن بن المظفر النيسابورى : أبو الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى هو الذى قيل فيه :

قد جمع العالم فى واحد عالمنا المعروف بالواحدى

---

(١) سيمر بك فى هذه الترجمة

(٢) قال ابن خلكان : أبو إسحاق احمد بن محمد إبراهيم الثعلبى النيسابورى المفسر المشهور : كان أوحد زمانه فى علم التفسير وكان يقال له الثعلبى والثعالبى وهو لقب له وليس بنسب، توفى سنة ٤٢٧ وهو ـ طبعاً ـ غير الثعالبى صاحب يتيمه الدهر

قال ومن غرر شعره :

أيا قادماً من طوسَ أهلا ومرحباً ... بقيت على الأيام ما هبت الصبا
لعمرى لئن أحيا قدومك مدنفاً ... بحبك صبًّا فى هــواك معذَّبا
يظلُّ أسيرَ الوجدِ نهبَ صبابةٍ ... ويمسى على جمرِ الغضا متقلبا
فكم زفرةٍ قد هِجتها لو زفرتها ... على سدِّ ذى القرنين أمسى مذوَّبا
وكم لوعةٍ قاسيتُ يومَ تركتنى ... ألاحظ منك البدرَ حين تغيَّبا
وعادَ النهارُ الطلق أسودَ مظلماً ... وعادَ سنا الإصباح بعدك غيهبا
وأصبح حسن الصبرِ عنِّىَ ظاعناً ... وحدَّد نحوى البينُ ناباً ومخلبا
فأُقسِم لو أبصرتَ طرفىَ باكياً ... لشاهدتَ دمعاً بالدِّماء مخضَّبا
مسالكُ لهوٍ سدَّها الوجدُ والجوى ... وروضُ سرورٍ عاد بعدك مجدبا
فداؤك روحى يا ابنَ أكرم والدٍ ... ويامَن فؤادى غير حبِّيه قد أبَى

وأنشد له :

تشوَّهتِ الدنيا وأبدت عـوارَها
وضاقت علىَّ الأرضُ بالرحبِ والسَّعه
وأظلمَ فى عينى ضياه نهارها
لِتوديع من قــد بان عنى بأربعه
فؤادى وعيشى والمسرة والكرى
فإن عاد عادَ الكلُّ والأنسُ والدَّعه

وقال أبو الحسن الواحدى فى مقدمة البسيط : وأظننى لم آلُ جهداً فى أحكام أصول هـذا العلم حسب ما يليق بزمننا هذا وتسعه سِنو عُمرى على قلة أعدادها ، فقد وفق الله — وله الحمد — حتى اقتبست كل ما احتجت

إليه فى هذا الباب من مَظَانّه ، وأخذته من معادِنه ، أما اللغة فقد درستها على الشيخ أبى الفضل أحمد بن محمد بن عبد الله بن يوسف العروضى رحمه الله[١] . وكان قد خنق التسعين فى خدمة الأدب ، وأدرك المشايخ الكبار وقرأ عليهم وروى عنهم كأبى منصور الأزهرى ، روى عنه كتاب التهذيب وغيره من الكتب ، وأدرك أبا العباس العامرى ، وأبا القاسم الأسدى ، وأبا نصر طاهر بن محمد الوزيرى ، وأبا الحسن الرُّخجِى ، وهؤلاء كانوا فرسان البلاغة وأئمة اللغة ، وسمع أبا العباس الأصم وروى عنه ، واستخلفه الأستاذ أبو بكر الخوارزمى على درسه عند غيبته . وله المصنفات الكبار والاستدراكات على الفحول من العلماء باللغة والنحو ؛ وكنت قد لازمته سنين أدْخُل عليه عند طلوع الشمس وأخرج لغروبها ، أسمع وأقرأ وأعلق وأحفظ وأبحث وأذاكر أصحابه ما بين طرفى النهار ، وقرأت عليه الكثير من الدواوين واللغة حتى عابنى شيخى — رحمه الله — يوماً وقال : إنك لم تبق ديواناً من الشعر إلا قضيت حقه ، أما آن لك أن تتفرغ لتفسير كتاب الله العزيز تقرؤه على هذا الرجل الذى تأتيه البعداء من أقصى البلاد ، وتتركه أنت على قرب ما بيننا من الجوار — يعنى الأستاذ الإمام أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى — فقلت : يا أبت إنما أتدرج بهذا إلى ذلك الذى تريد ، وإذا لم أحكم الأدب بجد وتعب ، لم أرم فى غرض التفسير من كثَبٍ ، ثم لم أغِبَّ زيارته فى يوم من الأيام حتى حال بيننا قدر الحِمام .

---

(١) جاء فى بغية الوعاة : أحمد بن محمد بن عبدالله بن يوسف بن محمد بن مالك النهشلى الأديب أبو الفضل العروضى الصفار الشافعى : هو شيخ أهل الأدب فى عصره ، حدث عن الأصم وأبى منصور الأزهرى والطبقة ، وتخرج به جماعة من الأئمة منهم الواحدى .. إلى أن قال : جاز السبعين فى خدمة الكتب وأنفق عمره فى مطالعة العلوم وتدريس مؤدبى نيسابور . ولد سنة ٣٣٤ ومات بعد سنة ٤١٦ .

وأما النحو فإنى لما كنت فى ميعة صباى وشرخ شبيبتى وقعت إلى الشيخ أبى الحسن على بن محمد بن إبراهيم الضرير ، وكان من أبرع أهل زمانه فى لطائف النحو وغوامضه ، وأعلمهم بمضايق طرق العربية وحقائقها ، ولعله تفرس فىَّ ، وتوسم الخير لدىّ ، فتجرد لتخريجى ، وصرف وُكْدَه إلى تأديبى ، ولم يدخر عنى شيئاً من مكنون ما عنده حتى استأثرنى بأفْلاذِهِ ، وسعدت به أفضل ما سعد تلميذ بأستاذه ، وقرأت عليه جوامع النحو والتصريف والمعانى ، وعلقت عنه قريباً من مائة جزء فى المسائل المشكلة ، وسمعت منه أكثر مصنفاته فى النحو والعروض والعلل ، وخصنى بكتابه الكبير فى علل القراءة المرتبة فى كتاب الغاية لابن مِهران ، ثم ورد علينا الشيخ أبو عمران المغربى المالكى ، وكان واحد دهره ، وباقعة عصره ، فى علم النحو ، لم يلحق أحد مما سمعناه شأوه فى معرفة الإعراب . ولقد صحبته مدة فى مقامه عندنا حتى استَنْزَفْتُ غُرر ما عنده .

وأما القرآن وقراءات أهل الأمصار واختيارات الأئمة فإنى اختلفت إلى الأستاذ أبى القاسم على بن أحمد البستى رحمه الله وقرأت عليه القرآن ختمات كثيرة لا تحصى ، حتى قرأت عليه أكثر طريقة الأستاذ أبى بكر أحمد بن الحسين ابن مهران ، ثم ذهبت إلى الإمامين أبى عثمان سعيد بن محمد الحيرى ، وأبى الحسن على بن محمد الفارسى ، وكانا قد انتهت إليهما الرياسة فى هذا العلم ، وأشير إليهما بالأصابع فى علو السن ورؤية المشايخ وكثرة التلامذة وغزارة العلوم وارتفاع الأسانيد والوثوق بها ، فقرأت عليهما وأخذت من كل واحد منهما حظاً وافراً بعون الله وحسن توفيقه ، وقرأت على الأستاذ سعيد مصنفات ابن مهران ، وروى لنا كتب أبى على الفسوى عنه[1] وقرأت عليه بلفظى كتاب الزّجّاج بحق روايته عن ابن مقسم عنه ، وسمع بقراءتى الخلق الكثير ، ثم فرغت للأستاذ أبى إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى رحمه الله وكان خير العلماء

---

(١) هو أبو على الفارسى .

بل بحرهم ، ونجم الفضلاء ، بل بدرهم ، وزين الأئمة بل فخرهم ، وأوحد الأمة بل صدرهم ، وله التفسير الملقب بالكشف والبيان عن تفسير القرآن ، الذى رفعت به المطايا فى السهل والأوعار وسارت به الفلك فى البحار ، وهبت هبوب الريح فى الأقطار .

فَسارَ مَسِيرَ الشمس فى كلِّ بلدةٍ
وَهَبَّ هُبوبَ الرِّيحِ فى البَرِّ وَالْبَحرِ

وأصفقَت عليه كافة الأمة على اختلاف نِحَلِهم ، وَأَقرُّوا له بالفضيلة فى تصنيفه ما لم يسبق إلى مثله ، فمن أدركه وَصَحِبَهُ عَلِمَ أنه منقطع القرين ، ومن لم يدركه فلينظر فى مصنفاته ليستدلَّ بها على أنه كان بحراً لا يُنزَف وَغمراً لا يُسبَرُ ، وقرأت عليه من مصنفاته أكثر من خمسمائة جزء ، مِنْهَا تفسيره الكبيرُ وكتابه المعنون بالكامل فى علم القرآن وغيرهما ، ولو أثبت المشايخ الذين أدركتهم واقتبست عنهم هذا العلم من مشايخ نيسابور وسائر البلاد التى وطأتها طال الخطب وَمَلَّ الناظِرُ ، وقد استخرت الله العظيم فى جمع كتاب أرجو أن يمدنى الله فيه بتوفيقه مشتمل على ما نقمتُ على غيرى إهماله ، ونعيت عَلَيْهِ إغفاله ، لا يدعُ لمن تأمله حَزَّةً فى صدره حتى يخرجه من ظلمة الرّيبِ والتخمين ، إلى نور العلم واليقين ، هذا بعد أن يكون المتأمل مرتاضاً فى صنعة الأدب والنحو ، مهتدياً بطرق الحِجَاج ، مارحاً فى سلوك المنهاج ، فأما الْجَذَعُ الْمُرخَى من المقتبسين ، والرَّيِّض الكزّ من المبتدئين ، فإنَّهُ مع هذا الكتاب كمزاوِلِ غَلَقاً ضاع عَنْهُ المفتاح ؛ ومتخبط فى ظلماء لَيْل خانَهُ المصباح :

يُحاوِلُ فَتقَ غَيْمٍ وهو يأبى
كَعِنِّينٍ يُرِيدُ نِكاحَ بِكْرِ

ثُمَّ قال بعد كلامٍ : إنَّ هذا الكتاب مُجالة الوقتِ ، وَقبسةُ العجلانِ ، وتذكرة يستصحبها الرجل حيث حل وارتحل وَإن أنسئ الأجل ،

وأُرخِيَ الطِوَلُ ، وأنظرَنى الليلُ والنهارُ ، حتى يتلفع بالمشيب العِـذارُ أردفته بكتابٍ أُنْضِجُهُ بنار الرَّوية ، وأُرَدِّده على رُواق الفـكرة ، وأضمنه عجائب ما كتبته ، ولطائف ما جمعته ، وعلى الله المعول فى تيسير ما رُمت ، وله الحَمْدُ كلما قعدتُ أو قمتُ .

ابن فورجه

قال ياقوت ـ ونقله السيوطى فى بغية الوعاة ـ : هو محمد بن حمد بن محمد بن عبد الله بن محمود بن فورجه ـ بضم الفاء وسكون الواو وتشديد الراء المفتوحة وفتح الجيم ـ البروجردىّ ، أديب فاضل مصنف ، له كتاب الفتح على أبى الفتح ، والتجنى على ابن جنى ، يرد فيه على أبى الفتح بن جنى فى شرح شعر المتنبى ، ومولده فى ذى الحجة سنة ثلاثين وثلاثمائة ، كان موجوداً سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، ومن شعره :

أيها القاتلى بعينيه رفقا　　إنما يستحق ذا من قلا كا
أكثر اللائمون فيك عتابى　　أنا واللائمون فيك فدا كا
إن لى غيرة عليك من اسمى　　إنه دائمـــا يقبل فا كا

هذا وقد ضبطه ابن شاكر صاحب فوات الوفيات . هكذا : ابن فوزَجَّه فقال : بضم الفاء وسكون الواو وفتح الزاى وتشديد الجيم .

ابن القطاع الصقلى

قال ابن خلكان : هو أبو القاسم على بن جعفر ... إلى آخر النسب قال : كان أحد أئمة الأدب خصوصاً اللغة . وله تصانيف نافعة منها كتاب الأفعال ، أحسن فيه كل إحسان ، وهو أجود من الأفعال لابن القوطية ، وإن كان ذلك قد سبقه إليه . وله كتاب أبنية الأسماء ، جمع فيه فأوعى ، وفيه دلالة على كثرة اطلاعه وله عروض حسن جيد ، وكتاب الدرة الخطيرة فى المختار من شعر شعراء الجزيرة ، وكتاب لمح الملح ، جمع فيه خَلْقاً من شعراء الأندلس . وكانت ولادته فى العاشر من صفر سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة بصقلية ، وقرأ الأدب على فضلائها كابن البر اللغوى وأمثاله ، وأجاد فى النحو غاية الإجادة ، ورحل عن صقلية لما أشرف على تملكها الفرنج ، ووصل إلى مصر فى حدود سنة خمسمائة وبالغ أهل مصر فى إكرامه ، وكان ينسب إلى التساهل فى الرواية ومن شعره فى ألثغ :

وشادنٍ فى لسانه عُقَدٌ ... حَلت عقودى وأوهنت جَلدى
عابوه جهلا بها فقلت لهم ... أما سَمِعتم بالنَّفْث فى العقد

وله من قصيدة :

فلا تُنفدن العمر فى طلب الصبا ... ولا تشقيَن يوما بِسُعْدَى ولا نعم
ولا تندبن أطلال ميــة باللوى ... ولا تسفحن ماء الشؤون على رَسم
فإن قُصارَى المرء إدراك حاجة ... وتبقى مذمات الأحاديث والإثم

ومن شعره فى غلام اسمه حمزة :

يامن رمى النار فى فؤادى ... وأنبط العين بالبــكاء
إسمك تصحيفه بقلبى ... وفى ثناياك برء دائى
أُردُد سلامى فإن نفسى ... لم يبق منها سوى الذماء

وارفق بصب أتى ذليلا قد مزّج اليأسَ بالرجاء
أنهكه فى الهوى التجنّى فصـــار فى رقة الهواء

وله شعر كثير ، وتوفى بمصر فى صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة رحمه الله تعالى .

ابن الإفليـــلى

كان هذا أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا بن مفرج بن يحيى بن زياد بن عبد الله بن خالد بن سعد بن أبى وقاص القرشى الزهرى المعروف بابن الإفليلى (١) إماماً من أئمة النحو واللغة ، ترجمه ابن خلكان فى بضعة أسطر ، وذكره ابن بسام عرضاً كذلك ، قال فى بضعة أسطر لمناسبة تعرض ابن شهيد له فى رسالة التوابع والزوابع إذ قال ابن شهيد : وأما أبو القاسم الإفليلى فإنه من نفسى مكين ، وحبه بفؤادى دخيل ، على أنه متحامل علىّ ، ومنتسب إلىّ . . . فقال ابن بسام نقلا عن ابن حيان المؤرخ : كان ابن الإفليلى الذى به عرَض قد بذّ أهل زمانه بقرطبة فى علم اللسان العربى والضبط لغريب اللغة فى أشعار الجاهلية والإسلام والمشاركة فى بعض معانيها ، وكان غيوراً على ما يحمل من ذلك الفنّ كثير الحسد فيه ، راكباً رأسه فى الخطإ البيّن إذا أنشب فيه ، يجادل عليه ولا يصرفه صارف عنه ، وعَدِمَ علم العروض ومعرفته مع احتياجه إليه وكمال صناعته به ، فلم يكن له رسوخ فيه ، وكان لحق الفتنة البربرية ومَضَى الناس من حائر وظاعن ، فازدلف إلى الأمراء الكائنين بقرطبة من آل حمود إلى أن نال الجاه ؛ واستكتبه محمد بن

---

(١) الإفليلى - بكسر الهمزة وسكون الفاء وكسر اللام وسكون الياء - المثناة من تحتها وبعدها لام ثانية، هذه النسبة إلى الإفليل وهى قرية بالشام كان أصله منها .

عبد الرحمن المستكفى بعد ابن بُرْد ، فوقع كلامه نائياً عن البلاغة ، لأنه كان على طريقة المعلمين المتكلمين ، فلم يَجْرِ فى أساليب الكتاب المطبوعين ، فزَهد فيه ، وما بلغنى أنه ألف فى شيء من فنون المعرفة إلا شرْحَه ديوان المتنبي لاغير ، ولحقته تهمة فى دينه أيام هشام المروانى فى جملة من تتبع من الأطباء فى وقته كابن عاصم والساسى والحمار وغيرهم ، وطلب ابن الإفليلى وسجن بالمُطْبِق ، ثم أطلق . . . . وقال ابن خلكان : كان متصدراً بالأندلس لإقراء الأدب ، وكان حافظاً للأشعار ذاكراً للأخبار وأيام الناس ، وكان عنده من أشعار أهل بلاده قطعة صالحة ، وكان أشد الناس انتقاداً للكلام ، صادق اللهجة ، حسن المغيب ، صافى الضمير ، وكانت ولادته فى شوال سنة ٣٥٢ ، وتوفى يوم السبت ١٣ ذى القعدة سنة ٤٤١ ، ودفن فى صحن مسجد خرب عند باب عامر بقرطبة .

الصاحب بن عباد

هو الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن أبى الحسن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطالقانى . قال ابن خلكان : كان نادرة الدهر وأعجوبة العصر فى فضائله ومكارمه وكرمه ، أخذ الأدب عن أبى الحسين أحمد بن فارس اللغوى صاحب كتاب المجمل فى اللغة ، وأخذ عن أبى الفضل بن العميد وغيرهما ، وقال أبو منصور الثعالبى فى كتابه اليتيمة فى حقه : ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله فى العلم والأدب وجلالة شأنه فى الجود والكرم ، وتفرده بالغايات فى المحاسن ، وجمعه أشتات المفاخر ، لأن همة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ، وجَهدُ وَصْفى يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه ... ثم شرع فى شرح بعض محاسنه وطرف من أحواله .

وقال أبو بكر الخوارزمى فى حقه : الصاحب نشأ من الوزارة فى حجرها ، ودب ودرج من وكرها ، ورضع أفاويق دَرّها ، وورثها عن آبائه كما قال أبو سعيد الرستمى فى حقه :

وَرِثَ الوزارة كابراً عن كابرٍ موصولةَ الإسناد بالإسناد
يروى عن العباس عبادٌ وزا رته و إسماعيل عن عباد

وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد فقيل له صاحب ابن العميد ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة و بقى علماً عليه .

وذكر أبو إسحاق الصابى فى كتاب التاجى : أنه إنما قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا وسماه الصاحب فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به ثم سمى به كل من ولى الوزارة بعده ، وكان أولا وزير مؤيد الدولة أبى منصور بويه بن ركن الدولة بن بويه الديلمى ، تولى وزارته بعد أبى الفتح على بن أبى الفضل بن العميد ، فلما توفى مؤيد الدولة فى شعبان سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة بجرجان استولى على مملكته أخوه فخر الدولة أبو الحسن على فأقر الصاحب على وزارته ، وكان مبجلا عنده ومعظماً نافذ الأمر ، وأنشده أبو القاسم الزعفرانى يوماً أبياتاً نونية من جملتها :

أيا من عطاياه تُهدى الغِنَى إلى راحتَىْ مَن نأى أودنا
كسوت المقيمين والزائرين كِسًى لم نخلْ مِثلَها ممكنا
وحاشيةُ الدار يمشون فى صُنوفٍ من الخزّ إلا أنا

فقال الصاحب : قرأت فى أخبار معن بن زائدة الشيبانى أن رجلا قال له : احملنى أيها الأمير ، فأمر له بناقة وفرس و بغل وحمار وجارية ، ثم قال : لو علمت أن الله سبحانه وتعالى خلق مركوباً غير هذا لحملتك عليه ، وقد أمرنا لك من الخزّ بجُبّةٍ وقميص ، وعمامة ، ودُرّاعة ، وسراويل ، ومنديل ، ومطرف ، ورداء ، وكساء ،

وجورب ، وكيس ، ولو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخز لأعطيناكم ، واجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره ومدحوه بِغُرَرِ المدائح ، وكان حسن الأجوبة رفع الضرابون من دار الضرب إليه رقعة فى مظلمة مترجمة بالضرابين ، فوقع تحتها : فى حديد بارد ، وكتب بعضهم إليه ورقة أغار فيها على رسائله وسرق جملة من ألفاظه فوقّع فيها : هذه بضاعتنا ردّت إلينا ؛ وحبس بعض عماله فى مكان ضيق بجواره ثم صعد السطح يوماً فاطلع عليه فرآه ، فناداه المحبوس بأعلى صوته ، فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ، فقال الصاحب : إخْسَؤُا فيها ولا تكلمون ، ونوادره كثيرة ، وصنف فى اللغة كتاباً سماه المحيط وهو فى سبعة مجلدات رتبهُ على حروف المعجم كثَّر فيه الألفاظ وقلّل الشواهد فاشتمل من اللغة على جزء متوفر ، وكتاب الكافى فى الرسائل وكتاب الأعياد ، وفضائل النيروز ، وكتاب الإمامة يذكر فيه فضائل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه و يثبت إمامة من تقدمه ، وكتاب الوزراء ، وكتاب الكشف عن مساوىء شعر المتنبى ، وكتاب أسماء الله تعالى وصفاته ، وله رسائل بديعة ونظم جيد فمنه قوله :

وشـــادِنٍ جمالُه تَقْصُرُ عنه صِفَتِى
أهْوَى لِتقبيل يدى فقلت قبّل شفتى

وله فى رقة الخمر :

رَقّ الزُّجاجُ وَرَاقَتِ الخمرُ وتَشَابها فتَشَــا كل الأمرُ
فـكأنما خمـرٌ ولا قدحٌ وكأنما قدح ولا خمــر

وحكى أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسى النحوى : أن نوح بن منصور أحد ملوك بنى سامان كتب إليه ورقة فى السر يستدعيه ليفوضّ إليه وزارته وتدبير أمر مملكته ، فـكان من جملة أعذاره إليه : أنه يحتاج لنقل كتبه خاصة إلى أربعمائة جمل ، فما الظن بما يليق بها من التحمل ؟ وأخباره كثيرة .

قال ابن خلكان : وكان مولده لأربع عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة سنة ست وعشرين وثلثمائة بأصطخر وقيل بالطالقان ، وتوفى ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس وثمانين وثلثمائة بالرى ثم نقل إلى أصبهان رحمه الله تعالى ودفن فى قبة بمحلة تعرف بباب دزيه وهى عامرة إلى الآن وأولاد بنته يتعاهدونها بالتبييض .

قال أبو القاسم بن أبى العلاء الشاعر الأصبهانى : رأيت فى المنام قائلا يقول لى لِمَ لِمْ ترثِ الصاحب مع فضلك وشعرك ؟فقلت ألجمتنى كثرة محاسنه فلم أدرِ بما أبدأ منها ؟ وقد خفت أن أقصر وقد ظن بى الاستيفاء لها ، فقال أجز ما أقوله فقلت قل ، فقال :

* ثوَى الجود والكافى معاً فى حفيرة *

فقلت : * ليأنس كل منهما بأخيه *

فقال : * هما اصطحبا حَيَّيْنِ ثم تعانقا *

فقلت : * ضجيعين فى لحد بباب دزيه *

فقال : * إذا ارتحل الثاوون عن مستقرهم *

فقلت : * أقاما إلى يوم القيامة فيه *

ذكر هذا البيّاسى فى حماسته ، ورأيت فى أخباره أنه لم يسعد أحد بعد وفاته كما كان فى حياته غير الصاحب ، فإنه لما توفى أغلقت له مدينة الرى واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته وحضر مخدومه فخر الدولة وسائر القواد وقد غيروا لباسهم فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس وقعد للعزاء أياماً ، ورثاه أبو سعيد الرستمى بقوله :

أَبَعْدَ ابن عبّاد يَهَشُّ إلى السُّرَى أخُو أملٍ أو يُستماحُ جَوادُ

أبى الله إلا أن يموتا بموته فما لهما حتى المعادِ معادُ

وتوفى والده أبو الحسن عباد بن العباس فى سنة أربع أو خمس وثلاثين وثلثمائة رحمه الله تعالى ، وكان وزير ركن الدولة بن بويه ، وهو والد فخر الدولة ووالد عضد الدولة فناخسرو ممدوح المتنبى ، وتوفى فخر الدولة فى شعبان سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، ومولده فى سنة إحدى وأربعين وثلثمائة ، والطالقانى ـ بفتح الطاء المهملة وبعد الألف لام مفتوحة ثم قاف ـ وبعد الألف الثانية نون : هـذه النسبة إلى الطالقان ، وهو اسم لمدينتين إحداهما بخراسان والأخرى من أعمال قزوين ، والصاحب المذكور أصله من طالقان قزوين ، لا طالقان خراسان .

أبو بكر الخوارزمى

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى ـ وهو كما قال ابن خلكان ـ ابن أخت أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ ـ قال ابن خلكان : كان أحد الشعراء المجيدين الكبار المشاهير ، وكان إماماً فى اللغة والأنساب أقام بالشام مدة وسكن بنواحى حلب ، وكان يشار إليه فى عصره . ويحكى أنه قصد حضرة الصاحب بن عباد وهو بأرّجان فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجابه : قل للصاحب عَلَى البابِ أحد الأدباء ، وهو يستأذن فى الدخول ، فدخل الحاجب وأعلمه ، فقال الصاحب : قل له قد ألزمت نفسى أن لا يدخل علىّ من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك ، فقال له أبو بكر : ارجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال ، فقال الصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمى فأذن له فى الدخول ، فدخل عليه فعرفه وانبسط له ، وأبو بكر المذكور له ديوان رسائل وديوان شعر ، وقد ذكره الثعالبى فى كتاب اليتيمة ، وذكر قطعة من نثره ثم أعقبها بشىء من نظمه فمن ذلك قوله :

رأيتك إن أيسرت خيمت عندنا
مُقيماً وإنْ أعسرتَ زُرْتَ لماما
فما أنتَ إلاّ البدرُ إنْ قلَّ ضوؤُه
أغبَّ وإنْ زادَ الضياء أقاما

ومن شعره أيضاً :

يا مَنْ يحاول صرفَ الراح يشربها
ولا يفكُّ لما يلقاه قرطاسا
الكأسُ والكيسُ لم يُقضَ امتلاؤُهما
ففرّغ الكيسَ حتى تملأ الكاسا

وفيه يقول أبو سعيد أحمد بن شهيب الخوارزمى :

أبو بكرٍ لهُ أدبٌ وفضلٌ ولكن لا يدومُ على الوفاء
مودّته إذا دامت لخِلٍّ فمِنْ وقتِ الصباح إلى المساء

وملحه ونوادره كثيرة .

ولما رجع من الشام سكن نيسابور ، ومات بها فى منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة ، وذكر شيخنا ابن الأثير فى تاريخه : أنه توفى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، وكان قد فارق الصاحب بن عباد غير راض فعمل فيه :

لا تحمدنّ ابن عبادٍ وإنْ هطلت يداه بالجود حتى أخجل الدِّيَما
فإنه خطراتٌ مِنْ وساوسِه يُعطى ويمنع لا بُخلاً ولا كرَما

فبلغ ابن عباد ذلك ، فلما بلغه خبر موته أنشده :

أقول لِركْبٍ من خراسانَ قافلٍ أماتَ خوارزميكمْ ؟ قيل لى نعم
فقلت اكتبوا بالجص مِنْ فوقِ قبره ألا لعنَ الرحمنُ مَنْ كفرَ النعم

العميدى

« صاحب الإبانة عن سرقات المتنبى »

قال ياقوت : أبو سعيد محمد بن أحمد بن محمد العَمِيدى : أديب نحوى لغوى مصنف ، سكن مصر .

قال أبو إسحاق الحبال : أبو سعيد العميدى : له أدبيات . . . مات يوم الجمعة لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، قال : وكان العميدى يتولى ديوان الترتيب ، وعزل عنه – كما ذكر الروذبارى – فى سنة ثلاث عشرة فى أيام الظاهر ، ووليه ابن معشر ، ثم تولى ديوان الإنشاء بمصر فى أيام المستنصر ، استخدم فيه عوضاً من ولى الدولة بن خيران الكاتب فى صفر سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ، وتولى الديوان بعده أبو الفرج الذهلى فى جمادى الآخرة من سنة ست وثلاثين وأربعمائة . قال : وله تصانيف فى الأدب ، منها : كتاب تنقيح البلاغة فى عشرة مجلدات ، رأيته بدمشق فى خزانة الملك المعظم وعليه خطه ، وقد قرىء عليه فى شعبان سنة إحدى وثلاثين وأربعمائةٍ ، وكتاب الإرشاد إلى حَلّ المنظوم والهداية إلى نظم المنثور ، وكتاب انتزاعات القرآن ، وكتاب العروض ، كتاب القوافى كبير .

قال على بن مشرف : أنشدنا أبو الحسين محمد بن محمود بن الدليل الصواف بمصر قال : أنشدنا أبو سعيد محمد بن أحمد العميدى لنفسه :

إذا ما ضاق صدرى لم أجد لى   مقرّ عبادةٍ إلاَّ القَرَافَهْ
لئن لم يَرْحم المولى اجتهادِى   وقلة ناصرى لم ألق رَافَهْ

ابن وكيع

وهذا ابن وكيع هو ـ كما قال ابن خلكان والثعلبي ـ أبو محمد الحسن ابن علي بن أحمد بن خلف بن حيان بن صدقة بن زياد الضبي ، المعروف بابن وكيع التنيسي . . . شاعر بارع ، وعالم جامع ، قد برع أهل زمانه ، فلم يتقدمه أحد فى أوانه ، وله كل بديعة تسحر الأوهام ، وتستعبد الأفهام ، وله ديوان شعر جيد ، وله كتاب بَيَّنَ فيه سرقات أبى الطيب ، سماه المنصف ، وكان فى لسانه عجمة ، ومن شعره :

سلا عن حبك القلب المشوق ... فما يصبو إليك ولا يتوق
جفاؤك كان عنك لنا عزاء ... وقد يُسْلِى عن الولد العقوق

وله أيضاً :

إن كان قد بعد اللقاء فودّنا ... باق ونحن على النوى أحباب
كم قاطع للوصل يؤمن ودّه ... ومواصــل بوداده يرتاب

وله أيضاً :

لقد شمت بقلبي ... لا فرّج الله عنه
كم لمتــه فى هواه ... فقال لا بد منه

وقد ألمّ بهذا المعنى بعضهم فقال :

لا رعى الله عزمة ضمنت لى ... سلوة القلب والتصبر عنه
ما وفت غير ساعة ثم عادت ... مثل قلبي تقول لا بد منه

ومثله قول أسامة بن منقذ :

لا تستعر جلداً على هِجْرانهم ... فقواك تضعف عن صدود دائم
واعلم بأنك إن رجعت إليهم ... طوعاً وإلا عدت عودة راغم

وقال بعض الفقهاء : أنشدت الشيخ مرتضى الدين أبا الفتح نصر بن محمد ابن مقلد القضاعى الشيزرى المدرس كان بتربة الإمام الشافعى رضى الله عنه بالقرافة لابن وكيع المذكور :

لقد قنعت همتى بالخمول وصدّت عن الرتب العاليه
وما جهلت طَعْم طيب العلا ولكنها تؤثر العافيه

فأنشدنى لنفسه على البديهة :

بقدر الصعود يكون الهبوط فإياك والرتب العاليه
وكن فى مكان إذا ما سقطت تقوم ورجلاك فى العافيه

ولابن وكيع أيضاً :

أبصره عاذلى عليه ولم يكن قبل ذا رآه
فقال لى : لو هويت هذا ما لامك الناس فى هواه
قل لى إلى من عدلت عنه فليس أهل الهوى سواه
فظل من حيث ليس يدرى يأمر بالحب من نهاه

قال ابن خلكان : وكنت أنشدت هذه الأبيات لصاحبنا الفقيه شهاب الدين محمد ولد الشيخ تقى الدين عبد المنعم المعروف بالخيمى ، فأنشدنى لنفسه فى المعنى :

لو رأى وجه حبيبى عاذلى لتفاصلنا على وجه جميل

وهذا البيت من جملة أبيات ، ولقد أجاد فيه وأحسن فى التورية ، ولابن وكيع كل معنى حسن ، وكانت وفاته يوم الثلاثاء لسبع بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة بمدينة تِنِّيس ، ودفن فى المقبرة الكبرى فى القبة التى بنيت له بها رحمه الله تعالى . ووَكِيع بفتح الواو وكسر الكاف وسكون الياء المثناة من تحتها و بعدها عين مهملة ، وهو لقب جدّه أبى بكر محمد بن خلف وكان نائباً فى الحكم بالأهواز لعبدان الجواليقى ، وكان فاضلا نبيلا فصيحا من

أهل القرآن والفقه والنحو والسير وأيام الناس وأخبارهم ، وله مصنفات كثيرة ، فمنها كتاب الطريق وكتاب الشريف وكتاب عدد آى القرآن والاختلاف فيه وكتاب الرمى والنضال وكتاب المكاييل والموازين وغير ذلك ، وله شعر كشعر العلماء ، وتوفى يوم الأحد لست بقين من شهر ربيع الأول سنة ست وثلثمائة ببغداد .

وقال ابن قانع : توفى عبدان الأهوازى سنة سبع وثلثمائة بعسكر مكرم رحمه الله تعالى ؛ والتنيسى بكسر التاء المثناة من فوقها وكسر النون المشددة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها سين مهملة نسبة إلى تنيس مدينة بديار مصر بالقرب من دمياط .

الخطيب التبريزى

هو أبو زكريا يحيى بن على بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيبانى التبريزى المعروف بالخطيب ، قال ابن خلكان : كانت له معرفة تامة بالأدب ، من النحو واللغة وغيرهما ، قرأ على الشيخ أبى العلاء المعرى . وأبى القاسم عبد الله بن على الرقى ، وأبى محمد الدهان اللغوى وغيرهم من أهل الأدب ، وسمع الحديث بمدينة صور من الفقيه أبى الفتح سليم بن أيوب الرازى ومن أبى القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الله بن يوسف الدلال الساوى البغدادى وأبى القاسم عبد الله بن على وغيرهم ، وروى عنه الخطيب الحافظ أبو بكر أحمد ابن على بن ثابت صاحب تاريخ بغداد ، والحافظ أبو الفضل محمد بن ناصر وأبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقى ، وأبو الحسن سعد الخير بن محمد ابن سهل الأندلسى وغيرهم من الأعيان ، وتخرج عليه خلق كثير وتتلمذوا له ؛ وذكره الحافظ أبو سعيد السمعانى فى كتاب الذيل وكتاب الأنساب وعدد فضائله ثم قال : سمعت أبا منصور محمد بن عبد الملك بن الحسن بن خيرون

المقرىء يقول : أبو زكريا يحيى بن على التبريزى ما كان بمَرضِىّ الطريقة ، وذكر عنه أشياء . ثم قال : وذاكرت أنا مع أبى الفضل محمد بن ناصر الحافظ بما ذكره ابن خيرون فسكت عنه وكأنه ما أنكر ما قال ، ولكن كان ثقة فى اللغة وما كان ينقله ، وصنف فى الأدب كتبا كثيرة مفيدة : منها شرح الحماسة وكتاب شرح ديوان المتنبى ، وكتاب شرح سقط الزند وهو ديوان أبى العلاء المعرى ، وشرح المعلقات السبع وشرح المفضليات ، وله تهذيب غريب الحديث ، وتهذيب إصلاح المنطق ، وله فى النحو مقدمات حسنة والمقصود منها أسرار الصنعة وهى عزيزة الوجود ، وله كتاب الكافى فى علم العروض والقوافى ، وكتاب فى إعراب القرآن سماه الملخص رأيته فى أربعة مجلدات وشروحه لكتاب الحماسة ثلاث أكبر وأوسط وأصغر ، وله غير ذلك من التآليف ، ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد ، وكان سبب توجهه إلى أبى العلاء المعرى : أنه حصلت له نسخة من كتاب التهذيب فى اللغة تأليف أبى منصور الأزهرى فى عدة مجلدات لطاف وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة فدل على المعرى فجعل الكتاب فى مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ولم يكن له ما يستأجر به مركوبا فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل ، وهى ببعض الوقوف ببغداد وإذا رآها من لا يعرف صورة الحال فيها ظن أنها غريقة وليس بها سوى عرق الخطيب المذكور ، وكان الخطيب قد دخل مصر فى عنفوان شبابه فقرأ عليه بها الشيخ أبو الحسن طاهر بن بابشاذ النحوى من اللغة ثم عاد إلى بغداد واستوطنها إلى الممات .

وكان يَرْوِى عن أبى الحسن محمد بن المظفر بن محيريز البغدادى جملة من شعره ، فمن ذلك قوله على ما حكاه السمعانى فى كتاب الذيل فى ترجمة الخطيب وهى من أشهر أشعاره :

خليلى ما أحلى صبوحى بدجلة   وأطيب منه بالصراة غبوقى

شربت على الماءين من ماء كرمة فكانا كدر ذائب وعقيق
على قمرى أفق وأرض تقابلا فمن شائق حلو الهوى ومشوق
فما زلت أسقيه وأشرب ريقه وما زال يسقيني ويشرب ريق
وقلت لبدر التم تعرف ذا الفتى فقال نعم هـذا أخى وشقيق

وهذه الأبيات من أملح الشعر وأطرفه والبيت الأخير منها يستمد من معنى قول أبي بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة الأندلسي فى مدح المعتمد ابن عباد صاحب إشبيليه من جملة قصيدة طويلة :

سألت أخاهُ البحر عنه فقال لى شقيق إلا أنه الساكن العذب

ما كفاه أنه جعله شقيق البحر حتى رجحهُ عليه فقال : الساكن العذب والبحر مضطرب مالح ، وهذا من خالص المدح وأبدعه وأول هـذه القصيدة :

بكت عند توديعى فما علم الركب أذاك سقيط الطل أم لؤلؤ رطب
وتابعها سرب وَإنى لمخطىء نجوم الدياجى لا يقال لها سرب

وهى قصيدة طويلة . وللخطيب أيضاً :

فمَن يَسأم من الأسفار يوما فإنى قد سئمت من المقام
أقمنا بالعراق على رجال لئام ينتمون إلى لئام

وقال الخطيب : كتب إلىَّ العميد الفياض :

قل ليحيى بن على والأقاويل فنون
غير أنى لست من يكـذبُ فيها ويخون
أنت عين الفضل إن مد إلى الفضل عيون
أنت مَن عَز به الفضـل وقد كاد يهون
فقت من كان واتعبت لعمرى من يكون
قد مضى فيك قران ومضى قبل قرون
وإذا قيس بك الـكل فصحو ودجون

وإذا فتش عنهم فالأحاديث شجون
قد سمعنا ورأينا فسهول وحزون
ووزنا بك من كا ن فقيل وقيون
أين شيبان وأزد كل ما زال ظنون
إنك الأصل ومن دو نك فى العلم غصون
إنك البحر وأعيا ن ذوى الفضل عيون
ليس كالسيف وإن حلـ ـل فى الحكم جفون
ليس كالقدح المعلى ليس كالبيت الحجون
ليس كالجد وإن آ نس هزل ومجون
ليس فى الحسن سواء أبداً بيض وجون
ليس كالأبكار فى اللـ ـطف وإن راقتك عون
قلت للحساد كونوا كيف شئتم أن تكونوا
سبق الزائد بالفضل فعزوا أو فهونوا
دمت ما خالف فى الحد حراك وسكون
وتلقاك المنى ما قر بالطير الوكون
إن ودى لك عما يصم الود مصون
ليس لى فيه ظهور تتنافى أو بطون
بل لقلبى فيك صب بالمصافاة يكون
غلق الرهن وقد تغلـ ـق فى الحب رهون
ومن الناس أمين فى هواه وخؤون

وقال ابن الجواليقى : قال لنا شيخنا الخطيب أبو زكريا : فكتبت أنا إلى العميد الفياض المذكور هذه الأبيات :

قل للعميد أخى العلا الفياض أنا قطرة من بحرك الفياض

شرفتنى ورفعت ذكرى بالذى ألبستنيه من الثنا الفضفاض
ألبستنى حلل القريض تفضلا فرفلت منها فى علا ورياض
إنى أثيتك بالحصى عن لؤلؤ أبرزته من خاطر مرتاض
وبخاطرى عن مثل ذاك توقف ما إن يكاد يجود بالابعاض
العارض البحر الغُطَامِطُ جدول أم درة تتقاس بالرضراض
يا فارس النظم المرصع جوهرا والنثر يكشف غمة الأمراض
يرمى به الغرض البعيد وقد غدا فكرى يقصر عن مدى الأغراض
لا تلزمنى من ثنائك موجباً حقا فلست لحقه بالقاضى
فلقد عجزت عن القريض وربما أعرضت عنه أيما إعراض
أنعم علىّ يبسط عذرى إننى أقررت عند نداك بالإنقاض

وكانت ولادته سنة إحدى وعشرين وأربعمائة وتوفى فجأة يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسمائة ببغداد ودفن فى مقبرة باب أبرز رحمه الله تعالى ، وبسطام بكسر الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وبعد الألف ميم .

العكبرى

أما الإمام العُكبَرى فهو أبو البقاء عبد الله بن أبى عبد الله الحسين بن أبى البقاء عبد الله بن الحسين العكبرى الأصل البغدادى المولد والدار الفقيه الحنبلى الحاسب الفرضى النحوى الضرير الملقب محب الدين ، أخذ النحو عن أبى محمد بن الخشاب وعن غيره من مشايخ عصره ببغداد ، وسمع الحديث من أبى الفتح محمد بن عبد الباقى بن أحمد المعروف بابن البطى ومن أبى زرعة

طاهر بن محمد بن طاهر المقدسى وغيرهما ، ولم يكن فى آخر عمره فى عصره مثله فى فنونه ، وكان الغالب عليه علم النحو وصنف فيه مصنفات مفيدة وشرح كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى ، وديوان المتنبى ، وله كتاب إعراب القرآن الكريم فى مجلدين وكتاب إعراب الحديث لطيف ، وكتاب شرح اللُّمع لابن جِنّى وكتاب اللباب فى علل النحو وكتاب إعراب شعر الحماسة ، وشرح المفصَّل للزمخشرى شرحاً مستوفى ، وشرح الخطب النُّباتيّة والمقامات الحريرية وصنف فى النحو والحساب ، واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به واشتهر اسمه فى البلاد وهو حىّ وبَعُدَ صِيته وكانت ولادته سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة وتوفى ليلة الأحد ثامن شهر ربيع الآخر سنة ست عشرة وستمائة ببغداد ودفن بباب حرب رحمه الله تعالى . والعكبرى بضم العين المهملة وسكون الكاف وفتح الباء الموحدة و بعدها راء، هذه النسبة إلى عُكْبَرا وهى بليدة على دجلة فوق بغداد بعشرة فراسخ خرج منها جماعة من العلماء وغيرهم .

ابن الشجرى

هو الشريف أبو السعادات هبة الله بن على بن محمد بن حمزة الحسنى المعروف بابن الشجرى البغدادى . قال ابن خلكان : كان إماماً فى النحو واللغة وأشعار العرب وأيامها وأحوالها كامل الفضائل متضلعا من الأدب صنّف فيه عدّة تصانيف ، فمن ذلك كتاب الأمالى ، وهو أكبر تآليفه وأكثرها إفادة أملاه فى أربعة وثمانين مجلسا ، وهو يشتمل على فوائد جمة من فنون الأدب وختمه بمجلس قَصَرَه على أبيات من شعر أبى الطيب المتنبى تكلم عليها وذكر ما قاله الشرّاح فيها وزاد من عنده ما سَنَحَ له ، وهو من الكتب الممتعة ، ولما فرغ من إملائه حضر إليه أبو محمد عبد الله المعروف بابن

الخشاب والتمس فيه سماعه عليه ، فلم يجبه إلى ذلك ، فعاداه وردّ عليه فى مواضع من الكتاب ونسبه فيها إلى الخطأ ، فوقف أبو السعادات المذكور على ذلك الردّ فردّ عليه فى ردّه وبين وجوه غلطه وجمعه كتاباً وسماه الانتصار ، وهو على صغر حجمه مفيد جداً وسمعه عليه الناس ، وجمع أيضاً كتاباً سماه الحماسة ضاهى به حماسة أبى تمام الطائى ، وهو كتاب غريب مليح أحسن فيه ، وله فى النحو عدة تصانيف : ما اتفق لفظه واختلف معناه ، وشرح اللمع لابن جنى ، وشرح التصريف الملوكى ، وكان حسن الكلام حلو الألفاظ فصيحاً جيد البيان والتفهيم ، وقرأ الحديث بنفسه على جماعة من الشيوخ المتأخرين مثل أبى الحسن المبارك بن عبد الجبار بن أحمد القاسم الصيرفى ، وأبى على محمد بن سعيد بن شهاب الكاتب وغيرهما . وذكره الحافظ أبو سعيد بن السمعانى فى كتاب الذيل وقال : اجتمعنا فى دار الوزير أبى القاسم على بن طراد الزينبى وقت قراءتى عليه الحديث وعلقت عنه شيئاً من الشعر فى المدرسة ثم مضيت إليه وقرأت عليه جزءاً من أمالى أبى العباس ثعلب النحوى .

وحكى أبو البركات عبد الرحمن بن الأنبارى النحوى فى كتابه الذى سماه مناقب الأدباء : أن العلامة أبا القاسم محموداً الزمخشرى لما قدم بغداد قاصداً الحج فى بعض أسفاره مضى إلى زيارة شيخنا أبى السعادات ابن الشجرى فمضينا معه إليه فلما اجتمع به أنشده قول المتنبى .

وأستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صغّر الخبرَ الخُبْرُ

ثم أنشده بعد ذلك :

كانت مساءلة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أحسن الخبر
ثم التقينا فلا والله ما سمعت أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

وهذان البيتان منسوبان إلى أبى القاسم محمد بن هانىء الأندلسى وينسبان

إلى غيره أيضاً ؛ قال ابن الأنبارى : فقال العلامة الزمخشرى : روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لما قدم عليه زيد الخيل قال له : يا زيدما وصف لى أحد فى الجاهلية فرأيته فى الإسلام إلا رأيته دون ما وصف لى ، غيرك ؛ قال ابن الأنبارى : فخرجنا من عنده ونحن نعجب كيف يستشهد الشريف بالشعر والزمخشرى بالحديث وهو رجل أعجمى ؟ وكان ابن الشجرى نقيب الطالبيين بالكرخ نيابة عن والده الطاهر وله شعر حسن ، فمن ذلك قصيدة يمدح بها الوزير نظام الدين أبا نصر المظفر بن على ابن محمد بن جهير وأولها :

هذى السديرة والغدير الطافح ... فاحفظ فؤادك إننى لك ناصح
ياسِدْرَةَ الوادى الذى إن ضله الـ ... ـسارى هداه نشره المتفاوح
هل عائد قبل الممات لمغرم ... عيش تقضى فى ظلالك صالح
ما أنصف الرشأ الضنين بنظرة ... لما دعى مُضْنَى الصبابة طامح
شط المزار بِهِ وبُوِّىء منزلا ... بصميم قلبك فهو دان نازح
غصن يعطفه النسيم وفوقه ... قمر يحف به ظلام جانح
وإذا العيون تساهمته لحاظها ... لم يرو منه الناظر المتراوح
ولقد مررنا بالعقيق فشاقنا ... فيه مراتع للمها ومسارح
ظللنا به نبكى فكم من مضمر ... وجداً أذاع هواه دمع سافح
برت السنون رسومها فكأنما ... تلك العراصُ المقفراتُ نواضح
يا صاحِبَيَّ تأملا حُيِّيتما ... وسقى دياركما المُلِثُّ الرائح
أدُمًى بدت لعيوننا أم رَبْرَبٌ ... أم خُرَّد أكفالهن رواجح
أم هذه مُقَلَ الصوارِ رَنَت لنا ... خِلَلَ البراقع أم قنًا وصفائح
لم يبق جارحة وقد واجهننا ... إلا وهن لها بهن جوارح
كيف ارتجاع القلب من أسر الهوى ... ومِنَ الشقاوة أن يراض القارح
لو بله من ماء ضارج شربة ... ما أثرت للوجد فيه لواقح

ومن ههنا يخرج إلى المديح فأضربت عنه خوف الإطالة ، ولم يكن المقصود إلا إثبات شيء من نظمه لتستدل به على طريقته فيه ؛ ومن شعره أيضاً :

هل الوجد خاف والدموع شهود　　وهل مكذب قول الوشاة جحود
وحتى متى تفنى شئونك بالبكا　　وقد حَدَّ حدّاً لِلبُكاء لبيدُ
وإنى وإن خَفَّتْ قناتِيَ كَبْرَةً　　لذو مِرّةٍ فى النائبات جليد

وفيه إشارة إلى أبيات لبيد بن ربيعة العامرى وهى :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما　　وهل أنا إلا من رَبيعَة أو مُضَر
فَقُوما فَنُوحا بالذى تعلمانه　　ولا تَخْمِشَا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذى لا صديقه　　أضاع ولا خان العهود ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما　　ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وإلى هذا أشار أبو تمام الطائى بقوله :

ظعنوا فكان بكاء حول بعدهم　　ثم ارعويت وذاك حكم لبيد

وقال الشريف أبو السعادات المذكور ، أنشدنى أبو إسمعيل الحسين الطغرائى لنفسه :

إذا ما لم تكن ملكا مطاعا　　فكن عبداً لمالكه مطيعا
وإن لم تملك الدنيا جميعا　　كما تهواه فاتركها جميعا
هما سببان من ملك وتركٍ　　ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
فمن يقنع من الدنيا بشىء　　سوى هذين عاش بها وضيعا

وكان بين أبى السعادات المذكور وبين أبى محمد الحسن بن أحمد بن محمد ابن حكينا البغدادى الحريمى الشاعر المشهور تنافس جرت العادة بمثله بين أهل الفضائل فلما وقف على شعره عمل فيه قوله :

ياسيدى والذى يُعيذك من نَظم قَريض يَصْدَا به الفِكْر
مالك من جدك النبى سوى أنك ما ينبغى لك الشعر

وكانت ولادته فى شهر رمضان سنة خمسين وأربعمائة وتوفى يوم الخميس السادس والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ودفن من الغد فى داره بالكرخ من بغداد رحمه الله تعالى . والشجرى بفتح الشين المعجمة والجيم وبعدها راء : هذه النسبة إلى شجرة وهى قرية من أعمال المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ؛ وشجرة أيضاً اسم رجل قد سمّت به العرب ومن بعدها ، وقد انتسب إليه خلق كثير من العلماء وغيرهم ، ولا أدرى إلى من ينتسب الشريف المذكور منهما ، هل هو نسبة إلى القرية أم إلى أحد أجداده كان اسمه شجرة ؟ والله أعلم .

القاضى الجرجانى

هو أبو الحسن على بن عبد العزيز بن الحسن بن على بن إسماعيل الجرجانى قال ياقوت : كان أريباً أديباً كلاملا ، مات بالرَّىّ يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة ، سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وهو قاضى القضاة بالرى حينئذ ، وذكره الحاكم فى تاريخ نيسابور وقال : ورد نيسابور سنة سبع وثلاثين ، وثلاثمائة مع أخيه أبى بكر ، وأخُوه إذ ذاك فقيهٌ مناظر ، وأبو الحسن قد ناهز الحُلُم ، فسمعامعاً الحديث الكبير ، ولم يزل أبو الحسن يتقدم إلى أن ذُكِرَ فى الدنيا[1] . وحمل تابوته إلى جرجان فدفن بها ، وصلى عليه القاضى أبو الحسن عبد الجبار

---

(١) يريد إلى أن مات .

ابن أحمد ، وحضر جنازته الوزير الخطير أبو على القاسم بن على بن القاسم وزير مجد الدولة ، وأبو الفضل العارض ، رَاجلينِ ، ووقع الاختيار بعد موته على أبي موسى عيسى بن أحمد الديلمى ، فاستدعى من قَزوين وولى قضاء القضاة بالرى وله يقول الصاحب بن عباد ؛ وقد أنشأ عهداً للقاضى عبد الجبار على قاضى الرى :

إذا نحن سلمنا لك العلم كله ... فدعنا وهذِى الكتبَ نحْسِن صدورها
فإنهم لايرتضون مجيئنا ... بجزع إذا نَظّمت أنت شذورها[1]

وكان الشيخ عبد القاهر الجرجانى قد قرأ عليه واغترف من بحره ، وكان إذا ذكره فى كتبه تبخبخ به[2] وشمخ بأنفه بالانتماء إليه . وطوف فى صباه البلاد وخالط العباد ، واقتبس العلوم والآداب ولقى مشايخ وَقْتِهِ وعلماء عصره . وله رسائل مدونة ، وأشعار مُفَنّنة ، وكان جيد الخط مليحا يشبه بخط ابن مقلة ؛ ومن شعره :

أفدى الذى قال وفى كفه ... مثل الذى أشرب من فيه
الورد قد أينع فى وجنَتى ... قلت : فمى باللثم يجنيه

ومنه :

يقولون لى فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا فى موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهُمُ هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرِما
ومازلت منحازاً بعِرضِىَ جانبا ... من الذم أعْتَدُّ الصيانة مَغنما
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ... ولكنَّ نفس الحرّ تحتمل الظمأ
وما كل برقٍ لاح لى يَستَفِزّنِى ... ولا كلُّ أهل الأرض أرْضاه مُنْعِما

---

(١) الجزع : الخرز اليمانى .
(٢) أى قال : بخ بخ .

ولم أقضِ حق العلم إنْ كان كلَّماَ بَدا طَمعٌ صيَّرْتُه لِيَ سُلَّمَا
ولم أَبْتذل فى خدمة العلم مهجتى لأَخْدُمَ من لاقيت لكن لأُخْدَما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذِلةً؟ إذَنْ فابْتِياعُ الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانَهم ولو عظّموه فى النفوس تَعظَّما
ولكن أذَلوه جهاراً ودَنسوا مُحيّاه بالأطماع حتى تَجَهَّما

ومنـه :

وقالوا : اضطرب فى الأرض فالرزق واسع
فقلت : ولكن مطلب الرزق ضيق
إذا لم يكن فى الأرض حرٌ يُعيننى ولم يك لى كسب فمن أين أُرْزَق ؟

ومنـه :

أُحِبُّ اسمه من أجله وسَمِيَّهُ ويتبعه فى كل أخلافه قلبى
ويجتاز بالقوم العدا فأُحِبهم وكلهمُ طاوى الضمير على حربى

ومنه :

قد بَرَّح الشوق بمشتاقك فَأَوْلِهِ أحسن أخلاقك
لاتجفُه وارعَ له حقه فإنه خاتَمُ عُشّاقك

وللقاضي عدة تصانيف منها : كتاب تفسير القرآن المجيد ، كتاب تهذيب التاريخ كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وفى هـذا الكتاب يقول بعض أهل نيسابور :

أيا قاضياً قد دنَت كُتْبه وإن أصبحت داره شاحِطَهْ
كتاب الوساطة فى حسنه لِعِقدِ معاليك كالواسطه

ومن شعره :

وماتطعمت لذة العيش حتى صرتُ لِلبيتِ والكتاب جليسا
ليس شىء أعز عندى من العلْـ ـمِ فَلِمْ أبتغى سواه أنيسا !!

إنما الذل فى مخالطة النا س فدعهم وعش عزيزاً رئيسا

ومن سائر شعره قوله :

إذا شئت أن تستقرض المال منفقا

على شهوات النفس فى زمن العسر

فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها

عليك وإنظاراً إلى زمن اليسر

فإن فعلَتْ كُنْتَ الغنيَّ وإن أبت

فكل منوعٍ بعدها واسعُ العذر

وحدث الثعالبى عن أبى نصر التهذيبى قال : سمعت القاضى أبا الحسن على ابن عبد العزيز يقول : انصرفت يوماً من دار الصاحب وذلك قبيل العيد فجاءنى رسوله بعطر الفطر ومعه رقعة بخطه فيها هذان البيتان :

يا أيها القاضى الذى نفسى له مع قرب عهد لقائه مشتاقه
أهدَيْتُ عِطراً مِثلَ طيب ثنائه فكأنما أُهدى له أخلاقَهْ

قال وسمعته يقول : إن الصاحب يقسم لى من إقباله وإكرامه لى بجرجان أكثر مما يتلقانى به فى سائر البلاد ، وقد استعفيته يوما من فرط تحفيه بى وتواضعه لى ؛ فأنشدنى :

أكرم أخاك بأرض مولده وأمده من فعلك الحسنِ
فالعز مطلوب ومُلتمس وأعزه مانيل فى الوطن

ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى فى العينية فقلت : لعل مولانا يريد قولى :

وَشيَّدتُ مجدى بين قومى فلم أقل ألا ليت قومى يعلمون صنيعى

فقال : ماأردت غيره ، والأصل فيه قوله تعالى : « ياليْتَ قَومِى يَعلَمُونَ بما غَفرَ لِى رَبِّى وجَعَلَنى منَ المُكرَمين » قال الثعالبى : القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز، حسنة جرجان ، وفرد الزمان ، ونادرة الفلك ، وإنسان

حدقة العلم ، ودرة تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعر ، يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ، ونظم البحترى : وينظم عقد الإتقان ، والإحسان فى كل ما يتعاطاه ، « وأنشد بيت الصاحب المقدم ذكره » وقد كان فى صباه خلف الخضر فى قطع عرض الأرض ، وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرهما ، واقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به فى العلماء عَلَماً ، وفى الكمال عالماً ، ثم عرج على حضرة الصاحب فألقى بها عصا المسافر ، فاشتد اختصاصه به ، وحل منه محلا بعيداً فى رفعته ، قريباً فى أسرته ، وسير فيه قصائد أخلصت على قَصْد ، وفَرَائِدَ أتت من فَرْدٍ ، وما منها إلا صوب العقل ، وذوب الفضل ، وتقلد قضاء جرجان من يده ، ثم تصرفت به أحوال فى حياة الصاحب وبعد وفاته ، من الولاية والعُطْلة ، وترقى محله إلى قضاء القضاة بالرى ، فلم يعزله إلا موته رحمه الله تعالى .

وعرض علىّ أبو نصر المصعبى كتاباً للصاحب بخطه إلى حسام الدولة أبى العباس تاش الحاجب ، فى معنى القاضى أبى الحسن نسخته بعد التصيد والتشبيب : قد تقدم من وصفى للقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز فيما سبق إلى حضرة الأمير الجليل صاحب الجيش — دام علوه — من كتبى ما أعلم أنى لم أُوَدِّ فيه بعض الحق ، وإن كنت دللته على جملة تنطق بلسان الفضل ، وتكشف عن أنه من أفراد الدهر فى كل قسم من أقسام الأدب والعلم ، فأما موقعه منى : فالموقع الذى تخطبه هذه المحاسن وتوجبه هذه المناقب ، وعادته معى ألا يفارقنى مقيما وظاعناً ومسافراً وقاطناً ، وقد احتاج الآن إلى مطالعة جرجان بعد أن شرطت عليه تصيير المقام كالإلمام . فطالبنى مكانه بتعريف الأمير مصدره ومورده ؛ فإن عَنَّ له ما يحتاج إلى عرضه وجد من شرف إسعافه ما هو المعتاد من فضله ، ليتعجل انكفاؤه إلىّ بما رسم — أدام الله أيامه — من مظاهرته على ما يقدم الرحيل ويفسح السبيل من

بَذْرَقَةٍ[1] إن احتاج إلى الاستظهار بها ، ومخاطبة لبعض من فى الطريق بتعرف النهج فيها ، فإن رأى الأمير أن يجعل من حظوظى الجسيمة عنده تعهد القاضى أبى الحسن بما يعجل رده فإنى ما غاب كالمُضِلِّ الناشد ، وإذا عاد كالغانم الواجد ، فعل إن شاء الله .

ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة فى إظهار مساوىء المتنبى ، عمل القاضى أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه فى شعره ، فأحسن وأبدع ، وأطال وأطاب ، وأصاب شاكلة الصواب ، واستولى على الأمد فى فصل الخطاب ، وأعرب عن تبحره فى الأدب وعلم العرب ، وتمكنه من جودة الحفظ ، وقوة النقد ، فسار الكتاب مسير الرياح ، وطار فى البلاد بغير جناح .

وقال فيه بعض النيسابوريين البيتين المقدم ذكرهما ، ومن شعره :

أَنثُرْ على خدِّى من وردك ... أودَعْ فمَن يَقطِفه من خدك
اِرحَمْ قضيبَ البان وارفق به ... قد خِفْتُ أن يَنقَدَّ مِنْ قَدِّكْ
وقل لعينيك — بنفسى هما — ... يخففان السقم عن عبدك

وله :

وفارَقْتُ حتى ما أسَرُّ بمن دنا ... مخافةَ نأىٍ أو حِذارَ صدود
فقد جعلتْ نفسى تقول لِمُقلتى
وقد قرّبوا — خوفَ التباعد — جودى
فليس قريباً من يُخاف بِعادُه ... ولا مَنْ يُرجَّى قُرْبه ببعيد

وله يستطرد :

من عاذِرِى مِنْ زَمنٍ ظالم ... ليس بمستحىٍ ولا راحم ؟

---

(١) الخفارة فى الطريق .

يفعل بالإخوان أحداثه فِعلَ الهوى بالدنِفِ الهائم
كأنما أصبح يَرميهمُ عن جَفنِ مولاى أبى القاسم

وقال يذكر بغداد ويتشوقها :

يا نسيم الجنوب بالله بلغ ما يقول المتيم المستهام
قل لأحبابه فداكم فؤاد ليس يسلو ومُقلةٌ لا تنام
بنتم فالرقاد عندى سهاد مذْ نأيتم والعيش عندى لِمامُ
فعلى الكرخِ فالقطيعة فالشـ ـطّ فباب الشعير مِنى السلام
يا ديارَ السرور لازال يبكى بك فى مَضْحَكِ الرياض غمامُ
رُبَّ عيشٍ صَحِبتهفيك غَضٍّ وجفونُ الخطوب عنى نيام
فى ليال كأنهن أمانٌ من زمان كأنه أحلام
وكأن الأوقاتَ فيها كئوسٌ دائرات وأنسهن مُدَام
زمن مُسْعِدٌ وإلفٌ وَصول ومُنًى يستلذها الأوهام
كل أنسٍ ولذة وسرور بعد ما بنتم علىَّ حرام

وله فى ذلك :

سقَى جانبى بغداد أخلافُ مُزنةٍ تحاكى دموعى صوبهاوانحدارها
فلى منهما قلب شجانى اشتياقه ومهجة نفس ما أمل ادّكارها
سأغفر للأيام كل عظيمة لئن قربت بعد البعاد مزارها

وله فى ذلك :

أراجعة تلك الليالى كعهدها إلى الوصل أم لا يرتجى لى رجوعها ؟
وصحبة أحباب لبست لفقدهم ثياب حداد يُستجد خليعها
إذا لاح لى من نحو بغداد بارق تجافت جفونى واستطير هجوعها !
وإن أخلفتها الغاديات رعودَها تكلف تصديق الغمام دموعها

سقى جانبى بغداد كل غمامةٍ ... يحاكى دموع المستهام هموعها
معاهد من غزلان أنسٍ تحالفت ... لواحظها ألا يداوى صريعها
بها تسكن النفس النفور ويغتدى ... بآنَسَ من قلب المقيم نزيعها
يحن إليها كل قلب. كأنما ... يشاد بحبات القلوب ربوعها
فكل ليالى عيشها زمن الصبا ... وكل فصول الدهر فيها ربيعها

وله فى ذلك :

بجانب الكرخ من بغداد لى سكن ... لولا التحمل لم أنفكَّ أندبه
وصاحب ما صحبت الصبر مذ بعدت ... دياره وأرانى لست أصحبه
فى كل يوم لعينى ما يؤرقها ... من ذكره ولقلبى ما يعذبه
ما زال يبعدنى عنه وأتبعه ... ويستمر على ظلمى وأعتبه
حتى أوت لى النوى من طول جفوته ... وسهلت لى سبيلا كنت أرهبه
وما البعاد دهانى بل خلائقه ... ولا الفراق شجانى بل تجنبه

وله فى التخلص :

أو ما انثنيت عن الوداع بلوعةٍ ... ملأت حشاك صبابة وغليلا ؟
ومدامع تجرى فتحسب أن فى ... آماقهن بنانَ إسماعيلا

وله من قصيدة فى الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير :

ولما تداعت للغروب شموسهم ... وقفنا لتوديع الفريق المغرَّب
تلقين أطراف السجوف بِمُشْرِق ... لهن وأعطافَ الخدور بِمغرب
فما سرن إلا بين دمع مضيع ... ولا قمن إلا بين قلب معذب
كأن فؤادى قِرْنُ قابوس راعه ... تلاعبه بالفيلقِ المتناشب

وله فى الصاحب من قصيدة :

وما بال هذا الدهر يطوى جوانحى على نفس محزون وقلب كئيب
تقسمنى الأيام قسمة جائرٍ على نضرة من حالها وشحوب
كأنى فى كف الوزير رغيبة تقسم فى جدوى أغرّ وهوب

وله من قصيدة فى الصاحب :

ولا ذنب للأفكار أنت تركتها إذا احتشدت لم ينتفع باحتشادها
سبقت بأفراد المعانى وألفت خواطرك الألفاظ بعد شِرَادها
وإن نحن حاولنا اختراع بديعة حصلنا على مسروقها ومُعَادها

وله فى الصاحب من قصيدة يهنئه بالبرء من المرض :

بك الدهر يبدى ظله ويطيب ويقلع عما ساءنا ويتوب
ونحمد آثار الزمان وربما ظللنا وأوقات الزمان ذنوب
أفى كل يوم للمكارم روعة لها فى قلوب المكرمات وجيب ؟
تقسمت العلياء جسمك كله فمن أين فيه للسقام نصيب ؟
إذا ألِمَتْ نفس الوزير تألمت لها أنفس تحيا بها وقلوب
ووالله لا لاحظت وجهاً أحبه حياتى وفى وجه الوزير شحوب
وليس شحوباً ما أراه بوجهه ولكنه فى المكرمات ندوب
فلا تجزعن تلك السماء تغيمت وعما قليل تبتدى فتصوب
تهلل وجه المجد وابتسم الندى وأصبح غصن الفضل وهو رطيب
فلا زالت الدنيا بمُلكك طلقةً ولا زال فيها من ظلالك طيب

وله :

على مهجتى تجنى الحوادث والدهر فأما اصطبارى فهو ممتنع وعر
كأنى ألاقى كل يوم ينوبنى بذنب وما ذنبى سوى أننى حر
فإن لم يكن عند الزمان سوى الذى أضيق به ذرعا فعندي له الصبر

وقالوا : توصل بالخضوع إلى الغنى وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبينى وبين المال بابان حرما على الغنى : نفسى الأبية والدهر
إذا قيل : هذا اليسر عاينت دونه مواقف خير من وقوفى بها العسر
إذا قدّموا بالوفر قدمت قبلهم بنفسٍ فقير كل أخلاقه وفر
وماذا على مثلى إذا خضعت له مطامعه فى كف من حصل التبر

وله :

سقى الغيث أو دمعى ـ وقلّ كلاهما ـ لها أربعا ، جور الهوى بينها عدل
بحيث استرق الدّعص وانبسط النقى وحيث تناهى الحِقف وانقطع الرمل
أكثّر من أوصافها وهى واحد ولكن أرى أسماءها فى فمى تحلو
وفى ذلك الخِدْرِ المكلّل ظبية لكل فؤاد عند أجفانها ذَحل
إذا خطرات الريح بين سجوفها أباحت لطرف العين ماحَظَرَ البُخْل
تلقت بأثناء النصيف لحاظنا وقالت لأخرى : ما لمستهتر عقل ؟
أفى مثل هذا اليوم يمرح طرفه وأعداؤنا حُوَلٌ وحسادنا قُبْل ؟
ومدت لإسبال السجوف بنانها فغازلنا عنها الشمائل والشكل

أبى العلاء المعرى

وهل يتوقع منا قارئ هذه التراجم أن نترجم له شاعر الحكماء وحكيم الشعراء أبا العلاء المعرى ، وهو أعرف من أن يعرف ، وقد أحاط المتأدبون بسيرته وعبقريته علماً ؟ وحسبنا أن ننبه هنا إلى أنه ولد سنة ٣٦٣ وتوفى سنة ٤٤٩ ، وأنه وضع شرحاً لشعر المتنبى وسمّاه اللامع العزيزى . واختصر ديوان أبى تمام وشرحه وسماه ذكرى حبيب ، وديوان البحترى ، وسماه « عبث الوليد » وديوان المتنبى ، وسماه معجز أحمد ، وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها ومآخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم ، وتولى الانتصار لهم والنقد فى بعض المواضع عليهم .

قال ابن خلكان : وأخذ عنه أبو القاسم على بن المحسّن التنوخى ، وأبو زكريا التبريزى ـ أحد شراح المتنبى وقد ترجمنا له ـ وغيرهما ، والله أعلم .

« امثال المتنبي وحكمه »

انظر أمثال المتنبي وحكمه فى ذيل الجزء الرابع
من هذا الديوان

أبو العلاء المعري

[illegible]

قافية الهمزة

قال – وقد طلب إليه سيف الدولة إجازة أبيات لأبي ذر سهل بن محمد الكاتب(*) – :

أَلْقَلْبُ أَعْلَمُ يَا عَذُولُ بِدَائِهِ ... وَأَحَقُّ مِنْكَ بِجَفْنِهِ وَبِمَائِهِ (١)

فَوَمَنْ أُحِبُّ لَأَعْصِيَنَّكَ فِي ٱلْهَوَى ... قَسَمًا بِهِ وَبِحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ (٢)

أَأُحِبُّهُ وَأُحِبُّ فِيهِ مَلَامَةً ... إِنَّ ٱلْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ (٣)

(*) وهذه هى أبيات أبي ذر المذكور . وكان شيخ سيف الدولة :

يا لَائِمِي كُفَّ الملامَ عَنِ الذى ... أَضْنَاهُ طُولُ سَقَامِهِ وَشَقَائِهِ

إنْ كُنْتَ نَاصِحَهُ فَدَاوِ سَقَامَهُ ... وَأَعِنْهُ مُلْتَمِسًا لِأَمْرِ شِفَائِهِ

حَتَّى يُقَالَ بِأَنَّكَ الخِلُّ الذى ... يُرْجَى لِشِدَّةِ دَهْرِه وَرَخَائِهِ

أَوْ لَا ، فَدَعْهُ فَمَا بِهِ يَكْفِيكَ مِنْ ... طُولِ المَلَامِ فَلَسْتَ مِنْ نُصَحَائِهِ

نَفْسِي الفِدَاءُ لِمَنْ عَصَيْتُ عَوَاذِلِي ... فى حُبِّهِ لَمْ أَخْشَ مِنْ رُقَبَائِهِ

الشَّمْسُ تَطْلُعُ مِنْ أَسِرَّةِ وَجْهِهِ ... وَالْبَدْرُ يطلع مِنْ خِلَالِ قَبَائِهِ

(١) الضمير فى مائه يعود على الجفن وضمير جفنه يعود إلى القلب ، وإضافة الجفن إلى القلب لأنه أمير الأعضاء المهيمن عليها جميعا . والمراد بمائه دموعه يقول : القلب أدرى منك أيها اللائم بدائه وما أدركه من برح الهوى فهو يلتمس شفاءه فى البكاء ويأمر الجفن به * وإن شفائى عبرة مهراقة * والقلب حقيق بأن يطاع لأن له السلطان الأكبر وأنت أيها العذول خليق بأن تعصى ولا اكتراث لنهيك .

(٢) الفاء للعطف والواو للقسم يقول : بحق من أحبه وبحق حسنه ونور وجهه لا أطعتك أيها اللائم فيه .

(٣) الاستفهام فى أأحبه إنكارى . يقول : لا أجمع بين حبه وبين النهى عن حبه لأن الملامة معناها النهى عن حبه . وقد ناقض بذلك قول أبي الشيص :

عَجِبَ الوُشَاةُ مِنَ اللُّحَاةِ وَقَولِهِمْ   دَعْ مَا بِرَاكَ ضَعُفْتَ عَنْ إِخْفَائِهِ (١)
مَا الخِـلُّ إِلاَّ مَنْ أَوَدُّ بِقَلْبِهِ   وَأَرَى بِطَرْفٍ لاَ يَرَى بِسَوَائِهِ (٢)
إِنَّ المُعِينَ عَلَى الصَّبَابَةِ بِالأَسَى   أَوْلَى بِرَحْمَةِ رَبِّهَا وَإِخَائِهِ (٣)

أَجِدُ الملامَةَ فى هواكِ لذيذةً   حُبًّا لِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

وقال الواحدى : معنى قوله إن الملامة فيه من أعدائه أن صاحب الملامة أى اللائم هو من أعداء هذا الحبيب حين ينهى عن حبه ، ومن أحب حبيبا عادى عدوه . وهذا تكلف لا موجب له . فالمتنبى يقول إن اللوم من أعداء حبيبه ، فلا يجمع بينه وبين حبه إياه ، أى أنه لا يصغى للوم اللوام ولا يقبله .

(١) وقولهم عطف على اللحاة ، والوشاة جمع واش ، وهو النمام ، لأنه يشى الكذب أى يزخرفه وينمقه من وشى الثوب . واللحاة جمع لاح وهو العاذل أى اللائم . يقول : ليس هناك إلا واش أو لاح فاللحاة يقولون دع هذا الحب الذى لا تطيق كتمانه ، والوشاة يتعجبون من قولهم هذا قائلين إذا لم يطق كتمانه كان عن تركه أعجز . يعنى : إنى وإن كنت ضعفت عن إخفاء هذا الحب بيد أنى لا أتركه ،

(٢) الخل والخليل الصديق ، والطرف العين ، وسوى إذا قصرته كسرته وإذا مددته فتحته . يقول : ليس الصديق إلا من لا فرق بينى وبينه فاذا وددت فكأنى أود بقلبه وإذا نظرت فكأنى أنظر بعينه . والمعنى صديقك من وافقك فى كل شىء فيود ما وددت ويرى ما ترى أو تقول : ماخليلى إلا الذى يبلغ الغاية من المودة فكأنه يود بقلبى. وقال بعضهم : المعنى : ليس لك خليل إلا نفسك . وهو كقوله :

خَليلكَ أنت لا مَنْ قلتَ خِلِّى   وَإِنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ والـكَلامُ

(٣) الصبابة رقة الشوق . والأسى الحزن . والإخاء الأخوة . وربها أى صاحبها والضمير للصبابة . يقول : إن العاذل أراد أن يعينه على الصبابة ويخلصه منها مستعينا على ذلك باللوم والزجر فأحزنه بذكر ما يسوؤه وكان أجدر فى إعانته بأن يرحمه ويرثى لحاله ويؤاخيه فى بلواه أو تقول: إن الذى يعين على صاحب الصبابة بإيراد الحزن عليه بلومه إياه أولى بأن يرحمه فيشفق عليه ويؤاخيه ويحتال فى طلب الخلاص له من ورطة الهوى . وهذا فى عراض قول أبى ذر المتقدم

* إنْ كُنْتَ نَاصِحَهُ فَدَاوِ سقامه *

مَهْلاً فَإِنَّ الْعَذْلَ مِنْ أَسْقَامِهِ ... وَتَرَفُّقاً فَالسَّمْعُ مِنْ أَعْضَائِهِ (١)
وَهَبِ الْمَلاَمَةَ فِي اللَّذَاذَةِ كَالْكَرَى ... مَطْرُودَةً بِسُهَادِهِ وَبُكَائِهِ (٢)

وجعل إيراده الحزن عليه عونا على معنى أنه لا معونة عنده إلا هذا كقولهم : عتابك السيف ، وحديثك الضرب . وقال الواحدى : يجوز أن يكون معنى قوله على الصبابة مع ما أنا فيه من الصبابة كقول الأعشى يمدح رجلا .

تَضَيَّفْتُهُ يَوْماً فَقَرَّبَ مَقْعَدِي ... وَأَصْفَدَنِي عَلَى الزَّمَانَةِ (١) قَائِدَا .

أى أعطانى مع ما كنت أقاسيه من الزمانة قائدا يقودنى .

(١) يقول . دع اللوم أيها اللائم فإنى سقيم واللوم يزيدنى سقما على سقم وترفق فى لومك فإن السمع — والمراد الأذن — من أعضائى فلا تسمعها ما يزيدها سقما .

(٢) هب أى احسب ، والكرى النعاس والسهاد الارق . قال ابن جنى . المعنى اجعل ملامتك إياه فى التذاذ كها كالنوم فى لذاذته فاطردها عنه بما عنده من الأرق والبكاء أى لا تجمع عليه اللوم والسهاد والبكاء أى فكما أن السهاد والبكاء قد أزالا نومه فلنزل ملامتك إياه . وقال الواحدى تعقيبا على ماذهب إليه ابن جنى : هذا كلام من لم يفهم المعنى إذ ظن زوال الكرى من العاشق وليس على ماظن ولكنه يقول للعاذل هبك تستلذ الملامة كاستلذاذك النوم وهو مطرود عنك بسهاد العاشق وبكائه فكذلك دع الملام فانه ليس بألذ من النوم أى فإن جاز ألا تنام جاز ألا تعذل « وأما بعد » فى الحق أن البيت من مشكلات الأبيات ومن ثم اضطربت فيه كلة الشراح . قال بعض المحققين . وذلك أن تفسير ابن جنى قوله مطرودة بقوله فاطردها لا يستقيم وشتان بين الأمر والوصف ، ولا يقال : إنه تناول معنى الأمر من قوله هب على تقدير هبها مطرودة لأن هب على تفسيره قد استوفى مفعوليه من صدر البيت فلم يبق له دخل فيما يليه . وبقى قوله مطرودة حالا عن الملامة وإن شئت جعلته خبرا عن ضميرها محذوفا أى وهى مطرودة وعلى كليهما يكون فى معنى شبه جملة أو جزء جملة خبرية لا فى معنى جملة طلبية وقول الواحدى وهو مطرود أى النوم مقتضاه جعل مطرودة حالا عن الكرى والكرى مذكر لأنه مصدر كرى ولفظ مطرودة مؤنث فلا يصح كونها حالا

(١) الزمانة . العاهة .

لَا تَعذُلِ الْمُشْتَاقَ فِي أَشْوَاقِهِ ... حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ (١)
إِنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجًا بِدُمُوعِهِ ... مِثْلُ الْقَتِيلِ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ (٢)
وَالْعِشْقُ كَالْمَعْشُوقِ يَعْذُبُ قُرْبُهُ ... لِلْمُبْتَلَى وَيَنَالُ مِنْ حَوْبَائِهِ (٣)
لَوْ قُلْتَ لِلدَّنِفِ الْحَزِينِ فَدَيْتُهُ ... مِمَّا بِهِ لَأَغَرْتَهُ بِفِدَائِهِ (٤)
وُقِيَ الْأَمِيرُ هَوَى الْعُيُونِ فَإِنَّهُ ... مَالَا يَزُولُ بِبَأْسِهِ وَسَخَائِهِ (٥)

عنه . على أن جعل ملام العاذل فى قول ابن جنى أو نومه فى قول الواحدى مطرودا بسهاد العاشق وبكائه مما يشكل وجهه ، وما أرى المتنبي إلا أنه قد غلط فى هذا البيت بأن سبق وهمه إلى أن الكرى يؤنث على حد الهدى مثلا ، أو أراد أن يقول مطرودا فسبق خاطره إلى التأنيث باستدراج الوزن لأن المقام يقتضى أن يكون قوله مطرودة جاريا على الكرى كما هو تفسير الواحدى ، ويكون المعنى على نحو ما قال ابن جنى أى احسب ملامتك لذيذة عند العاشق كمنامه ، والمنام مطرود عنه بالسهاد والبكاء ،أى فلتكن ملامتك كذلك .

(١) لا : ناهية . وروى لاتعذر فتكون نافية . يقول : لا تلم العاشق حتى تحب مثل ماحب وهذا من قول البحترى .

إذا شئتَ أن لا تعذُل الدهرَ عاشقاً ... على كَمَدٍ مِنْ لَوْعَةِ الْبَيْنِ فَاعْشَقِ

(٢) مضرجا فى الموضعين نصب على الحال ، والمضرج الملطخ بالدم من ضرجت الثوب إذا صبغته بالحمرة . جعل دموع العاشق كالدماء والعاشق كالمقتول تهويلا لأمر الهوى يقول: إن القتل إنما هو باستنزاف الدم ، فمن استنزف دمه من طريق الدمع كمن استنزف دمه من طريق الجراحات .

(٣) المبتلى العاشق الذى امتحن بالحب ، والحوباء النفس . والواو فى قوله وينال واو الحال . يقول إن العشق حلو القرب كقرب المعشوق وإن كان ينال من نفس العاشق أى يتلفها . أى أن العشق قاتل وهو مع ذلك مستعذب .

(٤) الدنف ذو الدنف أى المرض الملازم . وأغرته أى بعثته على الغيرة ، وقوله بفدائه أى بفدائك إياه فأضاف المصدر إلى المفعول . يقول : لو قلت للدنف ليت مابك من برح الهوى بي لغار من ذلك ضنا بمحبوبه وخشية أن تحل أحد محله برغم مايلاقيه .

(٥) وقى أى وقاه الله ، والبأس الشجاعة والسخاء البذل . يدعو له بالسلامة من

يَسْتَأسِرُ الْبَطَلَ الْكَمِيَّ بِنَظْرَةٍ ... وَيَحُولُ بَيْنَ فُؤَادِهِ وَعَزَائِهِ (١)

إِنِّى دَعَوْتُكَ لِلنَّوَائِبِ دَعْوَةً ... لَمْ يُدْعَ سَامِعُهَا إِلَى أَكْفَائِهِ (٢)

فَأَتَيْتَ مِنْ فَوْقِ الزَّمَانِ وَتَحْتِهِ ... مُتَصَلْصِلاً وَأَمَامِهِ وَوَرَائِهِ (٣)

مَنْ لِلسُّيُوفِ بِأَنْ تَكُونَ سَمِيَّهَا ... فِى أَصْلِهِ وَفِرِنْدِهِ وَوَفَائِهِ (٤)

الهوى لأنه ليس مما زال بالشجاعة والبذل ، والأمير وإن كان من الشجاعة والجود بحيث يدفع كل أمر شديد بيد أن الهوى ألطف من ذلك .

(١) يستأسر أى الهوى أى يجعله فى الأسر ، والبطل ، الشجاع ، والكمى لابس السلاح ، والعزاء التجلد يقول : إن الهوى يأسر البطل الشجاع المستلئم سلاحه بمجرد نظرة فيملك عليه أمره ويعصف بصبره وجلده على الرغم من بطولته فلا يترك بين فؤاده والعزاء سبيلا . وهذا ينظر إلى قول جرير .

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لاحَرَاكَ بِهِ ... وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أَرْكَانا

(٢) النوائب الشدائد ، وسامعها سيف الدولة . والأكفاء جمع كفء ، وهو القرن والنظير . يقول : إنى دعوتك لدفع الشدائد عنى ولست بهذه الدعوة أدعوك إلى نظرائك جلادها لأنك فوق الشدائد وأشد بطشا منها .

(٣) المتصاصل الذى له صلصلة وحفيف من وقع الحديد وقد طابق بين فوق وتحت وأمام ووراء يقول : دعوتك لدفع نوب الزمان عنى فأحطت به دونى وحلت بينه وبين الوصول إلى وحميتنى بذلك منه ، وهذا قريب من قول أبى نواس :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِى بِظِلِّ جَنَاحِهِ ... فَعَيْنِى تَرَى دَهْرِى وليس يَرَانِى

(٤) ضمير تكون للسيوف أى بأن تكون السيوف سميها ، أى مثل سميها وتقول : من له بكذا أى من يتكفل له به أو من يضمنه له ونحو ذلك . وفرند السيف جوهره ووشيه وهو ما يرى فيه شبه مدب النمل أو شبه الغبار استعاره هنا للممدوح وهو سيف الدولة والمراد مكارمه ومحاسنه والأصل النجار والحسب والوفاء معروف . يقول : من يكفل للسيوف التى شاركت سيف الدولة فى التسمية بأن تكون مثله فى أصله ومناقبه وفعاله وفى وفائه ، وهذا كقوله .

* تظن سيوف الهند أصلك أصلها *

طُبِـعَ الْحَدِيدُ فَـكَانَ مِنْ أَجْنَاسِهِ وَعَـلِـيٌّ الْمَطْبُوعُ مِنْ آبَائِهِ (١)

واستزاده سيف الدولة فقال أيضاً :

عَذْلُ الْعَوَاذِلِ حَوْلَ قَلْبِ التَّائِهِ وَهَوَى الْأَحِبَّةِ مِنْهُ فِي سَوْدَائِهِ (٢)

---

(١) طبع الحديد فعل ونائب فاعل واسم كان ضمير يعود إلى الحديد ومن أجناسه جار ومجرور فى موضع نصب خبر كان وعلى مبتدأ والمطبوع صفة له ومن آبائه فى موضع رفع خبر ، والمطبوع المصنوع وعلى اسم سيف الدولة وهو على بن أبى الهيجاء بن حمدان التغلبى . يقول : إن السيوف مصنوعة من الحديد فهى تنزع إلى أصلها الذى صنعت منه أما سيف الدولة الشريف ابن الشريف المعرق له فى الكرم فإنه ينزع إلى أصله فى المجد والفعال ، فهى وإن شاركته فى الاسم تخالفه فى الأصل وشتان ما بينهما .

(٢) يعنى بالتائه نفسه . وعذل العواذل مبتدأ وحول قلب التائه خبر والعذل اللوم والعواذل جمع عاذلة أما العاذل فجمعه عذال وعذل ، والتائه المتحير وسوداء القلب وسويداؤه العلقة السوداء التى فى جوفه كأنها فلذة كبد ، يقول : إن لوم اللوام حوال قلبى وهوى الأحبة قار فى سويدائه ، وإذاً لا يصل اللوم إلى قلبى وهذا المعنى ينظر إلى قول بعضهم .

تغلغل حَيْثُ لم يبلُغ شرابٌ ولا حُـزْنٌ ولم يبلغ سرور

وقد روى بدل قلب التائه قلبى التائه على أن التائه صفة لقلبى ، وليس هناك لأنه لا يقال تاه قلبه . وقال قوم : المعنى أن قلبى يتيه على عذلهم ، من التيه بمعنى الكبر ، قال الواحدى : وليس بمستحسن ، هذا وقد قال العكبرى : عيب على أبى الطيب قوله التائه والقصيدة مهموزة كلها واعتذر له قوم بأنه لم يرد التصريع (١) لأن الهاء فى القافية أصلية وقد جعل قوم ممن رتبوا الديوان على الحروف هذه القطعة فى حرف الهاء لجهلهم القوافى وقد جعلها ابن جنى والخطيب التبريزى فى أول حرف الهمزة فاقتدينا بفعلهما والقوافى خمس يجمعها سكيرف كل حرف لقافية ، وهى متكاوس ومتدارك ومتراكب ومتواتر

---

(١) التصريع تقفية المصراع الأول مأخوذ من مصراع الباب . قال العلماء : المصراعان بابا القصيدة بمنزلة المصراعين اللذين هما باب البيت قالوا : وإنما وقع التصريع فى الشعر ليدل على أن صاحبه مبتدىء إما قصيدة وإما قصة .

. . . .

ومترادف ، فالمتكاوس[١] أربع حركات بين ساكنين كقوله .

* قدْ جَبر الدينَ الإلهُ فَجَبرْ *[٢]

والمتدارك[٣] حركتان بين ساكنان كما فى هذه القصيدة والمتراكب[٤] ثلاث حركات بين ساكنين كقول المتنبي :

* بِمَ التعَلُّل لا أهْـلٌ وَلا وَطَنُ *

والمتواتر [٥] حركة واحدة بين ساكنين كقوله ـ أى المتنبي ـ :

(١) مأخوذ من تكاوس النبت والشجر التف وتراكب لكثرة الحركات فيه كأنها التفت .

(٢) هو للعجاج . والجبر خلاف الكسر يقال جبر العظم والفقير واليتيم وجبر العظم بنفسه . وقد جمع العجاج فى هذا بين المتعدى واللازم .

(٣) قال ابن سيده والمتدارك من الشعر كل قافية توالى فيها متحركان بين ساكنين وهى متفاعلن ومستفعلن ومتفاعلن وفعل إذا اعتمد على حرف ساكن نحو فعولن فعل ، فاللام فى فعل ساكنة ، وفل إذا اعتمد على حرف متحرك نحو فعول فل اللام من فل ساكنة والواو من فعول ساكنة سمى بذلك لتوالى حركتين فيها ، وذلك أن الحركات من آلات الوصل وأماراته فكأن بعض الحركات أدرك بعضها ولم يعقه عنه اعتراض الساكن بين المتحركين .

(٤) المتراكب كل قافيـــة توالت فيها ثلاثة أحرف متحركة بين ساكنين وهى مفاعلتن ومفتعلن وفعلن لأن فى فعلن نونا ساكنة وآخر الحرف الذى قبل فعلن نون ساكنة وفعل إذا كان يعتمد على حرف متحرك نحو فعول فعل اللام الآخرة ساكنة والواو فى فعول ساكنة .

(٥) المتواتر كل قافية فيهـــا حرف متحرك بين حرفين ساكنين نحو مفاعيلن وفاعلاتن وفعلاتن ومفعولن وفعلن وفل إذا اعتمد على حرف ساكن نحو فعولن فل وإياه عنى أبو الأسود بقوله :

وقافية حـــذاء سهل رويها   كسرد الصناع ليس فيها تواتر

أى ليس فيها توقف ولا فتور .

يَشْكُو الْمَلَامُ إِلَى اللَّوائِمِ حَرَّهُ ... وَيَصُدُّ حِينَ يَلُمْنَ عَنْ بُرَحَائِهِ (١)

وَبِمُهْجَتِي يَا عَاذِلِي الْمَلِكُ الَّذِي ... أَسْخَطْتُ كُلَّ النَّاسِ فِي إِرْضَائِهِ (٢)

* صِلَةُ الْهَجْرِ لِي وَهَجْرُ الْوِصَالِ *

والترادف(١) اجتماع ساكنين كقوله — أي المتنبي —:

لا تَحْسُنُ الْوَفْرَةُ حَتَّى تُرَى ... مَنْشُورَةَ الضَّفْرَيْنِ يَوْمَ الْقِتَالْ

أقول : وهذا كله من العكبرى لأنه أورد هذه الأبيات قبل الأبيات السالفة ظناً منه أنها هى التى قالها المتنبى بادئ ذى بدء حين طلب إليه سيف الدولة إجازة أبيات أبى ذر ، ولكن الذى تحقق لدينا هو أن المتنبى قال الأبيات السابقة أولا ثم أردفها بهذه الأبيات التالية وإذن ينهار هذا المأخذ الذى تورّكه بعضهم على المتنبى وانهار معه الدفاع عنه .

(١) البرحاء الشدة وتباريح الشوق توهجه . وتقول : لقيت منه برحا بارحا أى شدة وأذى ، ويقال للمحموم الشديد الحمى أصابته البرحاء . يقول : إن اللوم يشكو حرارة قلبى إلى اللوائم كأنه يقول لهن: لا تبعثنى إليه لأنى أخشى برحاء قلبه وإذا لمنى أعرض اللوم عن قلبى خشية أن تلفحه ناره يعنى بذلك أن قلبه لا يقبل اللوم واللوم لا يطيق أن يصل إلى قلبه لما يضطرم فيه من حرارة الحب. فالضمير فى حره وبرحائه للقلب فى البيت السابق . وليس يخفى ما فى هذا البيت من لطف التخيل وبديع التمثيل .

(٢) الباء فى بمهجتى للتفدية ، والملك يجوز فيه الرفع والنصب ، إذ لك أن تجعل بمهجتى خبرا مقدما والملك مبتدأ ولك أن تجعل الملك مفعولا لفعل محذوف تقديره أفدى ويريد بالملك سيف الدولة والمهجة الروح وأراد بقوله : ياعاذلى يامن يعذلنى فليس لك أن

---

(١) الترادف كل قافية اجتمع فى آخرها ساكنان وهى متفاعلان ومستفعلان ومفاعلان ومفتعلان وفاعلتان وفعلتان وفعليان ومفعولان وفاعلان وفعلان ومفاعل وفعول ، سمى بذلك لأن غالب العادة فى أواخر الأبيات أن يكون فيها ساكن واحد رويا مقيدا كان أو وصلا أوخروجا فلما اجتمع فى هذه القافية ساكنان مترادفان كان أحد الساكنين ردف الآخر ولا حقاً به .

إنْ كَانَ قَدْ مَلَكَ الْقُلُوبَ فَإِنَّهُ   مَلَكَ الزَّمَانَ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ (١)
الشَّمْسُ مِنْ حُسَّادِهِ وَالنَّصْرُ مِنْ   قُرَنَائِهِ وَالسَّيْفُ مِنْ أَسْمَائِهِ (٢)
أَيْنَ الثَّلَاثَةُ مِنْ ثَلَاثِ خِلَالِهِ   مِنْ حُسْنِهِ وَإِبَائِهِ وَمَضَائِهِ (٣)
مَضَتِ الدُّهُورُ وَمَا أَتَيْنَ بِمِثْلِهِ   وَلَقَدْ أَتَى فَعَجَزْنَ عَنْ نُظَرَائِهِ (٤)

تقول كان ينبغى أن يقول ياعاذلتى لأنه قال العواذل فى الأول ، إذ المراد كما قلنا يامن يعذلنى ومن تقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وهذا اقتضاب عدل به عن النسيب إلى المديح . يقول : إنى يالائمى أفدى بنفسى الملك الذى لم أسمع فيه لوم من هو أشد لوما منك فلم أتركه وآت غيره وأسخطت لوامى جميعا فى سبيل مرضاته .

(١) الباء فى بأرضه بمعنى مع يقول : غير عجيب أن يملك هذا الملك القلوب ويستولى حبه عليها مادام قد ملك الزمان بما تحتويه من الكائنات يصرفه على مشيئته وقال بعضهم : أراد بالسماء الأفلاك التى تنسب إليها السعود والنحوس أى أن ذلك يجرى على مقادير مشيئته لأنه يجعل أصحابه فى السعود ، وأعداءه فى النحوس .

(٢) والنصر من قرنائه ، أى أنه أينما توجه فهو منصور والسيف من أسمائه لأنه يعرف بسيف الدولة .

(٣) الخلال جمع خلة وهى الخصلة ، والإباء أن يأبى الذل ولا يرضاه والثلاثة الشمس والنصر والسيف ، يقول : أين حسن الشمس من حسنه وأين النصر من إبائه ؟ أى أنه أشد إباء للذل من النصر لأن النصر حليفه وصاحب النصر يأبى الذل وأين مضاء السيف من مضائه ؟

(٤) يقول : لم يأت الزمان بمثله فيما مضى فلما أتى عجزت الدهور عن أن تأتى له بنظير ، ولا يروعنك مثل هذه الأبيات فان الشعر يجب أن يكون أسمى من أن يسف إلى مثل هذا الغلو ، والمتنبى كثيراً ما يلجأ فى شعره إلى الإفراط ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الشعراء .

وقال يمدح الحسين بن إسحاق التنوخى ، وكان قوم قد هَجَوْه ، وعزوا الهجاء إلى أبى الطيب فكتب إليه يعاتبه ، فكتب أبو الطيب إليه :

أَتُنْكِرُ يا ابْنَ إسْحَاقٍ إخَائِي ... وَتَحْسَبُ مَاءَ غَيْرِي مِنْ إنَائِي (١)
أَأَنْطِقُ فِيكَ هُجْراً بَعْدَ عِلْمِي ... بأَنَّكَ خَيْرُ مَنْ تَحْتَ السَّماءِ (٢)
وَأَكْرَهُ مِنْ ذُبَابِ السَّيْفِ طَعْماً ... وَأَمْضَى فِي الأُمُورِ مِنَ القَضَاءِ (٣)
وَمَا أَرْبَتْ عَلَى العِشْرِينَ سِنِى ... فَكَيْفَ مَلِلْتُ مِنْ طُولِ البَقَاءِ (٤)
وَمَا اسْتَغْرَقْتُ وَصْفَكَ فِي مَدِيحِي ... فَأَنْقُصَ مِنْهُ شَيْئاً بِالهِجَاءِ (٥)
وَهَبْنِي قُلْتُ هَذَا الصُّبْحُ لَيْلٌ ... أَيَعْمَى العَالَمُونَ عَنِ الضِّيَاءِ (٦)

---

(١) الاستفهام للتعجب وإسحاق مصروف للضرورة والإخاء المصادقة وتحسب تفتح عينه وتكسر أى تظن والماء والإناء استعارة للقول والقائل يقول متعجبا : أتنكر مؤاخاتى إياك وتظن أن ما هجيت به صادر منى ؟

(٢) الهجر : القبيح من الكلام ، ويقال : هجر الرجل إذا هذى وأصله ما يقوله المحموم إذا نالت منه الحمى ؛ يقول : لا أنطق فيك القبيح بعد علمى أنك خير الناس ، وهذا مبالغة .

(٣) أكره وأمضى معطوفان على خير فى البيت السابق وطعما تمييز وذباب السيف حده . يقول : وأنت أكره طعما على العدو من طرف السيف وأنفذ فيما تريد من الأمور من القضاء ، وهذا من مبالغات المتنبى المعروفة .

(٤) ما حرف نفى وأربت زادت ، والسن العمر ، ومللت سئمت . يقول : وما زادت سنى على العشرين فكيف أمل طول البقاء بالتعرض لهجائك إذ أنى بتعرضى لهجائك ألقى بنفسى إلى التهلكة .

(٥) وما عطف على ماقبله ، واستغرقت استوفيت ، يقول : ولم أستوف إلى الآن أوصاف مدحك فكيف أنقصها بهجائك بل أنا باستتمامها أولى منى بالأخذ فى الهجاء .

(٦) يقول : وقدر أنى هجوتك وكأنى بذلك كمن يقول هذا النهار ليل فكيف يتأتى هذا وفعالك لا يخفى على أحد كضياء الشمس ، وهل يعمى العالمون عن الضياء .

تُطِيعُ الْحَاسِدِينَ وَأَنْتَ مَرْءٌ جُعِلْتُ فِدَاءَهُ وَهُمُ فِدَائِي (١)
وَهَاجِي نَفْسِهِ مَنْ لَمْ يُمَيِّزْ كَلَامِي مِنْ كَلَامِهِمِ الْهُرَاءِ (٢)
وَإِنَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ تَرَانِي فَتَعْدِلَ بِي أَقَلَّ مِنَ الْهَبَاءِ (٣)

---

(١) مرء لغة فى امرؤ . يقول : تصغى إلى الحساد وتنزل على تهمتهم إياى بهجائك وأنت أسمى من أن يهجوه مثلى لأنى فداء له لماله من الأيادى ، أما هؤلاء الحساد فهم فداء لى لأنى أولى بالبقاء منهم وهم ممن لا غناء فيهم ، وقد ذهب الشراح أكثرهم إلى أن جملة جعلت فداءه دعائية جعلت وصفا لمرء وهو نكرة على تقدير محذوف ، أى مستحق لأن أسأل الله أن يجعلنى فداءه على حد قول الراجز :

مَا زِلْتُ أَسْعَى بَيْنَهُمْ وَأَخْتَبِط حَتَّى إِذَا جَاءَ الظَّلَامُ واختلط (*)
* جَاءوا بِضَيْحٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قط *

أى جاءوا بضيح يقول : من رآه هل رأيت الذئب قط .

(٢) من لم يميز مبتدأ مؤخر وهاجى نفسه خبر مقدم ، والهراء الكلام الساقط الذى لا خير فيه . قال ذو الرمة :

لها بَشَرٌ مِثْلُ الحريرِ ومَنْطِقٌ رَخِيمُ الحواشى لا هُراءٌ ولا نَزْرُ

يقول : إن من لم يفرق بين كلامى وبين كلامهم الساقط فإنما يهجو بذلك نفسه وأنت أفطن من ألا تميز بينهما وإلا كنت قد هجوت نفسك .

(٣) أن ترانى مؤول بمصدر اسم أن ، ومن العجائب جار ومجرور خبرها وتعدل عطف على ترانى وأقل صفة لموصوف محذوف أى شيئا أقل من الهباء ، وعدله به ساواه وأقل أخس ، والهباء ما يرى فى شعاع الشمس من دق الغبار قال الشاعر :

بَرَانِي الهوى بَرْىَ المُدَى وأذابَنِي صدودُكِ حتى صرتُ أنحلَ من أمسِ
فلستُ أُرَى حتى أراكَ وإنما يَبِينُ هَبَاءُ الذرِّ فى ألقِ الشمس

يقول : من العجب أن ترانى وتعرفنى ثم تسوى بينى وبين خسيس أدق من الهباء يريد غيره من الشعراء .

---

* الضيح اللبن المخلوط شبه لون الضيح بلون الذئب والذئب يقال له أبو مذقة لأن لونه يشبه لون المذق وهو الضيح .

وَتُنْكِرُ مَوْتَهُمْ وَأَنَا سُهَيْلٌ طَلَعْتُ بِمَوْتِ أَوْلَادِ الزِّنَاءِ (١)

وقال يمدح أبا علىّ هرون بن عبد العزيز الأوراجىّ الكاتب ، وكان يذهب إلى التصوف (*) .

أَمِنَ ازْدِيَارَكِ فِي الدُّجَى الرُّقَبَاءُ إِذْ حَيْثُ أَنْتِ مِنَ الظَّلَامِ ضِيَاءُ (٢)

---

(١) سهيل نجم تزعم العرب أنه إذا طلع وقع الوباء فى الأرض وكثر الموت والزنا عد ويقصر ، يقول : ومن العجائب أن تنكر موت حسادى وأنا الطالع عليهم بموتهم كما يطلع سهيل ومن ثم يموت أولاد الزنا حسداً لى .

(*) قال بعض أفاضلنا المعاصرين فى فصل من كتاب له ماملخصه « هذه القصيدة تنبئنا بأن الشاعر قد أقبل يمدح أبا على الأوراجىّ من بعيد وقد جاز إليه جبل لبنان . . . وأكبر الظن أن الأوراجى هذا كان متصلا بعمل من أعمال ابن رائق قريبا من بدر بن عمار فى طبرية أو بعيداً عنه بعض الشىء فى دمشق . فأقبل المتنبىء من شمال الشام إلى جنوبها بعد أن جلت عنه جنود الإخشيد حتى انتهى إلى صاحبه هذا فمدحه بقصيدتين إحداهما هذه الهمزية ، والأخرى أرجوزة طردية « انظر الأرجوزة التى يقول فى مطلعها .

ومنزل ليس لنا بمنزل ولا لغير الغاديات الهطل

والهمزية فيما أرى مكانة خاصة من شعر المتنبى فهى القصيدة الوحيدة التى يعمد فيها الشاعر إلى المذهب الرمزى ليرضى ممدوحه الذى كان يذهب مذهب التصوف وهى من هذه الجهة قيمة لأنها تبين عن علم المتنبى — فى الخامسة والعشرين من عمره — بمذاهب المتصوفة فى الكلام ومنهجهم فى الرمز والإيماء ولأنها تظهر لنا الشاعر الفتى وقد ملك ناصية الفن حقا ؛ إلى أن قال : ولست أدرى أ كان الأوراجى هذا قريباً أم بعيداً من بدر بن عمار ولكن المتنبى أقام معه حينا على كل حال كما تدل على ذلك طرديته ثم اتصل من طريق الأوراجى هذا فيما أرى ببدر فلا تسل عن فرحته وابتهاج نفسه بالغبطة والرضى اهـ ملخصا .

(٢) أمن فعل والرقباء فاعل ، وازديارك مفعول مقدم وإذ تعليلية وأنت ضياء مبتدأ وخبر أضيفت حيث الظرفية إلى جملتهما ومن فى من الظلام للبدل ويروى : إذ

قَلَقُ المَلِيحَةِ وَهِيَ مِسْكٌ هَتْكُهَا ... وَمَسِيرُهَا فِي اللَّيْلِ وَهِيَ ذُكَاءُ(١)

حيث كنت . . . قال الواحدى : فتكون ضياء مبتدأ محذوف الخبر ، أى ضياء هناك وكان تامة فى معنى حصلت ووقعت فليس لها خبر ، وقال آخرون ضياء مبتدأ وحيث كنت من الظلام خبره وإذ مضافة إلى هذه الجملة ومن الظلام حال من حيث تقديره إذ ضياء بمكان كونك وحصولك من الظلام ويجوز رفع حيث على الابتداء ونقله عن الظرفية . . . والازديار افتعال من الزيارة والدجى الظلمة يقول : إن الرقباء قد أمنوا أن تزورينى ليلا لأنك إذا زرتنى فى الظلام أضاء بك وأنار لأنك ضياء يهتك الظلام وإذ ذاك تفتضحين وهذا ينظر إلى قول على بن جبلة العكوك :

بأبى مَنْ زَارَنى مُكْتَتِماً ... حَذِراً مِنْ كلِّ وَاشٍ فَزِعَا
طَارِقاً نَمَّ عَلَيْهِ نُورُه ... كيفَ يخفى الليلُ بدراً طلَعَا
رَصَدَ الخَلْوة حتى أمْكَنَتْ ... وَرَعَى السَّامِرَ حتى هَجَعَا
كابَدَ الأهْوالَ فى زَوْرَتِهِ ... ثمَّ ما سَلَّمَ حتى وَدَّعَا

(١) قلق مبتدأ وهتكها خبره ومسيرها عطف على قلق محذوف الخبر للعلم به ، والواو فى وهى مسك وهى ذكاء للحال . والمراد بقلقها اضطرابها وحركتها والمسك طيب من دم دابة كالظبى تدعى غزال المسك ، وهتكها أى انتهاكها ، وذكاء اسم للشمس لا ينصرف . يقول : إن المليحة مسك فإذا تحركت انهتك سترها وافتضح بتضوع رائحتها ، وهى شمس فإذا سارت ليلا رآها الناس . ومثل هذا المعنى كثير فى شعر المحدثين قال البحترى :

وَحَاوَلْنَ كِتمانَ التَّرَحُّلِ فى الدُّجى ... فَنَمَّ بِهِنَّ المِسْكُ حِينَ تضوَّعَا

وقال :

وكَانَ العَبِيرُ بها وَاشِياً ... وَجَرْسُ الحُلِيِّ عليها رقيبا

وقال أبو المطاع ابن ناصر الدولة :

ثلاثةٌ منعَتْهَا مِنْ زِيارتِنَا ... وقد دَجا الليلُ خَوفَ الكاشِحِ الحَنِقِ
ضَوْءُ الجبين وَوَسواسُ الحُلِيِّ وما ... يفوحُ مِنْ عَرَقٍ كالعنبرِ العَبِقِ

أَسَفِي عَلَى أَسَفِي الَّذِي دَلَّهتَنِي | عَنْ عِلْمِهِ فَبِهِ عَلَيَّ خَفَاءُ[١]
وَشَكِيَّتِي فَقْدُ السَّقَامِ لِأَنَّهُ | قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لِي أَعْضَاءُ[٢]

هَبِ الجبينَ بفضل الكُمِّ تستره | وَالْحَلْيَ تنزعه ما الشأن فى العرق

هذا وقد قال ابن فورجه : الهتك مصدر متعد ولو اتى بمصدر لازم بأن قال انهتا كها لكان أقرب إلى الفهم ولكنه راعى الوزن . قال : وقوله وهى مسك زيادة على كثير من الشعراء إذ لم يجعل هتكها من قبل الطيب الذى استعملته بل جعل المسك نفسها فكأنه من قول امرىء القيس :

* وجدت بها طيبا وإن لم تطيَّبِ *

وقول الآخر :

دُرَّةٌ كيفما أديرت أضاءت | وَمِشَمٌّ من حيثما شُمَّ فاحا

ومثله قول بشار :

وتوق الطيب ليلتنا | إنهُ وَاش إذا سطعا

(١) أسفى على أسفى مبتدأ وخبر وخفاء مبتدأ ، وبه من فيه جار ومجرور خبره والأسف الحزن ، والمدله الذى أذهب العشق عقله وأذهله . يقول : إننى آسف على أن شغلتنى عن معرفة الأسف حتى خفى على ما هو إذ عصفت بلبى يعنى : إننى أحزن لذهاب عقلى لما لقيت فى هواك من البرح والشدة حتى لقد خفى على حزنى الذى إنما يدرك باللب وليس لى الآن لب ، أو تقول: إنه كان يتأسف على زمان وصالها فلما أمعنت فى الهجر ذهب لبه حتى صار لا يعرف الأسف فأخذ يأسف على ذلك الأسف لأنه كان إذ ذاك عاقلا أما الآن فلا عقل له .

(٢) الشكية والشكاة والشكوى والشكاية واحد . يقول : إنما أشكو عدم السقم لأن السقم إنما كان حين كانت لى أعضاء يعروها السقام فأحسه بأعضائى فإذا طاحت الأعضاء من جراء الجهد الذى أدركنى فى هواك لم يبق ثم ما ينزل به السقم ، وهذا المعنى أوضحه البستى بقوله :

ولو أبقى فِراقكَ لِي فُؤاداً | وَجَفناً كنتُ أجزَعُ مِنْ سُهادِي
وَلَكِنْ لا رُقادَ بِغَيرِ جَفْنٍ | كما لا وَجْدَ إلا بالفُؤادِ

مَثَّلَتِ عَيْنَكِ فِي حَشَايَ جِرَاحَةً فَتَشَابَهَا كِلْتَاهُمَا نَجْلَاءُ(١)
نَفَذَتْ عَلَيَّ السَّابِرِيَّ وَرُبَّمَا تَنْدَقُّ فِيهِ الصَّعْدَةُ السَّمْرَاءُ(٢)
أَنَا صَخْرَةُ الْوَادِي إِذَا مَازُوحِمَتْ وَإِذَا نَطَقْتُ فَإِنَّنِي الْجَوْزَاءُ(٣)

« وأما بعد » فلا تنس أن أبا الطيب إنما يقول هذه القصيدة لرجل يعرف أنه يذهب مذهب المتصوفة ومن ثم تراه ينهج منهجهم فى العبارة والتفكير وبالحرى ما يشبه أن يكون رمزاً وغموضا .

(١) جراحة مفعول ثان لمثلت أو تمييز . وقوله: فتشابها أى العين والجراحة ولم يقل تشابهتا حملا على المعنى كأنه قال فتشابه الأمران كما قال .

إن السماحة والمروءة ضمنا قبراً بمرو على الطريق الواضح

ومثلت صورت والجراحة الجرح والنجلاء الواسعة يقول : لما نظرت إلى صورت فى قلبى مثال عينك جرحا واسعا فتشابهت عينك وذلك الجرح فى الاتساع .

(٢) نفذت أى العين والسابرى الدرع المحكمة الدقيقة النسج نسبة إلى سابور ويقال للثياب الرقيقة سابرية ، قال ذو الرمة :

فجاءت بنسج العنكبوت كأنه على عصويها سابرى مشبرق

والصعدة القناة التى تنبت معتدلة فلا تحتاج إلى تقويم يقول — إذا كان يريد بالسابرى الدوع — اخترقت عينك الدرع إلى قلبى فلم تحصنه الدرع من نظرتها مع أنها تحصنه من الرمح . وإذا كان المراد بالسابرى الثياب يكون المعنى أن عينك نفذت إلى قلبى فجرحته وربما كان الرمح يندق قبل وصوله إلى لمكانى من الشجاعة والشجاع موقى والاول أظهر .

(٣) صخرة الوادى فى العادة صلبة بما يتعاورها من السيول ، ومن ثم جعلت مثلا فى الثبات لأن السيول تجرف ما حولها ولا تستطيع اقتلاعها والجوزاء من أبراج الفلك ، يقول : إذا زوحمت لم يقدر على إزالتى عن موضعى كصخرة الوادى وإذا نطقت كنت فى علو المنطق كالجوزاء وقال الواحدى : ويقال إن الجوزاء بيت عطارد فيكون المعنى : منى تستفاد البراعات ويقتبس الفضل كما أن الجوزاء تعطى من يولد فيها البراعة والنطق .

وَإِذَا خَفِيتُ عَلَى الْغَبِيِّ فَعَاذِرٌ أَنْ لَا تَرَانِي مُقْلَةٌ عَمْيَاءُ(١)
شِيَمُ اللَّيَالِي أَنْ تُشَكِّكَ نَاقَتِي صَدْرِي بِهَا أَفْضَى أَمِ الْبَيْدَاءُ(٢)

---

(١) الغبي : الغافل القليل الفطنة ، وقوله فعاذر : أي فأنا عاذر فهو خبر عن محذوف ، والمقلة : العين ، يقول : إذا خفي مكاني على الغبي فلم يعرف قدري ولم يقر بفضلي فأنا عاذر له لأنه كالأعمى الذي لايرى الأشياء والأعمى معذور فكذلك الغبي الجاهل . وهذا المعنى ينظر إلى قول ذي الرمة يمدح عمر بن هبيرة :

حَتَّى بَهَرْتَ فَمَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى أَكْمَهٍ لَا يَعْرِفُ الْقَمَرَا(١)

(٢) صدرى يريد أصدرى ، فحذف همزة الاستفهام لدلالة أم البيداء عليها والبيداء الفلاة سميت كذلك لأن الشأن فيمن سلكها أن يبيد ، والشيمة العادة وشككه حمله على الشك ، وأفضى من الفضاء وهو الاتساع ، يقول : عادة الليالى أن تبعد على طلبق فترميني بطول الأسفار حتى تحمل ناقتى على الشك فى ، أصدرى بها لو جعل مكان البيداء أم البيداء أفضى ؟ لما ترى من سعة صدرى وأناتى وتجلدى وصبرى على المشقات والأسفار ، وهذا المعنى هو الظاهر وهو ما ذهب إليه ابن جنى ، ولكن الواحدى كما قال العكبرى نقلا عنه لم يرتضه ، قال : هذا إنما يصح لو لم يكن فى البيت بها ، وإذا رددت الكناية « أى الضمير فى بها » إلى الليالى بطل ماقال لأن المعنى : صدرى بالليالى وحوادثها وماتورده على من مشقة الأسفار وقطع المفاوز أوسع من البيداء وناقتى تشاهد ما أقاسى من السفر وصبرى عليه فيقع لها الشك فى أن صدرى أوسع أم البيداء وعلى هذا أفضى أفعل كما يقال أوسع ، وقال قوم : إن الكناية تعود على الناقة ومعنى أفضى بها أى أدى بها إلى المنزل صدرى أم البيداء؟ فمرة تقول : أى الناقة لولا سعة صدره من حيث الهمة وبعد

---

(١) قبله :

مازلت فى درجات الأمر مرتقيا تنمي وتسمو بك الفرعان من مضرا

قال ابن برى : الذى أورده الجوهرى وقد بهرت وصوابه حتى بهرت أى علوت كل من يفاخرك فظهرت عليه ، وقوله على أحد : أحد هينا بمعنى واحد لأن أحداً المستعمل بعد النفى فى قولك : ما أحد فى الدار لا يصح استعماله فى الواحد .

فَتَبِيتُ تُسْئِدُ مُسْئِداً فِي نَيِّهَا ... إِسْآدَهَا فِي الْمَهْمَهِ الإِنْضَاءُ(١)

أَنْسَاعُهَا مَمْغُوطَةٌ وَخِفَافُهَا ... مَنْكُوحَةٌ وَطَرِيقُهَا عَذْرَاءُ(٢)

المطلب لما أتعبنى بالسفر ومرة تقول البيداء هى التى تذهب لحمى وتودى بى إلى الهزال وعلى هذا أفضى فعل ويجوز أن يكون اسما وإن عادت الكناية إلى الناقة . والمعنى أن ناقتى قوية نجية يضن بمثلها وهى ترى إتعابى إياها واستنادى عليها فى الأسفار فتقول صدرى أوسع بى حيث طابت نفسه فى إهلاكى أم البيداء ؟ أى لولا أن له صدرا فى السعة كالبيداء لم تطب نفسه بإهلاكى . قال الواحدى: والقول هو الأول وهو رد الكناية إلى الليالى « هذا » وتشبيه الصدر بالبيداء فى السعة معنى قد اعتوره الشعراء .

قال أبو تمام :

ورحب صدر لو أن الأرض واسعة ... كوسعه لم يضق عن أهله بلد

وقال البحترى :

كريم إذا ضاق الزمان فإنه ... يضل الفضاء الرحب فى صدره الرحب

(١) الإسآد إدمان السير أو سير الليل خاصة والني الشحم والسمن والإنضاء مصدر أنضاه ينضيه إذا هزله والمهمه الصحراء ومسئدا حال من ضمير تسئد العائد على الناقة وهو اسم فاعل فاعله الإنضاء وإسآدها مفعول مطلق عامله مسئدا وتقدير البيت تبيت هذه الناقة تسئد مسئدا الإنضاء فى نيها إسآدا مثل إسآدها فى المهمه يقول : تبيت ناقتى تسير سائراً فى جسدها الهزال مثل سيرها فى الصحراء . وهذا المعنى ينظر إلى قول أبى تمام .

رَعَتْه الفيافى بَعْدَ ما كَانَ حِقْبَةً ... رَعَاهَا وَمَاءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ سَاكِبُه

(٢) الأنساع جمع نسع وهو سير كهيئة العنان يشد به الرحل ، والمغط المد وذلك كناية عن عظم بطن الناقة حين امتدت أنساعها فطالت ، وخفافها منكوحة أى مثقوبة بالحصى وكنى بهذا عن وعورة الطريق ومنكوحة أى مدمية من الحصى واستعار النكاح لوطئها الأرض وإدماء الحصى إياها . وطريقها عذراء أى لم تسلك قبلها وأصل العذراء التى لم تفتض . ومن طريف ما ذكره الشراح هنا ما أورده العكبرى قال : قال الشيخ أبو محمد عبد المنعم بن صالح النحوى عند قراءتى عليه هذا الديوان ومذ وصلت إلى هذا البيت : سألنى الملك الكامل أبو المعالى محمد بن أبى بكر

يَتَلَوَّنُ الْخِرِّيتُ مِنْ خَوْفِ التَّوَى فِيهَا كَمَا يَتَلَوَّنُ الْحِرْبَاءُ(١)
بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي عَلِيٍّ مِثْلُهُ شُمُّ الْجِبَالِ وَمِثْلُهُنَّ رَجَاءُ(٢)
وَعِقَابُ لُبْنَانٍ وَكَيْفَ بِقَطْعِهَا وَهُوَ الشِّتَاءُ وَصَيْفُهُنَّ شِتَاءُ(٣)

ابن أيوب ملك الديار المصرية والشام والحرمين عن هذا البيت فى قوله وطريقها عذراء فقلت له : يريد أنها صعبة لم تسلك ، فقال لى : هذا يدل على أن الممدوح لا يعرف ولا له ذكر ولا نائل لأن الطريق إليه عذراء لم تطرق والممدوح إذا كان له عطاء وذكر ويعرفه القصاد ، كانت الطريق إليه لا تنقطع . . . ولقد أحسن فى هذا النقد .

(١) الخريت الدليل سمى خريتا لاهتدائه فى الطرق الخفية كخرت الإبرة كأنه يعرف كل ثقب فى الصحراء ، والتوى الهلاك ، والحرباء دويبة على شكل سام أبرص ذات قوائم أربع دقيقة الرأس مخططة الظهر تستقبل الشمس وتكون معها كيف دارت وتتلون ألوانا بحر الشمس . يقول : إن هذه الأرض طريقها صعبة يتلون الدليل فيها خوف الهلاك كما يتلون الحرباء ويتغير لونه فهو يدور يمينا وشمالا لطلب الطريق وفى هذا المعنى يقول هدبة :

يظل بها الهادى يقلب طرفه من الهول يدعو ويله وهو لاهف

ويقول الطرماح :

إذا اجتابها الخريت قال لنفسه أتاك برحلى حائن بعد حائن

(٢) شم الجبال : بدل من « قوله مثله » ، ونصب مثلهن على الحال لأنه نعت للنكرة المرفوعة فقدم عليها فنصب على الحال كقولك : فيها قائما رجل ، وكقول ذى الرمة :

وَتَحْتَ العَوَالِي والقَنَا مُسْتَظِلَّةً ظِبَاءٌ أعَارَتْهَا العُيُونَ الجَآذِرُ

يقول : بينى وبين هذا الممدوح جبال مرتفعة مثله ورجاء عظيم كهذه الجبال .

(٣) وعقاب عطف على شم الجبال ، وعقاب جمع عقبة وهى المرتقى الصعب من الجبل والباء فى بقطعها متعلقة بمحذوف تقديره : وكيف أقوم بقطعها أو كيف الظن مثلا . وكيف استفهام فى المعنى الإنكارى ، وواو « وهو الشتاء » للحال والضمير ضمير الشأن

لَبِسَ الثُّلُوجُ بِهَا عَلَيَّ مَسَالِكِي ... فَكَأَنَّهَا بِبَيَاضِهَا سَوْدَاءُ (١)
وَكَذَا الكَرِيمُ إِذَا أَقَامَ بِبَلْدَةٍ ... سَالَ النُّضَارُ بِهَا وَقَامَ المَاءُ (٢)
جَمَدَ القِطَارُ وَلَوْ رَأَتْهُ كَمَا تَرَى ... بُهِتَتْ فَلَمْ تَتَبَجَّسِ الأَنْوَاءُ (٣)

يقول : وكذلك بينى وبينه عقاب جبل لبنان وكيف أستطيع قطعها والوقت شتاء وصيفها مثل الشتاء فكيف شتاؤها ؟ !

---

(١) لبس الشيء ولبسه عماه ، قال تعالى : « وللبسنا عليهم ما يلبسون » والضمير فى بها للعقاب والضمير فى كأنها للثلوج أو للمسالك وباء ببياضها متعلقة بمعنى كأن أى التشبيه ، يقول : إن الثلوج فى هذه الجبال أخفت على طرقى فلم أهتد لكثرتها وبياضها فكأنها اسودت اسوداد الليل إذ ضللت فيها لأن الأسود لا يهتدى فيه ، وهذا معنى حسن كما ترى .

(٢) النضار الذهب ، والنضار أيضا الخالص من كل شىء ، وقام الماء جمد ومعنى هذا البيت متصل بالذى قبله لأنه يقول بياض الثلوج يعمى فقام مقام السواد ، والبياض إذا عمل عمل السواد فقد نقض العادة كذلك الكريم إذا أقام ببلدة نقضت العادة فيكون الذهب سائلا والماء جامدا ، وإنما قال هذا لأنه أتاه فى الشتاء عند جمود الماء . يقول : إن الكريم إذا أقام ببلدة أعطى المال وتخرق فى الكرم حتى لكأن المال ماء سائل فلما رأى الماء هذا الكرم وقف متبلدا متلددا جامدا ، وهو تخيل بديع .

(٣) الأنواء فاعل رأته ويجوز أن ترتفع الأنواء برأت وبهتت وتتبجس على التنازع وفاعل ترى يعود على القطار ، ويروى بدل ترى رأى : أى القطار ولكن ترى أحسن لأن القطار مؤنثة ، والقطار جمع قطر ، وقطر جمع قطرة وهى المطر ، وبهتت دهشت وتحيرت ، وتتبجس تتفجر ، والأنواء جمع نوء وهو سقوط نجم من الغرب وطلوع رقيبه من الشرق وهى منازل القمر والعرب تنسب إليها الأمطار يقولون : سقينا بنوء كذا . ويريد بجمود القطار الثلوج يقول : إن المطر جمد لما رأى كرم هذا الممدوح ولو رأته الأنواء كما رآه المطر لتحيرت ودهشت ولم تتفجر فلم تأت بمطر استعظاما لما يأتيه وخجلا من جوده .

فِي خَطِّهِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ شَهْوَةٌ حَتَّى كَأَنَّ مِدَادَهُ الأَهْوَاءُ (١)
وَلِكُلِّ عَيْنٍ قُرَّةٌ فِي قُرْبِهِ حَتَّى كَأَنَّ مَغِيبَهُ الأَقْذَاءُ (٢)
مَنْ يَهْتَدِي فِي الْفِعْلِ مَا لاَ تَهْتَدِي فِي الْقَوْلِ حَتَّى يَفْعَلَ الشُّعَرَاءُ (٣)
فِي كُلِّ يَوْمٍ لِلْقَوَافِي جَوْلَةٌ فِي قَلْبِهِ وَلأُذْنِهِ إِصْغَاءُ (٤)
وَإِغَارَةٌ فِيمَا احْتَوَاهُ كَأَنَّمَا فِي كُلِّ بَيْتٍ فَيْلَقٌ شَهْبَاءُ (٥)

---

(١) المداد الحبر ، والأهواء جمع هوى بالقصر وهو صبوة القلب يصفه بحسن الخط يقول : كأن مداده من أهواء الناس فهم يحبون خطه ويميلون إليه شغفاً به وافتتاناً بحسنه ، ويجوز أن يكون هذا كناية عن وصفه بالجود يقول : لا يوقع إلا بالنوال ولذلك يهفو الناس إلى خطه ، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن طاعة الناس له أى أن كتبه تقوم مقام الجيوش لأن الناس ينقادون إليه غريزة وطبعاً ، ولعل الأقرب أن الناس لحبهم إياه وشغفهم برؤيته يتهافتون على كل ما يكتبه لأن فيه بعض ما يشتهون على حد قولهم : المكاتبة نصف المشاهدة .

(٢) قرة العين كناية عن السرور ، قرت عينه بردت ، ودمع الفرح بارد والأقذاء جمع قذى وهو ما يقع فى العين والشراب من تراب ونحوه والمغيب الغيبة ، يقول : كل عين تسر بقربه ورؤيته وتتأذى بغيبته فكأن غيبته قذى للعيون .

(٣) من بمعنى الذى خبر ضمير محذوف يرجع إلى الممدوح وتقدير البيت : هو الذى يهتدى فى الفعل إلى مالا يهتدى الشعراء إليه فى القول حتى يفعل هو فضمير يفعل يعود إلى من ، والشعراء فاعل تهتدى ، يقول : إنما يقتدى الشعراء فيما يقولون من المدائح بأفعاله من المكارم والمساعى العظام فإذا فعل هو تعلموا من فعله القول فحكوا ما فعله .

(٤) القافية القصيدة لأن بعضها يقفو بعضا أى يتبعه أو تسمية للكل باسم البعض ، يقول : إن الشعراء تتوارد عليه بالمدائح بالتوالى فهو لا ينفك عن الإصغاء حبا للشعر وارتياحا إلى إعطاء الشعراء .

(٥) إغارة عطف على جولة ، وما احتواه أى جمعه واقتناه من مال والفيلق الكتيبة من الجيش أنثه فقال شهباء باعتبار معنى الجمع وكل جمع مؤنث والشهباء التى غلب بياضها على سوادها ، يعنى صافية الحديد ، يقول : وللقوافى كل يوم إغارة على ماله حتى لكأن كل بيت كتيبة تنهب ما احتواه .

مَنْ يَظْلِمُ اللُّؤَمَاءَ فِي تَكْلِيفِهِمْ   أَنْ يُصْبِحُوا وَهُمُ لَهُ أَكْفَاءُ[١]
وَنَذِيمُهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ   وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ[٢]

---

(١) من بمعنى الذى خبر مبتدأ محذوف تقديره هو الذى يظلم الخ واللئيم الخسيس الأصل والنفس ضد الكريم ويصبحوا هنا تامة والجملة بعد حال والأكفاء النظراء والأمثال ، يقول : إن اللئام يحاولون التشبه به حسداً له وهم لا يقدرون على ذلك فكأنه ظلمهم ، إذ كلفهم أن يماثلوه ولكنهم لم يستطيعوا ، قال الواحدى ما معناه : ليس فى هذا كبير مدح ولقد كان أبلغ فى المدح أن يقول : الكرماء بدل اللؤماء على أن مثل هذا المعنى وهو أنه أفضل من اللؤماء ولا يقدرون أن يكونوا ، مثله مما لا يليق بمذهبه فى إشاره المبالغة. وروى الخوارزمى نظلم بالنون، وقال: إذا كلفنا اللئام أن يكونوا أكفاء له فقد ظلمناهم فى تكليفهم ما لا يطيقون .

(٢) ذامه كذمه ، وقوله ونذيمهم مما يؤنس ما ذهب إليه الخوارزمى فى روايته البيت السابق من نظلم بالنون ، يقول المتنبى : ونحن نذم اللئام ولولاهم ما عرفنا فضله لأن الأشياء إنما تتبين بأضدادها فلو كان الناس كلهم كراماً لم يعرف فضله ، وهذا المعنى قد تعاوره كثير من الشعراء قال بشار :

وَكُنَّ جَوَارِي الحَيِّ مادمتِ فيهم   قِباحاً فلما غِبْتِ صِرْنَ مِلاحَا

وقال أبو تمام :

وَليس يَعْرِفُ طِيبَ الوصلِ صاحبُهُ   حتى يُصابَ بنأيٍ أو بِهِجْرَانِ

وقال :

والحادثاتُ وإنْ أصابكَ بُؤْسُها   فهو الذى أنباكَ كيف نَعِيمُها

وقال :

سَمُجَتْ ونبهنا عَلَى اسْتِسْماجِها   ما حولها من نَضرةٍ وَجَمالِ
وَكذاكَ لم تُفْرِطْ كآبةُ عاطِلٍ   حتى يُجاوِرَها الزمانُ بِحالى

وقال البحترى :

وقدْ زادها أفراطَ حُسنٍ جِوارُهَا   خَلائِقَ أصفارٍ من المجد خُيَّبِ
وَحُسْنُ دَرَارِيِّ الكواكبِ أنْ تُرَى   طَوالِعَ فى دَاجٍ مِنَ الليلِ غَيْهَبِ

مَنْ نَفْعُهُ فِي أَنْ يُهَاجَ وَضَرُّهُ فِي تَرْكِهِ لَوْ تَفْطَنُ الأَعْدَاءُ(١)

فَالسَّلْمُ يَكْسِرُ مِنْ جَنَاحَيْ مَالِهِ بِنَوَالِهِ مَا تَجْبُرُ الهَيْجَاءُ(٢)

يُعْطِي فَتُعْطَى مِنْ لُهَى يَدِهِ اللُّهَى وَتُرَى بِرُؤْيَةِ رَأْيِهِ الآرَاءُ(٣)

مُتَفَرِّقُ الطَّعْمَيْنِ مُجْتَمِعُ القُوَى فَكَأَنَّهُ السَّرَّاءُ وَالضَّرَّاءُ(٤)

يد أن المتنبي صرح بالمعنى وهو أن مجاورة المضادة هي التي تثبت حسن الشيء وقبحه

(١) من بمعنى الذى بدل من الأول يقول : وهو الذى إذا هاجه أعداؤه واستثاروه للحرب استباح أموالهم وحريمهم فانتفع بذلك وإذا تركوه لم ينتفع فاستضر بذلك فلو فطن أعداؤه لهذا منه لسالموه فتسببوا إلى مضرته .

(٢) السلم بفتح السين وكسرها ضد الحرب ، والجناح بمعنى اليد والعضد استعاره للمال لأنه موطن القوة ، والنوال العطاء ، وما من قوله ما تجبر مفعول يكسر والجبر ضد الكسر والهيجاء من أسماء الحرب وهذا البيت مفرع على البيت السابق يقول : إنه في الحرب يأخذ مال أعدائه يعطيه عفاته في السلم وبذلك يكون السلم سبباً في نقص أمواله والحرب سبباً في توافرها ، وفي هذا المعنى يقول أبو تمام :

إذا ما أغاروا فاحتووا مال معشر أغارت عليه فاحتوته الصنائع

(٣) اللهى العطايا الجزيلة جمع لهوة بضم اللام وهي في الأصل القبضة من الحبوب يلقيها الطاحن في فم الرحى فشبهت العطية بها ، يقول : إنه يعطي عفاته العطاء الجزل الكثير حتى يعطوا غيرهم من هذه العطايا فيصير سائله مسئولا وهو من جودة الرأى وسداده بحيث إذا نظر الناس إلى رأيه تعلموا منه سداد الآراء .

(٤) يقول : فيه حلاوة لأوليائه ومرارة لأعدائه فهو متفرق الطعمين مختلفهما فكأنه السراء والضراء ولكنه مع ذلك مجتمع القوى غير متفرق العزائم فأفعاله تصدر عن عزم جميع ورأى مستحصد والتشبيه بالسراء والضراء في اللين والشدة مترتب على المعنى الأول وأصل هذا المعنى للبيد :

مُمْقِرٌ مُرٌّ على أعدائِه وعلى الأدْنَيْنَ حُلْوٌ كالعسل

« ممقر أى مر » وقال النابغة الجعدى :

فتى تم فيه ما يَسُرُّ صَدِيقَهُ على أنَّ فِيهِ ما يَسُوءُ الأعادِيا

وَكَأَنَّهُ مَا لَا تَشَاءُ عُدَاتُهُ مُتَمَثِّلاً لِوُفُودِهِ مَا شَاءُوا(١)
يَا أَيُّهَا الْمُجْدَى عَلَيْهِ رُوحُهُ إِذْ لَيْسَ يَأْتِيهِ لَهَا اسْتِجْدَاءُ(٢)
احْمَدْ عُفَاتَكَ لَافُجِعْتَ بِفَقْدِهِمْ فَلَتَرْكُ مَا لَمْ يَأْخُذُوا إِعْطَاءُ(٣)
لَا تَكْثُرُ الْأَمْوَاتُ كَثْرَةَ قِلَّةٍ إِلَّا إِذَا شَقِيَتْ بِكَ الْأَحْيَاءُ(٤)

وأخذه المسيب بن علس فقال :

هُمُ الرَّبِيعُ عَلَى مَنْ صَافَ أَرْحُلَهُم وَفِى الْعَدُوِّ مَنَاكِيدٌ مَشَائِيمُ

وقال علاثة :

وكنتم قديماً فى الحروب وغيرها مَيَامِينَ للأَدْنَى لأعدائِكُم نُكُدُ

(١) ما ، فى الشطرين موصولة وهى فى الأول خبر كأن، ومتمثلا منصوب على الحال يقول : وكأنه صور على ما يكرهه أعداؤه من إرغامهم وحملهم على الحسد حال تمثله لمن يفد عليه رجاء نواله كما يشاءون فيكون عند ظنهم به ويحقق آمالهم فيه .

(٢) المجدى عليه المعطى وروحه نائب فاعل المجدى والاستجداء الاستعطاء ، يقول يامن روحه معطى له من العفاة إذ ليس يطلبها منه أحد منهم ، فكأنهم قد جادوا بها عليه ، يعنى أنه لو سئل روحه لبذله لتخرقه فى الجود فإذا لم يسأل فكأنه وهب روحه وهذا من قول مسلم بن الوليد وضمنه أبو تمام إحدى قصائده .

ولو لم يكن فى كفه غير رُوحِهِ لجادَ بها فليتقِ اللهَ سائلُهْ

(٣) هذا البيت إتمام لمعنى البيت قبله وتأكيد له والعفاة جمع عاف وهو طالب المعروف وقوله لا فجعت بفقدهم دعاء له واللام فى قوله فلترك لام الابتداء ، يقول: اشكر هذا لعفاتك لا أفجعك الله بفقدهم لأنك تحب العطاء والسؤال . ويروى لا فجعت بحمدهم أى لا قطع الله شكرهم عنك

(٤) اضطربت أقوال الشراح فى هذا البيت، فذهب المعرى والواحدى إلى أن المعنى : لا تكثر الأموات كثرة يقل بها عدد الأحياء إلا إذا شقى الأحياء بغضبك وقتلك إياهم فإذا غضبت عليهم وقاتلتهم عصفت بهم فزدت فى الأموات زيادة ظاهرة ونقص الأحياء نقصاً بيناً ، وإليك نص عبارة أبى العلاء : شقوا به أى بقتله إياهم وأن الأحياء إذا شقيت بك كثرت الأموات وتلك الكثرة تؤدى إلى القلة ، إما لأن الأحياء يقلون بمن

وَالقَلْبُ لاَ يَنْشَقُّ عَمَّا تَحْتَهُ ... حَتَّى تَحُلَّ بِهِ لَكَ الشَّحْنَاءُ (١)

لَمْ تُسْمَ يَاهَرُونُ إلاَّ بَعْدَمَا اُقْـ ... ـتَرَعَتْ وَنَازَعَتِ اسْمَكَ الأَسْمَاءُ (٢)

فَغَدَوْتَ وَاسْمُكَ فِيكَ غَيْرُ مُشَارَكٍ ... وَالنَّاسُ فِيمَا فِي يَدَيْكَ سَوَاءُ (٣)

يموت منهم وإما لأن الميت يقل فى نفسه ، وقال ابن جنى : شقيت بك أى شقيت بفقدك أى لا تصير الأموات أكثر من الأحياء إلا إذا مات الممدوح ، يقول : إنك نعمة على الأحياء وفقدك شقاء لهم ، وهذا على حد قول القائل :

لَعَمْرُكَ مَا الرَّزِيَّةُ فَقْدُ مَالٍ ... وَلاَ شَاةٌ تَمُوتُ وَلاَ بَعِيرُ

وَلَـكِنِ الرَّزِيَّةَ فَقْدُ شَخْصٍ ... يَمُوتُ بِمَوْتِهِ خَلْقٌ كَثِيرُ

ومنه قول الآخر :

وَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ وَاحِدٍ ... وَلَـكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

ويكون قوله : كثرة قلة ، معناه أنك وإن كنت قليلا فى العدد فأنت كثير فى القدر والشرف

(١) الشحناء العداوة ، قال ابن جنى : يريد . لا يتصدع قلب أحد حتى يعاديك فيضمر لك العداوة فاذا تأمل ما جنى على نفسه من عداوتك انشق قلبه فمات خوفا وجزعا ، وقال الواحدى تعليقا على ابن جنى . ولم يفسر قوله عما تحته والمعنى عما فيه من الغل والحسد أى أنه وإن أضمر لك الغل والحسد لم ينشق قلبه فإذا أضمر لك العداوة انشق قلبه وبان أنه عدو لك ، والمعنى بعبارة أخرى : لا يضمر القلب أمراً يتصدع به وينشق حتى تحل عداوتك فيه . فاذا حلت ضاق بها وانشق عنها لشدة ماناله من الخوف والجزع .

(٢) اقترعت تساهمت ، يقول : تقارعت الأسماء عليك فكل اسم أراد أن تسمى به افتخارا بك وتشرفا فلم تسم بهذا الاسم حتى تقارعت الأسماء ، وقال المعرى : أراد بالاسم الصيت .

(٣) الواو فى قوله واسمك واو الحال وفيك صلة مشارك . أى لم يشارك اسمك فيك اسما آخر إذلا يكون للانسان أكثر من اسم ، والناس كلهم فى مالك سواء قد تساووا فى الأخذ منك لا تخص أحدا دون غيره بالعطاء . هذا قول الواحدى وغيره ، وقال

لَعَمَمْتَ حَتَّى الْمُدْنُ مِنْكَ مِلَاءُ ... وَلَفُتَّ حَتَّى ذَا الثَّنَاءُ لَفَاءُ (١)
وَلَجُدْتَ حَتَّى كِدْتَ تَبْخَلُ حَائِلاً ... لِلْمُنْتَهَى وَمِنَ السُّرُورِ بُكَاءُ (٢)
أَبْدَأْتَ شَيْئاً مِنْكَ يُعْرَفُ بَدْؤُهُ ... وَأَعَدْتَ حَتَّى أُنْكِرَ الْإِبْدَاءُ (٣)
فَالْفَخْرُ عَنْ تَقْصِيرِهِ بِكَ نَاكِبٌ ... وَالْمَجْدُ مِنْ أَنْ تُسْتَزَادَ بَرَاءُ (٤)
فَإِذَا سُئِلْتَ فَلَا لِأَنَّكَ مُحْوِجٌ ... وَإِذَا كُتِمْتَ وَشَتْ بِكَ الْآلَاءُ (٥)

المعرى : يريد بالاسم الصيت أى لم يشركك فى صيتك أحد ، يقال . فلان قد ظهر اسمه فى الناس أى صيته فذكره لا يشاركه فيه أحد وإنما مالك الناس فيه سواء غنيهم وفقيرهم

(١) اللام فى لعممت واقعة فى جواب قسم محذوف على إضمار قد بعدها والمدن جمع مدينة وملاء جمع ملأى ومنك متعلق بملاء وفت تجاوزت وذا اثناء أى هذا الثناء واللفاء الحقير الخسيس يقول : لقد عم برك وشاع ذكرك حتى امتلأت بك البلاد وسبقت ثناء المثنين عليك حتى أصبح هذا الثناء يعد حقيرا فى جانب ماتستحقه وهذا البيت يسمى مصرعا لأنه قفى فيه المصراع الأول كما يفعل فى أول القصائد .

(٢) حائلا متحولا ، وللمنتهى أى لأجل الانتهاء ، ومن السرور خبر وبكاء مبتدأ والجملة استئنافية يقول : ولقد بلغت من الجود أقصاه حتى كدت تتحول عن آخره حين تناهيت إليه وتعود إلى البخل إذ ليس من شأنك أن تقف فى الكرم عند غاية وليس هناك جود بعد أن بلغت نهايته ، ومثل ذلك السرور إذا اشتد تحول إلى بكاء .

(٣) أبدأت أحدثت وجددت، وأعدت كررت ، ومنك متعلق يعرف أو يبدؤه ، يقول : أحدثت من الكرم مالا يعرف ابتداؤه إلا منك لعظم ما أتيت به ثم أتبعت ذلك من الزيادة فيه بما عفى على الأول وأنساه لأنك فى كل وقت تخلق فنا من الكرم ينسى به الأول .

(٤) ناكب: عادل ، يقال. نكب عن الطريق إذا عدل عنه ، وبك متعلقة بناكب أو بتقصير ، وبراء برىء يقع على الجمع والواحد والمذكر والمؤنث ، يقول : إن الفخر قد أعطاك مقادته وأركبك ذروته وبلغك غايته فلم يقصر بك عن غاية والمجد برىء من أن يستزيدك لأنك فى الغاية منه .

(٥) الوشى فى الأصل النميمة والمراد هنا دلت ، والآلاء النعم والعطايا وكتمت

وَإِذَا مُدِحْتَ فَلَا لِتَكْسِبَ رِفْعَةً   لِلشَّاكِرِينَ عَلَى الْإِلَهِ ثَنَاءُ (١)
وَإِذَا مُطِرْتَ فَلَا لِأَنَّكَ مُجْدِبٌ   يُسْقَى الْخَصِيبُ وَتُمْطَرُ الدَّأْمَاءُ (٢)
لَمْ تَحْكِ نَائِلَكَ السَّحَابُ وَإِنَّمَا   حُمَّتْ بِهِ فَصَبِيبُهَا الرُّحَضَاءُ (٣)

حجبت ، يقول . إذا سئلت فليس لأنك أحوجت الناس إلى السؤال ولكن ذلك لكى تعرف تفاصيل حاجاتهم أو لكى يتشرفوا بسؤالك ، كما قال أبو تمام

مازِلتُ مُنتظِراً أُعجُوبة زَمناً   حتى رَأَيتُ سُؤالا يَجتنى شَرَفا

وإذا كتمت أى حجبت عن أنظار الناس دلت عليك نعمك وصنائعك فقصد إليك العفاة كما قال :

من كان ضوء جبينه ونواله   لم يُحْجَبا لم يَحتجِبْ عن ناظر

(١) الرفعة الاسم من الارتفاع والشكر عرفان الإحسان وإن شئت قلت مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية فيثنى على المنعم بلسانه ويذيب نفسه فى طاعته ويعتقد أنه موليها . وللشاكرين خبر مقدم وثناء مبتدأ مؤخر وعلى الإله متعلق بثناء ، يقول : ولقد بلغت من الرفعة غاية لا يزيدها مدح مادح ولكن تمدح لتجيز العفاة وليعد الشاعر فى جملة مداحك كالشاكر لله تعالى يثنى عليه ليستحق أجراً ومثوبة لا أنه سبحانه محتاج إلى ثنائه .

(٢) الجدب المحل ضد الخصب . والدأماء البحر على فعلاء قال الأفوه الأودى

وَالليلُ كالدَّأْماء مُسْتَشْعِرٌ   مِنْ دُونِهِ لوْناً كلوْنِ السُّدُوسِ (١)

يقول : إذا مطرت فليس ذلك لإجداب محلك ولكن كما يمطر المكان الخصيب والبحر وهما غير محتاجين إلى المطر ومن هذا المعنى قول المعرى .

وَالبحرُ يُمطِرُهُ السحابُ وَمالهُ   فضـــلٌ عليهِ لأنّهُ مِنْ مائِهِ

(٣) النائل العطاء ، والسحاب جمع سحابة وجمع السحاب سحب فيكون سحب جمع الجمع قال تعالى ، «حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا » والرحضاء العرق أثر الحمى يقول : ليست تحكى السحاب بمائها عطاءك المتتابع فإنه أكثر من مائها وأغزر ولكنها حمت حسدا لك ، فما ينصب من مطرها إنما هو عرق حماها وهذا ينظر إلى قول أبى نواس :

---

(١) السدوس : الطيلسان

لَمْ تَلْقَ هٰذَا الْوَجْهَ شَمْسُ نَهَارِنَا   إلاَّ بِوَجْهٍ لَيْسَ فِيهِ حَيَاءُ[(١)]

فَبِأَيِّمَا قَدَمٍ سَعَيْتَ إِلَى الْعُلاَ   أُدُمُ الْهِلاَلِ لِأَخْمَصَيْكَ حِذَاءُ[(٢)]

وَلَكَ الزَّمَانُ مِنَ الزَّمَانِ وِقَايَةٌ   وَلَكَ الْحِمَامُ مِنَ الْحِمَامِ فِدَاءُ[(٣)]

لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى اللَّذْ مِنْكَ هُو   عَقِمَتْ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَّاءُ[(٤)]

إن السحابَ لتستحيي إذا نظرتْ   إلى نداكَ فقاسَتْهُ بما فيها

قال البديعيون . وفى هذا البيت حسن التعليل لصفة لا يظهر لها فى العادة علة وقد عللها بأن عرق حماها الحادثة بسبب عطاء الممدوح ، ومن هذا الباب قول بعضهم .

رأى المُزْنُ ما تُعْطِى فَضَمَّ عَلَى الأسَى   فُؤاداً كأن البرقَ فيهِ لهيبُ

(١) يقول : لا حاجة إلى الشمس مع ضيائك ونورك ومن ثم كان طلوعها وقاحة وقلة حياء منها ، واستعار للشمس وجها للمشاكلة .

(٢) الأدم . جمع أديم وهو ظاهر كل شىء ، والأخمص باطن القدم ومارق من أسفلها وتجافى عن الأرض وقيل خصر القدم وقد يراد بها القدم كلها وقوله فبأيما قدم . استفهام معناه التعجب وما زائدة . يتعجب من سعيه إلى العلياء وبلوغه منها حيث لم يبلغ أحد ، ثم دعا له بأن يكون وجه الهلال نعلا لقدميه يعنى أن قدما بلغ سعيها هذا المبلغ تستحق أن يكون الهلال نعلا لها

(٣) الحمام . الموت يدعو له ، يقول : ليكن الزمان وقاية لك من عواديه أى ليهلك الزمان بها دونك وليمت الموت فداء لك من نفسه . وكل هذا كما ترى مبالغة فى الدعاء .

(٤) اللذ : لغة فى الذى وتسكن الواو من هو ضرورة ، أو على لغة ، والعقم عدم الولد يقول : لو لم تكن من هذا الورى الذى كأنه منك لأنك جماله وشرفه وأفضل أهله لكانت حواء فى حكم العقيم التى لم تلد ولكنها بك صارت ذات ولد ، والشطر الأول ردىء ، ولكن الثانى جميل على أنه يلاحظ أن المتنبى يخاطب ـ كما أسلفنا ـ رجلا يذهب مذهب الصوفية .

وغنى المغنى فى دار الأمير أبى محمد الحسن بن عبيد الله بن طُغْج فأحسن فقال:

مَاذَا يَقُولُ الَّذِى يُغَنِّى ... يَا خَيْرَ مَنْ تَحْتَ ذِى السَّمَاء(١)

شَغَلْتَ قَلْبِى بِلَحْظِ عَيْنِى ... إِلَيْكَ عَنْ حُسْنِ ذَا الغِنَاء(٢)

وبنى كافور دارا بإزاء الجامع الأعلى على البركة ، وطالب أبا الطيب بذكرها فقال :

إِنَّمَا التَّهْنِئَاتُ لِلأَكْفَاءِ ... وَلِمَنْ يَدَّنِى مِنَ البُعَدَاءِ(٣)

وَأَنَا مِنْكَ لَا يُهَنِّئُ عُضْوٌ ... بِالمَسَرَّاتِ سَائِرَ الأَعْضَاءِ(٤)

مُسْتَقِلٌّ لَكَ الدِّيَارَ وَلَوْ كَا ... نَ نُجُوماً آجُرُّ هَذَا البِنَاءِ(٥)

وَلَوَ انَّ الَّذِى يَخِرُّ مِنَ الأَمْوَاهِ فِيهَا مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَاءِ(٦)

أَنْتَ أَعْلَى مَحَلَّةً أَنْ تُهَنَّى ... بِمَكَانٍ فِى الأَرْضِ أَوْ فِى السَّمَاءِ(٧)

---

(١) و (٢) الاستفهام للتعجب ، وذى السماء أى هذه السماء ، يقول : لا أدرى ما يقول هذا المغنى لأن قلبى وجوارحى مشتغلة بك وبالنظر إلى حسنك عن حسن غناء هذا المغنى

(٣) و (٤) يدنى من الدنو أى يقترب ، وأنا منك مبتدأ وخبر ، ولا يهنئ عضو كلام مستأنف يقول : إنما يهنئ الرجل نظراؤه والذين يتقربون إليه من الأجانب وأنا منك ، أى أنا وأنت كإنسان واحد وإذا ألم بإنسان فرح وعراه سرور اشتركت فى ذلك جميع أعضائه فلم يهنئ بعضها بعضا . قال الواحدى : وهذا طريق المتنبى يدعى لنفسه المساهمة والكفاءة مع الممدوحين فى كثير من المواضع وليس ذلك للشاعر فلا أدرى لم احتمل ذلك منه ؟

(٥) و (٦) مستقل خبر مبتدأ محذوف . أى أنا مستقل ، ويروى أستقل والآجر . الطوب المشوى ، ويخر . من خرير الماء ، يقول : أنا أستقل لك الديار وإن بنيت بالنجوم بدل الآجر — ولو أن الماء من فضة ، وذلك لرفعة قدرك وعلو شأنك .

(٧) محلة أى منزلة تمييز ، وأن تهنى ، فى موضع نصب بإسقاط حرف الجر أى من أن تهنى

وَلَكَ النَّاسُ وَالْبِلَادُ وَمَا يَسْـ ... ـرَحُ بَيْنَ الْغَبْرَاءِ وَالْخَضْرَاءِ(١)

وبَسَاتِينُكَ الْجِيَادُ وَمَا تَحْـ ... ـمِلُ مِنْ سَمْهَرِيَّةٍ سَمْرَاءِ(٢)

إِنَّمَا يَفْخَرُ الْكَرِيمُ أَبُو الْمِسْـ ... ـكِ بِمَا يَبْتَنِي مِنَ الْعَلْيَاءِ(٣)

وَبِأَيَّامِهِ الَّتِي انْسَلَخَتْ عَنْـ ... ـهُ وَمَا دَارُهُ سِوَى الْهَيْجَاءِ(٤)

وَبِمَا أَثَّرَتْ صَوَارِمُهُ الْبِيـ ... ـضُ لَهُ فِي جَمَاجِمِ الْأَعْدَاءِ(٥)

وَبِمِسْكٍ يُكْنَى بِهِ لَيْسَ بِالْمِسْـ ... ـكِ وَلَكِنَّهُ أَرِيجُ الثَّنَاءِ(٦)

لَا بِمَا يَبْتَنِي الْحَوَاضِرُ فِي الرِّيـ ... ـفِ وَمَا يَطَّبِي قُلُوبَ النِّسَاءِ(٧)

---

(١) و (٢) الغبراء : الأرض . والخضراء : السماء . وفى الحديث : ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر . والسمهرية . الرماح يقول : أنت أعلى منزلة من أن تهنأ بمكان والبلاد كلها والناس وكل مابين السماء والأرض ملك لك ونزهتك إنما هى الخيل وما تحمله من الرماح فهى بساتينك . جعل الرماح على الخيل كالحمل على الشجر .

(٣) يقول : إنما فخره بما يبتنى من العلياء ، لا بما يبتنى من الدور كما قال :

بَنَى الْبُنَاةُ لنا مجداً وَمَكْرُمَةً ... لا كالبناء مِنَ الآجُرِّ والطين

قالوا : والعلياء إذا فتحت عينها مدت ، وإذا ضمت قصرت .

(٤) و (٥) وبأيامه . عطف على قوله بما يبتنى ، وكذلك قوله وبما أثرت ، وانسلخت مضت ؛ والهيجاء الحرب ؛ والصوارم السيوف . يقول : إنما فخر أبي المسك بما يبتنى من العلياء وبأيامه التى مضت والمعروفة بالفتوح وقتل الأعادى ، ولم يكن له إذ ذاك دار إلا ساحة الحرب ، وبها شاد عزه وعلياءه .

(٦) وبمسك . عطف كذلك على بما يبتنى . ويكنى به صفة لمسك ، وليس بالمسك صفة أخرى ؛ والأريج فوحان الطيب . يقول : وإنما يفخر بالمسك الذى يكنى به والذى ليس هو المسك المعروف ، وإنما هو كناية عن طيب الثناء والذكر الجميل والصيت الحسن . «هذا» وهو معلوم أن كافور الأخشيدى كان يقال له أبو المسك .

(٧) يبتنى الحواضر . أى أهل الحواضر ، جمع حاضرة ، خلاف البادية . والريف.

نَزَلَتْ إذْ نَزَلْتَهَا الدَّارُ فِي أَحْسَنَ مِنْهَا مِنَ السَّنَا وَالسَّنَاءِ (١)

حَلَّ فِي مَنْبِتِ الرَّيَاحِينِ مِنْهَا مَنْبِتُ الْمَكْرُمَاتِ وَالآلاَءِ (٢)

تَفْضَحُ الشَّمْسَ كُلَّمَا ذَرَّتِ الشَّمْسُ بِشَمْسٍ مُنِيرَةٍ سَوْدَاءِ (٣)

إنَّ فِي ثَوْبِكَ الَّذِي الْمَجْدُ فِيهِ لَضِيَاءً يُزْرِي بِكُلِّ ضِيَاءِ (٤)

إنَّمَا الْجِلْدُ مَلْبَسٌ وَابْيِضَاضُ النَّفْسِ خَيْرٌ مِنَ ابْيِضَاضِ الْقَبَاءِ (٥)

المكان الخصب الكثير الزرع والخضرة . وبطي . يستميل . قال كثير .

لهُ نَعَلٌ لاَيَطَّبِي الكَلبَ رِيحُهَا وَإِنْ وُضِعَتْ وَسْطَ المَجَالِسِ شُمَّتِ

« يعني كثير أنها من جلد مدبوغ طيب الريح . والنعل بسكون العين مؤنثة ؛ ولكن كثيرا فتحها لانفتاح ما قبلها . أي إن حركتها حركة إتباع » يقول المتنبي : إنما يفتخر أبو المسك بما تقدم من ابتناء العلياء وقتل الأعداء وطيب الثناء ، لا بما يبتنى المتحضرون من المنازل ولا بالمسك الذي يستميل قلوب النساء

(١) السنا ، المقصور : الضوء والنور . والممدود الشرف والرفعة ؛ يقول : إن هذه الدار حين نزلتها نزلت منك فيمن هو أفضل منها رفعة ونوراً ، فكأنك أنزلت الدار في دار أجمل منها وأجل : أي تجملت بك هذه الدار وتزينت بقربك .

(٢) الرياحين : جمع ريحان جمع ريحانة ، والريحان كل نبت طيب الريح من أنواع المشموم ؛ والآلاء : النعم ، والمعنى ظاهر .

(٣) ذرت الشمس : بدت أول طلوعها . قال الواحدي : يريد أنه في سواده مشرق فهو بإشراقه في سواده يفضح الشمس ، ويجوز أن يريد شهرته وأنه أشهر من الشمس ذكراً . أو يريد . نقاءه من العيوب ، ويقال للمشهور : منير وللنقي من العيوب منير ؛ ويدل على صحة ما ذكر البيت التالي .

(٤) أخبر أنه أراد بإنارته ضياء المجد ، وضياؤه شهرته ونقاؤه مما يعاب به . وأن ذلك الضياء أتم من كل ضياء ، فهو يزري : أي يستهين بكل ضياء .

(٥) القباء : الثوب ، يقول : إنما الجلد بمنزلة اللباس فلا قيمة لبياضه وإنما المعول عليه بياض النفس ونقاؤها من العيوب ، وهذا المعنى ينظر إلى قول سحيم عبد بني الحسحاس :

كَرَمٌ فِي شَجَاعَةٍ وَذَكَاءٌ فِي بَهَاءٍ وَقُدْرَةٌ فِي وَفَاءِ(١)
مَنْ لِبِيضِ الْمُلُوكِ أَنْ تُبْدِلَ اللَّوْ نَ بِلَوْنِ الْأُسْتَاذِ وَالسَّحْنَاءِ(٢)
فَتَرَاهَا بَنُو الْحُرُوبِ بِأَعْيَا نٍ تَرَاهُ بِهَا غَدَاةَ اللِّقَاءِ(٣)
يَا رَجَاءَ الْعُيُونِ فِي كُلِّ أَرْضٍ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ أَنْ أَرَاكَ رَجَائِي
وَلَقَدْ أَفْنَتِ الْمَفَاوِزُ خَيْلِي قَبْلَ أَنْ نَلْتَقِي وَزَادِي وَمَائِي(٤)
فَارْمِ بِي مَا أَرَدْتَ مِنِّي فَإِنِّي أَسَدُ الْقَلْبِ آدَمِيُّ الرُّوَاءِ(٥)
وَفُؤَادِي مِنَ الْمُلُوكِ وَإِنْ كَا نَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعَرَاءِ(٦)

إن كنتُ عَبداً فنفسى حُرَّةٌ كَرَماً أو أَسْوَدَ اللونِ إنِّى أبيضُ الخُلُقِ

(١) أى لك كرم فى شجاعة الخ . يقول : إنك كريم شجاع ، ذكى الطبع ، بهى المنظر ، ذو قدرة على ما تريد ، واف بالعهد والوعد فيما تقول .

(٢) و (٣) السحناء : السحنة أى المنظر والهيئة ، والأعيان : من جموع العين كطير وأطيار ؛ وفى أكثر الكلام عيون وأعين . يقول : إن الملوك البيض الألوان يودون أن تبدل ألوانهم بلونك وسحناتهم بسحنتك ليراهم أهل الحرب بالعيون التى رونك بها وذلك أن الأسود مهيب فى الحرب ولا يظهر عليه أثر الخوف ولكن من يكفل لهم بهذه الأمنية ؟

(٤) المفاوز : الصحراوات المهلكة ؛ وسميت مفازة على سبيل الفأل بالسلامة كما قيل للديغ سليم . يقول : لقد أفنت المفاوز — التى جبتها إليك — خيلى وزادى ومائى . يذكر طول الطريق إليه وأنه صمد إليه من شقة بعيدة .

(٥) و (٦) الرواء : المنظر والشارة . يقول : استكفنى ما شئت من أى أمر عظيم تقذف بى إليه فإن قلبى قلب الأسد شجاعة وإن كنت آدمى الصورة وفؤادى فؤاد الملوك عزماً ورأيا ودهاء وإن كان لسانى لسان شاعر . قيل: إن أبا الطيب يقصد بهذا التعريض إلى طلب ولاية من كافور ، وقالوا: إنه لما أنشده هذه القصيدة أقسم له أن يبلغه مافى نفسه .

وقال يذكر خروجه من مصر وما لقى فى طريقه ويهجو كافورا :

أَلا كُلُّ ماشِيَةِ الخَيْزَلَى   فِدَا كل ماشِيَةِ الهَيْذَبَى (١)

وَكلُّ نَجاةٍ بُجـاوِيَّةٍ   خَنُوفٍ وما بِى حُسْنُ المِشَى (٢)

---

(١) الخيزلى : مشية للنساء فيها استرخاء وتثاقل وتفكك . قال الفرزدق :

حَوَارِيَّةٌ تمشى الضُّحَى مُرْجَحِنَّةً   وتَمشِى العَشِىَّ الخَيْزَلى رِخْوَةَ اليدِ (١)

والهيذبى : ضرب من مشى الخيل فيه جد وسرعة ، من قولهم أهذب الظليم إذا أسرع . يقول : فدت كل امرأة تمشى الخيزلى كل فرس تمشى الهيذبى : يريد أنه ليس من أهل الغزل والعشق والتشبب بالنساء وإنما هو من أهل السفر . ومن ثم كان مولعا بالخيل ، وهذا من قول أبى تمام :

يَرَى بالكعابِ الرُّودِ طلعةَ ثائرٍ   وبالعِرْمِسِ الوجْناءِ غُـرَّةَ آيبِ (٢)

(٢) وكل : عطف على كل ماشية الهيذبى . والنجاة : الناقة السريعة تنجو بمن ركبها قالوا: ولا يوصف بذلك البعير . وبجاوية : منسوبة إلى بجاوة وهى أرض بالنوبة تعرف نوقها بالسرعة ، وقيل : قبيلة من البربر تنسب إليها هذه النوق قال الطرماح :

بجاوِيَّةٌ لم تَسْتَدِرْ حولَ مَثْبِرٍ   ولم يَتَخَوَّنْ دَرَّها ضَبُّ آفِنِ (٣)

---

(١) حوارية يريد الشديدة البياض النقية ، ومرجحنة : يريد سمينة ثقيلة فإذا مشت تفيأت فى مشيتها . ورخوة اليد : أى مرسلتها ومن أمثال العرب : أرخ يديك واسترخ إن الزناد من مرخ ، يضرب لمن طلب حاجة إلى كريم يكفيك عنده اليسير من الكلام

(٢) الكعاب : الجارية الناهد : والرود: الشابة الحسنة الشباب، والعرمس : الناقة الصلبة، والوجناء : الناقة العظيمة الوجنتين أو العظيمة :

(٣) المثبر : مثال المجلس الموضع الذى تلد فيه الناقة من الأرض وكذلك المرأة وأكثر ما يقال فى الإبل ؛ ومثبر الناقة أيضا حيث تنحر والتخون : التنقص ، والآفن : الذى يحلب الناقة فى غير وقت الحلب ، أو الذى يستخرج جميع ما فى ضرعها ، والدر اللبن ، وضب الناقة : حلبها بالكف .

. . . .

قالوا : وكان أهل بجاوة هذه يتطاردون على النوق فى الحروب وغيرها ، وكانت النوق تنعطف معهم كيفما أرادوا ، فإذا وقعت الحربة فى رمية عطف الناقة إليها فأخذها ، وإن وقعت فى غير رمية عطفها إليها فأخذها فكانت نوقهم تنعطف معهم حيث أرادوا .

حكى ابن جنى عن المتنبى قال : يرمى الرجل من أهل بجاوة بالحربة فإذا وقعت فى الرمية طار الجمل إليها حتى يأخذها صاحبها .

ويقال : خنف البعير فى مشيه إذا سار فقلب خف يده إلى وحشيه وناقة خنوف قال الأعشى :

وأَذْرَتْ بِرِجْلَيْهَا النَّفِىَّ ورَاجَعَتْ
يَدَاهَا خِنَافًا لَيِّنًا غـير أَحْرَدَا(١)

وقال فى الصحاح : خنف البعير يخنف خنفا وخنافا . لوى أنفه من الزمام ، والخانف الذى يميل رأسه إلى الزمام ويفعل ذلك من نشاطه ومنه قول أبي وجزة :

قد قُلْتُ والعيسُ النَّجَائِبُ تغْتَلِى
بالقَوْمِ عَاصِفَةً خوانِفَ فى البُرَى(٢)

والخنوف من الإبل اللينة اليدين فى السير والمشى جمع مشية كسدرة وسدر يقول : لا أنظر إلى حسن مشى النساء ، وما بى شهوة إلى ذلك وإنما نزاعى وميلى إلى كل ناقة خفيفة المشى ، أو تقول : إن قوله ومابى حسن المشى كالاستدراك على قوله خنوف أى لست أصفها بالخنف استحسانا لمشيها لأنى لست أنظر إلى حسن المشى ولـكنى أستعين بها على نيل الرغائب يدل على ذلك البيت التالى .

---

(١) يقال بعير أحرد وناقة حرداء ، وذلك أن يسترخى عصب إحدى يديه من عقال أو يكون خلقة حتى كأنه ينفضها إذا مشى .

(٢) البرى : جمع برة ، وهى الحلقة فى أنف البعير واغتلت الدابة فى سيرها ارتفعت فجاوزت حسن السير .

وَلٰكِنَّهُنَّ حِبَالُ الْحَيَاةِ … وَكَيْدُ الْعُدَاةِ وَمَيْطُ الْأَذَى[١]
ضَرَبْتُ بِهَا التِّيهَ ضَرْبَ الْقِمَا … رِ إِمَّا لِهٰذَا وَإِمَّا لِذَا[٢]
إِذَا فَزِعَتْ قَدَّمَتْهَا الْجِيَادُ … وَبِيضُ السُّيُوفِ وَسُمْرُ الْقَنَا[٣]
فَمَرَّتْ بِنَخْلٍ وَفِي رَكْبِهَا … عَنِ الْعَالَمِينَ وَعَنْهُ غِنَى[٤]
وَأَمْسَتْ تُخَيِّرُنَا بِالنِّقَا … بِ وَادِي الْمِيَاهِ وَوَادِي الْقُرَى[٥]

---

(١) العداة : الأعداء ، والميط : الدفع . يقول : لست آبه للشيء سواء أكان مشى نساء أم مشى إبل ، ولكن ولوعى بالإبل إنما هو لأنها حبال الحياة يتسبب بها إلى الرزق والخروج من المهالك ، وبها تكاد الأعداء ويدفع الأذى .

(٢) التيه : هنا تيه بنى إسرائيل ، وهو الذى بين القلزم وأيلة ، وهو الذى سلكه حين هرب من مصر إلى العراق ، والإشارة إلى الفوز والهلاك . يقول : ضربت بها الفلاة مخاطرا كما يضرب المقامر بالسهام وهو لا يدرى ما يقسم له من غنم أو غرم ، كذلك أنا سلكت بناقتى القفار ملقيا بنفسى بين الفوز وبين الهلاك . فالعاقبة إما هذا وإما هذا .

(٣) قدمتها : أى تقدمتها . وقوله بيض السيوف وسمر القنا ، من المقابلة الجميلة ، يقول : إذا فزعت هذه الناقة تقدمتها الخيل — لأنهم كانوا يجنبون الخيل ويركبون الإبل ، فاذا لاقوا الأعداء ركبوا الخيل — فإذا كان هناك ما يخيفها تقدمنا بالخيل وبالسيوف والرماح للذود عنها .

(٤) نخل : ماء معروف ، يقول : فمرت ناقتى بهذا الموضع وفى ركبانها — يعنى نفسه وأصحابه — غنى عن العالم : أى عن خفارة أحد ، لأنهم يخفرون أنفسهم بسلاحهم ، وغنى عن هذا الماء لأنهم ذوو جلد وصبر ولا يبالون الظمأ .

(٥) النقاب : موضع يتشعب منه طريقان ، طريق إلى وادى المياه ، وطريق إلى وادى القرى . ونا من تخيرنا مفعول أول ، ووادى المياه : مفعول ثان ، وأسكن الياء ضرورة ، يقول : لما بلغنا النقاب قدرنا السير ، إما إلى وادى المياه ، وإما إلى وادى القرى ، فجعل هذا التقدير منهم كأن الإبل خيرتهم فقالت: إن شئتم سلكتم هذا الطريق وإن شئتم سلكتم الطريق الآخر ؛ وهذا على المجاز والاتساع ، قال العكبرى : وقيل

وَقُلْنَا لَهَا أَيْنَ أَرْضُ الْعِرَاقِ ... فَقَالَتْ وَنَحْنُ بِتُرْبَانَ هَا(١)
وَهَبَّتْ بِحِسْمَى هُبُوبَ الدَّبُو ... رِ مُسْتَقْبِلَاتٍ مَهَبَّ الصَّبَا(٢)
رَوَامِى الْكِفَافِ وَكِبْدِ الْوِهَادِ ... وَجَارِ الْبُوَيْرَةِ وَادِى الْغَضَى(٣)
وَجَابَتْ بُسَيْطَةَ جَوْبَ الرِّدَا ... ءِ بَيْنَ النَّعَامِ وَبَيْنَ الْمَهَا(٤)

فى التخيير تأويلان : أحدهما أن الهوادى من الخيل والإبل إذا وصلت مفرق طريقين تلفتت إليهما لتؤذن بالحث على سلوك أحدهما ، وهذا كأنه تخيير ؛ والثانى: أنه على سبيل المجاز ، كما قيل :

* يشكو إلىَّ جملى طول السُّرى *

لم يرد حقيقة الشكوى ، وإنما أراد صار إلى حال يشتكى من مثلها .

(١) تربان هنا : موضع يبعد عن المدينة نحو خمسة فراسخ ؛ وها : حرف تنبيه ، يقول : وقلنا للابل أين أرض العراق ؟ — لأنا كنا نريدها — فقالت — ونحن بتربان — ها هى ذه : أى دانية ، يريد أن هذه الإبل سريعة قوية على السير إلى حد أن هذه المسافة المترامية ليست فى نظرها شيئاً مذكوراً ، وقال ابن جنى : تربان من أرض العراق .

(٢) هبت : أى الإبل ، يريد نشطت فى سيرها ، شبه العيس بالريح على وجه الاستعارة لأنها أقبلت من المغرب إلى المشرق كما تقابل الدبور الصبا ، لأن الدبور تهب من الغرب ، والصبا تقابلها من مطلع الشمس ، وحسمى : موضع بالبادية ، يقول : وهبت فى هذا الموضع هبوب الريح الغربية مستقبلة جهة الشرق .

(٣) روامى : أى قواصد ، حال من ضمير النوق ، وأسكن الياء ضرورة ؛ وهذه كلها أسماء مواضع ، ووادى الغضى : بدل من جار البويرة ، يقول : إن وادى الغضى جار للبويرة قريب منها .

(٤) بسيطة موضع بين الكوفة ومكة من أرض نجد ، وجابت : قطعت والمها : بقر الوحش ، يقول : وقطعت النوق هذا الموضع كما يقطع الرداء ، سائرة بين النعام والمها ، لأنها مواضع خالية من الأناسى ، ومن ثم تألفها الوحوش .

إِلَى عُقْدَةِ الْجَوْفِ حَتَّى شَفَتْ ... بِمَاءِ الْجُرَاوِيِّ بَعْضَ الصَّدَى (١)

وَلَاحَ لَهَا صَوَرٌ وَالصَّبَاحَ ... وَلَاحَ الشَّغُورُ لَهَا وَالضُّحَى (٢)

وَمَسَّى الْجُمَيْعِيَّ دِئْدَاؤُهَا ... وَغَادَى الْأَضَارِعَ ثُمَّ الدَّنَا (٣)

فَيَالَكَ لَيْلاً عَلَى أَعْكُشٍ ... أَحَمَّ الْبِلَادِ خَفِيَّ الصُّوَى (٤)

وَرَدْنَا الرُّهَيْمَةَ فِي جَوْزِهِ ... وَبَاقِيهِ أَكْثَرُ مِمَّا مَضَى (٥)

---

(١) عقدة الجوف : مكان معروف . والجراوى : منهل . قال الشاعر :

أَلَا لَا أَرَى مَاءَ الْجُرَاوِيِّ شَافِياً ... صَدَايَ وَإِنْ رَوَّى غَلِيلَ الرَّكَائِبِ

والصدى : العطش . يقول : جابت النياق بسيطة إلى عقدة الجوف حتى شفت عطشها بماء الجراوى .

(٢) قال الواحدى : صور اسم ماء ، والصحيح أنه صورى . ذكر ذلك أبو عمرو الجرمى ، والشغور : موضع بالسماوة قال العكبرى : هو موضع بالعراق ، تقول العرب : إذا وردت شغوراً فقد أعرقت ؛ ثم قال : وهو مشتق من قولهم بلاد شاغرة ، إذا لم يكن لها من يحميها ، والصباح والضحى : إما منصوبان على معنى المعية ، وإما مرفوعان على أنهما معطوفان على ما قبلهما ، يقول : وظهر لها صور مع وقت الصباح ، وظهر لها الشغور مع وقت الضحى .

(٣) الجميعى والأضارع والدنا : مواضع . والدئداء : سير سريع أرفع من الخبب يقول : لما كان وقت المساء بلغ سيرها الجميعى ، وفى الغداة بلغ الأضارع والدنا .

(٤) أعكش : موضع قرب الكوفة ، وأحم وخفى : صفتان لليلا ، وليلا تمييز ؛ وبالك تعجب ، والأحم : الشديد السواد ، والصوى : أعلام من حجارة تنصب فى الطريق ليهتدى بها ؛ يتعجب من شدة ظلام الليل على هذا المكان حتى اسودت البلاد وخفيت أعلام الطريق .

(٥) الرهيمة : موضع قرب الكوفة . والجوز فى الأصل : الوسط ؛ والمراد به هنا صدر الليل لقوله : وباقيه أكثر ؛ والضمير فى الموضعين لليل ، يقول : وردنا هذا المكان صدر الليل وباقيه أكثر مما مضى منه ، وقال بعضهم : ضمير جوزه لأعكش ، والرهيمة

فَلَمَّا أَنَخْنَا رَكَزْنَا الرِّمَا ... حَ فَوْقَ مَكَارِمِنَا وَالْعُلاَ (١)
وَبِتْنَا نُقَبِّلُ أَسْيَافَنَا ... وَنَمْسَحُهَا مِنْ دِمَاءِ الْعِدَا (٢)
لِتَعْلَمَ مِصْرُ وَمَنْ بِالْعِرَاقِ ... وَمَنْ بِالْعَوَاصِمِ أَنِّي الْفَتَى (٣)
وَأَنِّي وَفَيْتُ وَأَنِّي أَبَيْتُ ... وَأَنِّي عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا (٤)
وَمَا كُلُّ مَنْ قَالَ قَوْلاً وَفَى ... وَلاَ كُلُّ مَنْ سِيمَ خَسْفاً أَبَى (٥)

ماء وسط أعكش : أي وردنا هذا الماء « رهيمة » وسط هذا المكان « أعكش » وقد بقى من الليل أكثر مما مضى منه . وقال الخطيب التبريزى : بعض من لا علم له بالعربية يظن أن هذا البيت مستحيل ؛ لأنه يوهم أنه لما ذكر الجوز وجب أن تكون القسمة عادلة فى النصفين ، وليس الأمر كذلك ولكنه جعل ثلث الليل الثانى كالوسط وهو الجوز ثم قال : وباقيه أكثر ، كأنه ورد ، والثلث الثانى الذى كالوسط ، وهو الجوز قد مضى ربعه وبقى ثلاثة أرباعه ؛ وهذا أبين وأوضح، ويجوز أن يكون الضمير فى باقيه لليل أو للجوز .

(١) يقول : لما ألقينا عصا التسيار واستقر بنا النوى فى الكوفة وأنخنا ركابنا بها وركزنا الرماح — شنشنة من يترك السفر — كانت رماحنا مركوزة فوق مكارمنا وعلانا لما كان منا من فراق الأسود « كافور » وقتال من قاتلنا فى الطريق وظفرنا بمن عادانا ، فكل هذا مما يدل على المكارم والعلا فظفرت مكارمنا بما فعلنا ، فكأنا نزلنا عليها .

(٢) يقول : بتنا نقبل أسيافنا لأنها أظفرتنا بأعدائنا ونجتنا من المهالك فجدير بها أن تقبل وترفع فوق الرؤوس . ويروى بدل بتنا ثبنا ، أى رجعنا نقبل الخ .

(٣) لتعلم مصر : أى أهل مصر . والعواصم : بلاد قصبتها إنطاكية ، وهى من حلب إلى حماه . وأل فى الفتى للاستغراق . أى الكامل الفتوة .

(٤) وفيت ، أى لسيف الدولة إذ رجع إليه ، أو تقول : وفيت أى بماقلته من أنى سأترك مصر على رغم كافور وهذا هو الأظهر . وأبيت . أى ضيم كافور ؛ وعتوت . أى تجبرت على من تجبر على .

(٥) سامه الأمر : كلفه إياه أو أكرهه عليه . والخسف : الضيم والذل ؛ وسامه خسفا : أذله .

وَلاَ بُدَّ لِلْقَلْبِ مِنْ آلَةٍ ... وَرَأْيٍ يُصَدِّعُ صُمَّ الصَّفَا(١)
وَمَنْ يَكُ قَلْبٌ كَقَلْبِي لَهُ ... يَشُقُّ إِلَى الْعِزِّ قَلْبَ التَّوَى(٢)
وَكُلُّ طَرِيقٍ أَتَاهُ الْفَتَى ... عَلَى قَدَرِ الرِّجْلِ فِيهِ الْخُطَا(٣)
وَنَامَ الْخُوَيْدِمُ عَنْ لَيْلِنَا ... وَقَدْ نَامَ قَبْلُ عَمًى لاَ كَرَى(٤)
وَكَانَ عَلَى قُرْبِنَا بَيْنَنَا ... مَهَامِهُ مِنْ جَهْلِهِ وَالْعَمَى(٥)
لَقَدْ كُنْتُ أَحْسِبُ قَبْلَ الْخَصِيِّ أَنَّ الرُّءُوسَ مَقَرُّ النُّهَى(٦)
فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَى عَقْلِهِ ... رَأَيْتُ النُّهَى كُلَّهَا فِي الْخُصَى(٧)

---

(١) يصدع صم الصفا . يشق الحجارة القوية وينفذ فيها ، وآلة القلب العقل وما يستتبعه من الرأى والعزم والأناة . يقول : لا بد للقلب من عقل يستظهر به ورأى ماض يصدع به الأحداث والكروب ، ولو تضامت تضام الصخر . (٢) التوى الهلاك وأصله هلاك المال يقال : توى ماله إذا هلك واستعار للتوى قلبا ليقابل بين قلبه وقلب التوى يقول : ومن له قلب كقلبي فى الإقدام ومضاء العزيمة يشق قلب الهلاك ويخوض شدائده حتى يصل إلى العز . (٣) يقول : وكل طريق يسلكه الإنسان تتسع خطواته فيه بمقدار طول رجليه ؛ وهذا مثل معناه على قدر همة الطالب يكون سعيه . وخص الرجل من بين الأعضاء لذكره الخطا . جمع الخطوة ـ بضم الخاء ـ وهى مابين القدمين

(٤) الخويدم : تصغير خادم ، يريد كافورا . والكرى : النوم والنعاس . يقول : نام كافور عن ليلنا الذى خرجنا فيه من عنده ، وكان قبل ذلك نائما غفلة وعمى ولم يك نائما النوم المعروف ، وهذا كقول الآخر :

وخبرنى البواب أنك نائم ... وأنت إذا استيقظت أيضاً فنائم

(٥) مهامه : اسم كان ؛ وبيننا خبرها ؛ يقول : ولما كنت قريبا منه كان بينى وبينه مع هذا القرب صحراوات من جهله وعماه ، وبذلك كنت كأنى بعيد عنه ؛ لأن الجاهل لا يزداد علما بالشىء وإن قرب منه

(٦) و (٧) النهى : العقول ، جمع نهية ، سميت العقول كذلك لأنها تنهى عن كل

وَمَاذَا بِمِصْرَ مِنَ الْمُضْحِكَاتِ ... وَلٰكِنَّهُ ضَحِكٌ كَالْبُكَا (١)
بِهَا نَبَطِيٌّ مِنَ أَهْلِ السَّوَادِ ... يُدَرِّسُ أَنْسَابَ أَهْلِ الْفَلَا (٢)
وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ ... يُقَالُ لَهُ أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى (٣)
وَشِعْرٍ مَدَحْتُ بِهِ الْكَرْكَدَنَّ ... بَيْنَ الْقَرِيضِ وَبَيْنَ الرُّقَى (٤)

ما هو قبيح يقول : كنت أظن قبل أن أرى كافوراً أن الرؤوس مقر العقول فلما رأيت عقله وما به من أفن عدلت عن ظنى وقلت إن العقول كلها فى الخصى ، فإنه لما خصى ذهب عقله وحمق .

(١) يتعجب مما رأى بمصر من العجائب التى تستدعى الضحك ، ثم قال : لكن ذلك الضحك كالبكاء ، كما قالوا : وشر البلية ما يضحك .

(٢) يبين ما بمصر من المضحكات ، والنبطى واحد النبط ، وهم جيل من العجم ينزلون البطائح بين العراقين ، قال المعرى :

أين امْرُؤُ القيس والعذارَى ... إذْ مَالَ مِنْ تحتِهِ الغَبِيطُ
استنبطَ العُرْبُ فى المَوَامِى ... بَعْدَكَ وَاسْتَعْرَبَ النَّبِيطُ

والسواد سواد العراق ؛ والفلا : جمع فلاة ، والمراد بها البادية ؛ وأهل البادية هم العرب . قال الواحدى : يريد بالنبطى السوادى أبا الفضل بن حنزابه وزير كافور ، وقيل : أبا بكر المادرانى النسابة ، وذلك مضحك لأنه ليس من العرب وهو يعلم أنساب العرب

(٣) المشفر فى الأصل شفة البعير ، يقول : وبمصر أسود — يريد كافورا — عظيم الشفة حتى لكأنها قدر نصفه ، يموهون عليه ويشبهونه بالبدر ، والبدر هو ماهو جمالا وإشراقا ، والأسود هو ما هو قبحا وإظلاما ؛ ومع ذلك يصدقهم ويغتبط بتكذابهم .

(٤) الكركدن بتشديد الدال والعامة — كما فى القاموس — تشدد النون : هو حيوان من ذوات الحوافر عظيم الجثة ، قصير القوائم ، كثيف الجلد ، على أنفه قرن واحد ؛ ولبعض أنواعه قرنان الواحد فوق الآخر ويسمى المرميس ، يقول : ورب شعر مدحت به هذا الأسود الذى يشبه الكركدن فى عظم الجثة وقلة الغناء والخير وهذا الشعر هو شعر من وجه ورقية أرقيه به وأحتال لأجتلب ماله من وجه آخر .

فَمَا كَانَ ذٰلِكَ مَدْحاً لَهُ ... وَلٰكِنَّهُ كَانَ هَجْوَ الْوَرَى (١)
وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ بِأَصْنَامِهِمْ ... فَأَمَّا بِزِقِّ رِيَاحٍ فَلاَ (٢)
وَتِلْكَ صُمُوتٌ وَذَا نَاطِقٌ ... إِذَا حَرَّكُوهُ فَسَا أَوْ هَذَى (٣)
وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ ... رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَالا يَرَى (٤)

وعاب قوم عليه علوّ الخيام ، فقال (*) :

لَقَدْ نَسَبُوا الْخِيَامَ إِلَى عَلاَءٍ ... أَبَيْتُ قَبُولَهُ كُلَّ الإِبَاءِ (٥)
وَمَا سَلَّمْتُ فَوْقَكَ لِلثُّرَيَّا ... وَلاَ سَلَّمْتُ فَوْقَكَ لِلسَّمَاءِ (٦)

---

(١) قال ابن جنى : إذا كانت طباعه تنافى طباع الناس كلهم سفالا ثم مدح فذلك هجولهم ؛ لأن فيه إرغامالهم ومدحا لمن ينافى طباعهم . وقال غيره : يعنى لم يكن ذلك الشعر مدحا له ولكنه فى الحقيقة كان هجاء الخلق كلهم حيث أحوجونى إلى مثله .

(٢) يقول : قد ضل ناس بعبادة الأصنام لا عتقادهم فيها أنها تنفع وتضر وهذا مشاهد ، وقد يكون أدنى إلى أن يعقل ولكن أن يضل ناس بزق ريح — يعنى كافورا — وينقادوا إليه ويعظموه فذلك مالم أره إلا فى مصر وأهلها — والزق أسود ، وإذا كان مملوءا ريحا فلا غناء فيه ومن هنا كان التشبيه

(٣) تلك : أى الأصنام ، وذا : أى زق الريح ، أى كافور .

(٤) هذا هو بيت القصيد ، يقول : من لم يعرف قدر نفسه غرورا وإعجابا وذهابا بها خفيت عليه عيوبه ، فرأى الناس من عيوبه مالا يرى واستقبحوا منه ما استحسن ، وإنه لبلاء عظيم . .

* كان سيف الدولة قد نزل آمد فكثر المطر ودعا أبا الطيب فدخل عليه و هو على الشراب فقيل له : إنه قد عيب عليه قوله لسيف الدولة :

لَيْتَ أَنَّا إِذَا ارتحلتَ لكَ الـ ... ـخيلُ وأنا إذا نزلتَ الخيامُ

لأن الخيام تكون فوق سيف الدولة فقال هذه الأبيات ارتجالا :

(٥) و (٦) يقول : إن الذين عابوا على هذا القول نسبوا الخيام إلى الرفعة والعلاء وما إلى هذا قصدت ؛ وإنى آبى ذلك كل الإباء لأنى لا أسلم بأن تكون الثريا والسماء

وَقَدْ أَوْحَشْتَ أَرْضَ الشَّامِ حَتَّى سَلَبْتَ رُبُوعَهَا ثَوْبَ الْبَهَاءِ(١)
تَنَفَّسُ وَالْعَوَاصِمُ مِنْكَ عَشْرٌ فَتَعْرِفُ طِيبَ ذٰلِكَ فِى الهوَاءِ(٢)

وقال يهجو السامرى(*) :

أَسَامِرِىُّ ضُحْكَةَ كُلِّ رَاءِ فَطِنْتَ وَأَنْتَ أَغْبَى الأغْبِيَاءِ(٣)

فوقك وهما ما هما علوا وارتفاعا ؛ فكيف أسلم بأن تكون الخيام فوقك ؟ يريد أن رتبتك فوق كل شىء ؛ فليس ثم شىء يعلوك رتبةوقدرا :

(١) يقول : لما زايلت الشام وفارقتها أوحشتها فسلبتها بذلك ثوب الجمال الذى كانت تشتمل به بمقامك فيها ؛ فلما غادرتها غادرها جمالها وأنسها .

(٢) يقول : إذا تنفست والعواصم على عشر ليالى منك عرف أهلوها والمقيمون بها طيب نفسك فى الهواء، وهذا المعنى مأخوذ من قول أبى عيينة :

تَطيَّبُ دنيانا إذا ما تنفَّسَتْ كأن فَتِيتَ المِسْكِ فى دورنا هَبَا

وتنفس — بحذف إحدى التاءين — أى تتنفس ، والعواصم بلاد منها حلب وقنسرين وإنطاكية وهى عاصمتها سميت كذلك لأنها كانت تعصم أهلها بما عليها من الأسوار . وقوله منك عشر : أى على مسيرة عشر ليال .

* أنشد المتنبى سيف الدولة يوما قوله :

* واحرّ قلباه ممن قلبه شبم *

وانصرف ؛ فاضطرب المجلس ؛ وكان فيه نبطى من كبار كتابه يقال له أبو الفرج السامرى فقال لسيف الدولة : ألحقه فآخذ لك رأسه ؟ فقال المتنبى هذه الأبيات يهجوه بها .

(٣) يقول : ياسامرى يامن يضحك منه كل من رآه كيف فطنت إلى ما أنشدته وأنت أغبى الأغبياء ، والسامرى نسبة إلى سامرى بلد بناه المعتصم قرب بغداد ، وكان لما أخذ فى بنائه ثقل ذلك على عسكره فقالوا ساء من رأى فلما انتقل بهم إليها سر كل منهم برؤيتها ، فقيل سر من رأى ، ثم حرف اللفظان على ألسنة العامة سامرا وسرمرى والضحكة : الذى يضحك منه ، أما الضحكة بفتح الحاء فهو الكثير الضحك .

صَغُرْتَ عَنِ الْمَدِيحِ فَقُلْتَ أُهْجَى كَأَنَّكَ مَا صَغُرْتَ عَنِ الْهِجَاءِ[١]
وَمَا فَكَّرْتُ قَبْلَكَ فِي مُحَالٍ وَلاَ جَرَّبْتُ سَيْفِي فِي هَبَاءِ[٢]

---

(١) يقول : حين وجدت نفسك أحقر من أن تمدح تعرضت للهجاء كأنك لاتدرى أنك كذلك أحقر من أن تهجى ، لأن مثلك لا يأبه له الشعراء ولا يرونه أهلا حتى للهجاء .

(٢) المحال : ما عدل به عن وجهه يقول : وكيف يخطر لى أن أهجوك وما فكرت قبلك فى باطل حتى أكترث له ، أى ماهجوت قبلك مثلك ولا حاك فى صدرى ذلك ، وهل يليق بمثلى أن يجرب سيفه فى قطع الهباء ؟ ! وأحسب هـذا المعنى ينظر إلى قول القائل :

أما الهجاء فَدَقَّ عِرْضُكَ دُونه والمدحُ فِيكَ كما علمت جَليلُ
فاذْهَبْ فأنت طليقُ عِرْضِكَ إنَّهُ عِرْضٌ عززتَ بِهِ وأنت ذليلُ

وقول الآخر :

قلْ كيفَ شِئْتَ وأنى تشا وأبْرِقْ يَميناً وأرْعِدْ شِمالا
نَجَا بك لُؤْمُكَ مَنجَى الذُّباب حَمَتْهُ مَقاذِرُهُ أنْ ينالا

وقول بعضهم :

إنى لأكْرِم نَفسى أنْ أكلفها هِجاء جَرْم وما يَهْجُوهم أحد
ماذا يقولُ لهم من كان هاجِيَهُمْ لا يبلغ النَّاسُ ما فيهم وإن جَهَدوا

قافيــة البـاء

وقال يمدح سيف الدولة وهو يسايره إلى الرقة وقد اشتد المطر بموضع يعرف بالشـديين :

لِعَيْنِى كُلَّ يَوْمٍ مِنْكَ حَظٌّ تَحَيَّرُ مِنْهُ فِى أَمْرٍ عُجَابِ (١)
حِمَالَةُ ذَا الْحُسَامِ عَلَى حُسَامٍ وَمَوْقِـعُ ذَا السَّحَابِ عَلَى سَحَابِ (٢)

وزاد المطر فقال :

تَجِفُّ الْأَرْضُ مِنْ هٰذَا الرَّبَابِ وَيَخْلُقُ مَا كَسَاهَا مِنْ ثِيَابِ (٣)
وَمَا يَنْفَكُّ مِنْكَ الدَّهْرُ رَطْباً وَلَا يَنْفَكُّ غَيْثُكَ فِى انْسِكَابِ (٤)
تُسَايِرُكَ السَّوَارِى وَالْغَوَادِى مُسَـايَرَةَ الْأَحِبَّاءِ الطِّرَابِ (٥)
تُفِيدُ الْجُودَ مِنْكَ فَتَحْتَذِيهِ وَتَعْجِزُ عَنْ خَلَائِقِكَ الْعِذَابِ (٦)

---

(١) و (٢) يقول : ترى عيناى منك كل يوم شيئا عجيبا تتحير منه . وذلك أنى أرى سيفا يحمل سيفا وسحابا يمطره سحاب ، والحمالة التى يحمل بها السيف ، والحسام الأول هو السيف ، والثانى هو سيف الدولة .

(٣) و (٤) الرباب السحاب الأبيض ويخلق يرث ويبلى . يقول : أنت أفضل من السحاب لأن الأرض تجف من مطر السحاب وثيابها التى كساها بها الغيث وهى نبات الأرض تبلى ـ وذلك عند هيجه ـ ولكن ذكرك لا ينفك الدهر رطبا به فأنت خالد وجودك دائم الانسكاب لا ينقطع وقال الواحدى : يريد برطوبة الدهر لينه وسهولته والمعنى يطيب عيش أهل الدهر بك فكأن الدهر رطب ينقاد ويلين لهم كما قال البحترى :

أشرقن حتى كاد يختبس الدجى ورطبن حتى كاد يجرى الجندل

فجعل الصخر يكاد يجرى للينه برطوبة الزمان .

(٥) و (٦) السوارى السحب السارية ليـلا ، والغوادى السحب المنتشرة

وأمره سيف الدولة بإجازة هذا البيت :

خَرَجْتُ غَدَاةَ النَّفرِ أعْتَرِضُ الدُّمَى فَلَمْ أرَ أحْلَى مِنْكَ فى العَيْنِ وَالْقَلْبِ (١)

فقال :

فَدَيْنَاكَ أهْدَى النَّاسِ سَهْماً إلَى قَلْبِى وَأقْتَلَهُمْ لِلدَّارِعِينَ بِلاَ حَرْبِ (٢)

نهارا . والطراب جمع طروب ، وهو الذى يطرب ويحركه الشوق وتفيد تستفيد واحتذاه اقتدى به وفعل مثله ، والخلائق ، الأخلاق . يقول : إن السحب تسير معك كما يسير الحبيب الطروب مع حبيبه وذلك كى تستفيد الجود منك فتأتى بمثله بيد أنها تعجز عن التخلق بأخلاقك العذبة الجميلة .

(١) غداة النفر يريد غداة تفرق الحجيج من منى ويقال يوم النفر وليلة النفر لليوم الذى ينفر الناس فيه من منى قال بعضهم .

أما والذى حجَّ المُلبُّونَ بَيْتَه وَعَلَّمَ أيامَ الذَّبائِحِ وَالنَّحْـــرِ

لَقَدْ زَادَنِى لِلغَمْرِ حُبًّا وَأهْلِهِ ليالٍ أقَامَتْهُنَّ ليـــلى عَلَى الغمْرِ

وَهَلْ يَأثَمَــنِّى اللهُ فى أنْ ذَكَرْتها وَعَلَّلْتُ أصْحَابِى بها لَيْلَةَ النفرِ

وَسَكَّنْتُ ما بِى مِنْ كلالٍ وَمِنْ كَرًى وَمَا بالمطــايَا مِنْ جُنُوحٍ وَلا فَتْرِ

وأعترض : أستقبل ، والدمى : جمع دمية وهى التماثيل تشبه بها الحسان .

(٢) فدیناك دعاء ؛ والخطاب للحبيب ، وأهدى منادى باسقاط حرف النداء قال الواحدى : أهدى من قولهم هديت هدى فلان أى قصدت قصده ومنه الحديث: واهدوا هدى عمار . أى اقصدوا قصده وسيروا سيرته . يقول : ياأقصد الناس سهما إلى قلبى يريد أن عينه تصيب قلبه بلحظها ولا تخطئه ، ويا أقتل الناس للابسى الدروع من غير حرب أى أنه يقتلهم بحبه فلا تحصنهم الدروع ولا يحتاج معهم إلى النزال ولك أن تجعل أهدى وأقتل منصوبين على التميز وأهدى من الهداية ، وإليك ما قال العلامة العكبرى النحوى الكوفى فى تعليقاته على هذا البيت قال : أفعل إذا كان للتفضيل فبينه وبين أفعل التعجب مناسبة وذلك أنه يقال هذا أقول من هذا وما أقوله ويمتنع أن يقال هذا أحمر من هذا أى أشد حمرة كما يمتنع أن يقال : ما أحمره أى ما أشد حمرته

تَفَرَّدَ بِالْأَحْكَامِ فى أَهْلِهِ الْهوَى
فأَنْتَ جَمِيلُ الْخُلْفِ مُسْتَحْسَنُ الْكِذْبِ[١]
وَإِنِّى لَمَمْنُوعُ المَقَاتِلِ فى الْوَغَى
وَإِنْ كُنْتُ مَبْذُولَ المَقَاتِلِ فى الْحُبِّ[٢]

وفعل التعجب يبنى من ثلاثة أفعال ثلاثية،فعل بفتح العين، وفعل بكسرها ، وفعل بضمها ولا يبنى إلا من فعل قد سمى فاعله ولا يجوز أن يبنى من فعل غير مسمى الفاعل فيقال ما أضرب أخاك لأنه مأخوذ من ضرب أخوك ثم وقع التعجب من كثرة ضربه فإذا قلت ضرب أخوك لا يصح أن يقال ما أضرب أخاك وأنت تريد ما أشد الضرب الذى ضربه أخوك ؛ وأهدى يجوز أن يكون من هدت الوحش[١] إذا تقدمت فيكون اسما منصوباً على التميز فيكون أفعل من فعل له فاعل ويكون الفعل للسهم ويجوز أن يكون الفعل للمخاطب من قولهم هديته الطريق فإذا حمل على ذلك فسهما منصوب بفعل مضمر يدل عليه أهدى لأن فعل التعجب لا يجوز أن ينصب مفعولا وكذلك أفعل الذى للتفضيل وعلى ذلك حمل قوله :

أَكَرَّ وَأَحْمَى لِلْحَقِيقَةِ مِنْهُمُ وَأَضْرَبَ مِنَّا فى اللِّقاء القوانسا[٢]

فنصب القوانس بفعل مضمر تم الكلام عند قوله وأضرب منا ثم أضمر فعلا نصب به القوانس تقديره يضرب القوانس فيكون من جنس الكلام .

(١) الخلف ترك الوفاء بالوعد وهو اسم من الإخلاف يقول : إن للهوى أحكاما تخالف سائر الأحكام لأن الخلف فى الوعد غير جميل والكذب غير مستحسن وكلاهما جميل مستحسن من الحبيب * وكل ما يفعل المحبوب محبوب *

(٢) يقول : إنى من الشجاعة بحيث لا يصاب مقتلى فى الحرب ولكنى مع ذلك يصاب مقتلى فى الحب فلست أستطيع الدفاع عن نفسى فى ميدان الهوى وهذا من قول أبى تمام :

---

(١) يقال هدت الإبل والوحش والخيل تهدى إذا تقدمت وهاديات الوحش أوائلها وهى هواديها

(٢) القوانس : جمع قونس مقدم البيضة من السلاح

وَمَنْ خُلِقَتْ عَيْنَاكَ بَيْنَ جُفُونِهِ

أصابَ الْحُدُورَ السَّهْلَ فى الْمُرْتَقَى الصَّعْبِ (١)

« وقال يعزيه عن عبده يماك التركى وقد مات بحلب سنة أربعين وثلثمائة » :

لاَ يُحْزِنُ اللهُ الأَمِيرَ فَإِنَّنِي   سَآخُذُ مِنْ حالاَتِهِ بِنَصِيبِ (٢)

وَمَنْ سَرَّ أَهْلَ الأَرْضِ ثُمَّ بَكَى أَسًى   بَكَى بِعُيُونٍ سَرَّهَا وَقُلُوبِ (٣)

كَمْ من دَمٍ يعجِزُ الْجَيْشَ اللهامَ إذا   بانوا تحكَّمُ فيهِ العِرْمِسُ الأُجُدُ

« جيش لهام: كثير يلتهم كل شىء ، والعرمس الناقة الصلبة الشديدة ، والأجد بضم الهمزة والجيم الناقة القوية الموثقة الخلق . يريد أبو تمام الناقة التى تحمل الحبيب ، والمراد الحبيب نفسه »

(١) يقول : ومن كان له عين بين جفنيه كعينك فتنة وسحرا ملك قلوب الناس بأهون سعى فقوله أصاب الخ أى وجد المرتقى الصعب حدورا سهلا وهذا تمثيل معناه سهل عليه ما يشق على غيره

(٢) قوله لا يحزن . دعاء له . يقول . لا أحزن الله الأمير فإن حزنه يستتبع حزنى لمشاركتى إياه فى أحواله فلا أصابه الله بحزن لئلا أحزن ؛ والمعنى واضح وجميل. ومن ثم كان نقد الصاحب هذا البيت ـ بقوله . لا أدرى لم لا يحزن الله الأمير إذا أخذ أبو الطيب بنصيب من القلق ـ فى غير موضعه . ويجوز فى يحزن الجزم بلا والرفع على أنه خبر وضع موضع الإنشاء ، ورواية سآخذ هى رواية ابن جنى وعليها مضينا ، وفى رواية : لآخذ .

(٣) يقول : لا أبكاك الله لأنك إذا بكيت حزنا بكى جميع الناس لبكائك وحزنوا لحزنك لأن من سر جميع الناس ثم بكى لحزن أصابه ساء مصابه الذين سرهم فكأنه يبكى بعيونهم ويحزن بقلوبهم . وفى البيت حذف لا يخفى ، فهو من قبيل « علفتها تبناً وماء باردا » قال الواحدى : ولك أن تجعل الباء فى بعيون للتعدية أى أبكاها . والمعنى أنهم يسعدونه على البكاء جزاء سرورهم كما قال يزيد المهلبى :

أَشْرَكْتُمونا جميعاً فى سرورِكُمْ   فلهْوُنا إذ حَزِنتم غيرُ إنصافِ

وَإِنِّي وَإِنْ كَانَ الدَّفِينُ حَبِيبَهُ ... حَبِيبٌ إِلَى قَلْبِي حَبِيبُ حَبِيبِي (١)
وَقَدْ فَارَقَ النَّاسُ الأَحِبَّةَ قَبْلَنَا ... وَأَعْيَا دَوَاءُ المَوْتِ كُلَّ طَبِيبِ
سُبِقْنَا إِلَى الدُّنْيَا فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا ... مُنِعْنَا بِهَا مِنْ جَيْئَةٍ وَذُهُوبِ (٢)
تَمَلَّكَهَا الآتِي تَمَلُّكَ سَالِبٍ ... وَفَارَقَهَا المَاضِي فِرَاقَ سَلِيبِ (٣)
وَلاَ فَضْلَ فِيهَا لِلشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى ... وَصَبْرِ الفَتَى لَوْلاَ لِقَاءُ شَعُوبِ (٤)

---

(١) الدفين المدفون ، وحبيب حبيبي مبتدأ مؤخر ، وحبيب إلى قلبي خبر مقدم ، والجملة خبر إني يقول : إني أحب كل من يحبه ومن ثم كان المدفون الذي يحبه حبيبا إلى قلبي وإن كان غريبا مني .

(٢) يقول : لقد سبقنا غيرنا إلى هذه الدنيا فلو عاش هؤلاء الذين سبقونا ولم يموتوا لغصت بنا الدنيا وضاقت علينا الأرض حتى لا نستطيع الذهاب والمجيء لشدة الزحام وإنما يستقيم أمر الدنيا بموت المتقدم وحياة المتأخر . وجيئة مصدر جاء يجيء مجيئا وجيئة وكذلك الذهوب .

(٣) يقول : تنتقل الدنيا من قوم إلى قوم فيتملكها الحي تملك السالب ويتخلى عنها الميت تخلي المسلوب ؛ وعبارة الواحدي : يريد بالآتي الوارث بعد الموت وبالماضي الموروث أي أن الذي تملك الإرث كأنه سالب سلب الموروث ماله . والميت كأنه مسلوب سلب ما كان في يده وهذا المعنى — كما قال العكبري — مأخوذ من قولهم إنما في أيديكم أسلاب الهالكين وسيتركها الباقون كما تركها الأولون .

(٤) شعوب من أسماء المنية وهي معرفة لا تنصرف ولا تدخلها الألف واللام، سميت كذلك لأنها تشعب أي تفرق . يقول : لولا الموت لم يكن لهذه المعاني فضل وذلك أن الناس لو أمنوا الموت لما كان للشجاع فضل على الجبان لأنه قد أيقن الخلود فلا خوف عليه من إقدامه في الحرب وإذن لا يحمد على شجاعته ، وكذلك لا فضل للجواد على البخيل . والصابر على المكروه لا فضل له على الجازع لأن في الخلود وتنقل الأحوال فيه من عسر إلى يسر ومن شدة إلى رخاء ما يسكن النفوس . ويهون البوس .

وَأَوْفَى حَيَاةِ الْغَابِرِينَ لِصَاحِبٍ ... حَيَاةُ امْرِىءٍ خَانَتْهُ بَعْدَ مَشِيبِ (١)

لَأَبْقَى يَمَاكُ فِى حَشَاىَ صَبَابَةً ... إِلَى كُلِّ تُرْكِىِّ النِّجَارِ جَلِيبِ (٢)

وَمَا كُلُّ وَجْهٍ أَبْيَضٍ بِمُبَارَكٍ ... وَلَا كُلُّ جَفْنٍ ضَيِّقٍ بِنَجِيبِ (٣)

لَئِنْ ظَهَرَتْ فِينَا عَلَيْهِ كَآبَةٌ ... لَقَدْ ظَهَرَتْ فِى حَدِّ كُلِّ قَضِيبِ (٤)

وَفِى كُلِّ قَوْسٍ كُلَّ يَوْمٍ تَنَاضُلٍ ... وَفِى كُلِّ طِرْفٍ كُلَّ يَوْمِ رُكُوبِ (٥)

---

(١) الغابر من الأضداد يكون بمعنى الماضى وبمعنى الباق ، والمراد هنا الأول . يقول: إن الحياة لابد من أن تغدر بصاحبها فهى لا محالة وإن طالت مفارقته ولكن أوفاها له تلك التى تصحبه إلى وقت المشيب فلا تزايله حتى يطول استمتاعه ويستوفى لذة العيش ولكنها مع ذلك إلى انقضاء . وقال الخطيب التبريزى : يريد أن الدنيا تخترم الشباب لقلة الوفاء فاذا أبقتهم كان قصاراها أن تفنيهم فلا وفاء لها ولا رغبة فيها ؛ وهو تفسير حسن .

(٢) لأبقى . جواب قسم محذوف . أى والله لقد أبقى ؛ ويماك اسم مملوك سيف الدولة وهو تركى ؛ والنجار الأصل ، وجليب مجلوب من بلد إلى آخر . يقول . لقد أبقى يماك بموته فى قلبى صبابة وميلا إلى كل تركى أى إلى كل من هو من جنسه

(٣) النجيب الكريم « ضد اللئيم » والفاضل النفيس فى نوعه . يقول : إن يماك ترك فى قلبى هذا الميل إلى جنسه لذلك الشبه الذى بينه وبينهم وإن لم يكن كل من أشبهه فى الصورة يشبهه فى اليمن والنجابة ، فالبيت كالاستدراك على البيت السابق ، فهو يقول فى الأول: إنه يحب لأجله الترك لأنه منهم والترك يوصفون ببياض الوجوه وضيق الجفون ثم قال: إنه ليس كل تركى مباركا ولا كل تركى نجيبا كالمرثى وإذن فهو يحبهم لأنهم يشبهونه فى الصورة وإن لم يشبهوه فى اليمن والنجابة .

(٤) و (٥) القضيب السيف القاطع وقيل : اللطيف الدقيق ، والتناضل الترامى بالسهام . قال العكبرى : فى الحرب وغيرها وذلك أن القوم يتناضلون فى الحرب بسهامهم يرمى بعضهم بعضا وفى غير الحرب يتناضلون بسهامهم لينظروا أيهم أحسن رمياً ؛ والطرف الفرس الكريم . يقول : إنه كان شجاعا من أهل القتال وكان حسن الرمى وقت النزال وكان فارسا يحسن الركوب للغارة والطعان ومن ثم حزنت عليه السيوف والقسى والخيل فلا عجب إذ حزنا نحن عليه . واللام فى قوله لئن ظهرت لام القسم

يَعِــزُّ عَلَيْهِ أَنْ يُخِلَّ بِعَادَةٍ ... وَتَدْعُو لِأَمْرٍ وَهْوَ غَيْرُ مُجِيبِ (١)
وَكُنْتُ إِذَا أَبْصَرْتُهُ لَكَ قَائِمًا ... نَظَرْتُ إِلَى ذِي لِبْدَتَيْنِ أَدِيبِ (٢)
فَإِنْ يَكُنِ الْعِلْقَ النَّفِيسَ فَقَدْتَهُ ... فَمِنْ كَفِّ مِتْلَافٍ أَغَرَّ وَهُوبِ (٣)
كَأَنَّ الرَّدَى عَادٍ عَلَى كُلِّ مَاجِدٍ ... إِذَا لَمْ يُعَوِّذْ مَجْـدَهُ بِعُيُوبِ (٤)

دخلت على حرف الشرط وأتى بجواب القسم ولم يأت بجواب الشرط ، ومثله كثير في القرآن الكريم ، وفي الشعر .

(١) وتدعو عطف على يخل ، وكان الوجه فتح الواو ولكنه سكنها للضرورة . يقول : إنه يشق على عماك أن يغير عادته في خدمتك وأن تدعوه لأمر فلا يجيبك

(٢) ذي لبدتين أي أسد واللبدة الشعر المتراكب على كتف الاسد . يقول : وكنت إذا رأيته قائما بين يديك رأيت منه أسداً وفتى أديبا أي إنه كان جامعا بين الأدب في الخدمة وقوة الأسد لدى البأس . والتاء في كنت وأبصرته ونظرت رويت مبنية على الضم للتكلم وعلى الفتح للمخاطب .

(٣) العلق هو النفيس من كل شيء ، وهو خبر يكن وجملة فقدته حال ؛ والمتلاف الذي يتلف أمواله سخاء وجوداً والأغر الشريف يقول : فان يكن عماك العلق النفيس قد فقدته فإنما ذهب من كف رجل يتلف الأموال ويهبها ولا يبالي بما ذهب منه ، ومن روى تكن بالتاء فهو على الخطاب لسيف الدولة ويكون العلق منصوبا على الاشتغال أو بفعل مضمر دل عليه قوله فقدته ، والتقدير ، فإن تكن فقدت العلق النفيس .

(٤) الردى الموت ، وعاد ظالم معتد . والمراد بالماجد — وهو الكامل الشرف — سيف الدولة ، وعوذه علق عليه العوذة وهي الرقية يتقي بها السوء . يقول : إن الشريف لا يسلم من حدثان الدهر ونوائبه حتى يجعل لشرفه رقية من العيوب وأنت لا عيب فيك ، ومن هنا أصابك الدهر بمن تحب ، وهذا كقول الشاعر :

شَخَصَ الأنامُ إلى كمالكَ فاستَعِذْ ... من شرِّ أعينِهم بِعَيْبٍ وَاحِـدِ

وقول الآخر ؛

قد قلت حينَ تكاملتْ وغدَت ... أفعــالُهُ زَيْنــاً من الزَّيْنِ
ما كانَ أحوَجَ ذا الكمال إلى ... عيبٍ يُوَقِّيـهِ من العَــينِ

« كان زائدة ، وذا الكمال . أي هذا الكمال » .

وَلَوْلَا أَيَادِى الدَّهْرِ فى الْجَمْعِ بَيْنَنَا ... غَفَلْنَا فَلَمْ نَشْعُرْ لَهُ بِذُنُوبِ (١)
وَلَلتَّرْكُ لِلْإِحْسَانِ خَيْرٌ لِمُحْسِنٍ ... إِذَا جَعَلَ الْإِحْسَانَ غَيْرَ رَبِيبِ (٢)
وَإِنَّ الَّذِى أَمْسَتْ نِزَارُ عَبِيدَهُ ... غَنِىٌّ عَنِ اسْتِعْبَادِهِ لِغَرِيبِ (٣)
كَفَى بِصَفَاءِ الْوُدِّ رِقًّا لِمِثْلِهِ ... وَبِالْقُرْبِ مِنْهُ مَفْخَرًا لِلَبِيبِ (٤)
فَعُوِّضَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْأَجْرَ إِنَّهُ ... أَجَلُّ مُثَابٍ مِنْ أَجَلِّ مُثِيبِ (٥)

---

(١) يعتذر عن ذنوب الدهر وإساآته بالتنبيه إلى سابق إحسانه ، أى أن من شيمة الدهر أن يحسن تارة ويسىء أخرى . يقول : ولولا أن الدهر أحسن إلينا بجمعه بيننا ما كنا نعرف إساءته بتفرقه بيننا فبإحسانه عرفنا إساءته . والأيادى : النعم

(٢) بعد أن اعتذر عن الدهر عاد إلى ذمه يقول : وإذ أن الدهر شاب إحسانه بالإساءة فلم يتم إحسانه بتربيته وتعهده وإتمامه فترك المحسن إحسانه أجمل به من ذلك وأفضل أى أن كل محسن لم يتم إحسانه فتركه خير وأمثل ، وهذا كقوله :

أبداً تسترد ما تهب الدنيـــا فياليت جودها كان بخلا

واللام فى قوله وللترك لام الابتداء ، وربيب تام من رب عمله أصلحه ونماه وأتمه .

(٣) يقول : إن سيف الدولة ملك العرب بإحسانه إليهم فلا حاجة به معهم إلى مملوك تركى ، وخص نزاراً لأنه أبو القبائل الأشراف كقريش وغير قريش ؛ فالمراد بنزار سائر العرب .

(٤) الباء فى قوله بصفاء وبالقرب زائدة ، وصفاء والقرب فى محل رفع بكفى ، والرق العبودية ، واللبيب العاقل . يقول : إن سيف الدولة استعبد العرب بمصافاته إياهم وإقباله عليهم بالود ومثله إذا صافى إنسانا استرقه بكثرة الإحسان إليه . وإن لم يبتعه كما يبتاع العبد ، وهذا هو الرق والاستعباد

(٥) يدعو له بأن يعوضه الله الأجر من يماك فإن الأجر أجل ثواب من أجل مثيب وهو الله سبحانه وتعالى ، أو تقول فإن سيف الدولة أجل عبد يثاب من الله فضمير إنه إما عائد على الأجر ومثاب مصدر بمثابة الثواب أو عائد على سيف الدولة ويكون مثاب مفعولا من الإثابة .

فَتَى الْخَيْلِ قَدْ بَلَّ النَّجِيعُ نُحُورَهَا ... يُطَاعِنُ فى ضَنْكِ الْمُقَامِ عَصِيبِ (١)
يَعَافُ خِيَـامَ الرَّيْطِ فى غَزَوَاتِهِ ... فَمَا خَيْمُهُ إِلاَّ غُبَارُ حُرُوبِ (٢)
عَلَيْنَا لَكَ الإِسْعَادُ إِنْ كَانَ نَافِعاً ... بِشَقِّ قُلُوبٍ لاَ بِشَقِّ جُيُوبِ (٣)
فَرُبَّ كَئِيبٍ لَيْسَ تَنْدَى جُفُونُهُ ... وَرُبَّ كَثِيرِ الدَّمْعِ غَيْرُ كَئِيبِ (٤)

---

(١) فتى الخيل أى هو « سيف الدولة » فتى الخيل وجملة قد بل النجيع نحورها حال من الخيل ، والنجيع الدم ، وضنك صفة موصوف محذوف أى فى يوم ضيق المقام فالضنك الضيق وعصيب أى شديد واعصوصب اليوم والشر اشتد . ويوم عصيب وعصبصب شديد وليلة عصبصب كذلك ولم يقولوا عصبصبة ، ولعله مأخوذ من قولك عصب القوم أمر إذا ضمهم واشتد عليهم ويقال لأمعاء الشاة إذا طويت وجمعت ثم جعلت فى حوية من حوايا بطنها عصب واحدها عصيب والعصيب أيضاً الرئة تعصب بالأمعاء فتشوى قال حميد بن ثور يصف نساء نشأن بالبادية :

أولئك لم يدرين ما سمك القرى ... ولا عُصُبٌ فيها رئاتُ العمارس (١)

يقول : إن سيف الدولة أجل مثاب لأنه إذا بلت الدماء نحور الخيل فهو فتاها الثابت على الطعان فى مثل ذلك اليوم .

(٢) الريط جمع ريطة وهى الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لفقين ، وقيل كل ثوب لين رقيق ، ويعاف يكره ، والخيم جمع خيمة يقول : إنه يكره الاستظلال بالخيام المتخذة من النسيج وإنما يستظل بغبار الحروب .

(٣) الإسعاد الإعانة . يقول : إن كانت إعانتنا إياك على هذه الرزية نافعة مجدية أعناك بشق القلوب لا بشق الجيوب وهذا من قول حبيب :

شق جيوباً من رجال لو اسطا ... عوا لشـقوا ما وراء الجيوب

وجيب القميص ما انفتح منه على النحر .

(٤) يقول : ليس بالبكاء يعلم الحزن ، فرب محزون عصى الدمع فلا يبكى ورب باك

---

(١) العمارس جمع عمروس والعمروس والطمروس الخروف والعصب جمع عصيب وهو ما عرفت .

تَسَلَّ بِفِكْرٍ فى أُبَيْكَ فَإِنَّمَا   بَكَيْتَ فَكَانَ الضِّحْكُ بَعْدَ قَرِيبِ (١)
إذا اسْتَقْبَلَتْ نَفْسُ الكَرِيمِ مُصَابَهَا   بِخُبْثٍ ثَنَتْ فَاسْتَدْبَرَتْهُ بِطِيبِ (٢)

تنسكب دموعه وليس بمحزون . قال العكبرى : وأخذ هذا البيت مما أنشده أبو على فى آخر تكملة إيضاحه :

وما كلُّ ذِى لُبٍّ بِمؤْتِيكَ نُصحَه   وما كلُّ مُؤْتٍ نُصحَه بلبيب

(١) فى أبيك بفتح الباء كما رواها ابن جنى ، يريد فى أبويك ، وهى لغة للعرب صحيحة فإن بعض العرب يقول فى تثنية أب أبان كما قالوا أبوان وفى الإضافة أبيك وإذا جمعت بالواو والنون قالوا : أبون، قال الشاعر :

فلما تَبَيَّنَّ أصواتنا   بَكَيْنَ وَفَدَّيْننا بالأبِينا (١)

وعلى هذا قرأ بعضهم: إله أبيك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق. يريد جمع أب أى أبينك فحذف النون للاضافة يقول : تسل عن هذا المفقود بالتفكر فى مصابك بأبويك فقد بكيت لفقدهما ثم ضحكت بعد ذلك بمدة وكذلك حزنك لأجل هذا المصاب سيذهب عن قريب وعبارة بعض الشراح : تفكر فى آبائك الذين ذهبوا فكل أحد سيذهب كذهابهم فلا يجب الحزن . وفى معناه :

فقضى اللومَ عاذِلَتى فإنى   سيكفينى التجارِبُ وانتِسابى

« يريد لا أنتسب إلا إلى مفقود » ومثله قول لبيد :

فإن أنت لم يَنْفَعْكَ عِلْمُكَ فانتَسِبْ   لعلكَ تَهدِيكَ القرونُ الأوائلُ

(٢) المصاب ههنا مصدر كالإصابة ، والمراد هنا بالخبث الجزع وبالطيب الصبر ، ويقال بات فلان خبيث النفس : أى ثقيلها كريه الحال وفى حديث هرقل : فأصبح يوما وهو خبيث النفس ، أى ثقيلها كريه الحال ومنه الحديث : لا يقولن أحدكم خبثت نفسى ، أى ثقلت وغثت كأنه كره اسم الخبث وفاعل ثنت يعود على النفس أى صرفت الخبث ، أو تقول ثنت أى انثنت يقول :

---

(١) يصف نساء سبين فوفد عليهن من قومهن من يفاديهن فبكين إليهم وفدينهم بآبائهن سروراً بوفودهم عليهن .

وَلِلْوَاجِدِ الْمَكْرُوبِ مِنْ زَفَرَاتِهِ   سُكُونُ عَزَاءٍ أَوْ سُكُونُ لُغُوبِ (١)
وَكَمْ لَكَ جَدًّا لَمْ تَرَ الْعَيْنُ وَجْهَهُ   فَلَمْ تَجْرِ فى آثَارِهِ بِغُرُوبِ (٢)
فَدَتْكَ نُفُوسُ الْحَاسِدِينَ فَإِنَّهَا   مُعَذَّبَةٌ فى حَضْرَةٍ وَمَغِيبِ
وَفى تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ نُورَهَا   وَيَجْهَدُ أَنْ يَأْتِى لَهَا بِضَرِيبِ (٣)

إذا استقبل الكريم إصابة الدهر إياه بالجزع راجع عقله بعد ذلك فاعتصم بالصبر لعلمه أن الجزع لا يفيد. قال العكبرى : وهذا من قول الحكيم : من علم أن الكون والفساد يتعاقبان الأشياء لم يحزن لورود الفجائع لعلمه أنه من كونها فهان عليه ذلك لعجز الكل عن دفع ذلك .

(١) الواجد المحزون ، والزفرة تصعيد النفس بعد مده ، واللغوب الإعياء . يقول : لا بد للمحزون من سكون فإما أن يسكن عزاء وإلا سكن إعياء ، فالعاقل من يتعزى ، وفى هذا المعنى يقول أبو تمام :

أَتَصْبِرُ للبلوَى عَزاءً وَحِسبةً   فتؤجرَ أم تَسْلو سُلوَّ البهائم

ويقول محمود الوراق .

إذا أنت لم تَسْلُ اصطباراً وحِسبةً   سلوتَ على الأيام مثلَ البهائم

(٢) كم ههنا خبرية بمعنى كثير والواجب خفض تمييزها ولكنه نصب جدا هنا لوجود فاصل بينها وبين معمولها فبطل الجر . وغروب جمع غرب وهو الدمع يقول : كم لك من جد لم تره عينك فلم تبك عليه فهب هذا مثلهم لأنه قد غاب عنك ، والغائب عن قرب كالغائب الذى طال عليه العهد . قال الخطيب : وهذا المعنى مدخول لأن أجداده لم يرهم ولم يعرفهم وعماك قد رآه وعرفه ورثاه . أقول : ونقد الخطيب واضح وفى محله كما ترى .

(٣) من يحسد مبتدأ مؤخر ، وفى تعب خبر مقدم ، ونورها بدل من الشمس أو مفعول ثان ليحسد ، وأسكن الياء من يأتى ضرورة . وأكثر ما يكون ذلك فى الياء والواو . والضريب النظير يقول : مثل حسادك معك مثل من يريد أن يأتى للشمس بنظير وهذا فى تعب لازب لأنه يعالج المحال وكذلك حسادك لأنه لا نظير لك كالشمس .

وقال يمدحه ويذكر بناء مَرْعَشَ سنة إحدى وأربعين وثلثمائة :

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا … فَإِنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَا(١)

وَكَيْفَ عَرَفْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدَعْ لَنَا … فُؤَاداً لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ وَلاَ لُبَّا(٢)

نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشِي كَرَامَةً … لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبَا(٣)

نَذُمُّ السَّحَابَ الْغُرَّ فِي فِعْلِهَا بِهِ … وَنُعْرِضُ عَنْهَا كُلَّمَا طَلَعَتْ عَتْبَا(٤)

وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا طَوِيلاً تَقَلَّبَتْ … عَلَى عَيْنِهِ حَتَّى يَرَى صِدْقَهَا كِذْبَا(٥)

---

(١) يخاطب ربع الحبيب ويدعو له . وقوله من ربع تمييز ، ومن زائدة ، والربع المنزل متى كان وبأى مكان كان ، أما المربع ومثله المرتبع والمتربع فهو الموضع الذى ينزل فيه أيام الربيع يقول : فديناك أيها الربع من أحداث الدهر ونوائبه برغم أنك زدتنا وجدا بما هجت من ذكرى الحبيب الذى كان فيك كالشمس يخرج منك ويعود إليك وكنت له كالشرق حين يظهر وكالمغرب حين يحتجب .

(٢) يتعجب من معرفته آثار ديار الحبيب بعد أن سلبه قلبه وعقله ولم يدع له سبيلا إلى إدراك الأشياء ، ويدع روى بالياء وبالتاء ، فمن روى بالياء فهو على لفظ من ، ومن روى بالتاء حمله على المعنى لأن المقصود بمن، امرأة .

(٣) الأكوار جمع كور وهو رحل البعير ، وأن نلم مؤول بمصدر مجرور بعن محذوفة صلة كرامة أى كرامة عن أن نلم به ركباناً ، ونلم ننزل يقول : لما أتينا هذا الربع نزلنا عن رواحلنا وترجلنا كرامة للحبيب — الذى كان فيه ثم زايله — وتقديسا له أن ننزل بربعه راكبين وقد أوضح هذا المعنى السرى الرفاء بقوله :

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ أجابَ دُثُورُهُ … يَوْمَ العقيقِ سؤالَ دمعٍ سائلِ

نَحْفى ونَنزل وهو أعظم حرمة … مِن أن يُذالَ براكبٍ أو ناعِلِ

(٤) السحاب جمع ، ومن ثم جاز وصفه بالغر : أى البيض : وإنما قال الغر لأنها كثيرة الماء يقول : نذم السحاب لأنها عفت الربع وغيرت معالمه بما ينهل منها من المطر وإذا طلعت عليه أعرضنا عنها وأشحنا بوجوهنا عتبا عليها لتعفيتها الرسوم وفعلها بها ما فعلت .

(٥) هذا البيت متصل بالذى قبله يقول : نحن نذم السحاب لما تفعل بالربع ولا حق

وَكَيْفَ الْتِذَاذِى بِالْأَصَائِلِ وَالضُّحَى ... إِذَا لَمْ يَعُدْ ذَاكَ النَّسِيمُ الَّذِى هَبَّا(١)

ذَكَرْتُ بِهِ وَصْلاً كَأَنْ لَمْ أَفُزْ بِهِ ... وَعَيْشاً كَأَنِّى كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَثْبَا(٢)

لنا فى هذا الذم لأن من صحب الدنيا وطال امتراسه بها تقلبت أحوالها عليه حتى يرى ما اطمأن إليه من صفائها ونعيمها قد تغير وحال عما كان عليه كأن لم يغن بالأمس ، وهذا المعنى ينظر إلى قول أبى نواس :

إذا امتَحَنَ الدنيا لبيب تكَشَّفَتْ ... لهُ عَنْ عدُوٍّ فى ثياب صَدِيق

قال العكبرى : وهذا من قول الحكيم : ليس ترداد حركات الفلك إلا تحيل الكائنات عن حقائقها .

(١) يقول : كيف ألتذ بالعشايا والغدايا إذا لم أستنشق ذلك النسيم الذى كنت أجده من قبل : يعنى نسيم الحبيب ونسيم أيام الشباب والوصال ، والأصائل جمع أصيل على غير قياس وهو ما بين العصر إلى المغرب — والضحى قال الجوهرى : مقصور تؤنث وتذكر ، فمن أنث ذهب إلى أنه جمع ضحوة ومن ذكر ذهب إلى أنه اسم على فعل مثل صرد ونغر وهو ظرف غير متمكن مثل سحر تقول لقيته ضحى وضحى إذا أردت به ضحا يومك لم تنونه . وقال ابن برى : ضحى مصروف على كل حال ، قال الجوهرى : وهو حين تشرق الشمس ثم بعده الضحاء ممدود مذكر وهو عند ارتفاع النهار الأعلى ، وقيل : الضحى من طلوع الشمس إلى أن يرتفع النهار وتبيض الشمس جدا ثم بعد ذلك الضحاء إلى قريب من نصف النهار .

(٢) يقول : تذكرت بهذا الربع وصلا قصرت أيامه حتى كأنه لم يكن لسرعة انقضائه ، وعيشا وشيك الانقطاع كأنى قطعته بالوثوب ، ووثب قفز وطفر ، ومن قولهم وثب إلى الشرف وثبا : أى وصل إليه دفعة واحدة. قال ابن جنى : يريد قصر أوقات السرور ، ومن بديع ما قيل فى قصر أوقات السرور قول الوليد بن يزيد :

لا أسأل الله تغييراً لما صنعت ... نامت وقد أسهرت عينىّ عيناها

فالليل أطول شىء حين أفقدها ... والليل أقصر شىء حين ألقاها

والشعراء أبداً يذكرون قصر أوقات السرور وأيام اللهو ، وسرعة زوالها وانقضائها فمن ظريفه قول بعض العرب :

وَفَتَّانَةَ الْعَيْنَيْنِ قَتَّالَةَ الْهَوَى　　إِذَا نَفَحَتْ شَيْخًا رَوَائِحُهَا شَبَّا(١)
لَهَا بَشَرُ الدُّرِّ الَّذِي قُلِّدَتْ بِهِ　　وَلَمْ أَرَ بَدْراً قَبْلَهَا قُلِّدَ الشُّهْبَا(٢)

ليلى وليلىَ نفى نومى اختلافُهما　　حتى لقد تركانِى فى الهوى مَثلا
يجودُ بالطولِ ليلى كلما نحلت　　بالطول ليلىَ وإن جادت به بخلا

وفى هذا البيت من الجناس الذى ترى ما يعجز عنه . وقال البحترى :

فلا تذكُرا عهد التصابى فإنهُ　　تقضَّى ولم نشعرْ به ذلك العصرُ

وما أبدع ما يقول الرضى :

يا ليـلةً كادَ مِن تقاصرِها　　أنْ يَعثرَ فيها العشىُّ بالسَّحَرِ

وقال بعضهم :

ظَـلِلْنَا عند دار أبى نعيم　　بيوم مثل سالفةِ الذباب

شبهه فى القصر بعنق الذباب ، ومثله لجرير :

ويوم كأبهام القطاة مُزَيَّنٍ　　إلى صباهُ غالبٍ لىَ باطِـلهُ

وما أحسن قول إبراهيم بن العباس :

ليلة كاد يلتقى طرفاها　　قصراً وهى ليـلة الميـلاد

ويقول متمم بن نويرة :

فلما تفرقنا كأنى ومالـكا　　لِطُول اجتماع لم نَبِت ليلةً معا

(١) النفح تضوع رائحة الطيب يقال نفح الطيب ونفحت رائحة الطيب وعدى النفح على المعنى كأنه قال إذا أصابت روائحها شيخاً شب ، وفتانة عطف على وصلا فى البيت قبله : أى وذكرت به فتانة يقول : وذكرت امرأة تفتن عيناها ويقتل هواها إذا فعمت روائحها شيخا تصابى وعاد شابا وهذا مثل قول الصنوبرى :

بِلَفْظٍ لو بَدا لِحليفِ شَيْبٍ　　لفارقه وعادَ إلى شـبابِهِ

(٢) البشر جمع بشرة وهى ظاهر الجلد ، والدر اللآلىء العظام ، والشهب الدرارى من النجوم ؛ يقول : إن لونها مثل لون الدر الذى تقلدته ، وهى كالبدر حسنا وجمالا ، وقلائدها كدرارى النجوم ولم أر قبلها بدرا قلد النجوم .

فَيَا شَوْقِ مَا أَبْقَى وَيَالِي مِنَ النَّوَى ... وَيَادَمْعِ مَا أَجْرَى وَيَا قَلْبِ مَا أَصْبَى (١)
لَقَدْ لَعِبَ البَيْنُ المُشِتُّ بِهَا وَبِي ... وَزَوَّدَنِي فِي السَّيْرِ مَا زَوَّدَ الضَّبَّا (٢)
وَمَنْ تَكُنِ الأُسْدُ الضَّوَارِي جُدُودَهُ ... يَكُنْ لَيْلُهُ صُبْحاً وَمَطْعَمُهُ غَصْبَا (٣)

---

(١) ويالى : يروى وبالى بالموحدة ، والنوى البعد . يقول : فياشوق ما أبقاك فلست تنفد ويا من لى يمنعنى من ظلم الفراق ويادمعى ما أجراك وياقلبى ما أصباك وأشوقك وقد حذف كما ترى يا آت الإضافة من شوق ودمع وقلب تخفيفا لأن الكسرة تدل عليها ولك أن تقرأ شوق ودمع وقلب مبنية على الضم على أنها مفردة أى غير مضافة إلى ياء المتكلم وحذف الكاف المنصوبة من أبقى وأجرى وأصبى للمخاطبة التى قبلها بالنداء . وقوله ويالى استغاثة قال العكبرى قوله ويالى يحتمل أن يكون أراد اللام المفتوحة التى للاستغاثة كأنه استغاث بنفسه من النوى ، ويحتمل أن يكون أراد اللام المكسورة التى للمستغاث من أجله كأنه قال : ياقوم اعجبوا لى من النوى .

(٢) البين البعد ، والمشت المفرق ، والضب حيوان من الزحافات معروف يضرب به المثل فى الحيرة ، يقال : أحير من ضب لأنه إذا خرج من جحره لا يهتدى إليه عند أوبته يقول : لعب الفراق بشملنا وزودنى الضلال والحيرة فلا أهتدى إلى وجه وليس إلى لقاء الحبيب من سبيل ، وقيل إن المراد كما أن الضب لا يتزود فى المفازة لأنه لايحتاج إلى الماء أبدا فكذا لم يزودنى الفراق شيئاً أى أنه لم يودع حبيبته وفارقها من غير وداع ولا التقاء فيكون التوديع زاداً كما قال بعضهم :

زَوَّدَ الأَحبابُ للأَحبابِ ... ضَمًّا والتزاما
وَسُلَيْمَى زَوَّدَتْنِي ... يَوْمَ تَوْدِيعِي السقاما

وقال ابن فورجه : يريد زودنى الضلال عن وطنى الذى خرجت منه فما أوفق إلى العود إليه والاجتماع مع الحبيب والضب يوصف بالضلال وقلة الاهتداء وعبارة الواحدى يجوز أن يكون المعنى أن الضب مكانه المفازة فلا يتزود إذا انتقل منها يقول : أنا فى البين مقيم إقامة الضب فى المفازة وليس من عادة المقيم أن يتزود فالسير والبين كأنهما منزل لإلفى إياهما .

(٣) الضوارى المضراة والمولعة بالصيد . يقول : من كان من نسل الشجعان وكان آباؤه كالأسود كان هو كذلك وعاش عيشة الأسود وإذن يكون الليل له نهاراً فلا تعوقه

وَلَسْتُ أُبَالِي بَعْدَ إِدْرَاكِيَ الْعُلَا ... أَكَانَ تُرَاثاً مَا تَنَاوَلْتُ أَمْ كَسْبَا (١)
فَرُبَّ غُلَامٍ عَلَّمَ الْمَجْدَ نَفْسَهُ ... كَتَعْلِيمِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنَ وَالضَّرْبَا (٢)
إِذَا الدَّوْلَةُ اسْتَكْفَتْ بِهِ فِي مُلِمَّةٍ ... كَفَاهَا فَكَانَ السَّيْفَ وَالْكَفَّ وَالْقَلْبَا (٣)
تُهَابُ سُيُوفُ الْهِنْدِ وَهْيَ حَدَائِدٌ ... فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ نِزَارِيَّةً عُرْبَا (٤)

الظلمة عن بلوغه مآربه وكان مطعمه مما يأخذه من أعدائه قهراً ، قال ابن جنى : قوله يكن ليله صبحا من قول الآخر :

فَبَادِرِ اللَّيْلَ وَلَذَّاتِهِ ... فَإِنَّمَا اللَّيْلُ نَهَارُ الأَرِيبِ

(١) كأنه يعتذر من الغضب الذى ذكر فى البيت السابق . يقول : إذا أدركت معالى الأمور فلست أبالى بعد إدراكها أكان ما يحصل فى يدى إرثا أم كسبا فالتراث المال الموروث : قال بعض الشراح : وكان الوجه أن يقول أتراثا كان لأن الهمزة لا يليها إلا المسئول عنه فأخره لإقامة الوزن.

(٢) فرب غلام يعنى نفسه يقول : إن المرء يمكنه أن يعلم نفسه المجد وإن لم يكن له من يعلمه كما علم سيف الدولة نفسه الطعن والضرب ومجالدة الأبطال بشجاعته وحذقه ، وروى * كتعليم سيف الدولة الدولة الضربا * أى كما علم أهل دولته الطعان والنزال . والرواية الأولى أظهر ، والمجد الأخذ من الشرف والسؤدد ما يكفى ، وقيل لا يكون إلا بالآباء والظاهر أنه مأخوذ من قولهم مجدت الإبل إذا شبعت وامتلأت بطونها علفا وأمجدها راعيها ويقال من هذا أمجد فلان عطاءه ومجده إذا كثره ، ولما كان من أساس المجد كثرة المآثر والمساعى كان مأخوذا من ذاك .

(٣) يقال : كفيته الأمر أعنته عليه وقمت به دونه ، وقد استكفانى أمره فكفيته وعداه هنا بالباء على تضمينه معنى استعانت به يقول : إن الدولة إذا استعانت به فى أية مهمة أو نازلة كفاها وبلغت به وحده ما تريد فكان سيفا لها على أعدائها وكفا تضرب بها وقلبا تقتحم به الأهوال ؛ قال العكبرى : يريد بهذا أن يفضله على سيف الحديد فإنه لا يعمل بنفسه ولا يعمل إلا بضارب ، وسيف الدولة يعمل بنفسه .

(٤) يقول : إن السيوف تهاب مع أنها حديد لا عقل لها ولا قوة إلا بالضارب بها فكيف يكون حالها فى الخوف منها إذا كانت عربية نزارية ؟! أى تقطع بنفسها دون استعانة بغيرها ، وسيف الدولة عربى نزارى ، فيكون أحق بالخوف منه .

وَيُرْهَبُ نَابُ اللَّيْثِ وَاللَّيْثُ وَحْدَهُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ اللُّيُوثُ لَهُ صَحْبَا(١)
وَيُخْشَى عُبَابُ الْبَحْرِ وَهْوَ مَكَانَهُ فَكَيْفَ بِمَنْ يَغْشَى الْبِلَادَ إِذَا عَبَّا(٢)
عَلِيمٌ بِأَسْرَارِ الدِّيَانَاتِ وَاللُّغَى لَهُ خَطَرَاتٌ تَفْضَحُ النَّاسَ وَالْكُتْبَا(٣)
فَبُورِكْتَ مِنْ غَيْثٍ كَأَنَّ جُلُودَنَا بِهِ تُنْبِتُ الدِّيبَاجَ وَالْوَشْيَ وَالْعَصْبَا(٤)
وَمِنْ وَاهِبٍ جَزْلاً وَمِنْ زَاجِرٍ هَلاً وَمِنْ هَاتِكٍ دِرْعاً وَمِنْ نَاثِرٍ قُصْبَا(٥)
هَنِيئاً لِأَهْلِ الثَّغْرِ رَأْيُكَ فِيهِمِ وَأَنَّكَ حِزْبَ اللهِ صِرْتَ لَهُمْ حِزْبَا(٦)

---

(١) يقول : إن الليث يرهب إذا كان وحده فلا يجترىء أحد على مواجهته فكيف إذا كان معه ليوث آخرون ؟ يريد سيف الدولة وأصحابه .

(٢) عباب البحر تراكم أمواجه وشدتها ويغشى يغطى وعب زخر وتدفق وقد سمى الفرس الشديد الجرى والنهر الشديد الجريان يعبوبا من ذلك يقول : والبحر تخاف أمواجه وهو مكانه فكيف الظن بمن إذا زخر وماج عم البلاد .

(٣) اللغى جمع لغة يقول : هو عليم بخفيات الديانات واللغات ، يعلم منهما ما لا يصل إليه غيره ، وله فى ذلك خطرات تفضح العلماء وكتبهم لأنهم لم يبلغوا فى العلم ما يجرى على خاطره .

(٤) يقال : بوركت وبورك لك وبورك فيك وبورك عليك يدعو له بالبركة والنماء ومن غيث تمييز والديباج فارسى معرب وهو الثوب الذى سداه ولحمته حرير والوشى الثوب فيه ألوان شتى والعصب ضرب من برود اليمن يقول : إنك تخلع علينا هذه الثياب فكأنك غيث تمطر علينا فتنبت جلودنا هذه الثياب فبارك الله عليك غيثا .

(٥ الجزل الكثير وهلا اسم صوت تزجر به الخيل والقصب المعى والجمع أقصاب ؛ وفى الحديث : الذى يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة كالجار قصبه فى النار قيل اسم للأمعاء كلها ، وقيل : هو ما كان أسفل البطن من الأمعاء يقول : وبوركت من رجل يهب العطاء جزلا ويزجر الخيل يستحثها ويهتك الدروع بسيفه وسنانه ويشق الأمعاء فينثرها .

(٦) رأيك مرفوع بفعله وفعله هنيئاً وأصله ثبت رأيك هنيئاً لهم فحذف الفعل وأقيم الحال « هنيئاً » مقامه فصارت تعمل عمله ، وحزب الله منادى أو منصوب على الاختصاص يقول : ليهنهم حسن رأيك فيهم وأنك صرت لهم حزبا — أى أعوانا وأنصاراً — فى حال أنك حزب الله .

وَأَنَّكَ رُعْتَ الدَّهْرَ فِيهَا وَرَيْبَهُ ... فَإِنْ شَكَّ فَلْيُحْدِثْ بِسَاحَتِهَا خَطْبَا(١)
فَيَوْماً بِخَيْلٍ تَطْرُدُ الرُّومَ عَنْهُمُ ... وَيَوْماً بِجُودٍ يَطْرُدُ الْفَقْرَ وَالْجَدْبَا(٢)
سَرَايَاكَ تَتْرَى وَالدُّمُسْتُقُ هَارِبٌ ... وَأَصْحَابُهُ قَتْلَى وَأَمْوَالُهُ نُهْبَى(٣)
أَتَى مَرْعَشاً يَسْتَقْرِبُ الْبُعْدَ مُقْبِلاً ... وَأَدْبَرَ إِذْ أَقْبَلْتَ يَسْتَبْعِدُ الْقُرْبَا(٤)
كَذَا يَتْرُكُ الْأَعْدَاءَ مَنْ يَكْرَهُ الْقَنَا ... وَيَقْفُلُ مَنْ كَانَتْ غَنِيمَتُهُ رُعْبَا(٥)

---

(١) وأنك عطف على وأنك حزب الله فى البيت السابق والضمير فى فيها وفى بساحتها للأرض وأرجعه إلى غير مذكور على حد قوله تعالى « كل من عليها فان » ورعت أفزعت وريب الدهر صروفه وحوادثه . يقول : هنيئاً لأهل الثغر أنك صرت لهم حزبا وأنك فعلت فى الأرض أفعالا أفزعت الدهر وصروفه ، فإن شك الدهر فى قولى فليحدث فى الأرض خطبا . يعنى أن الناس آمنون من تصاريف الدهر فليس فى استطاعته أن يمسهم بسوء هيبة لك .

(٢) عنهم : أى عن أهل الثغر. والجدب: القحط .

(٣) السرايا جمع سرية وهى الجماعة من الجيش سميت كذلك قيل لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم من الشيء السرى أى النفيس وقيل لأنهم ينفذون سراً وخفية وتترى متواترة متتابعة وبينها فجوات وفترات قال تعالى « ثم أرسلنا رسلنا تترى » وهو معلوم أن بين كل رسولين فترة قال الجوهرى تترى فيها لغتان تنون ولا تنون فمن ترك صرفها فى المعرفة جعل ألفها ألف تأنيث وهو أجود وأصلها وترى من الوتر وهو الفرد ومن نونها جعلها ملحقة والمراد هنا التى يخلف بعضها بعضا ونهبى أى منهوبة والدمستق اسم لقائد الروم .

(٤) مرعش حصن من أعمال ملطية ؛ يقول : أتى الدمستق هذا الثغر مهزوزاً نشيطاً مبتهجا يجد البعيد قريباً فلما أقبلت عليه ولى مدبراً وهو يرى القريب بعيداً خوفاً وذعراً أن تدركه ، قال العكبرى : ولقد أحسن القائل الناظر إلى هذا المعنى :

والله ما جِئتكم زائراً ... إلاَّ رأيتُ الأرضَ تطوى لِي
ولا انثنى عَزْمِيَ عن بابِكُم ... إلا تعـثَّرتُ بأذيالي

(٥) يقول : كذا من أقدم على الحرب وهو يكره الجلاد جبنا يترك أعداءه ويحجم

وَهَلْ رَدَّ عَنْـــهُ باللُّقَانِ وُقُوفُهُ صُـــدُورَ العَوَالِى وَالمُطَهَّمَةَ القُبَّا(١)
مَضَى بَعْدَ مَا الْتَفَّ الرِّمَاحَانِ سَاعَةً كَمَا يَتَلَقَّى الْهُدْبُ فى الرَّقْدَةِ الْهُدْبَا(٢)
وَلٰـكِنَّهُ وَلَّى وَلِلطَّعْنِ سَـــوْرَةٌ إِذَا ذَكَرَتْهَا نَفْسُهُ لَمَسَ الْجَنْبَا(٣)
وَخَلَّى الْعَذَارَى وَالْبَطَارِيقَ وَالْقُرَى وَشُعْثَ النَّصَارَى وَالْقَرَابِينَ وَالصُّلْبَا(٤)

عن اللقاء وينكص على عقبيه وكذا يرجع عن الحرب من لم يغنم سوى الرعب : أى أن الدمستق عاد مرعوباً فكان الرعب له بمنزلة الغنيمة لغيره .

(١) اللقان ثغر ببلاد الروم « الأناضول » والعوالى من الرماح ما دخل فى السنان إلى ثلثه والخيل المطهمة التامة الخلق والقب جمع أقب وهو الضامر البطن ووقوفه فاعل رد ؛ قال الواحدى : كان الدمستق قد أقام باللقان فلما أقبل سيف الدولة انهزم . يقول : فهل أغنى عنه وقوفه وهل رد عنه الرماح والخيل الحسان الضامرة .

(٢) يريد بالرماحين رماح الفريقين فثنى الجمع كما قال أبو النجم :

* بين رِماحَىْ مالكٍ ونهشِلِ *

والهدب : أشفار العين ، يقول : انهزم بعد أن تشاجرت الرماح ساعة كما تختلط الأهداب الأعالى والأسافل عند الرقاد وهذا مثل قول بعضهم :

ما التقينا بحمد رَبِّىَ إلا مِثلما تلتقى جُفونُ السليم

(٣) السورة الحدة يقول : ولـكنه انهزم وللطعن فى أصحابه حدة إذا تذكرها لمس جنبه قائلا : هل أصابه شىء منه ؟ أى أنه انهزم مدهوشا مرعوبا لا يدرى ما حاله وهل أصابته طعنة نافذة ؟ قال بعض الشراح : إنه هرب وبقى من دهشه لا يدرى ما يصنع فكان يلمس جنبه هل يجد روحه بين جنبيه من الذهول والفزع وهذا من قول أبى نواس :

إذا تفكرتُ فى هَـــوَاىَ له مَسَسْتُ رأْسى هل طار عن بَدَنِى

(٤) العذارى جمع عذراء وهى البكر من النساء والبطاريق جمع بطريق وهم قواد الروم والشعث جمع أشعث وهو المغبر الرأس والمراد بهم هنا الرهبان والقرابين جمع قربان وهو ما يتقرب به إلى الله والمراد هنا خاصة الملك والصلب جمع صليب وسكن اللام على لغة تميم يقول : إنه انهزم وترك هؤلاء ولم يلتفت إليهم لهول ما رأى .

أَرَى كُلَّنَا يَبْغِي الْحَيَاةَ لِنَفْسِهِ حَرِيصاً عَلَيْهَا مُسْتَهَاماً بِهَا صَبَّا(١)
فَحُبُّ الْجَبَانِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ التُّقَى وَحُبُّ الشُّجَاعِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ الْحَرْبَا(٢)
وَيَخْتَلِفُ الرِّزْقَانِ وَالْفِعْلُ وَاحِدٌ إِلَى أَنْ يُرَى إِحْسَانُ هٰذَا لِذَا ذَنْبَا(٣)

---

(١) المستهام الذى ملك عليه العشق أمره فهام على وجهه ، والصبابة رقة الشوق : يقول : كل منا يطلب الحياة عاشقا لها محبا حريصا عليها .

(٢) يقول : كل من الجبان والشجاع سواء فى حب النفس وإن اختلف فعلهما فالجبان حباً لنفسه وإبقاء على حياته اتقى الحرب وترك القتال والشجاع إنما أقدم على الحرب دفاعا عن نفسه وذودا عن مهجته لأنه يخاف على نفسه العدو إن هو قعد عن الحرب أو لأنه إذا أرى من نفسه الشجاعة تحاماه الناس واتقوه فكان فى ذلك بقاؤه كما قال الحماسى — الحصين بن الحمام — :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

وتقول الخنساء .

نُهين النفــوس وهون النفــوس يوم الكريهة أبقى لها

وروى أن الصديق رضى الله عنه قال لخالد بن الوليد — وقد ودعه لحرب أهل الردة — : احرص على الموت توهب لك الحياة ، ومعناه إما أن الشجاع مهب مرهوب لا يحام حوله ، وإما أن ذكره يبقى بعده فيكون كأنه حى كما قال حبيب :

سلفوا يرون الذكر عُقباً صالحاً ومضوا يعدون الثناء خـــلودا

وإما أنه إذا استشهد صار حيا كما قال تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » قال العكبرى : وهذا البيت من الحكمة ، قال الحكيم : النفس المتجوهرة تأبى مقارنة الذل كل الإباء ، وترى فناءها فى طلب العز حياتها : والنفس الدنيئة على الضد من ذلك ، وروى بدل النفس الحرب .

(٣) قال الواحدى . يقول : إن الرجلين ليفعلان فعلا واحدا فيرزق أحدهما بذلك الفعل ويحرم الثانى حتى كأن إحسان المرزوق ذنب للمحروم ومثال ذلك أن يحضر الحرب اثنان يغنم أحدهما ويحرم الآخر فحضور الحرب إحسان من الغانم ذنب للمحروم وكلاهما فعل فعلا واحداً وكذلك مسافران مثلا سافرا فربح أحدهما وخسر الآخر فيعد السفر من الرابح إحسانا يحمد عليه ومن الخاسر ذنبا يلام عليه وهذا كما أنشده ابن الأعرابى :

. . . .

يخيب الفتى من حيث يرزق غيره ويعطى المنى من حيث يحرم صاحبه

وفى هذا — أسعدك الله — من الدلالة على القضاء وكونه ولعبه بالإنسان وعلى الحظ وأثره فى تصرفات الناس مالا سبيل إلى إنكاره ونورد هنا بعضاً مما قاله الشعراء مما يتصل بهذا الباب وهو باب واسع جداً . قال رهين المحبسين :

لا تَطْلبنَّ بآلةٍ لكَ رُتبة قلمُ البليغ بغير حَظ مِغزَلُ
سَكَن السماكان السماء كلاهما هَذَا له رُمحٌ وهذا أعزَلُ

وقال :

سَيطلبنى رزق الذى لو طلبتهُ لما زاد وَالدُّنيا حُظوظ وَإقبالُ
إذا صدَقَ الجدُّ افترى العمُّ لِلفتى مكارمَ لاتُكرى وإن كذَبَ الخالُ

« الجد هنا الحظ والعم الجماعة . وتكرى من أكرى الزاد إذا نقص ، وافترى كذب والخال المخيلة » . ويقول أبو تمام :

ينال الفتى مِنْ دَهْره وَهْوَ جاهلٌ وَيُكدِى الفتى فِى دَهْرِه وَهْوَ عالم[1]
وَلَوْ كَانَت الأرْزَاقُ تأتِى على الحِجا إذَنْ هَلكْت مِنْ جَهلهن البَهائمُ

ويقول أبو إسحاق الصابى :

إذا جَمَعتْ بين امرَأيْنِ صِناعَة فأحبَبْت أن تَدْرِى الذى هُوأحْذَقُ
فلا تَتفقّدْ مِنهُما غَيْرَ ما جرتْ به لهما الأرزاق حين تفرّقُ
فحَيْثُ يكونُ الجهل فالرزْقُ واسِعٌ وَحَيْثُ يكونُ العِلمُ فالرزْقُ ضَيّقُ

وقال الإمام الشافعى :

لو أن بالحيل الغِنى لو جدتنى بِنجُومِ أفلاكِ السماء تَعلّقى
لكنَّ من رُزِق الحِجا حُرم الغِنى ضِدّان مُفترقانِ أىَّ تفرق

---

(١) أكدى الرجل خاب ولم يظفر بشىء وأصله من حافر البئر ينتهى إلى كدية أى صخرة صلبة — فلم يمكنه الحفر فيتركه .

فَأَضْحَتْ كَأَنَّ السُّورَ مِنْ فَوْقِ بَدْئِهِ ... إلى الأَرْضِ قَدْ شَقَّ الكَوَاكِبَ وَالتُّرْبَا (١)

تَصُدُّ الرِّيَاحُ الهُوجُ عَنْهَا مَخَافَةً ... وَتَفْزَعُ مِنْهَا الطَّيْرُ أَنْ تَلْقُطَ الحَبَّا (٢)

فإذا سمعتَ بأنَّ محرُوما أتى ... ماء لِيشربَهُ فغاض فصدِّقِ

أو أن محظوظاً غـدا فى كفه ... عُود فأورق فى يديـه فحقِّقِ

ومِن الدليل على القضاء وكونه ... بُؤْسُ اللبيب وَطيب عَيْش الأحمَقِ

والإشارة فى قول المتنبى هذا ولذا للمرزوق والمحروم المفهومين من قوله ويختلف الرزقان .

(١) فأضحت أى قلعة مرعش يقول — كما ذهب إلى ذلك الخطيب وتابعه جماعة من الشراح — : إن هذه القلعة لعلوها فى الجو كأنما ابتدى بها من الجو فأسست هناك فشقت الكواكب والترب : يعنى الذى ارتفع منها إلى الجو حوالبها فكأنها مقلوبة أسها فى السماء وأعلى حائطها إلى الأرض وروى ابن جنى من فوق برفع القاف وبدؤه بالرفع أيضا جعل فوق معرفة وبناه كقبل وبعد وأراد فوقه فلما حذف الهاء بناه كقبل وبعد ورفع بدؤه على الابتداء ، قال الواحدى : على رواية ابن جنى لا يستقيم لفظ البيت ولا معناه لأنه — أى المتنبى — يقول : أضحت هذه القلعة — يعنى مرعشا — كأن سورها من فوق بدئه أى من أعلى ابتدائه قد شق الكواكب بعلوه فى السماء وشق التراب برسوخه فى الأرض وهو كقول السموأل :

لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع يرد الطرف وهو كليل

رسا أصله تحت الثرى وسما به ... إلى النجم فرع لا يرام طويل

(٢) تصد تعرض والهوج جمع هوجاء وهى الرياح الحمقاء التى تارة تأتى من هنا وتارة تأتى من هنا وعنها متعلق بتصد ومخافة مفعول من أجله وأن تلقط فى موضع نصب على حذف حرف الجر أى من أن تلقط : يقول : إن الرياح الهوج تعرض عنها مخافة أن تعجز عن الوصول إلى أعلاها وكذلك الطير تحس من نفسها العجز عن الارتقاء إليها والتقاط الحب من ذراها وقال القاضى أبو الحسن الجرجانى : يريد أن الرياح لا تدنو منها خوفا من تثقيف سياسته والطير لا تقع عليها خشية أن يجرى عليها

وَتَرْدِى الْجِيادُ الْجُرْدُ فَوْقَ جِبالِهَا ... وَقَدْ نَدَفَ الصِّنَّبْرُ فى طُرْقِها الْعُطْبَا (١)

كَفَى عَجَباً أَنْ يَعْجَبَ النَّاسُ أَنَّهُ ... بَنَى مَرْعَشاً تَبًّا لِآرَائِهِمْ تَبَّا (٢)

إذا هى التقطت الحب ما توجبه حال المتناول من دون إذن ، وهذا المعنى منقول من قول حبيب :

فقد بَثَّ عَبْدُ اللهِ خَوْفَ انْتِقامِهِ ... على الليلِ حتى ما تَدِبُّ عقارِبُه

وهو كقول الآخر :

وكانت لا تطير الطير فيها ... ولا يسرى بها للجن سارى

(١) تردى من الرديان وهو ضرب من العدو ترجم فيه الجياد الأرض بحوافرها ، والجرد اقصار الشعر وهو من آيات العتق والكرم ، والصنبر السحاب البارد الريح فى غيم وأيضا اسم اليوم الثانى من أيام العجوز قالوا وهى سبعة أيام وأنشدوا لابن أحمر وقيل لابن شبل الأعرابى :

كُسِعَ الشتاءُ بِسَبْعةٍ غُبْرِ ... أيامِ شَهلتِنا من الشهْرِ

فإذا انقضَتْ أيامُها ومَضَتْ ... صِنٌّ وصِنَّبْرٌ مَعَ الوَبْرِ

وَبآمِرٍ وأخيه مُؤْتَمِرٍ ... ومُعَلِّلٍ وبِمُطفِىءِ الجَمْرِ

ذَهَبَ الشتاءُ مُوَلِّياً هَرَبا ... وأتتكَ وافِدَةٌ مِنَ النجْرِ (١)

يقال إن عجوزا كان لها سبعة أولاد خرج كل واحد منهم فى يوم من هذه الأيام فقتله البرد . والعطب القطن والعطب مثله كعسر وعسر.

قال الشاعر :

كأنه فى ذُرَى عمائِمِهم ... مُوَضَّعٌ مِنْ مَنادِفِ العُطُبِ

يقول : خيلك تعدو فوق جبال هذه القلعة وقد امتلأت طرقها بالثلج الذى كأنه قطن ندفه فيها برد الشتاء وصقيعه .

(٢) أن يعجب فاعل كفى وعجبا تميز وتبا : أى خسرا وهلاكا . يقول : من العجب

---

(١) الكسع شدة المر ، يقال كسعه بكذا وكذا إذا جعله تابعاً له ومذهبا به والشهلة العجوز . والنجر : الحر . وكل شهر فى صميم الحر ناجر للعطش الذى يسببه

وَمَا الْفَرْقُ مَا بَيْنَ الْأَنَامِ وَبَيْنَهُ ... إِذَا حَذِرَ الْمَحْذُورَ وَاسْتَصْعَبَ الصَّعْبَا(١)
لِأَمْرٍ أَعَدَّتْهُ الْخِلَافَةُ لِلْعِدَا ... وَسَمَّتْهُ دُونَ الْعَالَمِ الصَّارِمَ الْعَضْبَا(٢)
وَلَمْ تَفْتَرِقْ عَنْهُ الْأَسِنَّةُ رَحْمَةً ... وَلَمْ يَتْرُكِ الشَّامَ الْأَعَادِي لَهُ حُبَّا(٣)
وَلَـٰكِنْ نَفَاهَا عَنْهُ غَيْرَ كَرِيمَةٍ ... كَرِيمُ الثَّنَا مَاسُبَّ قَطُّ وَلَا سَبَّا(٤)
وَجَيْشٌ يُثَنِّي كُلَّ طَوْدٍ كَأَنَّهُ ... خَرِيقُ رِيَاحٍ وَاجَهَتْ غُصُنًا رَطْبَا(٥)

أن يعجب الناس ممن بنى هذه القلعة وتبا لآرائهم حين لم يدركوا أنه يقدر على كل ما يقصد إليه فكيف يتعجبون من قادر يبلغ ما يريد ؟

(١) يقول : وأى فرق بينه وبين غيره وأية مزية يمتاز بها عما سواه إذا كان يخشى ما يخشاه غيره أو كان ممن يستصعب الصعب ؟ إنما ينفصل عن الأغيار ويفضلهم لأنه لا يخشى شيئاً ولا يتصعب عليه أمر مهما كان .

(٢) الصارم العضب : السيف القاطع يقول : إن الخلافة ماأعدته لأعدائها وسمته سيف الدولة دون غيره إلا لأمر عظيم ، وذلك أنه بلغ من الشجاعة والحزم والسياسة مبلغا لم يبلغه أحد .

(٣) يقول : إن أعداءه لم يحيموا عن لقائه وينهزموا أمامه رحمة له وإشفاقا ولم يجلوا عن الشام محبة له ورغبا ولكنهم فعلوا ذلك فرقا وفزعا وهذا المعنى كقول مروان بن أبي حفصة :

وما أحجم الأعداء عنك بقية ... عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا

(٤) قوله غير كريمة حال أى نفى هذه الأسنة عنه فى حال كونها غير كريمة كريم الثناء الخ والمراد نفى أصحابها يقول : لم تتفرق عنه أعداؤه ولا تركوا الشام حبا له وإنما نفاهم عن الشام أذلاء صاغرين أنه رجل كريم الثناء ماسبه أحد لأنه لا يفعل مايسب عليه ولا سب أحدا لأدبه وكرمه . والثناء ممدود ولكنه قصره هنا ضرورة اسم من أثنى عليه إذا وصفه بخير أو شر ولكنه غلب فى المدح ويروى الثنا وهو قريب من الثنا وقوله كريم الثنا تجريد على إضمار محذوف أى نفاها منه رجل كريم الثنا الخ .

(٥) قوله وجيش عطف على كريم الثنا . والطود الجبل العظيم والخريق الريح الشديدة كأنها الإعصار يقول : ونفاها عنه جيش إذا مر بجبل كان لكثرته كأنه جبل

كَأَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ خَافَتْ مُغَارَهُ فَمَدَّتْ عَلَيْهَا مِنْ عَجَاجَتِهِ حُجُبَا(١)

فَمَنْ كَانَ يُرْضِى اللُّؤْمَ وَالْكُفْرَ مُلْكُهُ فَهَذَا الَّذِى يُرْضِى الْمَكَارِمَ وَالرَّبَا(٢)

آخر فصار به الجبل جبلين وهذا معنى قوله : يثنى كل طود ، ثم قال : وهو مع هذه الكثرة والكثافة إذا لاقى عدواً كان لشدته كأنه عاصف من الريح لقى غصنا رطبا فعصف به وحطمه وعبارة الشراح أن هذا الجيش إذا مر بجبل شقه نصفين لكثرته له صلصلة تسمع كالريح الحريق إذا مرت بغصن رطب قال الشاعر :

كأن هُبوبَها خَفقانُ ريح خريقٍ بين أعـلامٍ طِوالِ

وهذه العبارة من الغموض بحيث تحتاج هى الأخرى إلى شرح . . .

(١) مغاره أى إغارته والعجاجة الغبار يقول : إن غبار هذا الجيش حجب السماء حتى لم تبد النجوم فكأن النجوم خافت إغارته عليها فاحتجبت عنه بذلك الغبار حتى لايراها ، وقد أخذ هذا المعنى الجيل الحيص بيص فقال :

نفى واضحَ التشريقِ عنْ أرضِ رَبْعِه دُخَانُ قُدُورٍ أَوْ عَجَاجَةُ مِصْدَمِ(١)

(٢) يقول : إذا كان هناك من الملوك من يرضى اللؤم والكفر بأن ينزل على حكمهما ويعمل ما يقتضيانه فهذا يرضى المكارم بجوده وسخائه ويرضى الله بجهاده فى سبيله . وقال الشريف بن الشجرى فى أماليه : الإشارة فى قوله فهذا إلى الملك لا إلى الممدوح لأمرين : أحدهما أنه لو أراد الممدوح لقال فأنت الذى ترضى لأن الخطاب فى مثل هذا أمدح والآخر أنه أشار إلى الملك لجعل الإرضاء له لأن الإرضاء الأول مسند إلى الملك فوجب أن يكون الإرضاء الثانى كذلك لأن وجه الإشارة إليه أن قوله ملكه قد دل عليه كما توجهت الإشارة فى الضمير إلى الصبر من قوله تعالى « ولمن صبر وغفر إن ذلك » لدلالة صبر عليه وكما عاد الضمير إلى الملك من قول القطامى :

هم الملوك وأبناء الملوك هم والآخذون به والساسة الأول

---

(١) رجل مصدم: محرب. من التصادم

وقال فيما كان يجرى بينهما من معاتبة مستعتبا(*) :

قال: وكان الوجه لأبى الطيب أن يقول فى المقابلة يرضى المكارم والإيمان ليقابل بالإيمان الكفر كما قابل بالمكارم اللؤم ولكن لما اضطرته القافية وضع لفظ الرب موضع الإيمان فكان ذلك فى غاية الحسن لأن المرادفى الحقيقة إرضاء أهله وإرضاء أهله تابع لإرضاء الله تعالى.

(*) مستعتبا : مسترضيا . قال الواحدى : لما انصرف أبو الطيب من مجلس سيف الدولة وقف له رجالة فى طريقه ليغتالوه فلما رآهم أبو الطيب ورأى السلاح تحت ثيابهم سل سيفه وجاءهم حتى اخترقهم فلم يقدموا عليه ونمى ذلك إلى أبى العشائر فأرسل عشرة من خاصته فوقفوا بباب سيف الدولة وجاء رسوله إلى أبى الطيب فسار إليه حتى قرب منهم فضرب أحدهم يده إلى عنان فرسه فسل أبو الطيب السيف فوثب الرجل أمامه وتقدمت فرسه الخيل وعبرت قنطرة كانت بين يديه واجترهم إلى الصحراء فأصاب أحدهم نحر فرسه بسهم فانتزع أبو الطيب السهم ورمى به واستقلت الفرس وتباعد بهم ليقطعهم عن إمداد إن كان لهم ثم كر عليهم بعد أن فنى النشاب فضرب أحدهم فقطع الوتر وبعض القوس وأسرع السيف إلى ذراعه فوقفوا عنه واشتغلوا بالمضروب فسار وتركهم فلما يئسوا منه قال له أحدهم فى آخر الليلة نحن غلمان أبى العشائر ولذلك قال : ومنتسب عندى إلى من أحبه . ثم عاد أبو الطيب إلى المدينة فى الليلة الثانية مستخفيا فأقام عند صديق له والمراسلة بينه وبين سيف الدولة وسيف الدولة ينكر أن يكون قد فعل ذلك أو أمر به وعند ذلك قال هذه الأبيات وجاء فى الصبح المنبى ما يأتى : قال أبو فراس الحمدانى يوماً لسيف الدولة : ان هذا المتشدق — يعنى المتنبى — كثير الإدلال عليك وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ويمكن أن تفرق مائتى دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره ، فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل فيه وكان المتنبى غائبا وبلغته القصة ولما حضر دخل على سيف الدولة وأنشده :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتباً　　　فداه الورى أمضى السيوف مضاربا

الأبيات — قال : فأطرق سيف الدولة ولم ينظر إليه كعادته — فخرج المتنبى من عنده متغيراً وحضر أبو فراس وجماعة من الشعراء فبالغوا فى الوقيعة فى حق المتنبى وانقطع أبو الطيب بعد ذلك ونظم القصيدة التى أولها

. . . .

* واحر قلباه ممن قلبه شبم *

ثم جاء وأنشدها وجعل يتظلم فيها من التقصير فى حقه بقوله :

مالى أكتم حباً قد برى جسدى　　　وتدعى حب سيف الدولة الأمم

إلى أن قال :

قد زرته وسيوف الهند مغمدة　　　وقد نظرت إليه والسيوف دم

فهم جماعة بقتله فى حضرة سيف الدولة لشدة إدلاله وإعراض سيف الدولة عنه فلما وصل فى إنشاده إلى قوله :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى　　　فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

قال أبو فراس قد مسخت قول دعبل وادعيته وهو :

ولست أرجو انتصافاً منك ماذرفت　　　عينى دموعاً وأنت الخصم والحكم

فقال المتنبى :

أعيذها نظرات منك صادقة　　　أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فعلم أبو فراس أنه يعنيه فقال ومن أنت يادعى كندة حتى تأخذ أعراض أهل الأمير فى مجلسه ؟ فاستمر المتنبى فى إنشاده ولم يرد عليه إلى أن قال :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا　　　بأننى خير من تسعى به قدم

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى　　　وأسمعت كلماتى من به صمم

فزاد ذلك أبا فراس غيظا وقال قد سرقت هذا من عمرو بن عروة بن العبد حيث يقول :

أوضحت من طرق الآداب ما اشتكلت　　　دهراً وأظهرت إغراباً وإبداعا

حتى فتحت بإعجاز خصصت به　　　للعمى والصم أبصاراً وأسماعا

ولما انتهى إلى قوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى　　　والسيف والرمح والقرطاس والقلم

. . . .

قال أبو فراس وماذا أبقيت للأمير إذا وصفت نفسك بكل هذا ؟ تمدح الأمير بما سرقته من كلام غيرك وتأخذ جوائز الأمير ؟ أما سرقت هذا من قول الهيثم بن الأسود النخعي الكوفي المعروف بابن العريان العثماني :

أعاذلتي كم مهمــــه قد قطعته   أليف وحوش سا كناً غير هائب
أنا ابن الفلا والطعن والضرب والسُّرى   وجرد المذاكى والقنا والقواضب
حليم وقور فى البـلاد وهيبتى   لها فى قلوب الناس بطش الكتائب

فقال المتنبي :

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره   إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فقال أبو فراس وهذا سرقته من قول معقل العجلى :

إذا لم أميز بين نور وظلمة   بعينىّ فالعينان زور وباطـل

ومثله قول محمد بن أحمد بن أبى مرة المكي :

إذا المرء لم يدرك بعينيه ما يرى   فما الفـرق بين العمى والبصراء

وضجر سيف الدولة من كثرة مناقشته فى هذه القصيدة وكثرة دعاويه فيها فضربه بالدواة التى بين يديه فقال المتنبي فى الحال :

إن كان سركم ما قال حاسدنا   فما لجرح إذا أرضـاكم ألم

قال أبو فراس وهذا أخذته من قول بشار :

إذا رضيتم بأن نجفَى وسركم   قول الوشاة فلا شكوى ولا ضجر

ومثله قول ابن الرومى :

إذا ما الفجائع أكسبننى   رضاك فما الدهر بالفاجـع

فلم يلتفت سيف الدولة إلى ماقال أبو فراس وأعجبه بيت المتنبى ورضى عنه فى الحال وأدناه إليه وقبل رأسه وأجازه بألف دينار ثم أردفها بألف أخرى فقال المتنبي :

جاءت دنانيرك مختومة   عاجـلة ألفاً على ألف
أشبهها فعلك فى فيلق   قلبته صـفا على صف

من القصيدة الميمية :

أَلاَ مَا لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ اليَوْمَ عَاتِباً ··· فَدَاهُ الوَرَى أَمْضَى السُّيُوفِ مَضَارِبَا(١)
وَمَالِي إِذَا مَا اشْتَقْتُ أَبْصَرْتُ دُونَهُ ··· تَنَائِفَ لاَ أَشْتَاقُهَا وَسَبَاسِبَا(٢)
وَقَدْ كَانَ يُدْنِي مَجْلِسِي مِنْ سَمَائِهِ ··· أُحَادِثُ فِيهَا بَدْرَهَا وَالكَوَاكِبَا(٣)
حَنَانَيْكَ مَسْئُولاً وَلَبَّيْكَ دَاعِياً ··· وَحَسْبِيَ مَوْهُوباً وَحَسْبُكَ وَاهِبَا(٤)

---

(١) فداه الورى : دعاء . وعاتبا حال ، وأمضى السيوف خبر مبتدإ محذوف : أى هو أمضى السيوف مضاربا ، أو تقول إنه منصوب على المدح ومضاربا تميز، ومضارب السيوف حدودها . يقول : مالسيف الدولة غضبان ؟ أى لم غضب ؟ وما سبب غضبه ؟ فلست أعرف لى ذنبا يوجب ذلك ، ثم دعا له ، ثم قال لا سيف أمضى منه مضربا .

(٢) التنائف جمع تنوفة وهى المفازة ، والسباسب جمع سبسب وهى الفلاة القفر . يقول : مالى إذا اشتقت إليه أبصرت بينى وبينه فلوات بعيدة مترامية الأطراف من عتبه وتجافيه واستيحاشه ؟

(٣) أراد بالسماء مجلسه ، جعله كالسماء رفعة له وجعله كالبدر ومن حوله من ندمائه وأهل مجلسه كالكواكب ؛ وعبارة الخطيب التبريزى : شبه مجلسه بالسماء وجعله بدراً وحوله كواكب ، فهو كقوله أيضاً :

أقلب منك طرفى فى سماء ··· وإن طلعت كواكبها خصالا

(٤) حنانيك كلمة موضوعة موضع المصدر استعملت مثناة كأنه حنان بعد حنان أى تحننا بعد تحنن ، ومثلها لبيك من لب به إذا لزمه ، وحسبي وحسبك خبران مبتدآها محذوفان : أى وأنت حسبي وأنا حسبك والمنصوبات كلها على الحال وقيل : على التميز . يقول : تحنن على تحننا بعد تحنن إذا كنت مسئولا ولك الإجابة إذا كنت داعيا وكفى بى موهوبا : أى إننى أشكر من يهبنى وأشيد بذكره وكفى بك واهبا ، أى : أنك أشرف الواهبين ولست أحتاج إلى واهب آخر بعد هباتك .

أَهـذَا جزَاءُ الصِّدْقِ إنْ كُنْتُ صادِقاً
أَهذَا جزَاءُ الْكِذْبِ إنْ كُنْتُ كَاذِباً(١)

وَإنْ كانَ ذَنْبِي كُلَّ ذَنْبٍ فَإنَّهُ
مَحَا الذَّنْبَ كُلَّ المَحْوِ مَنْ جاءَ تَائِباً(٢)

وقال وقد عرض على سيف الدولة سيوف مذهبة وفيها سيف غير مذهب فأمر بإذهابه :

أَحْسَنُ ما يُخْضَبُ الْحَدِيدُ بِهِ   وَخَاضِبَيْهِ النَّجِيعُ وَالْغَضَبُ(٣)

---

(١) قال الواحدى : أى إن كنت صادقا فى مديحك فليس ماتعاملنى به جـزاء لصدق . وإن كنت كاذبا فليس هذا جزاء الكاذبين ، لأنى إن كذبت فقد تجملت لك فى القول فتجمل لى أنت أيضا فى المعاملة .

(٢) يقول : إن كان ذنبي ذنبا ليس بعده ذنب فالتوبة من الذنب محو ليس بعده محو ؛ وهذا المعنى مأخوذ من الحديث الشريف : « التائب من الذنب كمن لاذنب له ».

(٣) الذى صح عن المتنبي : وخاضبيه — على التثنية — وهو عطف على ما : أى وأحسن خاضبيه ، والنجيع الدم . يقول : إن هناك خضابين الذهب والدم وأحسنهما الدم ، وهناك خاضبان الصناعة والغضب — لأن خضبه بالذهب لا يكون إلا بصناعة الصيقل ، وخضبه بالدم إنما يكون بسبب الغضب الباعث على الجلاد بالسيف — وأحسن الخاضبين الغضب ، وروى : وخاضبيه — بكسر الباء — على أنه جمع خاضب قال ابن جنى : وخاضبيه عطف على ما ، وجمع الخاضبين جمع تصحيح لأنه أراد من يعقل ومالا يعقل كقوله تعالى « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه » الآية : كأنه خلط الجميع وكنى عنهم بما يكنى به عمن يعقل : وذكر الغضب مجازا وأراد صاحبه . وقال ابن فورجه : خفض خاضبيه على القسم أى وحق خاضبيه وجعل الغضب خضابا للحديد لأنه يخضبه بالدم على سبيل التوسع وحسن ذلك لأن الغضب يحمر منه الإنسان ، وهذا كقولك أحسن ما يخضب الخدود الحمرة والخجل لأن الخجل يصبغ الخد أحمر ، فلما كانت الحمرة تابعة للخجل جمعهما تأكيدا ؛ كذلك لما كان النجيع تابعا للغضب جمعهما وهو يريد الدم وحده ويكون الغضب تأكيداً للنجيع : أتى به للقافية .

فَلَا تَشِينَنْهُ بِالنُّضَارِ فَمَا ... يَجْتَمِعُ الْمَاءُ فِيهِ وَالذَّهَبُ(١)

وتشكى سيف الدولة من دمل فقال فيه :

أَيَدْرِي مَا أَرَابَكَ مَنْ يُرِيبُ ... وَهَلْ تَرْقَى إِلَى الْفَلَكِ الْخُطُوبُ(٢)

وَجِسْمُكَ فَوْقَ هِمَّةِ كُلِّ دَاءٍ ... فَقُرْبُ أَقَلِّهَا مِنْهُ عَجِيبُ(٣)

يُجَمِّشُكَ الزَّمَانُ هَوًى وَحُبًّا ... وَقَدْ يُؤْذَى مِنَ الْمِقَةِ الْحَبِيبُ(٤)

وَكَيْفَ تُعِلُّكَ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ ... وَأَنْتَ لِعِلَّةِ الدُّنْيَا طَبِيبُ(٥)

---

(١) شانه عابه ، والنضار الذهب . يقول : لا تشنه بالأذهاب فإنه إذا أذهب — ولا يكون ذلك إلا بعد إحمائه — ذهبت سقايته أى ماؤه .

(٢) أرابه : أفزعه وأوقع به شيئاً يشك فى عاقبته : أخيراً يكون أم شراً ؟ يقول : هل يدرى هذا الدمل أى الناس قد أقلق ؟ وهذا استفهام تعجب واستعظام ، ثم قال متعجباً : وهل ترقى خطوب الدهر وأحداثه إلى الفلك ؟ جعله كالفلك لعلو قدره ورفعة شأنه .

(٣) الضمير فى أقلها يعود إلى كل داء : كما فى قوله تعالى « وكل فى فلك يسبحون » أو تقول إن الضمير يعود على المجموع المستفاد من المعنى : أى أقل الأدواء . يقول : إن جسمك لا ينبغى أن تنال منه الأدواء ، فمن العجب أن يقربك أقل الأدواء . وجعل للأدواء همة مجازا .

(٤) التجميش : شبه المغازلة والملاعبة بين الحبيبين ؛ قال أبو العباس ثعلب : قيل للمغازلة تجميش من الجمش وهو الكلام الخفى وقيل من الجمش الذى هو ضرب من الحلب لجشها بأطراف الأصابع ؛ والمقة : المحبة ، وأصلها ومق . يقول : إن الذى ألم بك إنما هو تجميش من الزمان لحبه إياك وتعلقه بك لأنك جماله وأمثل أهله ، وقد يكون الحب سبباً لإيذاء المحبوب .

(٥) يقول : أنت طبيب الدنيا الذى تشفى أدواءها فتقوم المعوج وتطرد الظلم والعيث والفساد فكيف تعلك وأنت طبيبها ؟

وَكَيْفَ تَنُوبُكَ الشَّكْوَى بِدَاءٍ   وَأَنْتَ الْمُسْتَغَاثُ لِمَا يَنُوبُ[١]
مَلِلْتَ مُقَامَ يَوْمٍ لَيْسَ فِيهِ   طِعَانٌ صَادِقٌ وَدَمٌ صَبِيبُ[٢]
وَأَنْتَ الْمَلْكُ تُمْرِضُهُ الْحَشَايَا   لِهِمَّتِهِ وَتَشْفِيهِ الْحُرُوبُ[٣]
وَمَا بِكَ غَيْرُ حُبِّكَ أَنْ تَرَاهَا   وَعِثْيَرُهَا لِأَرْجُلِهَا جَنِيبُ[٤]
مُجَلِّحَةً لَهَا أَرْضُ الْأَعَادِي   وَلِلسُّمْرِ الْمَنَاحِرُ وَالْجُنُوبُ[٥]

---

(١) يقول : وكيف تلم بك الشكوى وبك يستغاث مما ينوب من نوائب الدهر فتغيث وترفع الشكوى ؟

(٢) و (٣) مقام : مصدر ميمى بمعنى الإقامة ، يفتح ويضم . وصبيب : مصبوب ويقال ماء صبيب وصب كما تقول ماء سكب وماء غور ، قال دكين بن رجاء :

تَنْضَحُ ذِفْرَاهُ بِمَاءٍ صَبِّ   مِثْلِ الْكُحَيْلِ أو عَقِيدِ الرُّبِّ[١]

والحشايا جمع حشية معدولة عن المحشوة وهى الفرش المحشوة . يقول : لقد اعتدت الطعان والجلاد وسفك دم الأعداء ولبعد همتك لا ترى شفاء لك إلا فى ممارسة الحروب ولا آلم ولا أجلب للأدواء من الجلوس على الفرش المحشوة أو النوم عليها ومن أجل ذلك تمل الإقامة يوماً واحداً لا تخرج فيه للغزو ولا يكون فيه طعن صادق ودم مصبوب .

(٤) الضمير فى تراها للخيل وإن لم يجر لها ذكر لتقدم ما يدل عليها ؛ والعثير مثال درهم الغبار ، والجنيب الذى تقوده إلى جنبك . يقول : ما بك مرض غير نزاعك إلى ملاقاة العدو بخيل يتبع الغبار قوائمها كأنه جنيب تقوده ، أى أنك انقطعت عن ذلك فنال منك حبه كما ينال الحب من العاشق إذا انقطع عن رؤية معشوقه .

(٥) مجلحة حال ثانية للخيل والحال الأولى جملة وعثيرها لأرجلها جنيب ، ومجلحة

---

(١) الذفرى الموضع الذى يعرق من البعير خلف الأذن وهما ذفريان والكحيل النفط الذى تطلى به الإبل الجرباء ، ورب السمن والزيت : ثفله الأسود ، وعقيده ما غلظ منه .

فَقَرِّطْهَا الْأَعِنَّـــةَ رَاجِعَاتٍ فَإِنَّ بَعِيدَ مَا طَلَبَتْ قَرِيبُ[١]

أَذَا دَاءٌ هَفَا بُقْرَاطُ عَنْـــهُ فَلَمْ يُعْرَفْ لِصَـــاحِبِهِ ضَرِيبُ[٢]

بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْوُضَّاءِ تُمْسِى جُفُونِى تَحْتَ شَمْسٍ مَا تَغِيبُ[٣]

مصممة ماضية شديدة الأقدام ؛ ويروى مجلة ، وعلى هاتين الروايتين يكون لها خبرا مقدما عما بعده ؛ وروى الخوارزمى محللة أى قد أحلت لها أرض العدو فهى تطؤها ؛ والسمر الرماح ؛ والمناحر جمع منحر وهو موضع النحر من الحلق ؛ والجنوب جمع جنب وهو ما يلى الإبط إلى الكشح . يقول : وما بك مرض غير أن ترى الخيل على تلك الحال وأن تراها مصممة ماضية أحلت لها أرض الأعادى تطؤها وتجتاحها وأحلت للرماح حناجرهم وجنوبهم تنفذ فيها .

(١) الأعنة جمع عنان سير اللجام ، وقرط الفارس عنان فرسه أرخاه حتى يجعله فى قذاله للحضر[١] فيصير لأذنه بمنزلة القرط يقول : أرخ لها الأعنة لترجع إلى بلاد الأعادى فإنها لا تبعد عليها إذا طلبتها لسرعتها .

(٢) الهمزة للاستفهام المحض أو للتقرير ، وذا اسم إشارة ، وهفا زل . والضريب النظير ، وبقراط الطبيب اليونانى المشهور . يقول : أهذا الداء — داء ولوعه بالحرب إلى حد أن فيها شفاءه وأنه لو قعد عنها يوما ضجر ومرض — أهذا داء معضل لم يهتد إليه بقراط وليس لصاحبه نظير لأنه لا يعرف أحد يمرض لترك الحرب ، ويروى إذا داء على أن إذا أداة شرط وداء فاعل لفعل محذوف يؤخذ من لازم ما بعده أى إذا خفى داء أو إذا أعضل داء ونحو ذلك ؛ وقوله فلم يعرف جواب إذا . والفاء زائدة على مذهب البصريين ، فيكون الفعل بعدها مستقبلا . يقول: الداء الذى لم يذكره بقراط لا نظير لصاحبه بين الناس لأنه لو كان له نظير لسبق مثله فذكره الأطباء ويروى أذا داء — بجر داء — على أن الهمزة للنـــداء وذا بمعنى صاحب : أى يا صاحب الداء الذى هذه صفته .

(٣) الوضاء بضم الواو وتشديد الضاد : الشديد الوضاءة ؛ أى الحسن من صيغ المبالغة كحسان وكبار . يقول : إنه ينظر منه إلى شمس لا تغيب لأنه موجود ليل نهار بخلاف الشمس .

---

(١) القذال ما بين الأذنين من مؤخر الرأس ، والحضر : الجرى .

فَأَغْزُو مَنْ غَزَا وَبِهِ اقْتِدَارِى وَأَرْمِى مَنْ رَمَى وَبِهِ أُصِيبُ
وَلِلْحُسَّادِ عُذْرٌ أَنْ يَشِحُّوا عَلَى نَظَرِى إِلَيْهِ وَأَنْ يَذُوبُوا (١)
فَإِنِّى قَدْ وَصَلْتُ إِلَى مَكَانٍ عَلَيْهِ تَحْسُدُ الْحَدَقَ الْقُلُوبُ (٢)

وأحدث بنو كلاب حدثاً بنواحى بالس وسار سيف الدولة خلفهم وأبو الطيب معه فأدركهم بعد ليلة بين ماءين يعرفان بالغبارات والخرارات فأوقع بهم وملك الحريم فأبقى عليه فقال أبو الطيب بعد رجوعه من هذه الغزوة ـ وأنشده إياها فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة :

بِغَيْرِكَ رَاعِياً عَبِثَ الذِّئَابُ وَغَيْرَكَ صَارِماً ثَلَمَ الضِّرَابُ (٣)
وَتَمْلِكُ أَنْفُسَ الثَّقَلَيْنِ طُرًّا فَكَيْفَ تَحُوزُ أَنْفُسَهَا كِلَابُ (٤)
وَمَا تَرَكُوكَ مَعْصِيَةً وَلَكِنْ يُعَافُ الْوِرْدُ وَالْمَوْتُ الشَّرَابُ (٥)

---

(١) أن يشحوا أى فى أن يشحوا : أى أنى أعذر الحساد فى شحهم ؛ أى بخلهم بالنظر إليه .

(٢) يقول : إن القلوب تحسد العيون على نظر الممدوح فإذا حسده على ذلك أحد فهو معذور .

(٣) راعيا وصارما منصوبان على التمييز ، وأصل العبث اللعب ، ويقال عبث به إذا ابتذله واستباح حرمته ، والصارم السيف القاطع ، والضراب بمعنى المضاربة ؛ شبهه بالراعى وشبه هؤلاء الثائرين بالذئاب . يقول : إن الذئاب تعبث بغيرك فى حال رعيه وسياسته ويثلم الضراب غيرك فى حال قطعه : أى إذا كنت أنت الراعى لم تعبث الذئاب بسوامك وإذا كنت أنت الصارم لم يثلمك الضرب ؛ والمعنى إذا كنت أنت الحافظ لرعيتك لم يحم حولهم أحد بما يضرهم خوفا منك.

(٤) طرا أى جميعا نصب على الحال . يقول : أنت تملك أنفس الإنس والجن جميعا فكيف يكون لهذه القبيلة — قبيلة بنى كلاب — أن تملك أنفسها ؟

(٥) معصية نصب على أنه حال أو مفعول لأجله ، ويعاف يمقت ويتحاشى ، والورد ورود الماء والواو فى قوله والموت الشراب : للحال . يعتذر لهم يقول : إنما تركوك

طَلَبْتَهُمْ عَلَى الْأَمْوَاهِ حَتَّى ... تَخَوَّفَ أَنْ تُفَتِّشَهُ السَّحَابُ[١]

فَبِتَّ لَيَالِياً لَا نَوْمَ فِيهَا ... تَخُبُّ بِكَ الْمُسَوَّمَةُ الْعِرَابُ[٢]

يَهُزُّ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبَيْهِ ... كَمَا نَفَضَتْ جَنَاحَيْهَا الْعُقَابُ[٣]

وَتَسْأَلُ عَنْهُمُ الْفَلَوَاتِ حَتَّى ... أَجَابَكَ بَعْضُهَا وَهُمُ الْجَوَابُ[٤]

فَقَاتَلَ عَنْ حَرِيمِهِمِ وَفَرُّوا ... نَدَى كَفَّيْكَ وَالنَّسَبُ الْقُرَابُ[٥]

وانهزموا حين طلبتهم خوفا منك لا عصيانا وتمردا عليك لأنهم إذا ثبتوا أوردوا أنفسهم موارد التلف والهلاك .

(١) يقول : تتبعت أمواه البادية فى طلبهم حتى خشى السحاب أن تفتشه تطلبهم لديه لما فيه من الماء .

(٢) خب الفرس أسرع ؛ وقيل : الخبب أن ينقل الفرس أيامنه جميعاً وأياسره جميعاً وقيل هو أن يراوح بين يديه ورجليه وكذلك البعير ؛ والمسومة الخيل المعلمة بعلامات تعرف بها : وقال أبو زيد فى قوله تعالى « والخيل المسومة » : الخيل المسومة ، المرسلة وعليها ركبانها وهو من قولك سومت فلاناً إذا خليته وسومه ، أى وما يريد والعراب العربية . يقول تعدو بك الخيل العربية المعلمة فى طلبهم لاتعرف النوم .

(٣) العقاب طائر من الجوارح يطلق على الذكر والأنثى قوى المخالب له منقار أعقف . شبهه ـ وهو فى قلب الجيش والجيش حوله يضطرب للسير ـ بعقاب تهز جناحيها وتحركهما لدى طيرانها .

(٤) الفلوات الصحاوى . جعل طلبه إياهم فى الفلوات كالسؤال عنهم وجعل الظفر بهم كالجواب وليس ثم سؤال ولا جواب . وإنها لاستعارة رائعة . يقول : مازلت تتبع آثارهم فى الفلوات حتى أدركتهم فى إحداها .

(٥) ندى كفيك فاعل قاتل ، والواو من وفروا للحال : أى والحال أنهم قد فروا وأصل الحريم ما يحميه الرجل ويذود عنه ؛ والمراد هنا النساء ، والقراب القريب . يقول إنهم فروا أمامك وهربوا وظفرت بحريمهم فما كان منك إلا أن أحسنت إلى الحريم وحات دون سبيه وصنته فكأن جود كفيك والنسب القريب الذى بينك وبينهم قاتلا دون حريمهم .

وَحِفْظُكَ فِيهِم سَلَفَيْ مَعَدٍّ ... وَأَنَّهُمُ العَشَائِرُ وَالصِّحَابُ (١)
تُكَفْكِفُ عَنْهُمُ صُمَّ العَوَالِي ... وَقَدْ شَرِقَتْ بِظُعْنِهِمِ الشِّعَابُ (٢)
وَأُسْقِطَتِ الأَجِنَّةُ فِي الوَلَايَا ... وَأُجْهِضَتِ الحَوَائِلُ وَالسِّقَابُ (٣)
وَعَمْرٌو فِي مَيَامِنِهِمْ عُمُورٌ ... وَكَعْبٌ فِي مَيَاسِرِهِمْ كِعَابُ (٤)

---

(١) يقول : وقاتل عنهم حفظك فيهم سافى معد — يريد ربيعة ومضر لأن سيف الدولة ينتهى إلى ربيعة لأنه من تغلب وبنو كلاب ينتهون إلى مضر لأنهم من قيس وربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان — وأنهم عشائرك وأنهم أصحابك .

(٢) تكفكف تكف ، والصم الصلاب ، والعوالى صدور الرماح ، وشرقت غصت والظعن جمع ظعينة وهى المرأة ما دامت فى الهودج ثم كثر حتى قيل للمرأة ظعينة وإن لم تكن فى هودج . والشعاب جمع شعب وهو الطريق فى الجبل . يقول : إنك تكف عنهم الرماح إشفاقا عليهم وقد فروا وغصت بظعائنهم شعاب الجبال .

(٣) الأجنة جمع جنين وهو الولد فى بطن أمه ، والولايا جمع ولية وهى شبه البرذعة تحمل على سنام البعير أو كساء يجعل تحت البرذعة وقيل كل ماولى ظهر البعير من كساء أو غيره فهو ولية ، وأجهضت أسقطت والحوائل جمع حائل : الأنثى من أولاد الإبل ؛ والسقاب جمع سقب الذكر منها . يقول : لشدة فزعهم والهول الذى ألم بهم أجهضت النساء فى البراذع : أى على ظهور الإبل وأسقطت نوقهم أولادها ذكورا وإناثا .

(٤) عمرو قبيلة منهم ذهبت ذات اليمين وتفرقت فصارت عمورا وكعب ذهبت ذات اليسار وتفرقت فصارت كعابا . يريد أنهم لما انهزموا تفرقوا فصارت عمرو عموراً وكذلك كعباً ؛ وفى هذا المعنى يقول كعب بن مالك :

رَأيتُ الشَّعْبَ مِن كَعبٍ وكانوا ... من الشنآنِ قد صاروا كعابا (١)

---

(١) يريد أن آراءهم تفرقت وتضادت فكان كل ذى رأى منهم قبيلا على حدته فلذلك قال صاروا كعابا .

وَقَدْ خَذَلَتْ أَبُو بَكْرٍ بَنِيهَا ... وَخَاذَلَهَا قُرَيْظٌ وَالضِّبَابُ[١]

إِذَا مَا سِرْتَ فِي آثَارِ قَوْمٍ ... تَخَاذَلَتِ الْجَمَاجِمُ وَالرِّقَابُ[٢]

فَعُدْنَ كَمَا أُخِذْنَ مُكَرَّمَاتٍ ... عَلَيْهِنَّ الْقَلَائِدُ وَالْمَلَابُ[٣]

---

(١) هؤلاء بطون بنى كلاب ، وأنث أبا بكر على معنى القبيلة أو العشيرة . يقول : إنهم لما انهزموا خذل بعضهم بعضا لتشاغلهم بأرواحهم .

(٢) قال ابن جنى : التخاذل التأخر ، وإذا تأخرت الجمجمة والرقبة تأخر الإنسان : أى لما سرت وراءهم تأخرت رءوسهم لإدراكك إياهم وإن كانت فى الواقع قد أسرعت واستبعد العروضى هذا المعنى قال : تخاذل الجماجم والرقاب هو أن يضربها بالسيف فيقطعها ويفصل بينهما فتتساقط فكأن كل واحد منهما خذل صاحبه . وقال الواحدى : الذى أراه غير هذا ، يقول : إن الرءوس تتبرأ من الأعناق والأعناق تتبرأ منها خوفاً منك فلا يبقى بينهما تعاون . وهذا المعنى أراده الخوارزمى فقال :

وكنت إذا نهدت لغزو قوم ... وأوجبت السياسة أن يبيدوا

تبرأت الحياة إليك منهم ... وجاء إليك يعتذر الحديد

وطلقت الجماجم كل نحذ ... وأنكر صحبة العنق الوريد

وعبارة بعض الشراح إذا نوت رقابهم الثبات نوت جماجمهم التأخر لشدة خوفها من سيفك وكذلك عند العكس فيكاد كل فريق منهما يطلب صبغ الفرار بنفسه ويترك الآخر.

(٣) الملاب : ضرب من الطيب ، فارسى معرب . قال الجوهرى : كالخلوق ، قال جرير يهجو نساء بنى تميم :

ولو وَطِئَتْ نِسَاءُ بنى تميم ... عَلَى تِبْرَاكَ أَخْبَثْنَ الترابا

تَطَلَّى وهى سَيِّئَةُ الْمُعَرَّى ... بِصِنِّ الْوَبْرِ تَحْسَبُهُ مَلَابا[١]

يقول : لما ظفرت ببنى كلاب أخذت نساءهم إلى أما كنهن مكرمات مصونات من من الابتذال ، عليهن قلائدهن وطيبهن لم يضع منهن شىء فالضمير فى عدن وما بعده

---

(١) تبراك : ماء لبنى العنبر ، والصن بالكسر : بول الوبر يخثر للأدوية وهو منتن جداً .

يُثْنِنَكَ بِالَّذِى أَوْلَيْتَ شُكْراً   وَأَيْنَ مِنَ الَّذِى تُولِى الثَّوَابُ[1]
وَلَيْسَ مَصِيرُهُنَّ إِلَيْكَ شَيْناً   وَلاَ فِى صَوْنِهِنَّ لَدَيْكَ عَابُ[2]
وَلاَ فِى فَقْدِهِنَّ بَنِى كِلاَبٍ   إِذَا أَبْصَرْنَ غُرَّتَكَ اغْتِرَابُ[3]
وَكَيْفَ يَتِمُّ بَأْسُكَ فِى أُنَاسٍ   تُصِيبُهُمُ فَيُؤْلِمُكَ الْمُصَابُ[4]

يعود على النساء وإن يجر لهن ذكر اعتمادا على ما ذكر فى البيت : فقاتل عن حريمهم وفروا . . . البيت .

(١) أثابه كافأه ، وأوليت أنعمت . يقول : إنهن يشكرن لك ما أوليتهن من الإحسان ولكن إحسانك أعظم وأجل من أن يكافأ .

(٢) يقول : ليس فى مصيرهن إليك وصونهن لديك أى عيب لأنهن بإكرامك إياهن كأنهن عند أهلهن وأزواجهن .

(٣) الغرة الوجه . يقول : لاغربة عليهن إذا رأينك ؛ إذ لا فرق بينك وبين أزواجهن وأقاربهن .

(٤) البأس الشدة ؛ والمصاب مصدر ميمى بمعنى الإصابة . يقول لا يتم فيهم بأسك وشدتك لأنك حين تصيبهم بمكروه ينال ذلك منك فبإصابتك إياهم كأنك تصيب نفسك وهذا المعنى قديم تعاوره الشعراء كثيرا : قال قيس ابن زهير العبسى :

فإن أكُ قد بَرَدْتُ بهم غليلى   فلم أقطع بهم إلا بنانى

وقال الحماسى — الحارث بن وعلة الجرمى — :

قومى هُمُ قتلوا أُمَيمَ[1] أخى   فإذا رَمَيتُ يُصيبنى سَهمى
ولئن عفوتُ لأعفوَنْ جللا   ولئن سطوت لأوهِنَنْ عظمى

وقال العديل :

وإنى وإن عاديتهم أو جفوتهم   لتألم مما عض أكبادهم كبدى

وقال النميرى :

فإنك — حين تبلغهم أذاة وإن ظلموا — لمحترق الضمير

---

(١) أميم : مرخم أميمة ، وهو منادى وأخى مفعول قتلوا .

تَرَفَّقْ أيُّهَـــا المَوْلَى عَلَيْهِمْ　　فَإِنَّ الرِّفْقَ بِالْجَـــانِي عِتَابُ(١)
وَإِنَّهُمُ عَبِيدُكَ حَيْثُ كَانُوا　　إِذَا تَدْعُو لِحَـــادِثَةٍ أَجَابُوا(٢)
وَعَيْنُ الْمُخْطِئِينَ هُمُ وَلَيْسُوا　　بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فَتَابُوا(٣)

---

(١) يقول : ارفق بهم وإن جنوا فإن من رفق بمن جنى عليه كان ذلك الرفق عتاباً لأن الصفح عن الجانى يجعله عبداً لك * وما قتل الأحرار كالعفو عنهم *

(٢) و (٣) الخطأ والخطاء ضد الصواب ، تقول أخطأ يخطىء إذا سلك سبيل الخطأ ؛ أما الخطأ بكسر الخاء فهو الذنب ؛ تقول خطأ يخطأ خطأ وخطأة كفعلة ؛ والاسم الخطيئة كفعيلة ؛ ولك أن تشدد الياء لأن كل ياء ساكنة قبلها كسرة ، أوواو ساكنة قبلها ضمة وهما زائدتان للمد لا للألحاق ولا هما من نفس الكلمة فإنك تقلب الهمزة بعد الواو واوا وبعد الياء ياء وتدغم وتقول فى مقروء مقرو وفى خبىء خبى بتشديد الواو والياء : وجمع الخطيئة خطايا . وكأن الأصل خطائىء بهمزتين على فعائل فلما اجتمعت الهمزتان قلبت الثانية ياء لأن قبلها كسرة واستثقلت والجمع ثقيل وهو مع ذلك معتل فقلبت الياء ألفاً ثم قلبت الهمزة الأولى ياء لخفائها بين الألفين . وقال أبو عبيدة : خطىء وأخطأ بمعنى واحد ، وهما لغتان ؛ قال امرؤ القيس :

يا لهفَ هِنْدٍ إذْ خَطِئْن كاهلا　　القاتلين الملِكَ الحلاحِـــلا(١)

وقال غيره : المخطىء من أراد الصواب فصار إلى غيره والخاطىء من تعمد لما لا ينبغى وتخاطأه وتخطأه أى أخطأه ؛ قال أوفى بن مطر المازنى :

ألا أبلغا خُلّتِي جابراً　　بأنّ خليلكَ لم يُقْتَلِ(٢)
تخطّأتِ النّبلُ أحْشاءهُ　　وأُخِّرَ يَوْمِي فلم يَعْجَـــلِ

---

(١) خطئن أى أخطأن ، يريد الخيل وإن لم يجر لها ذكر على حد قوله تعالى « حتى توارت بالحجاب » وهند هذه امرأة أبيه لم تلد لأبيه حجر شيئا ، فخلف عليها امرأ القيس وخرج فى طلب بنى كاهل فأوقع بحى من بنى كنانة وهو يظن أنهم من كاهل ، وكاهل بطن من بنى أسد ، والحلاحل السيد فى عشيرته الشجاع الضخم المروءة .

(٢) الخلة الصديق ، الذكر والأنثى والواحد والجمع فى ذلك سواء .

وَأَنْتَ حَيَاتُهُمْ غَضِبَتْ عَلَيْهِمْ ... وَهَجْرُ حَيَاتِهِمْ لَهُمُ عِقَابُ(١)
وَمَا جَهِلَتْ أَيَادِيَكَ الْبَوَادِى ... وَلَكِنْ رُبَّمَا خَفِىَ الصَّوَابُ(٢)
وَكَمْ ذَنْبٍ مُوَلِّدُهُ دَلَالٌ ... وَكَمْ بُعْدٍ مُوَلِّدُهُ اقْتِرَابُ(٣)
وَجُرْمٍ جَرَّهُ سُفَهَاءُ قَوْمٍ ... وَحَلَّ بِغَيْرِ جَارِمِهِ الْعَذَابُ(٤)

يقول : إن كانوا مخطئين فليسوا أول من أذنب وقد تابوا والتوبة تجب « تقطع » ما قبلها وهم عبيدك حيث كانوا إذا دعوتهم للموت أجابوك . يعتذر عنهم إلى سيف الدولة .

(١) يقول : أنت الذى بك بقاؤهم فإذا غضبت عليهم وهجرتهم فقد هجرتهم الحياة ولا عقاب أكثر من هجر الحياة .

(٢) أياديك نعمك والبوادى خلاف المدن ؛ يريد أهل البوادى ، والبوادى : فاعل جهلت ؛ وأياديك مفعوله ، وقال العكبرى : سألت شيخنا أبا محمد عبد المنعم النحوى عند قراءتى عليه عن هذا البيت وقلت له يجوز أن يكون البوادى نعتا للأيادى والبوادى فى نصف البيت ، فكأنه عنى الوقف وهو موضع وقف ، كقولك أجبت الداعى ؛ وقد يوقف على قوله تعالى « يومئذ يتبعون الداعى » بالسكون ، ويكون فاعل جهلت مضمراً فيها . فقال لى : أنت مقرئ وقد قست ، ومع هذا أنت حفى(١) ، فصوب ما قلت ؛ ويكون البوادى على هذا : السابقات التى بدت إليهم . يقول : إنهم لم يجهلوا بعصيانك سوابق نعمك ، ولكن قد يخفى الصواب على المرء فيأتى غيره .

(٣) يقول : قد يتولد الذنب من الدلال فيأتى المدل بالذنب يظنه دلالا ، وقد يكون البعد سببه القرب . يعتذر عنهم : أى أنهم أدلوا عليك لفرط إحسانك إليهم فأتوا فى ذلك بما صار ذنباً وجناية منهم .

(٤) الجرم : الذنب ؛ والسفه : خفة الحلم أو نقيضه . يقول : وكم جرم جناه سفيه فنزل العذاب بغيره ؟ وهذا المعنى قد طرقه الشعراء كثيراً قال :

رأيت الحرب يجنيها رجالٌ ... ويصلَى حرَّها قوم براء

وقال :

جنى ابن عمك ذنباً فابتليت به ... إن الفتى بابن عم السوء مأخوذ

---

(١) لعله يريد الحفى بمعنى المستقصى فى السؤال .

فَإِنْ هَابُوا بِجُرْمِهِمِ عَلِيًّا فَقَدْ يَرْجُو عَلِيًّا مَنْ يَهَابُ[1]
وَإِنْ يَكُ سَيْفَ دَوْلَةِ غَيْرِ قَيْسٍ فَمِنْهُ جُلُودُ قَيْسٍ وَالثِّيَابُ[2]
وَتَحْتَ رَبَابِهِ نَبَتُوا وَأَثُّوا وَفِى أَيَّامِهِ كَثُرُوا وَطَابُوا[3]

وقال النابغة :

وَحملتنى ذنبَ امرىءٍ وتركته كذى العرِّ يُكوىَ غيره وهو راتع[1]

وقال البحترى :

نصد حياء أن نراكَ بأعين جنى الذنبَ عاصيها فليم مطيعها

وأروع الجميع — ولله المثل الأعلى — قوله جل شأنه : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

(١) على : اسم سيف الدولة . يقول: إن خافوه بسبب جرمهم فإنه يرجى العفو عنده كما يهاب ، لأنه جواد مهيب .

(٢) يقول : إن يك سيف الدولة من تغلب لا من قيس فهو ولى نعمتهم ؛ لأن جلودهم نبتت بإحسانه إليهم ، واكتست بما خلع عليهم من ثياب .

(٣) الرباب : غيم يضرب إلى السواد ؛ يرى كأنه دون السحاب ؛ قال عبد الرحمن ابن حسان :

كأن الرَّبَابَ دُوينَ السحابِ نَعامٌ تَعلقَ بالأرْجـــل

وأثوا : تقووا وكثروا ، من أث النبات : كثر والتف ، وهو أثيث ، ويقال كذلك شعر أثيث ، وامرأة أثيثة : كثيرة اللحم ، ونسوة أثائث ، قال رؤبة :

ومِنْ هَوَاىَ الرُّجُــحُ الأثائثُ تُمِيلها أعجـــازُها الأواعث

« الرجح : جمع رجاح ، وهى الثقيلة العجيزة ، والأواعث : اللينات : فكأن الأصابع تسوخ فيها من لينها وكثرة لحمها . يقول : إنهم نشأوا فى نعمته وقووا وعزوا

---

(٢) العر : قروح مثل القوباء ، تخرج بالإبل متفرقة فى مشافرها وقوائمها يسيل منها مثل الماء الأصفر فتكوى الصحاح لئلا تعديها المراض .

وَتَحْتَ لِوَائِهِ ضَرَبُوا الأعادِى وَذَلَّ لَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ الصِّعَابُ(١)
وَلَوْ غَيْرُ الْأَمِيرِ غَزَا كِلاَبًا ثَنَاهُ عَنْ شُمُوسِهِمِ ضَبَابُ(٢)
وَلاَقَى دُونَ ثَايِهِم طِعَانًا يُلاَقِى عِنْدَهُ الذِّئْبَ الْغُرَابُ(٣)
وَخَيْلاً تَغْتَذِى رِيحَ الْمَوَامِى وَيَكْفِيهَا مِنَ الْمَاءِ السَّرَابُ(٤)

بإحسانه كالنبات الذى نما بماء السحاب ، فاستعار السحاب للاحسان ، والنبات للمحسن إليه .

(١) يقول : بانتسابهم إليه وإلى خدمته تمكنوا من أعدائهم وانقاد لهم من العرب من لا ينقاد لأحد :

(٢) قال الواحدى : يذكر قوتهم وشوكتهم ، وأن غير سيف الدولة لو أتاهم لما ظفر بهم ، وكنى بالشموس عن النساء ، وبالضباب عن المحاماة دونهم : لأن الضباب يستر الشمس ويحول دون النظر إليها . قال : ويجوز أن يكون هذا مثلا معناه لو غزاهم غيره لكان له ما يشغله بما يلق قبل الوصول إليهم وإباحة حريمهم : أى أنه كان يستقبله من قليلهم ما يمنعه من الوصول إلى الذين هم أكثر منهم ؛ فجعل الضباب مثلا للرعاع ، والشموس مثلا للسادة ، وقال ابن الإفليلى : يريد شموس كل يوم يقاتلهم فيه .

(٣) ولاقى : عطف على ثناه ، والثاى : جمع ثاية : كآى وآية ، وهى حجارة تجعل حول البيت يأوى إليها الراعى ليلا ، وفيها مبارك الإبل ومرابض الغنم . يقول : لو غزاهم غيره لثناه ضباب عن شموسهم وللاقى دون وصوله إلى هذه الحجارة حربا يكثر فيها القتلى حتى يجتمع عليهم الذئب والغراب طلبا للحوم القتلى ، فكيف له بالوصول إلى استباحة حريمهم ؟ وقد تورك بعضهم على المتنبى أن الذئب لا يأكل إلا ما افترسه، بخلاف الضبع والكلب ؛ وأنشد فى ذلك :

وَلكل سيدٍ معشرٍ فى قومه دُعَرٌ يُدَنِّسُ عِرضَه ويعيب
لولا سواه تجزرت أوصاله عُرجُ الضباع وصَدّ عنه الذيب

« الدعر : الخائن الذى يعيب أصحابه » .

(٤) وخيلا : عطف على طعانا . والموامى : جمع موماة ، وهى المفازة يقول : وكان يلاقى خيلا تعودت قطع المفاوز على غير علف وماء حتى كأن غذاءها الريح وماءها السراب لأنها عراب مضمرة معودة قلة العلف والماء .

وَلَكِنْ رَبُّهُمْ أَسْرَى إِلَيْهِمْ ‏ ‏ ‏ فَمَا نَفَعَ الْوُقُوفُ وَلاَ الذَّهَابُ (١)

وَلاَ لَيْلٌ أَجَنَّ وَلاَ نَهَارٌ ‏ ‏ ‏ وَلاَ خَيْلٌ حَمَلْنَ وَلاَ رِكَابُ (٢)

رَمَيْتَهُمُ بِبَحْرٍ مِنْ حَدِيدٍ ‏ ‏ ‏ لَهُ فِي الْبَرِّ خَلْفَهُمُ عُبَابُ (٣)

فَمَسَّاهُمْ وَبُسْطُهُمُ حَرِيرٌ ‏ ‏ ‏ وَصَبَّحَهُمْ وَبُسْطُهُمُ تُرَابُ (٤)

وَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاةٌ ‏ ‏ ‏ كَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ خِضَابُ (٥)

بَنُو قَتْلَى أَبِيكَ بِأَرْضِ نَجْدٍ ‏ ‏ ‏ وَمَنْ أَبْقَى وَأَبْقَتْهُ الْحِرَابُ (٦)

عَفَا عَنْهُمْ وَأَعْتَقَهُمْ صِغَارًا ‏ ‏ ‏ وَفِي أَعْنَاقِ أَكْثَرِهِمْ سِخَابُ (٧)

---

(١) رب كل شيء : مالكه ، ويقال أسرى إذا سار ليلا ، وسرى إذا سار نهاراً وقيل هما لغتان تستعملان بمعنى واحد . يقول : إنك سرت إليهم فما نفعهم الوقوف في ديارهم للذود والدفاع ، ولا الذهاب للهرب ، لأنهم إن وقفوا قتلوا ، وإن هربو أدركوا.

(٢) الركاب : الإبل . يقول : ولم ينفعهم ليل يستترون تحته ، ولا نهار يكاشفونك فيه ، ولا خيل وإبل تحملهم للهرب ، فهم لهيبتك تلددوا حائرين حين طلبتهم فلم ينج بهم شيء من ذلك .

(٣) العباب : معظم الماء وكثرته ، جعل جيشه بحراً من حديد لكثرة لابسي الحديد فيه . ثم جعلهم يموجون خلفهم في سيرهم ، فكأنهم بحر يمد عبابه وراءهم .

(٤) يقول : طرقهم ليلا وهم يفترشون الحرير آمنون فبيتهم وقتلهم حتى جدلوا على على الأرض وأصبحوا وفرشهم التراب بعد الحرير ؛ وقال المعرى : يريد نهبهم فلم يترك لهم شيئاً يقعدون عليه سوى التراب .

(٥) يقول : وصار الرجال كالنساء ، ذلا واستخذاء وانقيادا .

(٦) بنو : خبر مبتدأ محذوف : أي هم بنو قتلى أبيك ؛ ومن أبقى : عطف عليه ، وفاعل أبقى : ضمير يعود على أبيك : يشير إلى ما كان من أبي الهيجاء والد سيف الدولة مع بني كلاب ، وذلك أنه لما هم بالحج كان أوقع بهم في أرض نجد وفتك بهم . فهؤلاء هم أبناء أولئك وبقيتهم .

(٧) السخاب : قلادة من قرنفل ونحوه ليس فيها من الجوهر شيء يلبسها الصبيان،

وَكُلُّكُمُ أَتَى مَأْتَى أَبِيهِ فَكُلٌّ فَعَالِ كُلِّكُمُ عُجَابُ[١]
كَذَا فَلْيَسْرِ مَنْ طَلَبَ الْأَعَادِي وَمِثْلَ سُرَاكَ فَلْيَكُنِ الطِّلَابُ[٢]

* * *

وجمعها سخب . يقول : إن أباك قتل آباءهم وعفا عن الأبناء فأعتقهم وهم صغار يلبسون السخاب فعاشوا عتقاء سيفه .

(١) يقول : كلا كما فعل فعل أبيه ، فهم تقيلوا آباءهم فى التمرد والعصيان وأنت أخذت أخذ أبيك فى العفو والغفران ؛ ففعلهم حين عصوك عجيب ، إذ لم يعتبروا بآبائهم ؛ وفعلك أيضاً عجيب إذ صفحت عنهم وأبقيت على باقيهم وأتى مأتى فلان أى فعل فعله وأخذ إخذه ، والفعال — بفتح الفاء — فعل الواحد خاصة فى الخير والشر ، يقال فلان كريم الفعال ، وفلان لئيم الفعال ، ولك أن تكسر الفاء على أنه جمع فعل .

(٢) يقول : مثل هذا الفعل فليفعل من يطلب الأعادى ، وليكن طلابه مثل هذا السرى الذى سرت حتى بلغت مرادك ، فقوله كذا فى موضع نصب بقوله فليسر ، والفاء إنما تعطف أو تكون جوابا . فإذا تقدم المفعول أو الخبر جاءوا بها ليعلموا أن الخبر وضع فى غير موضعه ، وبعض الكوفيين تأول أخاك فاضرب : أنه منصوب بفعل مضمر تقديره اقصد أخاك فاضرب ، وهذا يحسن فى المفعول ، وأماق الخبر فيبعد . . وقوله مثل سراك نصب لأنه خبر فليكن .

وقال يرثى أخت سيف الدولة ، وقد توفيت بميافارقين وورد خبرها إلى الكوفة فكتب أبو الطيب بهذه المرثية إليه من الكوفة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبِ   كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ (١)
أُجِلُّ قَدْرَكِ أَنْ تُسْمَىْ مُؤَبَّنَةً   وَمَنْ يَصِفْكِ فَقَدْ سَمَّاكِ لِلْعَرَبِ (٢)
لاَ يَمْلِكُ الطَّرِبُ الْمَحْزُونُ مَنْطِقَهُ   وَدَمْعَهُ وَهُمَا فِى قَبْضَةِ الطَّرَبِ (٣)

---

(١) نصب كناية على المصدر ، كأنه قال كنيت كناية . يقول : ياأخت سيف الدولة ويابنت أبي الهيجاء ، وهو المراد بأشرف النسب ، فكنى عن ذلك ، يريد أن نسبها من أشرف الأنساب ، فاذا كنيت بهما عرفت لأنهما خير الناس : فاذا قلت ياأخت خير أخ ويابنت خير أب عرفت .

(٢) مؤبنة : حال من الياء فى تسمى : أى حال كونك مؤبنة : أى مرثية من التأبين ، وهو الثناء على الميت . يقول : أنت أجل من أن أعرفك باسمك بل وصفك يعرفك بما فيك من المحاسن والمحامد التى ليست فى غيرك ، وهذا يغنى عن تسميتك ، كما قال أبو نواس :

فهى إذا سُمِّيَتْ لقد وُصِفَتْ   فيجمعُ الاسمُ مَعْنَيَين مَعاً

(٣) الطرب : صفة من الطرب ، وهو خفة تعترى عند شدة الفرح أو الحزن والهم. قال النابغة الجعدى فى الهم :

سألتنى أمتى عن جارتى   وإذا ما عَيَّ ذو اللبِّ سألْ
سألتنى عَنْ أناسٍ هَلَكوا   شَرِبَ الدهرُ عليهم وأكلْ
وأرانى طَـــرِباً فى إثرِهم   طَرَبَ الواله أو كالمختبلْ

« الواله : الثاكل ، والمختبل : الذى اختبل عقله : أى جن » يقول المتنبى : من استخفه الحزن غلبه على لسانه ودمعه فلا يملكهما ، لأنهما إذ ذاك يكونان فى قبضة الطرب أى الحزن — يصرفهما كما يشاء .

غَدَرْتَ يا مَوْتُ كَمْ أَفْنَيْتَ مِنْ عَدَدٍ
بِمَنْ أَصَبْتَ وَكَمْ أَسْكَتَّ مِنْ لَجَبِ (١)
وَكَمْ صَحِبْتَ أَخاهَا فى مُنَازَلَةٍ وَكَمْ سَأَلْتَ فَلَمْ يَبْخَلْ وَلَمْ تَخِبِ (٢)
طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جاءَنى خَبَرٌ فَزِعْتُ فِيهِ بِآمالِي إِلَى الْكَذِبِ (٣)
حَتَّى إذا لَمْ يَدَعْ لِي صِدْقُهُ أَمَلاً شَرِقْتُ بِالدَّمْعِ حَتَّى كادَ يَشْرَقُ بِي (٤)

---

(١) اللجب : الضجيج واختلاط الأصوات ؛ وجيش لجب عرمرم : أى ذوجلبة وكثرة ، وبحر ذو لجب إذاسمع صوت أمواجه ، وأصله كل صوت عال يقول : غدرت يا موت بسيف الدولة إذ أخذت أخته وأنت تفى به العدد الكثير وتهلك الجيوش وتسكت ضجيجهم ، وإذا كان عونك على الإفناء كان من حقك أن ترعى ذمته ولاتفجعه بأخته ، وقيل معنى البيت : أنه مات بموتها خلق كثير ، وسكت لجبهم وترددهم فى خدمتها ، أو أنهم سقطوا عن برها وصلاتها ، فكأنهم ماتوا . قال الواحدى : وجه غدر الموت أنه أظهر إهلاك شخص وأضمر فيه إهلاك عالم كان يحسن إليهم فهلكوا بهلاكه . هذا معنى : كم أفنيت من عدد ؛ وهذا كقول القائل :

وما كان قيس هُلْكُهُ هلكَ واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وكقول ابن المقفع :

وأنت تموت وحدك ليس يدرِى بموتك لا الصغير ولا الكبير
وتقتلنى فتقتل بى كريماً يموت بموته بشر كثير

(٢) يقول : وكم صحبت أخاها يا موت فى غزواته وطلبت إليه أن يمكنك من إهلاك من أردت فأجابك إلى ذلك ومكنك بسيفه ممن أردت ؟ وهذا كقوله الآتى فى قافية اللام :

شريك المنايا والنفوس غنيمة فكل ممات لم يمته غلول

(٣) الجزيرة : ما بين دجلة والفرات ، وخبر تنازعه كل من طوى وجاءنى يقول : لما جاءنى هذا النعى وطوى الجزيرة حتى ورد على فى الكوفة رجوت أن يكون كذبا وتعللت بهذا الرجاء .

(٤) يقول : حتى إذا صح الخبر ولم يبق رجاء فى أن يكون كذبا غصصت بالدمع

تَعَـثَّرَتْ بِهِ فِى الْأَفْوَاهِ أَلْسُنُهَا
وَالْبُرْدُ فِى الطُّرْقِ وَالْأَقْلَامُ فِى الْكُتُبِ (١)

كَأَنَّ فَعْلَةَ لَمْ تَمْلَأْ مَوَاكِبُهَا ... دِيَارَ بَكْرٍ وَلَمْ تَخْلَعْ وَلَمْ تَهَبِ (٢)

وَلَمْ تَرُدَّ حَيَاةً بَعْدَ تَوْلِيَةٍ ... وَلَمْ تُغِثْ دَاعِياً بِالْوَيْلِ وَالْحَرَبِ (٣)

أَرَى الْعِرَاقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ مُذْ نُعِيَتْ ... فَكَيْفَ لَيْلُ فَتَى الْفِتْيَانِ فِى حَلَبِ (٤)

يَظُنُّ أَنَّ فُؤَادِى غَيْرُ مُلْتَهِبٍ ... وَأَنَّ دَمْعَ جُفُونِى غَيْرُ مُنْسَكِبِ (٥)

لغلبة البكاء وكثرة الدموع حتى كاد الدمع يشرق بى : أى حتى صرت بالقياس إلى الدموع كالشىء الذى يغص به فى القلة . والشرق بالدمع أن يقطع الانتحاب نفسه . ومحصل المعنى : كاد الدمع لإحاطته بى أن يكون كأنه غص بى .

(١) لم يلحق الباء فى به بالهاء واكتفى بالكسرة ضرورة ، والبرد جمع بريد — وسكن الراء على لغة تميم — والبريد : كلمة فارسية أصلها بريده دم : أى محذوف الذنب لأن بغال البريد كانت محذوفة الأذناب كالعلامة لها ، ثم سمى الرسول الذى يركب دواب البريد بريداً . يقول : لهول هذا الخبر تلجلجت به الألسنة فى الأفواه ، وتعثرت الرسل الحاملة له فى الطرق ، ورجفت أيدى الكتاب فى كتابته .

(٢) فعلة : كناية عن اسم المرثية ؛ وهو خولة . يقول : مضت فكأنها لم تكن تلك التى ملأت جيوشها ديار بكر ، والتى كانت تهب وكانت تخلع فانطوى ذلك بموتها .

(٣) بالويل : متعلق بداعيا ؛ وتولية : أى ذهاب وإدبار : مصدر ولى ، والويل : الهلاك ، والحرب : ذهاب المال ، حرب الرجل ، سلب ماله ، والداعى بالويل والحرب الذى يصيح : واويلاه ، واحرباه . يقول : ولقد كانت ترد حياة الملهوف بالإغاثة والإجارة والبذل ، وتغيث من يدعوها إذا دعاها بالويل والحرب .

(٤) يقول : طال ليل أهل العراق مذ أتاهم نعيها حزنا عليها ، فكيف ليل أخيها سيف الدولة فى حلب ؟ قال العكبرى : ليس لهذا البيت معنى طائل ، وفيه سماجة . . .

(٥) أراد : أيظن ، فحذف حرف الاستفهام ، والضمير لسيف الدولة ، ويروى بالتاء على الخطاب . يقول : أتظن أنى غير حزين .

بَلَى وَحُرْمَةِ مَنْ كَانَتْ مُرَاعِيَةً ... لِحُرْمَةِ المَجْدِ وَالقُصَّادِ وَالأَدَبِ (١)
وَمَنْ مَضَتْ غَيْرَ مَوْرُوثٍ خَلَائِقُهَا ... وَإِنْ مَضَتْ يَدُهَا مَوْرُوثَةَ النَّشَبِ (٢)
وَهَمُّهَا فِى العُلَى وَالمَجْدِ نَاشِئَةً ... وَهَمُّ أَتْرَابِهَا فِى اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ (٣)
يَعْلَمْنَ حِينَ تُحَيَّا حُسْنَ مَبْسِمِهَا ... وَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللهُ بِالشَّنَبِ (٤)

---

(١) بلى : حرف جواب تختص بالنفى وتفيد إبطاله سواء كان مجردا أم مقرونا بالاستفهام . يقول : بلى فؤادى ملتهب ودمعى منسكب بحق حرمة من كانت تراعى حرمة هذه الأمور ، فقوله وحرمة الخ : قسم .

(٢) ومن مضت : عطف على من كانت ـ فى البيت السابق ـ والخلائق : جمع خليقة بمعنى الخلق ، والنشب : المال . يقول : وبحرمة من ماتت ولم تورث أخلاقها ، لأنه لا يوجد بعدها من يشبهها فيها وإن كان مالها موروثا

(٣) أترابها : لداتها ونظيراتها فى العمر : جمع ترب ـ بكسر التاء ـ للمذكر والمؤنث. يقول : همها منذ صباها منصب فى العلا وتدبير الملك بينما أقرانها همهن فى اللهو واللعب ، وهذا من قول حمزة بن بيض :

فهمكُ فيها جسام الأمور ... وهمّ لداتك أن يلعبوا

(٤) الشنب : قيل هو تحزيز أطراف الأسنان ، وقيل صفاؤها ونقاؤها وقيل تفليجها ، وقيل طيب نكهتها ، وقال الجرمى : سمعت الأصمعى يقول : الشنب برد الفم والأسنان ، فقلت إن أصحابنا يقولون هو حدتها حين تطلع ، فيراد بذلك حداثتها وطراوتها لأنها إذا أتت عليها السنون احتكت ، فقال:ماهو إلا بردها ، وقول ذى الرمة

لمياء فى شَفَتيها حُوّة لَعَسٌ ... وَفى اللثاتِ وَفى أنيابها شَنَبُ

يؤيد قول الأصمعى ، لأن اللثة لا تكون فيها حدة . يقول : إن أترابها إذا جئن إليها رأين حسن مبسمها ولا يعلم ما وراء شفتيها من الشنب إلا الله لأنه لم يذقه أحد ، قال الواحدى : وأساء فى ذكر حسن مبسم أخت ملك وليس من العادة ذكر جمال النساء فى مراثيهن . قال ابن جنى : كان المتنبى يتجاسر فى ألفاظه جدا وفى معنى بيت المتنبى

لا والذى تَسْجُدُ الجِباهُ له ... مالِى بِمَا ضَمّ ثَوْبُها خَبَرُ
وَلا بفيها ولا هممت بها ... ما كان إلا الحديثُ والنظرُ

مَسَرَّةٌ فى قُلوبِ الطِّيبِ مَفْرِقُهَا وَحَسْرَةٌ فى قُلوبِ الْبَيْضِ وَالْيَلَبِ (١)
إِذَا رَأَى وَرَآهَا رَأْسَ لَابِسِهِ رَأَى الْمَقَانِعَ أَعْلَى مِنْهُ فى الرُّتَبِ (٢)

---

(١) مفرقها : موضع افتراق الشعر من الرأس ؛ وهو مبتدأ خبره مسرة قال ابن جنى: وحسرة خبر إما عن مفرقها أو عنها تقديره : المبتة حسرة فى قلوب البيض واليلب إلى أن قال : والأجود أن يجعل مفرقها خبر المسرة ، أو مسرة خبره ، والجملة خبر مبتدأ محذوف : أى وهى مسرة فى قلوب الطيب مفرقها ، وهى حسرة فى قلوب البيض واليلب، واليلب : الدروع اليمانية تتخذ من الجلود ، أو جلود يخرز بعضها إلى بعض تلبس على الرءوس خاصة تحت البيض ؛ واحدتها يلبة ، قال عمرو بن كلثوم :

عَلينا البَيْضُ واليَلبُ اليمَانى وأسياف يقمْن وينحنينا

قال الجوهرى : ويقال اليلب ما كان من جنن الجلود ولم يكن من الحديد ومنه قيل للدرق يلب . قال الشاعر :

عليهم كل ســابغةٍ دِلاص وفى أيديهم اليَلبُ المُــدار

قال : واليلب فى الأصل ذلك الجلد قال أبو دهبل الجمحى :

دِرْعى دِلاصٌ شَكُّها شَكٌّ عجَبْ وجَوبُها القاتِرُ مِنْ سَــيْرِ اليلبْ

« جوبها : أى ترسها ، وجوب قاتر : أى ترس حسن التقدير ، والبيض : جمع بيضة ، وهى الخوذة من حديد . يقول : إن الطيب يسر باستعمالها إياه والبيض واليلب يتحسران بتركها لبسهما ، لأنهما من ملابس الرجال ، واستعار لهما قلوبا مجازاً لوصفه لهما بالمسرة والحسرة .

(٢) المقانع : جمع مقنع ومقنعة ، وهو ما تقنع به المرأة رأسها ، وتقدير الشطر الأول : إذا رأى البيض أو اليلب رأس لابسه ورآها ، فضمير رأى للبيض واليلب ، وأفرد الضمير لأنهما مترادفان ، فكأنهما شىء واحد . يقول : إذا رأى البيض رأس لابسه ورأى هــذه المرأة وهى تلبس المقانع رأى المقانع أعلى رتبة منه فازداد حسرة على تركها إياه وحرمانه ذلك .

وَإِنْ تَكُنْ خُلِقَتْ أُنْثَى لَقَدْ خُلِقَتْ
كَرِيمَةً غَيْرَ أُنْثَى العَقْلِ وَالْحَسَبِ (١)

وَإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الْغَلْبَاءُ عُنْصُرَهَا فَإِنَّ فِي الْخَمْرِ مَعْنًى لَيْسَ فِي الْعِنَبِ (٢)

فَلَيْتَ طَالِعَةَ الشَّمْسَيْنِ غَائِبَةٌ وَلَيْتَ غَائِبَةَ الشَّمْسَيْنِ لَمْ تَغِبِ (٣)

وَلَيْتَ عَيْنَ الَّتِي آبَ النَّهَارُ بِهَا فِدَاءُ عَيْنِ الَّتِي زَالَتْ وَلَمْ تَؤُبِ (٤)

فَمَا تَقَلَّدَ بِالْيَاقُوتِ مُشْبِهُهَا وَلَا تَقَلَّدَ بِالْهِنْدِيَّةِ الْقُضُبِ (٥)

---

(١) الحسب : شرف الآباء أو الفعال الصالح : أى شرف الفعل وأنشد ثعلب .

* وَرُبَّ حَسِيبِ الأَصْلِ غَيْرُ حَسِيبِ *

أى له آباء يفعلون الخير ولا يفعله هو . يقول : إن لها عقل الرجال وحسبهم وإن خلقت أنثى .

(٢) تغلب : قبيلة سيف الدولة . والغلباء : فى الأصل الغليظة الرقبة . والمراد العزيزة الأبية الممتنعة ، وعبارة الواحدى : الغلباء : الغلاظ القلوب ، نعتهم بغلظ الرقبة لأنهم لا يذلون لأحد ولا ينقادون له . يقول : هى وإن كانت من تغلب — تلك القبيلة المعروفة بالعز والمنعة — بيد أن لها مع ذلك من الفضائل ما تمتاز به عنهم وتفضلهم ، كالخمر أصلها العنب ، ولكن فى الخمر من المزايا ما ليس فى العنب ، ومن ثم تفضله ، وهذا مثل قوله : فإن المسك بعض دم الغزال .

(٣) جعلها وشمس النهار شمسين ثم قال : ليت طالعتهما — وهى شمس النهار — غائبة وليت غائبتهما — وهى المرثية — لم تغب . يقول : إن فى حياتها منافع جمة ، فليتها بقيت وفقدنا الشمس .

(٤) آب : رجع . يقول : وليت عين الشمس فداء عين المرثية التى غابت ولم ترجع .

(٥) الهندية : السيوف ، والقضب : جمع قضيب ، وهو اللطيف الدقيق من السيوف يقول . ليس لها شبيه ، لا من النساء ولا من الرجال .

وَلاَ ذَكَرْتُ جَمِيلاً مِنْ صَنَائِعِهَا ... إِلاَّ بَكَيْتُ وَلاَ وُدٌّ بِلاَ سَبَبِ (١)
قَدْ كَانَ كُلُّ حِجَابٍ دُونَ رُؤْيَتِهَا ... فَمَا قَنِعْتِ لَهَا يَا أَرْضُ بِالْحُجُبِ (٢)
وَلاَ رَأَيْتِ عُيُونَ الإِنْسِ تُدْرِكُهَا ... فَهَلْ حَسَدْتِ عَلَيْهَا أَعْيُنَ الشُّهُبِ (٣)
وَهَلْ سَمِعْتِ سَلاَماً لِي أَلَمَّ بِهَا ... فَقَدْ أَطَلْتُ وَمَا سَلَّمْتُ مِنْ كَثَبِ (٤)
وَكَيْفَ يَبْلُغُ مَوْتَانَا الَّتِي دُفِنَتْ ... وَقَدْ يُقَصِّرُ عَنْ أَحْيَائِنَا الْغَيَبِ (٥)

---

(١) الصنائع : جمع صنيعة ، وهى الإحسان واليد . يقول : إذا ذكرت صنائعها بكيت لمحبتى إياها ، وسبب محبتى هو صنائعها لدى وإحسانها إلى وروى ابن جنى بلا ود ولا سبب أى ليس بكائى لود أو سبب سوى صنائعها التى أولت ، فهى تذكرنى فأبكى .

(٢) يقول : كانت محجوبة عن الأعين بأوفى حجاب فأحبت الأرض أن تكون من حجبها فانضمت عليها ، فكأن الأرض لم تقنع بما حولها من الحجاب حتى حجبتها بنفسها .

(٣) يقول : لم تكن عيون الناس تصل إليها ، فهل حسدت الكواكب يا أرض على النظر إليها فواريتها عنهن ؟

(٤) قال الواحدى : يقول للأرض : هل سمعت سلاما لى أتاها ؟ يريد أنه يجهز إليها السلام والدعاء وسأل الأرض عن بلوغ سلامه إليها ثم قال : وقد أطلت التأبين والمرثية وتجهيز السلام عليها ولم أسلم عليها من قرب ، لأنها ماتت على بعد منه ، ولك أن تقول: إن المعنى بعبارة أخرى : هل سمعتنى يا أرض أسلم عليها ؟ أى هل رأيتنى قريبا منها فحسدتنى على قربها فقد أطلت اليوم من السلام عليها ولم أسلم من قرب ؟ قال الواحدى : ولم يعرف ابن جنى معنى هذا البيت ، فجعل الاستفهام فيه إنكاراً وقال . يقول : قد أطلت السلام عليها وأنا بعيد عنها ، فهل سمعت يا أرض سلامى قريبا منها ؟

(٥) الغيب : جمع غائب ، مثل خدم وخادم . يقول : كيف يبلغ السلام أمواتنا المدفونين وهو قد يقصر عن بلوغ أحيائنا الغائبين ؟ وكأن هذا مبنى على معنى البيت السابق : أى أن سلامه لم يكن يبلغها فى حياتها للبعد الذى بينهما ، فكيف يبلغها بعد موتها ؟ والظاهر أن الكلام على عمومه ، وليس فيه — كما ذهب بعضهم — تعريض بسيف الدولة ، وأن يقصر سلامه دونه .

يَا أَحْسَنَ الصَّبْرِ زُرْ أَوْلَى الْقُلُوبِ بِهَا
وَقُلْ لِصَاحِبِهِ يَا أَنْفَعَ السُّحُبِ (١)

وَأَكْرَمَ النَّاسِ لاَ مُسْتَثْنِياً أَحَدًا   مِنَ الْكِرَامِ سِوَى آبَائِكَ النُّجُبِ (٢)
قَدْ كَانَ قَاسَمَكَ الشَّخْصَيْنِ دَهْرُهُمَا   وَعَاشَ دُرُّهُمَا الْمَفْدِيُّ بِالذَّهَبِ (٣)
وَعَادَ فِي طَلَبِ الْمَتْرُوكِ تَارِكُهُ   إِنَّا لَنَغْفُلُ وَالْأَيَّامُ فِي الطَّلَبِ (٤)

---

(١) أولى القلوب بها : هو قلب أخيها — أى سيف الدولة — والضمير فى لصاحبه يعود على أولى القلوب ، وصاحبه هو سيف الدولة . يقول : يا أحسن الصبر زر قلب سيف الدولة الذى هو أولى القلوب بمودتها والجزع عليها ، وقل لصاحب هذا القلب يا أنفع السحب : أى أن عطاءه أهنأ لأنه بغير أذى ، والسحاب قد يؤذى سيله وتهلك صواعقه .

(٢) وأكرم الناس : عطف على أنفع السحب ، والنجب : جمع نجيب ، وهو الكريم من كل شىء ورجل نجيب : أى كريم فاضل بين النجابة ، والنجبة مثال الهمزة النجيب ، يقال هو نجبة القوم إذا كان النجيب منهم ، وأنجب الرجل : أى ولد ولداً نجيباً . قال الأعشى :

أنجبَ أزمانَ والداهُ بِهِ   إذ نجلاهُ فنعم ما نجلا

« وسيمر بك شرح هذا البيت فى موضع آخر » وامرأة منجبة ومنجاب : أى تلد النجباء يقول : وقل له يا أكرم الناس غير مستثن أحدا سوى آبائك الكرام . قال العكبرى : وهذا لفظ منكر يدخل فيه الأنبياء ومن دونهم . أقول : وهى إحدى مبالغات المتنبى القبيحة .

(٣) يريد بالشخصين : أختيه . ماتت إحداهما — وهى الصغرى — وبقيت الكبرى ، فكانت كدر فدى بذهب ، جعل الكبرى كالدر ، والصغرى كالذهب .

(٤) المتروك : هو الدر ، والتارك : الدهر . يقول : وبعد ذلك عاد الدهر يطلب الكبرى وأخذها . لأن الأيام لا تغفل عن طلب ما تركته . وهذا البيت والذى قبله كأنهما من قول الأعرابى :

وقاسمنى دهرى بَنِىَّ مشاطراً   فلما تقضى شطرُهُ عاد فى شطرى

مَا كَانَ أَقْصَرَ وَقْتاً كَانَ بَيْنَهُمَا
كَأَنَّهُ الْوَقْتُ بَيْنَ الْوِرْدِ وَالْقَرَبِ (١)

جَزَاكَ رَبُّكَ بِالأَحْزَانِ مَغْفِرَةً
فَحُزْنُ كُلِّ أَخِي حُزْنٍ أَخُو الْغَضَبِ (٢)

وَأَنْتُمُ نَفَرٌ تَسْخُو نُفُوسُكُمُ ... بِمَا يَهَبْنَ وَلاَ يَسْخُونَ بِالسَّلَبِ (٣)

حَلَلْتُمُ مِنْ مُلُوكِ النَّاسِ كُلِّهِمِ ... مَحَلَّ سُمْرِ الْقَنَا مِنْ سَائِرِ الْقَصَبِ (٤)

فَلاَ تَنَلْكَ اللَّيَالِي إِنَّ أَيْدِيَهَا ... إِذَا ضَرَبْنَ كَسَرْنَ النَّبْعَ بِالْغَرَبِ (٥)

---

(١) الورد : إتيان الإبل الماء ، والقرب : سير الليل لورد الغد ، وذلك أن القوم يرعون الإبل وهم فى ذلك يسيرون نحو الماء . فإذا بقيت بينهم وبين الماء عشية عجلوا نحوه ، فتلك الليلة ليلة القرب . يقول : إن أجليهما كانا متقاربين جداً حتى إن المدة التى بينهما كانت لقصرها كأنها المدة التى بين الورد والقرب ؛ وهى ليلة .

(٢) يقول : غفر الله لك أحزانك لأن الحزن للمصيبة أخو الغضب على القدر حيث لم يجر بمراد الإنسان ، والغضب على القدر مما يستغفر منه .

(٣) يسخون : أى النفوسُ ، ووزنه يفعلن ، فالواو لام الفعل ، والنون علامة الإضمار وجمع التأنيث ، وهو مثل « إلا أن يعفون » أى النساء ، وروى تسخون — بلفظ خطاب الذكور — والسلب : ما يؤخذ من القتيل من ثياب وسلاح ، وفى الحديث الصحيح : من قتل قتيلا فله سلبه . يقول : إنما تحزن لأن الدهر سلبك المرثية وأنتم قوم أهل عزة وأنفة ، تجودون بالذى تعطونه عن طيب نفس ، ولا تجودون بما يؤخذ منكم قهراً ، وهذا المعنى كقول القائل :

لا جَزَعاً بل أنفاً شابَهُ ... أن يقدِرَ الدهر على غصْبِه

(٤) القنا : عيدان الرماح . يقول : أنتم بين الملوك كالقنا بين سائر القصب والقنا يفضل سائر أنواع القصب ، وكذلك أنتم تفضلون سائر الملوك .

(٥) النبع : شجر صلب ينبت فى رءوس الجبال تتخذ منه القسى ، والغرب نبت ضعيف ينبت على الأنهار . يدعو له يقول : لا أصابتك الليالى بسوء ، فإنها تغلب القوى بالضعيف .

وَلاَ يُعِنَّ عَدُوًّا أنتَ قَاهِرُهُ ... فَإِنَّهُنَّ يَصِدْنَ الصَّقْرَ بِالْخُرَبِ (١)
وَإِنْ سَرَرْنَ بِمَحْبُوبٍ فَجَعْنَ بِهِ ... وَقَدْ أَتَيْنَكَ فِي الْحَالَيْنِ بِالْعَجَبِ (٢)
وَرُبَّمَا احْتَسَبَ الإِنْسَانُ غَايَتَهَا ... وَفَاجَأَتْهُ بِأَمْرٍ غَيْرِ مُحْتَسَبِ (٣)
وَمَا قَضَى أَحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ ... وَلاَ انْتَهَى أَرَبٌ إِلاَّ إِلَى أَرَبِ (٤)
تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لاَ اتِّفَاقَ لَهُمْ ... إِلاَّ عَلَى شَجَبٍ وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ (٥)
فَقِيلَ تَخْلُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً ... وَقِيلَ تَشْرَكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ (٦)

---

(١) الخرب ذكر الحبارى[1] وجمعه خربان ، يدعو له أن لا تعين الليالى من عاداه فإنهن يصدن القوى بالضعيف ، وهو بسبب من معنى البيت السابق .

(٢) يقول : إن سرتك الأيام بوجود ما تحبه فجعتك بفقده إذا استردته وقد أرتك العجب حيث سررتك بها ثم فجعتك بفقدها فكانت سببا للسرور والفجيعة ، وهذا عجب أن يكون شيء واحد سبباً للمسرة والمساءة .

(٣) يقول : قد يحسب الإنسان أن المحن قد تناهت فيلم به شيء لم يكن في حسبانه ، وإذن لا تؤمن فجعات الدهر .

(٤) اللبانة : الحاجة ؛ والأرب : الغرض ، فهما متقاربان ، يقول : لم يقض أحد حاجته من الدنيا لأن حاجات الإنسان لا تنقضى ، فإذا فرغ من أرب انتهى إلى أرب آخر ، وذلك كما يقول أمية بن أبي الصلت :

تموت مع المرء حاجاته ... وتبقى له حاجة ما بقى

(٥) و (٦) الشجب : الهلاك ، والخلف : الاختلاف ، والمراد بالنفس : الروح . يقول : جرى خلف الناس فى كل شيء ولم يتفقوا إلا على الهلاك : أى أن منتهى كل حيوان أن يموت فيهلك ، ثم اختلفوا فى حقيقة الهلاك : ففريق يقول : إن الروح تسلم من الهلاك ولا تفنى بفناء الأجسام — وهؤلاء هم القرون بالبعث — وفريق يذهب إلى أن الروح يفنى كالجسم — وهؤلاء هم الدهريون ومن يقول بقدم العالم .

---

(١) الحبارى : طائر أكبر من الدجاج الأهلى وأطول عنقا ، وهو أنواع كثيرة ، ويضرب به المثل فى البلاهة فيقال : أبله من الحبارى ؛ قيل : لأنه إذا غير عشه ذهل وحضن بيض غيره .

وَمَنْ تَفَكَّرَ فى الدُّنيا وَمُهْجَتِهِ أَقامَهُ الفِكْرُ بَيْنَ العَجْزِ وَالتَّعَبِ(١)

***

وأنفذ إليه سيف الدولة كتاباً بخطه إلى الكوفة يسأله المسير إليه ، فأجابه بهذه الأبيات وأنفذها إليه فى ميَّافارِقِينَ وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة(٢) :

فَهِمْتُ الكِتابَ أَبَرَّ الكُتُبْ فَسَمْعاً لِأَمْرِ أَمِيرِ العَرَبْ(٣)
وَطَوْعاً لَهُ وَٱبْتِهاجاً بِهِ وَإِنْ قَصَّرَ الفِعْلُ عَمَّا وَجَبْ(٤)
وَما عاقَنِى غَيْرُ خَوْفِ الوُشاةِ وَإِنَّ الوِشاياتِ طُرْقُ الكَذِبْ(٥)

---

(١) المهجة : الروح . يقول : من فكر فى الدنيا وأنه مفارقها ألبتة أتعبه هذا الفكر لما يجد فى ذلك من الأسف على الدنيا والخوف على روحه ، ثم رأى فى الوقت نفسه أن ذلك قضاء حتم لا يستطيع الفرار منه ، فيرى نفسه بين حالين من التعب والعجز .

(٢) هذه القصيدة من المتقارب ، وتقطيعها فعولن أربع مرات ، دخله القصر فصار فعولن فعولن فعولن فعل ، وقد ارتكب أبو الطيب فيها سناد التوجيه ، وهو المخالفة فى حركة ما قبل الروى المقيد ، ومن الناس من لا يعده سناداً اكتفاء باتفاق الروى .

(٣) (٤) سمعا وطوعا وابتهاجاً : ثلاثتها مصادر دلت على أفعالها : أى سمعت أمرك سمعا ، وطعت طاعة ، وابتهجت بكتابك ابتهاجا ، والابتهاج : الفرح يقال بهج بالشىء وله ـ بالكسر ـ بهاجة وابتهج : سر به وفرح . قال الشاعر :

كأنَّ الشبابُ رِداءٌ قد بَهِجْتُ به فقد تطاير منه لِلْبِلَى خِرَقُ

يقول : إنى سامع لأمرك ، مطيع له ، مبتهج بكتابك بيد أن فعلى فى طاعتك لا يبلغ ما يجب ، إذا أننى قصرت بتخلفى عن المجىء إليك .

(٥) الوشاة . جمع واش ، وهو النمام . يقول : لم يمنعنى من النهوض إليك غير خوف الوشاة ، فان الوشايات من طرق الكذب فلا يأمنها البرىء .

وَتَكْثِيرِ قَوْمٍ وَتَقْلِيلِهِمْ وَتَقْرِيبِهِمْ بَيْنَنَا وَالْخَبَبْ (١)

وَقَدْ كَانَ يَنْصُرُهُمْ سَمْعُهُ وَيَنْصُرُنِي قَلْبُهُ وَالْحَسَبْ (٢)

وَمَا قُلْتُ لِلْبَدْرِ أَنْتَ اللُّجَيْنُ وَلاَ قُلْتُ لِلشَّمْسِ أَنْتِ الذَّهَبْ (٣)

فَيَقْلَقَ مِنْهُ الْبَعِيدُ الأَنَاةِ وَيَغْضَبَ مِنْهُ الْبَطِيءُ الْغَضَبْ (٤)

وَمَا لاَقَنِي بَلَدٌ بَعْدَكُمْ وَلاَ اعْتَضْتُ مِنْ رَبِّ نُعْمَايَ رَبْ (٥)

---

(١) وتكثير قوم وتقليلهم : أى تكثيرهم معائبنا وتقليلهم مناقبنا ، والتقريب ضرب من العدو : يقال قرب الفرس : إذا رفع يديه معا ووضعهما معا فى العدو ، والخبب : السرعة ، وقيل هو أن يراوح الفرس بين يديه ورجليه فى العدو يقول : وعاقنى أيضاً خوف تكثير قوم معائبى وتقليلهم مناقبى وسعيهم بيننا بالفساد .

(٢) يقول : إنه كان يصغى إليهم ويسمع منهم ، بيد أن قلبه كان على أية حال معى يعضده فى ذلك شرفه ، فعد إصغاءه إليهم نصرا لهم . ونزاعه إليه نصراً له .

(٣) و (٤) اللجين : الفضة ، والأناة : الحلم والرفق والتثبت ، وبعد الأناة كناية عن كونه لا يستخف من أول وهلة . وقوله فيقلق : جواب النفى فى البيت الأول ، والضمير فى منه يعود على المصدر المفهوم من قوله قلت : أى فيقلق من قولى هذا . يقول إنى لم أنقصك مما تستحق من المدح شيئاً كما ينقص البدر بتشبيه باللجين والشمس بتشبيهها بالذهب : أى لم أهجك فتنكر على ولم آت فى حقك ما يوجب أن ينزعج له مثلك فى بعد أناته وبطء غضبه .

(٥) لاقنى : أمسكنى وحبسنى ، يقال منه : فلان لا يليق ببلد ، أى ما يمسك ولا يليقه بلد : أى لا يمسكه . قال الأصمعى للرشيد : ما ألاقتنى أرض حتى أتيتك ياأمير المؤمنين : أى ما ثبت بها ، ويقال فلان ما يليق بكفه درهم : أى ما يحتبس ، وما يليق هو درهما : أى ما يحبسه ولا يلصق به . قال الشاعر :

كفاك كفٌّ ما تليق درهما جوداً وأخرى تعط بالسيف الدما

ورب نعماى : صاحب نعمتى ، ووقف على الباء من قوله رب ـ وهى موضع نصب ـ ضرورة للقافية ، وخففها ـ وحكمها التشديد ـ لوقوعها رويا . يقول : ما أخذت عوضا منكم ، ولا أمسكنى بلد بعدكم ، ولا أعجبنى ، ولا لى مستقر إلا عندكم . إذ لا أصيب

وَمَنْ رَكِبَ الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوا ... دِ أَنْكَرَ أَظْلَافَهُ وَالْغَبَبْ(١)
وَمَا قِسْتُ كُلَّ مُلُوكِ الْبِلَادِ ... فَدَعْ ذِكْرَ بَعْضٍ بِمَنْ فِي حَلَبْ(٢)
وَلَوْ كُنْتُ سَمَّيْتُهُمْ بِاسْمِهِ ... لَكَانَ الْحَدِيدَ وَكَانُوا الْخَشَبْ(٣)
أَفِي الرَّأْيِ يُشْبَهُ أَمْ فِي السَّخَا ... ءِ أَمْ فِي الشَّجَاعَةِ أَمْ فِي الْأَدَبْ(٤)
مُبَارَكُ الِاسْمِ أَغَرُّ اللَّقَبْ ... كَرِيمُ الْجِرِشَّى شَرِيفُ النَّسَبْ(٥)
أَخُو الْحَرْبِ يُخْدِمُ مِمَّا سَبَى ... قَنَاهُ وَيَخْلَعُ مِمَّا سَلَبْ(٦)

مثلكم ، وكيف آخذ عوضا ممن أنعم على ؟ وهذا مثل قوله :

ومن اعتاض منك إذا افترقنا ... وكل الناس زور ما خلا كا

(١) الأظلاف : جمع ظلف ، وهو من البقرة والشاة والظبي بمنزلة القدم للانسان والخف للبعير ، والحافر للفرس والبغل والحمار ، والغبب والغبغب : للبقر والديك ماتدلى تحت حنكهما . جعل الجواد مثلا لسيف الدولة ، والثور مثلا لمن لقى بعده من الملوك ؛ وهذا كقول خداش بن زهير :

ولا أكون كمن ألقى رحالته ... عَلَى الحمار وخلى صهوة الفرس

قال الخطيب : ذكر الركوب هنا فيه جفاء ، ولا تخاطب الملوك بمثل هذا .

(٢) و (٣) بمن فى حلب . متعلق بقست ، وقوله فدع ذكر بعض : معترضة بينهما يقول : لم أقس كل الملوك به فضلا أن أقيس به بعضهم ، ولو أنا شبهتهم به وسميتهم سيوفا — كما يسمى هو سيف الدولة — لكانوا سيوفا من خشب ، وكان هو سيفا من حديد : يعنى أن مدحه إياه حقيقة ، ومدحه إياهم مجازا ، إذا لا شبه بينهم وبينه .

(٤) هذا استفهام إنكار . يقول : ليس يشبهه أحد من الملوك فى شىء من ذلك .

(٥) مبارك الاسم ، لأن اسمه على . وهو مشتق من العلو . محبوب مطلوب ، ولأنه سمى على بن أبى طالب ، وهو من هو ؟ وأغر اللقب ، لأنه سيف الدولة ، وقد اشتهر هذا اللقب فهو أغر : أى متعالم مشهور أبلج . وكريم الجرشى : أى النفس ؛ وشريف النسب . لأنه من ربيعة ، وهم كرام أشراف . وكلمة الجرشى : من قبيح ألفاظ المتنبى .

(٦) أخو الحرب : أى عرفت به وعرف بها فصار لها أخا ؛ وقناه : فاعل سبى : أى رماحه . يقول : هو أخو الحرب وصاحبها ، فإذا أعطى أحدا خادما فهو مما سباه

إذا حازَ مالاً فقدْ حازَهُ فتًى لاَ يُسَرُّ بمَا لا يَهَبْ(١)
وإنّى لأَتْبعُ تذكارَهُ صَلاةَ الإلٰهِ وسَقْىَ السُّحُبْ(٢)
وأُثْنِى علَيْــهِ بآلائِهِ وأَقْرُبُ مِنْهُ نأَى أوْ قَرُبْ(٣)
وإنْ فارَقَتْنِى أمْطَارُهُ فأَكْثَرُ غُدْرَانِهَا ما نَضَبْ(٤)
أيَا سَيْفَ رَبِّكَ لاَ خَلْقِهِ ويَاذَا المَكَارِمِ لاَ ذَا الشُّطَبْ(٥)

بنفسه ، لا مما اشتراه ، لأن مماليكه جميعا من سباياه ؛ وإذا خلع على إنسان ثوبا فهو مما سلبه من أعدائه . يريد كثرة نكايته فى الأعداء

(١) فتى : فاعل حازه من باب التجريد . يقول : إذا جمع مالا لا يسر منه بما يدخر ، ولكن بما يهب ، وهذا كقول البحترى :

لا يتمطى كما احتج البخيل ولا يحب من ماله إلا الذى يَهَبُ

(٢) يقول : كلما ذكرته دعوت له بهذين ، فقلت له صلى الله عليه وسقى أرضه السحاب ؛ والصلاة من الله الرحمة ، وقد جرى العرف بقصر الصلاة على الأنبياء ؛ ولكن الشعراء ديدنهم المبالغة وتعظيم الممدوح ما وجدوا إلى ذلك سبيلا . وقد قال ابن الرقاع :

صلى الإله على امرِئٍ ودَّعْتُهُ وأتم نعمته عليه وزادها

وقال الراعى :

صلى على عَزَّةَ الرحمنُ وابنتِها ليلى وصلى على جاراتها الأُخَرِ

(٣) يقول : أثنى عليه بما وصل إلى وإلى غيرى من نعمه ، وأقرب منه بالموالاة والمحبة : أقربت محلته أم بعدت .

(٤) الغدران : جمع غدير ، وهو البقية من الماء تبقى بعد السيل : من غادره تركه ، قال الخطيب التبريزى : سمى الغدير غديراً لمعنيين : أحدهما لأن الغيث تركه ، والثانى لأنه يغدر بأهله فينضب عنهم عند الحاجة . ونضب الماء . غار فى الأرض وبعد ، وما : من قوله ما نضب : نافية . يقول : إذا كان بره قد انقطع عنى فإن ماسبق إلىّ منه باق كالغدران تبقى بعد المطر :

(٥) الشطب — بضم الشين والطاء ، وبفتح الطاء — جمع شطبة وهى الطرائق

وَأَبْعَدَ ذِى هِمَّةٍ هِمَّةً وَأَعْرَفَ ذِى رُتْبَةٍ بِالرُّتَبْ (١)
وَأَطْعَنَ مَنْ مَسَّ خَطِّيَّةً وَأَضْرَبَ مَنْ بِحُسَامٍ ضَرَبْ (٢)
بِذَا اللَّفْظِ نَادَاكَ أَهْلُ الثُّغُورِ فَلَبَّيْتَ وَالْهَامُ تَحْتَ الْقُضُبْ (٣)
وَقَدْ يَئِسُوا مِنْ لَذِيذِ الْحَيَاةِ فَعَيْنٌ تَغُورُ وَقَلْبٌ يَجِبْ (٤)
وَغَرَّ الدُّمُسْتُقَ قَوْلُ الْعُدَا ةِ أَنَّ عَلِيًّا ثَقِيلٌ وَصِبْ (٥)
وَقَدْ عَلِمَتْ خَيْلُهُ أَنَّهُ إِذَا هَمَّ وَهْوَ عَلِيلٌ رَكِبْ (٦)

التى فى متن السيف ؛ وسيف مشطب ومشطوب : فيه طرائق ، وكذلك ثوب مشطب . يقول : لست سيفا كسائر السيوف . فأنت سيف الله لاسيف الناس . وأنت صاحب المكارم لاسيف فيه طرائق من سيوف الحديد .

(١) و (٢) أبعد وأعرف وأطعن وأضرب : منصوبة على النداء المضاف ، والخطية : الرماح . يقول : يا أبعد الناس همة ويا أعرف الناس برتب الرجال وطبقاتهم فتعطى كلا منهم المنزلة التى يستحقها ، ويا أطعن من مس رمحا . وأضرب من ضرب بسيف .

(٣) قوله بذا : أى بأطعن وأضرب ، والثغور : مواضع المخافة من فروج البلدان ؛ والهام : الرؤوس ، والقضب : السيوف القواطع . يقول إن أهل الثغور نادوك بقولهم يا أطعن من طعن بخطية ، ويا أضرب من ضرب بحسام فأجبتهم ورؤسهم تحت سيوف الروم تكاد تطيرها .

(٤) غارت العين : دخلت فى الرأس : أى من شدة الرعب ، والوجيب خفقان القلب . يقول : إنك أجبتهم حين نادوك وقد يئسوا من الحياة ، فهم فى خوف ورعب واضطراب حتى أنقذتهم .

(٥) الدمستق : قائد الروم ، والعداة ، جمع عاد بمعنى عدو ، والثقيل : الشديد المرض ، والوصب : المريض . يقول إنما اجترأ الدمستق على أهل الثغور لأنه اغتر بما أرجف به الأعداء من أنك مريض لاتستطيع إغاثتهم :

(٦) يقول : وما كان ينبغى للدمستق أن يغتر لأن سيف الدولة إذا هم بالغارة وهو عليل ركب إلى أعدائه كما تعلم خيله من عادته .

أَتَاهُمْ بِأَوْسَعَ مِنْ أَرْضِهِمْ طِوَالَ السَّبِيبِ قِصَارَ الْعُسُبْ(١)
تَغِيبُ الشَّوَاهِقُ فِي جَيْشِهِ وَتَبْدُو صِغَاراً إِذَا لَمْ تَغِبْ(٢)
وَلَا تَعْبُرُ الرِّيحُ فِي جَوِّهِ إِذَا لَمْ تَخَطَّ الْقَنَا أَوْ تَثِبْ(٣)
فَغَرَّقَ مُدْنَهُمُ بِالْجُيُوشِ وَأَخْفَتَ أَصْوَاتَهُمْ بِاللَّجَبْ(٤)
فَأَخْبِثْ بِهِ طَالِباً قَهْرَهُمْ وَأَخْبِثْ بِهِ تَارِكاً مَا طَلَبْ(٥)
نَأَيْتَ فَقَاتَلَهُمْ بِاللِّقَاءِ وَجِئْتَ فَقَاتَلَهُمْ بِالْهَرَبْ(٦)

---

(١) أتاهم : أى الدمستق ، وبأوسع : أى بخيل أوسع ، وطوال وقصار منصوبان على الحال ؛ والسبيب : شعر الناصية والعرف والذنب ؛ والعسب جمع عسيب ، وهو منبت الذنب . يقول : أتاهم الدمستق بخيل موضعهامن الأرض أوسع من أرض الروم ؛ يصف عسكر الروم بالكثرة . ثم وصف خيلهم بأنها من جياد الخيل ، لأن طول شعر الذنب وقصر عظمه، مما يستحب فى الخيل .

(٢) يقول : إذا علا جيشه الشواهق ـ أى الجبال العالية ـ غطاها لكثرته فغابت فيه ، وإذا تخلل جوانبها ظهرت صغاراً بالإضافة إليه وإلى سعته وانتشاره حولها .

(٣) تخط ـ بحذف إحدى التاءين ـ أى تتخطى ؛ والقنا : الرماح . يقول : لكثرة رماح هذا الجيش وتضايق ما بينها غص الهواء بها فلا تجد الريح منفذاً إلا أن تتخطى الرماح : أى تكون أعلى طريقا منها أو تثب من فوقها .

(٤) اللجب : كثرة الأصوات واختلاطها . يقول : أتاهم من الجيوش بما عم بلادهم فكأنها أغرقها ، وأخفى أصواتهم بأصوات جيوشه لكثرتها وارتفاعها .

(٥) أخبث به : صيغة تعجب : أى ما أخبثه فى الحالين ، ويروى الثانى ؛ وأخيب به تاركا ، من الخيبة ؛ وطالبا وتاركا : حالان . يقول : ما أخبثه حين يحاول قتلهم لأنه استدبر فى ذلك سيف الدولة خسة منه وجبناً ، وما أخيبه إذ ترك هذه المحاولة وولى هارباً يطلب النجاة .

(٦) يقول : لما كنت بعيداً عن أهل الثغور أتاهم فقاتلهم بالمبارزة ، فلما جئت جعل الهرب موضع القتال : أى حمى نفسه بالهرب ، فكأنما قاتلهم به كى ينجو .

وَكَانُوا لَهُ الْفَخْرَ لَمَّا أَتَى ... وَكُنْتَ لَهُ الْعُذْرَ لَمَّا ذَهَبْ (١)

سَبَقْتَ إِلَيْهِمْ مَنَايَاهُمُ ... وَمَنْفَعَةُ الْغَوْثِ قَبْلَ الْعَطَبْ (٢)

فَخَرُّوا لِخَالِقِهِمْ سُجَّداً ... وَلَوْ لَمْ تُغِثْ سَجَدُوا لِلصُّلُبْ (٣)

وَكَمْ ذُدْتَ عَنْهُمْ رَدًى بِالرَّدَى ... وَكَشَّفْتَ مِنْ كُرَبٍ بِالْكُرَبْ (٤)

وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ إِنْ يَعُدْ ... يَعُدْ مَعَهُ الْمَلِكُ الْمُعْتَصِبْ (٥)

---

(١) يقول : إنه كان يفتخر بأن قصدهم وصمد لقتالهم ، فلما ارتد عنهم هارباً كنت عذراً له فى ارتداده لأنه لا يقوم لك ، ومثلك من يفر منه يعذر .

(٢) يقول : إنك أدركتهم قبل أن يعصف بهم فأغثتهم قبل أن يعطبوا ، وإنما ينفع الغوث إذا كان قبل العطب والهلاك ، أما بعد ذلك فلا قيمة للغوث ؛ وهذا المعنى ينظر إلى قول أبى تمام :

وَمَا نَفْعُ مَنْ قَدْ مَاتَ بِالأمس ظَامِئاً ... إذا ما سماء اليوم طال انهمارها

وقول البحترى :

واعلم بأن الغيثَ ليس بنافعٍ ... للناسِ ما لم يأتِ فى إبَّانِه

(٣) الصلب : جمع صليب ، وهو ذلك الذى يتخذه المسيحيون فى بيوتهم وبيعهم على شكل المصلوب . يقول : لما أنقذتهم وفر الدمستق سجدوا لله شكراً ، ولو لم تنقذهم لسجدوا لصلبان الأعداء خوفا منهم .

(٤) يقول : كم دفعت عنهم الهلاك بإهلاكك من بغى هلاكهم ؟ وكم كشفت عنهم الكرب بالكرب التى أنزلتها بأعدائهم ؟

(٥) المعتصب : أى المتوج الذى يعتصب التاج برأسه . يقول : وقد زعم الروم أن الدمستق سيعود ومعه الملك الأعظم ، وعبر عن مجىء الملك بالعود مع أنه لم يكن قبل ذلك قصدهم ــ للمشاكلة بين الفعلين ، على أن عاد قد يراد بها الإتيان لأول مرة كما قال :

فإن تكنِ الأيام أحسنَّ مرةً ... إلىّ فقد عادتْ لهن ذنوبُ

أى أتتنى .

وَيَسْتَنْصِرَانِ الَّذِى يَعْبُدَانِ وَعِنْدَهُمَا أَنَّهُ قَدْ صُلِبْ (١)
لِيَدْفَعَ مَا نَالَهُ عَنْهُمَا فَيَالَلرِّجَالِ لِهَذَا العَجَبْ (٢)
أَرَى المُسْلِمِينَ مَعَ المُشْرِكِينَ إِمَّا لِعَجْزٍ وَإِمَّا رَهَبْ (٣)
وَأَنْتَ مَعَ اللهِ فِى جَانِبٍ قَلِيلُ الرُّقَادِ كَثِيرُ التَّعَبْ (٤)
كَأَنَّكَ وَحْدَكَ وَحَّدْتَهُ وَدَانَ البَرِيَّةُ بِابْنٍ وَأَبْ (٥)
فَلَيْتَ سُيُوفَكَ فِى حَاسِدٍ إِذَا مَا ظَهَرْتَ عَلَيْهِمْ كَئِبْ (٦)
وَلَيْتَ شَكَاتَكَ فِى جِسْمِهِ وَلَيْتَكَ تَجْزِى بِبُغْضٍ وَحُبْ (٧)
فَلَوْ كُنْتَ تَجْزِى بِهِ نِلْتُ مِنْكَ أَضْعَفَ حَظٍّ بِأَقْوَى سَبَبْ (٨)

---

(١) يقول : إن الدمستق والملك يستنصران السيد المسيح ويسألانه النصرة على المسلمين وهما يعتقدان أن المسيح صلبته اليهود وقتلته .

(٢) عنهما : صلة يدفع . يقول : ويطلبان أن يدفع السيد المسيح عنهما ما ناله من القتل فى اعتقادهم ، ثم تعجب من هذا وقال : وكيف يستطيع أن يدفع عنهما الهلاك وهو لم يستطع الدفاع عن نفسه ؟ ولام فيا للرجال : مفتوحة ، لأنها للمستغاث به ، ولام لهذا : لام التعجب ، وهى مكسورة ، أنشد سيبويه لقيس بن ذريح :

تَكَنَّفَنِى الوشاةُ فأزعجونى فيالَلنَّاسِ لِلوَاشِى المطَاعِ

(٣) يقول : أرى المسلمين قد هادنوا المشركين واجتمعوا معهم وتركوا قتالهم ، وذلك : إما عجزاً عنهم ، أو خوفا منهم .

(٤) يقول : وأنت مع الله فى جانب آخر تنزل على أمره بالجهاد فلا تنام عنه ، وقد جانبت غيرك من المهادنين والموادعين .

(٥) يقول : كأنك وحدك الموحد لله تعالى ، وسائر الناس يدينون بدين النصارى الذين يقولون بالابن والأب .

(٦) ظهرت عليهم : ظفرت بهم وغلبتهم ، وكئب كآبة :حزن وظهرفيه الانكسار يقول : ليت الحاسد الذى يكتئب لظفرك بالروم يقتل بسيوفك .

(٧) و (٨) أراد بالشكاة : المرض الذى يشكوه ، وقوله تجزى به : أى بالحب أو البغض ، على أن الواو فى قوله وحب : بمعنى أو . ولك أن ترجع الضمير إلى البغض

وقال فى صباه ارتجالا وقد عذله أبو سعيد المجَيْمِرى (*) على تركه لقاء الملوك :

أبَا سَـــعِيدٍ جَنِّبِ الْعِتَابَا   فَرُبَّ رَائِي خَطَأٍ صَوَابَا (١)
فإِنَّهُمْ قَدْ أكْثَرُوا الْحُجَّابَا   وَاسْتَوْقَفُوا لِرَدِّنَا الْبَوَّابَا (٢)
وَإِنَّ حَدَّ الصَّارِمِ الْقِرْضَابَا   وَالذَّابِلاتِ السُّمْرَ وَالْعِرَابَا
* يَرْفَعُ فِيمَا بَيْنَنَا الْحُجَابَا (٣) *

والحب جميعا ، لأن كليهما من أفعال القلب ، فكأنهما شىء واحد . والسبب : الوسيلة ، يقول : ليت المرض الذى تشكوه فى جسم الحاسد وليتك تجزى من أبغضك يبغضه ومن أحبك بحبه كى أنال نصيبا من الحب ، إذ لو جزيتنى على حبى لك ـ وهو أقوى سبب ، لأن حبى إياك أكثر من حب غيرى ـ لنلت منك أقل حظ ، يشكو إعراضه عنه وأنه أقل الناس حظا منه مع أنه أشد حباً له . وعبارة ابن جنى : لو تناهيت فى جزائك إياى على حبى إياك لكان ضعيفاً بالإضافة إلى قوة حبى لك قال أبو الفضل العروضى : وهذا لا يقوله مجنون لبعض نظرائه ولمن هو دونه فكيف ينسب المتنبى سيف الدولة إلى أنه لو احتشد وتكلف فى جزائه لم يبلغ كنهه ؟ وهذا الذى لاحظه العروضى لم يوفق فيه .

* هو أبو سعيد المنبجى من بنى المجيمر ، قبيلة بمنبج من طيء .

(١) رائى خطأ : يروى راء خطأ ، وذلك على حد قولهم : ضارب عمرو وضارب عمرا وروى بدل هذين * فرب رأى أخطأ الصوابا * يقول : أبعد عنى ياأباسعيدعتابك فلا تعاتبنى ، لأنك ترى الخطأ فى زيارة الملوك صوابا ولست على رأيك :

(٢) فإنهم : أى الملوك .

(٣) القرضاب : السيف القاطع ؛ والذابلات : الرماح اللينة ؛ والعراب الخيل العربية . يقول : إنما يتوصل إلى الملوك ويهتك الحجاب الذى أقاموه على أبوابهم بالسلاح والخروج عليهم لا بغير ذلك ؛ وهذا بعض مايشف عن طموح المتنبى وآماله الكبار

وقال فى صباه ارتجالا لبعض الكلابيين وهم على شراب :

لِأَحِبَّتِي أَنْ يَمْـلَأُوا ... بِالصَّافِيَاتِ ٱلْأَكْوُبَا(١)
وَعَلَيْهِمِ أَنْ يَبْذُلُوا(٢) ... وَعَلَيَّ أَنْ لَا أَشْرَبَا
حَتَّى تَكُونَ الْبَاتِرَا ... تُ الْمُسْمِعَاتِ فَأَطْرَبَا(٣)

وقال يرثى محمد بن إسحاق التنوخى وينفى الشماتة عن بنى عمه(*) :

لِأَىِّ صُرُوفِ الدَّهْرِ فِيهِ نُعَاتِبُ ... وَأَىَّ رَزَايَاهُ بِوِتْرٍ نُطَالِبُ(٤)

---

(١) الصافيات : جمع صافية ، وهى الخمر ؛ والأكوب جمع كوب ، وهو القدح لا عروة له .

(٢) أى يجودوا بالشراب

(٣) الباترات . السيوف القواطع ؛ يريد : أنه لا يطرب إلا على صليل السيوف ؛ وهذا أيضا إحدى هنواته التى تدل على بعد همته ، ولا سيما اذا لوحظ أنه مما قاله فى صباه، مثل الأبيات التى قبلها .

* لما مات محمد بن إسحاق هذا رثاه المتنبى بأبيات مطلعها :

* إنى لأعلم واللبيب خبير *

وستأتى ، ثم استزاده بنوعم الميت فقال هذه الأبيات :

* غاضت أنامله وهن بحور *

وستمر بك ، ثم سألوه أن ينفى الشماتة عنهم فقال :

الآل إبراهيم بعد محمد ... إلا حنين دائم وزفير

ورثاها فى قافية الراء ، ثم سألوه زيادة فى نفى الشماتة عنهم فقال هذه الأبيات التى نحن بصددها

(٤) اللام فى قوله لأى : حشو ورفو لتقوية العامل ، على حد قوله تعالى « إن كنتم للرؤيا تعبرون » أى أى صروف الدهر نعاتب ؛ والوتر : الثأر . يشكو الدهر يقول : إن صروف الدهر ورزاياه كثيرة متوافرة ، فلا يمكن معاتبتها ولا طلب الثأر منها .

مَضَى مَنْ فَقَدْنَا صَبْرَنَا عِنْدَ فَقْدِهِ
وَقَدْ كَانَ يُعْطِى الصَّبْرَ وَالصَّبْرُ عَازِبُ (١)

يَزُورُ الْأَعَادِى فى سَمَاءِ عَجَاجَةٍ أَسِنَّتُهُ فى جَانِبَيْهَا الْكَوَاكِبُ (٢)

فَتَسْفِرُ عَنْهُ وَالسُّيُوفُ كَأَنَّمَا مَضَارِبُهَا مِمَّا انْفَلَلْنَ ضَرَائِبُ (٣)

طَلَعْنَ شُمُوساً وَالْغُمُودُ مَشَارِقٌ لَهُنَّ وَهَامَاتُ الرِّجَالِ مَغَارِبُ (٤)

---

(١) العازب : البعيد ، يقول : إنه كان فى حياته إذا فقد الناس الصبر فى الشدائد يعينهم ويحسن إليهم حتى يصبروا على ما ينوبهم بما ينالون منه ، وقد روى يعطى – بفتح الطاء – فيكون معناه أنه كان يصبر فى المواطن التى كان يصعب فيها الصبر .

(٢) العجاجة : الغبار ؛ والاسنة : أطراف الرماح . جعل الغبار المرتفع فى الهواء سماء ، وجعل الأسنة لامعة فيها كالكواكب ، وهذا من قول بشار :

كأنَّ مُثارَ النَّقع فوق رؤوسنا وأسيافَنا لَيلٌ تهاوى كواكبه

وقال أيضاً :

خلقنا سماء فوقنا بنجومها سيوفاً ونقعاً يقبِضُ الطرْف أقتما

وقال آخر :

نَسَجَتْ حوافرُها سماء فوقها جعلَتْ أسنَّتنا نجومَ سمائها

(٣) تسفر : تنجلى ، ومضارب : جمع مضرب ، وهو حد السيف وظبته وانفللن : انثلمن ؛ والضرائب : جمع ضريبة ، وهى الشىء المضروب بالسيف يقول : إن هذه العجاجة تنجلى عنه ، وقد تثلمت سيوفه من كثرة الضرب حتى صارت كأنها مضروبة لاضاربة ، والعرب من عادتهم الفخر بفل سيوفها قال النابغة :

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفَهم بهن فُلولٌ من قِراع الكتائب

وفى هذا البيت – بيت النابغة – من البديع تأكيد المدح بما يشبه الذم

(٤) الهامات : الرؤوس . يقول : إن سيوفه طلعت من أغمادها كالشمس فى بريقها ثم غربت فى رؤوس المضروبين ، فصارت رءوسهم مغارب لها ، وهذا من قول أبى نواس فى الخمر :

طالعات مع السُّقاةِ علينا فإذا ما غَرَبن يَغرُبنَ فينا

مَصَائِبُ شَتَّى جُمِّعَتْ فى مُصِيبَةٍ ... وَلَمْ يَكْفِهَا حَتَّى قَفَتْهَا مَصَائِبُ(١)
رُثَى ابْنَ أَبِينَا غَيْرُ ذِى رَحِمٍ لَهُ ... فَبَاعَدَنَا مِنْهُ وَنَحْنُ الْأَقَارِبُ(٢)
وَعَرَّضَ أَنَّا شَـامِتُونَ بِمَوْتِهِ ... وَإِلَّا فَزَارَتْ عَارِضَيْهِ الْقَوَاضِبُ(٣)
أَلَيْسَ عَجِيباً أَنَّ بَيْنَ بَنِى أَبٍ ... لِنَجْلِ يَهُودِىٍّ تَدِبُّ الْعَقَارِبُ(٤)
أَلَا إِنَّمَـا كَانَتْ وَفَاةُ مُحَمَّدٍ ... دَلِيلاً عَلَى أَنْ لَيْسَ لِلَّهِ غَالِبُ(٥)

---

(١) شتى : متفرقة ؛ وقفتها : تبعتها . يقول : إن مصيبتنا به ليست واحدة وإنما هى لعظمها كأنها مصائب شتى ، ولم يكفنا ذلك حتى تبعتها مصائب أخرى ، وهى اتهام المفسدين إيانا بأنا شامتون بموته .

(٢) قوله غير ذى رحم له : يروى ، غير ذى رحم لنا . يقول : إن هناك أجنبياً لا يمت إليه أو إلينا بآصرة قرابة يظهر الأسف على فقد ابن أبينا — يريد ابن عمنا — فأبعدنا عنه باتهامه إيانا بالشماتة ونحن أقرباؤه ، فموته إنما يحزننا نحن لا غيرنا .

(٣) عرض أنا شامتون : أى عرض فى مرثيته بأنا شامتون ، والتعريض الإشارة إلى الغرض من غير تصريح ، والعارضان : جانبا اللحية ؛ والقواضب السيوف القاطعة . وقال الواحدى : قوله : وإلا فزارت يجوز أن يكون من كلام المعرض حكى عنه ما قال كأنه قال : هم شامتون بموته ، وإلا فزارتنى السيوف : أى قتلت بها إن لم يكن الأمر على ما أقول ، فيكون هذا تأكيداً لما ذكر من شماتتهم ؛ ويجوز أن يكون من كلام الذين ينفون الشماتة عن أنفسهم . يقول : إن لم يكن الأمر على ما ذكر فرمى الله عارضيه بالسيوف ، فيكون هذا تأكيداً لنفى الشماتة ، وأن الأمر ليس على ماذكر .

(٤) أن بين بنى أب : أى أنه بين بنى أب ، فاسم إن هو ضمير الشأن ، والنجل : الولد ، ودبيب العقارب : كناية عن النميمة . يقول : أليس عجيباً أن تدب عقارب يهودى بين بنى أب أى إخوة فيوقع بينهم العداوة ؟ يريد هذا الذى كان يمشى بينهم بالنميمة ، وجعله ابن رجل يهودى مبالغة فى أجنبيته عنهم ويريد بوصفه بيهودى أنه خبيث دساس .

(٥) يقول : برغم أنه كان يغلب جميع الناس لم يقدر على الامتناع من الموت ، فدل ذلك على أنه ليس لله غالب ، وهذا من قول أبى تمام .

كَفَى فقتْلُ محمدٍ لىَ شاهِدٌ ... أن العزيزَ مع القضاء ذليل

وقال يمدح المغيث بن عليّ بن بشر العجلي :

دَمْعٌ جرَى فَقَضَى في الرَّبْعِ مَا وَجَبَا ... لِأَهْـلِه وَشَفَى أَنَّى وَلاَ كَرَبَا(١)

عُجْنَا فَأَذْهَبَ ما أَبقَى الفِرَاقُ لَنَا ... مِنَ الْعُقُولِ وَمَا رَدَّ الَّذِى ذَهَبَا(٢)

سَـــقَيْتُهُ عَبَرَاتٍ ظَنَّهَا مَطراً ... سَوَائِلاً مِنْ جُفُونٍ ظَنَّهَا سُحُبَا(٣)

دَارُ المُلِمِّ لَهَـا طَيْفٌ تَهَدَّدَنِي ... لَيْلاً فَمَا صَدَقَتْ عَيْنِي وَلاَ كَذَبَا(٤)

هذا وقال العكبرى — تعليقاً على قوله : أن ليس — ؛ أن هى المخففة من الثقيلة ، ولا تدخل إلا على الاسم ؛ ولا تدخل على الفعل حتى يحجز بينه وبينها حاجز لدخولها على الأسماء ، كقوله تعالى « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم » تقديره : أنه لم يكن ربك مهلك القرى بظلم ؛ وكقوله تعالى « علم أن سيكون منكم مرضى » تقديره : أنه سيكون ؛ فلابد من حرف يحجز بينها وبين الفعل ؛ وقد دخلت ههنا على ليس — وهى فعل بلا حاجز — وذلك لضعف ليس عن الأفعال ؛ ولأنها غير متصرفة كتصرف الأفعال ؛ ومثله قوله تعالى : « وأن ليس للانسان إلا ماسعى » .

(١) أنى : أى كيف وأنى بمعنى كيف كثير . قال تعالى : « أنى يحيى هذه الله بعد موتها » . وكرب : من أفعال المقاربة ، تقول كرب أن يفعل كذا : أى كاد وقارب . يقول : إنه بكى فى أطلال الأحبة بدمع قضى ما وجب لهم وشفاه مما ألم به من وجد ، ثم رجع عن ذلك وقال : وكيف أظن أن بكائى قضى مايجب وشفى مافى نفسى من لوعة وهو لم يقض الحق ولم يشف الوجد ولا قارب أن يقضى ، يريد أنه قاصر عن ذلك . وفى هذا البيت من البديع مايسمونه الرجوع ؛ وهو العود إلى الكلام السابق بالنقض والإبطال ، وهو كثير فى كلام الشعراء ، ومنه قول زهير :

قِفْ بالدِّيارِ التى لم يعفها القِدَمُ ... بَلى وغَـــيَّرها الأرواحُ والديم

(٢) عاج بالمكان : وقف به . يقول : عطفنا على هذا الربع لنزوره فأذهب ما كان بقى من عقولنا بعد الفراق بتجديده ذكرى الأحبة فضلا عن أن يرد علينا ما كان قد ذهب منها لدى الفراق .

(٣) يقول : سقيت هذا الربع دموعا سوائل ظنها مطراً من جفون ظنها سحبا .

(٤) دار الملم لها طيف : أى هذا الربع هو دار التى ألم طيف لها ، فدار : خبر

نَاءَيْتُهُ فَدَنَا أَدْنَيْتُهُ فَنَأَى جَمَّشْتُهُ فَنَبَا قَبَّلْتُهُ فَأَبَى(١)
هَامَ الْفُؤَادُ بِأَعْرَابِيَّةٍ سَكَنَتْ بَيْتًا مِنَ الْقَلْبِ لَمْ تَمْدُدْ لَهُ طُنُبَا(٢)
مَظْلُومَةُ الْقَدِّ فِي تَشْبِيهِهِ غُصُنًا مَظْلُومَةُ الرِّيقِ فِي تَشْبِيهِهِ ضَرَبَا(٣)

مبتدأ محذوف ، والألف واللام — فى الملم — بمعنى التى ؛ وطيف : فاعل ملم ولها حال مقدمة من قوله طيف . يقول : إن هذا الربع هو دار المرأة التى زارنى لها طيف . أوعدنى ليلا . أى هددنى بالهجر فما صدقت عينى لأنها رأت خيالا لأن ذلك كان رؤيا ، ولا كذب الطيف فى تهديده لأنه هجرنى بعد ذلك ، إذ لم أنم بعدها .

(١) نا أيته باعدته ؛ وروى أنأيته : أى أبعدته ؛ ودنا : قرب ، وجمشته : غازلته وداعبته ، ونبا : تجافى وتباعد ؛ وأنبيته أنا : دفعته عن نفسى ؛ وفى المثل :

* الصدق ينبى عنك لا الوعيد *

أى أن الصدق يدفع عنك الغائلة فى الحرب دون التهديد ؛ ونبا السيف : إذا لم يعمل فى الضريبة ؛ ونبا بصرى عن الشيء ونبا به منزله : إذا لم يوافقه ؛ وأبى : امتنع ، يقول : كلما أردت من هذا الطيف شيئاً قابلنى بضده ، وهذا قريب من قوله :

* صدت وعلمت الصدود خيالها *

(٢) الهيام : أن يذهب الرجل على وجهه لغلبة الهوى عليه ؛ والطنب : حبل الخباء والسرادق ونحوهما ، قال ابن جنى ، يقول : ملكت قلبى بلا كلفة ومشقة ، فكانت كمن سكن بيتاً لم يتعب فى إقامته ولا مد أطنابه . وقال الواحدى : وأحسن من هذا أن يقال : اتخذت بيتا من قلبى فنزلته ، والقلب بيت بلا أطناب ولا أوتاد .

(٣) يقول : هى مظلومة القد — إذا شبه بالغصن ، لأنه أحسن منه — وهى مظلومة الريق — إذا شبه بالعسل لأنه أحلى منه ؛ والضرب — وهو العسل الأبيض الغليظ — يذكر ويؤنث ؛ قال أبو ذؤيب الهذلى فى تأنيثه :

وما ضَرَبٌ بيضاء يأوى مليكُها إلى طُنُفٍ أعيا بِرَاقٍ ونازل
بأطيبَ مِنْ فيها إذا جئتَ طارقاً وأشهى إذا نامتْ كلابُ الأسافلِ(١)

---

(١) يأوى مليكها : أى يعسوبها ؛ ويعسوب النحل : أميره ؛ والطنف : حيد يندر

بَيْضَاء تُطْمِعُ فِيمَا تَحْتَ حُلَّتِهَا ... وَعَزَّ ذَلِكَ مَطْلُوباً إِذَا طُلِبَا(١)
كَأَنَّهَا الشَّمْسُ يُعْيِي كَفَّ قَابِضِهِ ... شُعَاعُهَا وَيَرَاهُ الطَّرْفُ مُقْتَرِبَا(٢)
مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تِرْبَيْهَا فَقُلْتُ لَهَا
مِنْ أَيْنَ جَانَسَ هٰذَا الشَّادِنُ الْعَرَبَا(٣)
فَاسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ كَالْمُغِيثِ يُرَى
لَيْثَ الشَّرَى وَهْوَ مِنْ عِجْلٍ إِذَا انْتَسَبَا(٤)

---

(١) الحلة : الثوب ؛ ومطلوبا : منصوب على الحال أو التمييز . يقول ؛ إنها لأنسها ولين حديثها تطمع العاشق فى نفسها ، فإذا حاول ذلك محاول عز عليه مطابه لعفتها وصيانتها ؛ ومثل هذا قول بعضهم :

يُحْسَبْنَ من لينِ الحديثِ دَوانياً ... وبِهِنّ عن رَفَثِ الرجالِ نِفَارُ

(٢) يعى : يعجز ، والضمير فى قابضه للشعاع ؛ وشعاعها فاعل يعى ، والطرف : النظر ؛ ومقتربا : حال . شبهها بشعاع الشمس فى قربه من الطرف وبعده عن القبض عليه ؛ وهذا كما يقول ابن عيينة :

وَقلتُ لِأَصْحَابِي هِيَ الشَّمْسُ ضَوْؤُها ... قريبٌ ولكنْ فى تناوُلِها بُعْدُ

ويقول الطرماح :

هِيَ الشَّمْسُ لما أن تغيبَ ليلها ... وَغارتْ فما تبدُو لعينٍ نجُومُها
تراها عيُونُ النَّاظِرِينَ إذا بدَتْ ... قريباً ولا يسطيعُها مَنْ يَرُومُها

وأجمل من هذا قول العباس بن الأحنف :

هى الشمسُ مَسكنُها فى السّماء ... فعزِّ الفؤادَ عَزاءً جميلا
فلن تستطيعَ إليها الصُّعُودَ ... ولن تستطيعَ إليك النزُولا

(٣) و (٤) الترب : المساوى لغيره فى العمر ؛ ويقال اللدة ؛ والشادن : من الظباء

من الجبل قد أعيا بمن يرقى ومن ينزل ؛ وقوله كلاب الأسافل : يريد أسافل الحى لأن مواشيهم لاتبيت معهم ؛ فرعاتها وأصحابها لاينامون إلا آخر من ينام لاشتغالهم بحلبها .

جاءَتْ بِأَشْـــجَعَ مَنْ يُسْمَى وَأَسْمَحَ مَنْ
أعطى وَأَبْلَغَ مَنْ أَمْلَى وَمَنْ كَتَبا[١]

لَوْ حَـلَّ خاطِرُهُ فِي مُقْعَدٍ لَمَشَى
أَوْ جاهِلٍ لَصَحا أَوْ أَخْـرَسٍ خَطَبا[٢]

إِذَا بَدَا حَجَبَتْ عَيْنَيْكَ هَيْـبَتُهُ
وَلَيْسَ يَحْجُبُهُ سِـتْرٌ إِذَا احْتَجَبا[٣]

الذى قوى وترعرع واستغنى عن أمه ؛ يريد به المحبوبة ؛ واستضحك : بمعنى ضحك ، والمغيث : اسم الممدوح ، وكالمغيث : أى أنا كالمغيث ، والليث : الأسد ، والشرى : موضع تكثر فيه الأسود ، وعجل : قبيلة الممدوح . يقول : مرت بنا بين تربها فقلت لها : أنت من الظباء وتِرباك من العرب ، فكيف اتفقت هـذه المجانسة بينك وبينهما ؟ فضحكت ثم قالت : لاتعجب من ذلك فإنى كالمغيث : تراه من الأسود ، وهو مع ذلك من عجل ؛ وكذلك أنا : ترانى من الظباء وأنا عربية . وفى هذين البيتين من البديع مايسمونه حسن التخلص ، وهو الخروج مما ابتدئ به الكلام من نسيب أو غيره إلى المقصود مع رعاية الملاءمة بينهما .

(١) أى جاءت هذه المحبوبة بذكر رجل هذه أوصافه : وقيل جاءت هذه القبيلة التى هى عجل بمن هذه أوصافه .

(٢) يقول : إن خاطره لتوقده لو كان فى زمن[١] لمشى ، أو فى جاهل لصحا من جهله وصار عالما . أو فى أخرس لقدر على النطق .

(٣) يقول فى الشطر الأول : إذا ظهر للناس حجبت هيبته عيونهم عن النظر إليه لشدة هيبته ، وهذا كقول الفرزدق :

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ فَمَا يُكَلَّمُ إِلا حِينَ يَبْتَسِمُ

---

(١) الزمن ذو الزمانة : أى العاهة ، وهو هنا فى معنى المقعد .

بَيَاضُ وَجْــهٍ يُرِيكَ الشَّمْسَ حَالِكَةً
وَدُرُّ لَفْــظٍ يُرِيكَ الدُّرَّ مَخْشَـلَبَا(١)
وَسَيْفُ عَزْمٍ تَرُدُّ السَّيْفَ هِبَّتُهُ ... رَطْبَ الغِرَارِ مِنَ التَّأْمُورِ مُخْتَضِبَا(٢)

وقوله أيضاً :

وإذا الرِّجالُ رأَوْا يزيدَ رأيتَهم ... خُضُعَ الرقابِ نَوَاكِسَ الأبصارِ(١)

ويقول أبو نواس :

إن العُيُونَ حُجِبْنَ عنكَ لهيبةٍ ... فإذا بَدَوْتَ لهنّ نُكِّسَ نَاظِرُ

ويقول فى الشطر الثانى : إذا احتجب وراء الستور ظهر نور وجهه من ورائها فلم تستطع حجبه ، وهذا كقول القائل :

أصْـبَحْتَ تأمُرُ بالحجابِ لخلوةٍ ... هيهاتَ لَسْتَ على الحجابِ بقادرِ

وقال ابن جنى : هذا يحتمل تأويلين : أحدهما أن حجابه قريب لما فيه من التواضع فليس يقصر أحد أراده دونه وإن كان محتجبا ؛ والآخر أنه وإن احتجب فهو كلا محتجب لشدة يقظته ومراعاته الامور . وعبارة الخطيب : الذى أراده المتنبى أن حسنه وبهاءه لا يحجبه شىء ، والبيت الذى يليه يشهد له

(١) الحالك : الشديد السواد ؛ والمخشلب : خرز أبيض يشبه الدار ، والعرب تسميه الخضض ؛ أما المخشلب فهى كلمة نبطية . يقول : إن نور وجهه يغلب نور الشمس حتى ترى إذا قابلها كأنها سوداء ، وأن لفظه أحسن من الدر حتى يرى الدر إذا نطق كأنه خرز .

(٢) هبته: مضاؤه ؛ والغرار : الحد ؛ والتأمور : دم القلب . قال أوس بن حجر .

أُنبئْتُ أنَّ بَنِي سُحَيْمٍ أَوْلَجُوا ... أبياتَهُمْ تأمورَ نفسِ المنـذِرِ

« أى مهجة نفسه وكانوا قتلوه » يقول المتنبى : إن مضاء عزمه يصير السيف رطب الحد من دم الأعداء .

---

(١) خضع: جمع خضوع أى خاضع ونواكس جمع شاذ وروى منكسى: نواكس أى مطأطئ رؤسهم منكسى أبصارهم إجلالا له وهيبة وللنحويين فى نواكس كلام طريف فانظره

عُمْرُ الْعَدُوِّ إذا لاقاهُ فى رَهَجٍ　　أَقَلُّ مِنْ عُمْرِ ما يَحْوِى إذا وَهَبَا[1]

تَوَقَّهُ فَمَتَى ماشِئْتَ تَبْلُوَهُ　　فَكُنْ مُعادِيَهُ أَوْ كُنْ لَهُ نَشَبا[2]

تَحْلُو مَذاقَتُهُ حَتَّى إذا غَضِبا　　حالَتْ فَلَوْ قَطَرَتْ فى الماءِ ماشُرِبا[3]

---

(١) الرهج : الغبار ، وأرهج الغبار : أثاره . يقول : إذا لقى عدوه فى غبار الحرب قصر عمره حتى يكون أقصر من عمر المال عنده إذا أخذ فى العطاء .

وقال ابن القطاع : يريد أن عمر العدو حين يلاقيه قريب ، كما أن عمر المال عنده قريب حين يدخل إليه فلا يكاد حتى يهبه ؛ وليس يريد أن عمر العدو أقل من عمر المال، وإنما يريد المساواة والمقارنة وأنهما لايبقيان. وقوله إذ وهبا :أى إذا أراد أن يهب.

(٢) تبلوه : أراد أن تبلوه ، فحذف أن وبقى عملها . قال العكبرى : تبلوه : انتصب بإضمار أن ، وهو على مذهبنا ، فإن أهل الكوفة نصبوا بها مقدرة ، وأبى ذلك البصريون ؛ وحجتنا ما قرأ به عبد الله بن مسعود : « وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لاتعبدوا إلا الله » فأعمل أن مقدرة ؛ وحجتنا أيضا قول عامر بن الطفيل :

* وَنَهْنَهْتُ نَفْسِى بَعْدَ ما كِدْتُ أَفْعَلَهُ *

فنصب أفعله بأن المقدرة . والنشب : المال . يقول : احذره ولا تحم حوله بالعداء ، فإن أردت اختباره فكن عدوه أو مالا فى يده حتى ترى ما يحل بك من الإبادة والإفناء ، وفى معنى هذا البيت قول مسلم بن الوليد :

تَظلم المال والأعداء من يده　　لا زال للمال والأعداء ظلاما

وما أحلى قول أبى نواس :

ليت من كانَ عدوّى　　كان لإبراهيم مالا

(٣) حالت : تغيرت ، وجعل المذاقة مما يقطر اتساعا . يقول : هو عذب الأخلاق فإذا غضب تغيرت فأضت مرة فلو أمكن أن يمزج الماء بها لم يطق أحد شربه ؛ يعنى أن فيه حلاوة لأوليائه ومرارة لأعدائه ، وفى الماء يروى فى البحر قال العكبرى : وأراد بالبحر ههنا العذب ، قال الله تعالى « مرج البحرين » يريد الملح والعذب ؛ وأهل مصر والصعيد كلهم يسمون النيل : البحر . هذا وفى البيت تصريع ، وهو مما يحسن استعماله للخروج من قصة إلى قصة كما أسلفنا .

وَتَغْبِطُ الأَرْضُ مِنْهَا حَيْثُ حَلَّ بِهِ
وَتَحْسُدُ الخَيْلُ مِنْهَا أَيَّهَا رَكِبَا(١)

---

(١) الغبطة والحسد : كلاهما بمعنى التمنى ، بيد أن الغبطه أن تتمنى مثل حال المغبوط من غير أن تريد زوالها ولا أن تتحول عنه ، والحسد أن تتمنى مثل نعمته على أن تتحول عنه ؛ فالغبطة أخف . تقول منه غبطته بما نال أغبطه غبطا وغبطة فاغتبط هو كقولك منعته فامتنع ، وحبسته فاحتبس . قال حريث بن جبلة العذرى :

وبينا المرء فى الأَحْيَاء مُغْتَبِطٌ ... إذا هُوَ الرَّمْسُ تعفوه الأعاصير

وغبطت الكبش أغبطه غبطا : إذا جسست إليته لتنظر أبه طرق أم لا ؟(١) وغبط الشاة والناقة : جسهما لينظر سمنهما من هزالها . قال رجل من بنى عمرو بن عامر يهجو قوما من سليم :

إذا تجليتَ غَلاَّقاً(٢) لِتَعْرِفَها ... لاحَتْ مِنَ اللؤْمِ فى أعناقِها الكُتُبُ

إنى وَأَتْيِى ابنَ غَلاَّقٍ لِيَقْرِيَنِى ... كغابِطِ الكلبِ يَبْغِى الطِّرْقَ فى الذَّنَبِ

وقد سئل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل يضر الغبط ؟ قال : لا ، إلا كما يضر العضاة الخبط ، أراد صلوات الله عليه أن الغبط لا يضر ضرر الحسد ، وأن ما يلحق الغابط من الضرر الراجع إلى نقصان الثواب دون الإحباط بقدر ما يلحق العضاه من خبط ورقها الذى هو دون قطعها واستئصالها ، ولأنه يعود بعد الخبط ورقها : فهو وإن كان فيه طرف من الحسد فهو دونه فى الإثم . وأصل الحسد : القشر ؛ وأصل الغبط الجس ؛ والشجر إذا قشر عنها لحاؤها يبست ، وإذا خبط ورقها استخلف دون يبس الأصل ، وضمير منها : للأرض ، وضمير به : لحيث حل الذى يقع مفعولا به لتغبط ، وضمير منها الثانية : للخيل ، وأيها : مفعول تحسد يقول : إن الأرض يغبط بعضها البعض الذى يحل فيه ، والخيل تحسد بعضها البعض الذى يركبه . قال ابن جنى : وجعل الغبطة للأرض لأنها وإن كثرت بقاعها فهى كالمكان الواحد لاتصال بعضها ببعض ،

---

(١) الطرق : — الشحم أو السمن .

(٢) غلاق : — كشداد رجل أبو حى .

وَلاَ يَرُدُّ بِفِيهِ كَفَّ سَائِلِهِ　　عَنْ نَفْسِهِ وَيَرُدُّ الْجَحْفَلَ اللَّجِبَا[١]

وَكُلَّمَا لَقِيَ الدِّينَارُ صَاحِبَهُ　　فِي مُلْكِهِ افْتَرَقَا مِنْ قَبْلِ يَصْطَحِبَا[٢]

مالٌ كَأَنَّ غُرَابَ الْبَيْنِ يَرْقُبُهُ　　فَكُلَّمَا قِيلَ هٰذَا مُجْتَدٍ نَعَبَا[٣]

والخيل ليست كذلك لأنها متفرقة فاستعمل لها الحسد ، والبيت مأخوذ من قول أبي تمام :

مَضَى طاهرَ الأثوابِ لم تَبْقَ بُقعة　　غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبرُ

(١) الجحفل : الجيش العظيم ، واللجب : المختلط الأصوات . يقول : إنه جواد شجاع لا يستطيع أن يرد سائله ، ولكنه يرد وحده الجيش العظيم .

(٢) قوله من قبل يصطحبا : أراد من قبل أن يصطحبا ، فحذف أن وأبقى عملها ، يقول : إذا التقى الديناران لديه تفرقا قبل اصطحابهما ، فهما يلتقيان مجتازين لامصطحبين وقال الواحدى : يجوز نصب الدينار وصاحبه ويكون معناه كلما لقى الممدوح الدينار مصاحبا له ، وما أجمل ما يقول النضر بن جؤية بن النضر فى هذا المعنى :

قالت طَريفةُ ما تُبقِي دراهمَنا　　وما بنا سَرَفٌ فيها ولا خَرَقُ

إنا إذا اجْتَمَعَتْ يَوْماً دراهمُنا　　ظَلَّتْ إلى طُرُق المعروف تَستبقُ

لا يألَف الدرْهَمُ المضروبُ صُرّتَنَا　　لكِنْ يمُرُّ عليها وهْوَ مُنطلقُ

حَتى يصِيرَ إلى نَذْلٍ يُخَلِّدُهُ　　يكادُ مِنْ صَرِّهِ إيَّاهُ يَنْمزِقُ

(٣) المجتدى : السائل ، ونعيب الغراب : صياحه ، والبين : الفراق يقول : هذا المال كأن غراب البين يرقبه ، فكلما جاء مجتد صاح فيه فتفرق شمله ، وعبارة الواحدى إن ماله يرقبه غراب البين ، فإذا جاء السائل فرق الممدوح ماله ، فكأن غراب البين نعب فى مال الممدوح بالتفريق ، وما ذكر من رقبة الغراب ونعيبه بيان ومثال لتفريقه المال عند مجىء السائل ، والأصل فى هذا أن العرب تقول : غراب البين إذا صاح فى ديار قوم تفرقوا ، أما ماقاله ابن جنى من أن المعنى : كما أن غراب البين لا يفتر عن الصياح . كذلك هذا لا يفتر عن العطاء : فهو بعيد ، ومن الذى قال إن الغراب لا يفتر عن الصياح ؟ هذا وقالوا إنما حسنت الإضافة فى غراب البين لأنه اسم مشترك يقع على أشياء ، فمنها غراب الفأس : أى حدها . قال الشماخ يصف رجلا قطع نبعة :

بَحْرٌ عَجَائِبُهُ لَمْ تُبْقِ فى سَمَرٍ ... وَلا عَجَائِبِ بَحْرٍ بَعْدَهَا عَجَبَا[١]

لا يُقْنِعُ ابْنَ عَلِيٍّ نَيْلُ مَنْزِلَةٍ ... يَشْكُو مُحَاوِلُهَا التَّقْصِيرَ وَالتَّعَبَا[٢]

هَزَّ اللِّوَاءَ بَنُو عِجْلٍ بِهِ فَغَدَا ... رَأْسًا لَهُمْ وَغَدَا كُلٌّ لَهُمْ ذَنَبَا[٣]

فأنحى عليها ذاتَ حدٍّ غُرَابها ... عَدُوٌّ لأوْسَاطِ العِضَاهِ مُشَارِزُ

« أى أمال على النبعة فأسا ذات حد ، غرابها — أى حدها — مشارز : أى معاد أو سيء الخلق ، والمشارزة هى المشارسة » ومنها الغراب : قذال الرأس يقال شاب غرابه : أى شعر قذاله . والغرابان من الفرس والبعير حرفا الوركين الأيسر والأيمن اللذان فوق الذنب حيث التقى رأسا الورك اليمنى واليسرى ، قال الراجز .

يا عَجَبا لِلعَجَبِ العُجابِ ... خمسة غربان على غُرابِ

(١) السمر : المسامرة ، وهو حديث الليل ، وأصله أنهم كانوا يسمرون فى ظل القمر ، وأصل السمر : ظل القمر ، والسمرة مأخوذة من هذا ، وسمر يسمر سمراً وسموراً لم ينم : وهو سامر ، وهم السمار ، والسامر أيضاً السمار ، وهم القوم يسمرون . قال الأزهرى : وقد جاءت حروف على لفظ فاعل وهى جمع ، فمنها الحامل والسامر والباقر والحاضر ، والحامل للابل ويكون فيها الذكور والإناث ، والسامر : الجماعة من الحى يسمرون ليلا ، والحاضر الحى النزول على الماء ، والباقر : البقر فيها الفحول والإناث ، قالوا: والسامر أيضا : الموضع الذى يجتمعون للسمر فيه ، وأنشدوا :

* وَسَامِرٍ طال فيه اللهوُ والسمرُ *

وابنا سمير الليل والنهار لأنه يسمر فيهما . يقول : هو بحر له عجائب فى باب الفضل والشجاعة لانحا كيها عجائب البحار ولا مايتحدث به السمار ، إذهى بالقياس إليها كالشىء المألوف لغرابة مايبدو منه ويتحدث عنه ، وعبارة ابنى جنى : تشاغل الناس بالتعجب من فضائل هذا الرجل عن عجائب الأسمار والبحار .

(٢) محاولها : أى طالبها ، وأصله طلب الشىء بالحيلة . يقول : لايقنع الممدوح أن ينال المنزلة العظيمة التى يشكو طالبها قصوره عنها وتعبه فى تحصيلها ، إذ هو دائما يطمح إلى مايعجز عنه الطالبون .

(٣) اللواء الراية ، وبنو عجل : قبيلة الممدوح . يقول : حركوا اللواء باسمه — أى

التَّارِكِينَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ أَهْوَنَهَا
وَالرَّاكِبِينَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ مَا صَعُبَا[1]

مُبَرْقِعِي خَيْلِهِمْ بِالْبِيضِ مُتَّخِذِي
هَامِ الْكُمَاةِ عَلَى أَرْمَاحِهِمْ عَذَبَا[2]

جعلوه سيدهم وقائدهم — فاذا حركوا رايتهم حركوها باسمه ، فصار سيدهم وصاروا هم به سادة الناس ، فهو رأس بني عجل فصاروا بذلك سادة الناس ، وصار الناس أذنابا لهم وتبعا .

(١) نصب التاركين على المدح بإضمار أعني أو أمدح . يقول : إنهم — لبعد همتهم — يتركون ماهان من الأمور وسهل وجوده ، ويرومون الصعب الشاق منها ، وفي هذا يقول الطهوي :

ولا يَرْعَوْنَ أكنافَ الهُوَيْنَا إذا حلُّوا ولا روضَ الهُدون[1]

(٢) البيض : السيوف ، والهام : الرؤوس ، والكماة : الأبطال المدججون في السلاح والعذب : جمع عذبة وهي الريش المعلق في طرف الرمح . يقول : إن سيوفهم تحول دون خيلهم أن يصل إليها أحد بطعن أو ضرب : إما لمنازلتهم دونها ، أو لحذقهم بالضرب ، فتكون لها بمنزلة البراقع . والمعنى أنهم يحمونها بالسيوف لا بالبراقع والتجافيف . وعبارة أبي الفضل العروضي : أن سيوفهم مكان البراقع لخيلهم فلا يصل العدو إلى فرسانهم . وقوله متخذي هام الكماة : معناه أنهم يأخذون رءوس الأبطال بأطراف رماحهم ، فتكون مع شعورها بمنزلة العذب التي تعلق بالرماح . وقال جرير في هذا المعنى :

كأنَّ رُءوسَ القومِ فَوْقَ رِماحِنا
غَدَاةَ الوَغَى تيجانُ كِسْرَى وَقيصَرَا

وقال مسلم بن الوليد :

يكسو السُّيُوفَ نفوسَ الناكثين به ويجعلُ الهامَ تيجانَ القنا الذُّبُلِ

---

(١) الهدون : الدعة والسكون .

إنَّ المَنِيَّةَ لَوْ لاقتهُمُ وَقفتْ خَرْقاء تتهِمُ الإقْدَامَ والهَرَبَا(١)
مَرَاتِبٌ صَعِدَتْ وَالفِكْرُ يَتْبعهُا فجَازَ وَهْوَ على آثارِها الشُّهُبَا(٢)
مَحَامِدٌ نَزَفَتْ شِعْرِى لِيَمْلأَهَا فآلَ مَا امتَلأَتْ مِنهُ وَلاَ نَضَبَا(٣)
مَكَارِمٌ لكَ فُتَّ العَالَمِينَ بِهَا مَنْ يَسْتَطِيعُ لِأَمْرٍ فَائِتٍ طَلَبَا(٤)

---

(١) الخرقاء : الحمقاء ، مؤنث الأخرق. يقول: لو لاقتهم المنية يوم الوغى للبطت بالأرض خوفا وفزعا لايتجه لها رأى فى السلامة فهى تتهم الإقدام وتتهم الهرب خشية الإدراك : أى تقدر أنها إن هربت أدركت . قال أبو تمام :

وقال أبو تمام :
أبدلتَ أرؤسهم يومَ الكريهةِ من قنا الظهورِ قنا الخطِّيِّ مُدَّعِما
من كلِّ ذى لِمَّةٍ غطتْ ضفائرُها صدرَ القناة فقد كادت تُرى عَلَما

من كل أرْوَعَ ترتاعُ المنونُ له إذا تجردَ لانِكسٌ وَلا حَذِرُ
وقال أيضاً :
شُوسٌ إذا خفقتْ عُقابُ لوائهم ظَلَّتْ قلوبُ الموتِ منها تخفقُ

(٢) الشهب : الكواكب . يقول: إن لهم مراتب عالية علت فى السماء فصارت أعلى من الكواكب ، لأن الفكر الذى يتبعها جاز الكواكب ولم يلحقها .

(٣) نزفت : استنفدت ، وآل : عاد ورجع ؛ ونضب : جف . قال الواحدى : جعل اقتضاء المحامد أن تنظم بالشعر نزفا وجعل الشعر — لكونه مقتضى — منزوفا . يقول : لم تمتلىء هذه المحامد من شعرى : أى لم تبلغ الغاية التى تستحقها من شعرى ، ولا شعرى فنى ، فأنا أبدا أمدحهم : وبيان ذلك أن لهم محامد استخرجت شعرى لينظم تلك المحامد كلها فلم تنحصر بالشعر ولم يفن الشعر يريد كثرة محامدهم وكثرة مدائحه لهم يعنى أنه سيعود إلى استيفاء مديحهم ، وجعل الشعر كالماء ينزف ، واستغراق محامدهم فى الشعر كالمها بالماء ، ولما جعل الشعر كالماء جعل فناءه نضوباً .

(٤) يقول : لك مكارم سبقت بها العالمين فليس فى مكنة أحد إدراكها ومن يستطيع إدراك أمر فائت ؟

لَمَّا أَقَمْتَ بِإِنْطَاكِيَةَ اخْتَلَفَتْ ... إِلَىَّ بِالْخَبَرِ الرُّكْبَانُ فِى حَلَبَا(١)
فَسِرْتُ نَحْوَكَ لا أَلْوِى عَلَى أَحَدٍ ... أَحُثُّ رَاحِلَتَىَّ الْفَقْرَ وَالْأَدَبَا(٢)
أَذَاقَنِى زَمَنِى بَلْوَى شَرِقْتُ بِهَا ... لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَى مَا عَاشَ وَانْتَحَبَا(٣)
وَإِنْ عَمَرْتُ جَعَلْتُ الْحَرْبَ وَالِدَةً ... وَالسَّمْهَرِىَّ أَخاً وَالْمَشْرَفِىَّ أَبَا(٤)
بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَى الْمَوْتَ مُبْتَسِماً ... حَتَّى كَأَنَّ لَهُ فِى قَتْلِهِ أَرَبَا(٥)
قُحٍّ يَكَادُ صَهِيلُ الْخَيْلِ يَقْذِفُهُ ... عَنْ سَرْجِهِ مَرَحاً بِالْغَزْوِ أَوْ طَرَبَا(٦)

---

(١) و (٢) اختلفت : ترددت وجاءت مرة بعد أخرى ، والمراد بالركبان : القصاد الذين صمدوا إلى الممدوح فآبوا بالهبات والعطايا ، ولا ألوى لا أعرج . يقول : لما أقمت بأنطاكية جاءتنى ركبان العفاة — الذين قصدوا إليك وأنا فى حلب — فما عتمت أن سرت نحوك لا أعرج فى سيرى ولا أقف ، حتى وصلت إليك محمولا على راحلتين من فقرى الذى يحفزنى إلى بابك طلبا لجدواك وأدبى الذى تسببت به إليك .

(٣) شرقت : غصصت ، وضمير ذاقها : للزمن . وقوله ماعاش . أى مابقى وامتد . والانتحاب : رفع الصوت وترديده بالبكاء . يقول : أذاقنى الدهر من الفقر والغربة شيئاً لو ذاقه هو لبكى وانتحب مدة حياته ولم يستطع عليه صبراً لأنه الغاية فى الشدة ، فكيف أصبر أنا عليه ؟

(٤) عمرت : عشت ، والسمهرى : الرمح ، والمشرفى : السيف ، كنى بهذه القرابات عن ملازمة هذه المذكورات . يقول : إن عشت وتنفس بى العمر لازمت الحرب حتى أدرك طلبتى . هذا ويقال عمر الرجل بكسر الميم يعمر عمراً وعمارة وعمرا ، وعمر — بالفتح — يعمر ويعمر : أى عاش وبقى زمانا طويلا ومنه قولهم : أطال الله عمرك وعمرك وهما وإن كانا مصدرين بمعنى ، إلا أنه استعمل فى القسم أحدهما وهو المفتوح .

(٥) و (٦) الأشعث : المغبر من طول السفر ولقاء الحروب ؛ والقح : الخالص : أى العربى الخالص النسب ؛ وقح : نعت لأشعث ، والمرح : النشاط . يقول : للازمت الحرب بكل رجل قد طال تمرسه بالحروب والأسفار حتى تراه يرمى بنفسه فى التهلكة كأن القتل حاجة له يبتغيها ويتهالك عليها ، وإذا هو سمع صهيل الخيل استخفه ذلك حتى يكاد يطرحه عن السرج لما يجد من النشاط والطرب ؛ وروى ابن جنى بدل صهيل الخيل

فَالمَوْتُ أَعْذَرُ لِي وَالصَّبْرُ أَجْمَلُ بِي   وَالبَرُّ أَوْسَعُ وَالدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا(١)

* * *

صهيل الجرد ـ جمع أجرد وهو الفرس القصير الشعر ـ وذلك مما يحمد في الخيل، ويروى بدل مرحا بالغزو : مرحا بالعز. ومن جيد ما قيل فى معنى البيت الأول قول أبى تمام :

مُسْتَرْسِلِينَ إلى الحُتُوفِ كأَنَّما   بينَ الحُتُوفِ وَبينَهم أَرْحامُ

وقول البحترى :

مُتَسَرِّعِينَ إلى الحُتُوفِ كأنها   وَفْرٌ بأرضِ عَدُوِّهم يُتَنَهَّبُ

(١) يقول : الموت أعذر لى من أن أعيش ذليلا ، فاذا قتلت فى طلب المعالى قام الموت بعذرى ، والصبر أجمل ، لأن الجزع عادة اللئام ، والبر أوسع لى من بلد يضيق بى رزقه فأنا أسافر وأضطرب فى مناكب الأرض ؛ والدنيا لمن غلب وزاحم لا لمن لزم عقرداره ، قال العكبرى : وهذه الأبيات التى أتى بها فى آخر القصيدة خارجة عما هو فيه لأنه يمدح رجلا ، ويذكر أنه قد قصده وأن الزمان قد أذاقه بلوى وشدة ، وقد جاء يستجدى منه ثم يذكر الشجاعة منه وطلب الملوك وأخذ البلاد . . . وأين أبو الطيب والملوك ؟ رحم الله امرأ عرف قدره . . . ولقد أحسن ابن دريد فيما قال :

من لم يقف عند انتهاء قدره   تقاصرت عنه فسيحات الخُطَى

وقد غاب عن العكبرى ـ رحمه الله ـ خلائق المتنبى وأنه لا يمدح الناس إلا ليمدح نفسه ويبنوه بما تنطوى عليه من المطامع والآمال الكبار والنزاع إلى الطعن والنزال .

وقال يمدح على بن منصور الحاجب *

بِأَبِى الشُّمُوسُ الْجَانِحَاتُ غَوَارِبَا ... اللَّابِسَاتُ مِنَ الْحَرِيرِ جَلَابِبَا(١)
الْمُنْهِبَاتُ قُلُوبَنَا وَعُقُولَنَا ... وَجَنَاتِهِنَّ النَّاهِبَاتِ النَّاهِبَا(٢)
النَّاعِمَاتُ الْقَاتِلَاتُ الْمُحْيِيَا ... تُ الْمُبْدِيَاتُ مِنَ الدَّلَالِ غَرَائِبَا(٣)
حَاوَلْنَ تَفْدِيَتِى وَخِفْنَ مُرَاقِبًا ... فَوَضَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ فَوْقَ تَرَائِبَا(٤)

---

* قيل: إنه لم يجزه على هذه القصيدة إلا ديناراً واحداً ، ولذلك سميت بالدينارية .

(١) الباء للتفدية ؛ والشموس : إما مرفوعة على أنها مبتدأ محذوف الخبر والتقدير : الشموس مفديات بأبى ؛ وإما منصوبة على أنها مفعول فعل محذوف والتقدير : أفدى الشموس بأبى ؛ والجانحات : المائلات ؛ والجلابب : جمع جلباب ، وهو ما يلتحف به من الثياب ، وأصله جلابيب : قال تعالى « يدنين عليهن من جلابيبهن » فحذف الياء ضرورة . كنى بالشموس عن النساء ، وبغروبهن . عن بعدهن . وعبارة الواحدى : لما سماهن شموسا كنى عن بعدهن بالغروب ، لأن بعد الشموس عن العيون لا يكون إلا بالغروب، وقد بين فى آخر البيت أن الشموس : النساء الحسان ؛ إذ قال : اللابسات الخ. وقال ابن جنى : غبن عنك فى الخدور .

(٢) المنهبات : اسم فاعل ، ووجناتهن : مفعول أول ؛ وقلوبنا : مفعول ثان ، وعقولنا : عطف عليه ؛ والناهبات : صفة لوجناتهن ؛ ولك أن ترفع وجناتهن على أنها فاعل المنهبات : أى اللاتى أنهبت وجناتهن قلوبنا ، فيكون قد اقتصر على مفعول واحد؛ ويقال أنهبته الشىء إذا جعلته نهباله . يقول : اللواتى جعلن قلوبنا وعقولنا نهبا لوجناتهن يسبينها بحسنهن ، ثم وصف الوجنات بأنها تنهب الناهب : أى الرجل الشجاع المغوار الذى ينهب الناس بعد أن أبلى البلاء الحسن فى الحرب ، وهذا من قول أبى تمام :

سَلَبْنَ غِطَاءَ الْحُسْنِ عَنْ حُرِّ أَوْجُهٍ ... تَظَلُّ لِلُبِّ السَّالِبِيهَا سَوَالِبَا

(٣) الناعمات : أى اللينات المفاصل ، والقاتلات : أى بهجرهن ، والمحييات : بوصلهن ، والمبديات : أى المظهرات من الدلال عجائب ، والدلال : جرأة المرأة على الرجل فى تكسر وتغنج .

(٤) الترائب : موضع القلادة من الصدر . يقول : حاولن أن يقلن لى نفديك بأنفسنا فوضعن أيديهن على صدورهن إشارة إلى ذلك خوف الرقيب . وقال ابن جنى : أشرن

وَبَسَمْنَ عَنْ بَرَدٍ خَشِيتُ أُذِيبُهُ   مِنْ حَرِّ أَنْفَاسِي فَكُنْتُ الذَّائِبَا[1]
يَا حَبَّذَا الْمُتَحَمِّلُونَ وَحَبَّذَا   وَادٍ لَثَمْتُ بِهِ الْغَزَالَةَ كَاعِبَا[2]
كَيْفَ الرَّجَاءُ مِنَ الْخُطُوبِ تَخَلُّصاً   مِنْ بَعْدِ مَا أَنْشَبْنَ فِيَّ مَخَالِبَا[3]

إلى من بعيد ولم يجهرن بالسلام والتحية خوف الرقباء والوشاة . جعل ابن جنى هذه الإشارة تحية وتسليما ، وقال الواحدى : طلبن أن يقلن نفديك بأنفسنا وخفن الرقيب ، فنقلن التفدية من القول إلى الإشارة : أى أنفسنا تفديك ؛ وهذا أولى من قول ابن جنى لذكر التفدية فى البيت ، ولم يقل حاولن تسليمى ؛ لأن الإشارة بالسلام لا تكون بوضع اليد على الصدر . وقال ابن فورجه : وضع اليد على الصدر لا يكون إشارة بالسلام وإنما أراد وضع أيديهن فوق ترائبهن تسكينا للقلوب من الوجيب . قال الواحدى : وليس كما قال — ابن فورجه — ، وصدر البيت ينقض ماقاله . هذا وبديع قول بعضهم ينظر إلى هذا المعنى :

أُضْحَى يجانبنى مُجانبةَ العِدا   ويبيتُ وَهْوَ إلى الصباح نَديم
وَيمُرُّ بى خَوفَ الوُشاةِ وَلفظه   شتمٌ وَحَشْوُ لحاظه تسليمُ

(١) أراد بالبرد : أسنانهن التى تشبه البرد فى نقائها ، وقوله خشيت أذيبه : أى أن أذيبه . يقول : إنى كنت أخاف على ثغورهن أن تذوب من حرارة أنفاسى ، فلما رحلن ذبت أنا من شوق إليهن ، ومن هذا الباب قول الصنوبرى :

وضاحِكٍ عن بَرَدٍ مُشرِقٍ   أبا حَنيهِ دونَ جُلاَّسى
فكلماَ قبلتهُ خِفتُ أنْ   يَذوبَ مِن نِيرانِ أنفاسى

وقول بعضهم :

وَمن العجائِبِ أنْ يُذيبَ مَفاصلى   مَن لو جرَى نَفَسى عليهِ لذَابا

(٢) المتحملون : المرتحلون ؛ والمراد بالغزالة إما الشمس وإما الحيوان المعروف ، والكاعب : التى بدا ثديها للنهود . يقول : قبلت غزالة فى صورة كاعب من النساء .

(٣) الخطوب : الأمور الثقال ، وتخلصا : مفعول الرجاء ، أعمله مع اقترانه بأل وهو ضعيف ، أنشد سيبويه :

أَوْحَدْنَنِي وَوَجَدْنَ حُزْنًا وَاحِدًا مُتَنَاهِيًا فَجَعَلْنَهُ لِي صَاحِبَا[١]
وَنَصَبْنَنِي غَرَضَ الرُّمَاةِ تُصِيبُنِي مِحَنٌ أَحَدُّ مِنَ السُّيُوفِ مَضَارِبَا[٢]
أَظْمَتْنِيَ الدُّنْيَا فَلَمَّا جِئْتُهَا مُسْتَسْقِيًا مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبَا[٣]
وَحُبِيتُ مِنْ خُوصِ الرِّكَابِ بِأَسْوَدٍ
مِنْ دَارِشٍ فَغَدَوْتُ أَمْشِي رَاكِبَا[٤]
حَالٌ مَتَى عَلِمَ ابْنُ مَنْصُورٍ بِهَا جَاءَ الزَّمَانُ إِلَيَّ مِنْهَا تَائِبَا[٥]

ضعيفُ النِّكايةِ أعداءه يَخالُ الفِرارَ يُرَاخِي الأجل[١]

وأنشبن : علقن ، والمخالب : جمع المخلب — بكسر الميم — وهو للسباع وجوارح الطير بمنزلة الظفر للانسان يقول : كيف أرجو التخلص من الخطوب بعد أن نالت منى ونفذ فى حكمها ؟

(١) أوحدننى : أى الخطوب — أى صيرننى واحدا . يقول : تركتنى الخطوب وحيداً بعد أن فرقت بينى وبين الأحبة ، وجعلت صاحبى بعدهم ما أجده من الحزن المتناهى الذى هو واحد الأحزان ، وهو حزن الفراق .

(٢) الغرض : الهدف يرمى بالسهام ؛ ومضاربا : تمييز جمع مضرب — بفتح الراء وكسرها — حد السيف . يقول : إن الخطوب نصبته هدفا للمحن .

(٣) أظمتنى من الظمأ : العطش : فأصلها أظمأتنى ، فأبدل الهمزة ألفا ثم حذفها . يقول : كان حظى من الدنيا الحرمان . فلما التمست عطاءها أفرغت على المصائب .

(٤) قوله من خوص الركاب : أى بدلا من خوص الركاب ، والخوص جمع الخوصاء ، وهى الناقة الغائرة العينين من الجهد والإعياء ، والركاب : الإبل ، والدارش : ضرب من السختيان ، وهو جلد أسود : يقول أعطيت عوضا من الإبل خفا أسود ، فأنا راكب ماش .

(٥) حال : خبر مبتدأ محذوف : أى هذه حال ، ويروى حالا — بالنصب — على

---

(١) يهجو رجلا يقول : هو ضعيف عن أن ينكى أعداءه وجبان عن أن يثبت لقرنه ولكنه يلجأ إلى الفرار ويخاله مؤخراً لأجله .

مَلِكٌ سِنَــانُ قَنَاتِهِ وَبَنَانُهُ ... يَتَبَارَيَانِ دَماً وَعُرْفاً سَاكِبا(١)

يَسْتَصْغِرُ الْخَطَرَ الْكَبِيرَ لِوَفْدِهِ ... وَيَظُنُّ دِجْلَةَ لَيْسَ تَكْفِي شَارِبا(٢)

كَرَماً فَلَوْ حَدَّثْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ ... بِعَظِيمِ مَا صَنَعَتْ لَظَنَّكَ كَاذِبا(٣)

إضمار عامل محذوف : أى أشكو أو أذم . يقول : إن حالى هــذه لو علم بها ابن منصور تلافاها بإحسانه وحال دون إساءة الزمان ، فيكون إحسانه بمنزلة توبة الزمان إلى ومثل هذا لأبى تمام قال :

كثُرَت خَطايا الدهرِ فىَّ وقد يُرَى ... بِنَداكَ وَهْوَ إلىَّ مِنها تائبُ

وقال أيضاً :

عَضبٌ إذا هَزّه فى وَجْهِ نائبةٍ ... جاءت إليه صروفُ الدهْرِ تعتذِرُ

(١) السنان : نصل الرمح ، والبنان فى الأصل : أطراف الأصابع ، والمراد بها هنا الكف ، ويتباريان : يفعل كل منهما ما يعارض به صاحبه . ودما : تمييز أو منصوب على نزع الخافض : أى فى دم ، والعرف : المعروف والمراد به الجود ، والساكب : المنسكب . يقول : إن سنان رمحه يقطر دماً من الأعداء ، وكفه تسكب جوداً على الأولياء . وهذا من قول البحترى :

تلقاه يقطر سَيفه وسِنانُه ... و بنانُ رَاحتِهِ دماً ونجيعا

(٢) الخطر : الأمر الخطير : أى العظيم . يقول : إنه يستصغر الشىء العظيم لمن يقصده وينتجع إليه لكرمه ويظن — لكثرة عطائه — أن نهر دجلة — ذلك النهر العظيم — ليس يكفى شاربا . ومثل هذا قول أبى تمام وزاد الشكر :

فرأَيتَ أَكثرَ ماحبوتَ مِن اللُّهَا ... نَزْراً وأَصْغَرَ ما شَكرتُ جَزِيلا

(٣) كرما : مفعول مطلق : أى كرم كرما ، أومفعول له عامله . يظن فى البيت قبله يقول : لو حدثته بما يصنع من الأفعال الجسام لظنك كاذبا لخروج تلك الأفعال عن طوق المقدرة . قال الواحدى — ناقدا — : وقد أساء فى هذا ، لأنه جعله يستعظم فعله وبضده يمدح ، وإنما يحسن أن يستعظم غيره مافعل كما قال أبو تمام .

تَجاوزَ غاياتِ العقول رغائِبٌ ... تَـكادُ بها لولا العِيانُ تُـكذَّبُ

وقال البحترى :

سَلْ عَنْ شَجَاعَتِهِ وَزُرْهُ مُسَالِماً وَحذَارِ ثُمَّ حذَارِ مِنْهُ مُحارِبَا[١]

فالْمَوْتُ تُعْرَفُ بالصِّفَاتِ طِبَاعُهُ لَمْ تَلْقَ خَلْقاً ذَاقَ مَوْتاً آيِبَا[٢]

إِنْ تَلْقَهُ لاَ تَلْقَ إِلاَّ قَسْطَلاً أَوْ جَحْفَلاً أَوْطَاعِناً أَوْ ضَارِبَا[٣]

أَوْ هَارِباً أَوْ طَالِباً أَوْ رَاغِباً أَوْ رَاهِباً أَوْ هَالِكاً أَوْ نَادِبَا[٤]

وَحَدِيث مَجدٍ عَنك أفرَط حُسنه حَتى ظننـــا أنه مَوضُوع

(١) حذار : اسم فعل بمعنى احذر ، ومسالما ومحاربا : حالان . يقول : سل عن شجاعته لتعرفها بالخبر ولاتحاول أن تعرفها بالمشاهدة والتحرس بها وإلا هلكت : أى لاتحاول أن تعرفها بالقتال ، فإنك إن قاتلته قتلت ، وقد ضرب البيت التالى مثلا لذلك .

(٢) يقول : فإن الموت يعرف بالوصف لا بالتجربة ، إذ لم نجد مخلوقا مات ثم رجع فيخبرنا عن حقيقة الموت ، وإذن فالموت إن عرف بالمشاهدة أهلك ألبتة ، وكذلك شجاعة الممدوح ، وقوله خلقا : أى مخلوقا ، مفعول أول لتلق ، وآيبا : مفعول ثان .

(٣) القسطل هنا : غبار الحرب ؛ وهو القسطل ، والقسطال والقسطول والقسطلان والقصطل — بالصاد — كله . الغبار الساطع . وقال الجوهرى : القسطال لغة فيه كأنه ممدود منه مع قلة فعلال فى غير المضاعف ؛ وأنشد أبو مالك لأوس بن حجر يرثى رجلا :

وَلَنِعمَ رِفدُ القوم يَنتَظِرونَه ولنعم حَشوُ الدِرْع والسِرْبالِ

ولنعم مأوى المستضيف إذا دعا والخيل خارجة من القسطال

وقال آخر :

* كأنه قسطال ريح ذِى رَهَجْ *

الجحفل : الجيش العظيم . يقول : إنه لا ينفك عن هذه الأشياء .

(٤) تبيين لأحوال الناس معه . يقول : فلا ترى إلا هاربا من جيشه ، أو طالبا رفده ، أو راغبا فى إحسانه ، أو راهبا من بأسه ، أو هالكا بسيفه ، أو نادبا على قتيل له من الأسرى الذين أسرهم . وقال الواحدى : ويجوز أن تكون هذه أحوال الممدوح : أى تلقاه هاربا من الدنايا ، وطالبا للعلى ، وراغبا فى المكارم ، وراهبا من الله تعالى . وهالكا : أى مهلكا — كما قال العجاج :

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْجِبَالِ رَأَيْتَهَا فَوْقَ السُّهُولِ عَوَاسِلاً وَقَوَاضِبَا[(١)]
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى السُّهُولِ رَأَيْتَهَا تَحْتَ الْجِبَالِ فَوَارِساً وَجَنَائِبَا[(٢)]
وَعَجَاجَةً تَرَكَ الْحَدِيدُ سَوَادَهَا زِنْجاً تَبَسَّمُ أَوْ قَذَالاً شَائِبَا[(٣)]

وَمَهمَهٍ هالِكِ مَنْ تعرَّجا[(١)]

ونادبا: من يبارزه من الندب. وهذا تعسف من الواحدى كما ترى.

(١) و (٢) العواسل: الرماح، والقواضب: السيوف، والجنائب: جمع الجنيبة، وهى التى تقاد إلى جنب الفارس. يقول: عمت جنوده السهل والجبل، فإذا نظرت إلى الجبال رأيتها رماحا وسيوفا، وإذا نظرت إلى السهول رأيتها فوارس وجنائب: أى غصت بهما.

(٣) وعجاجة. بالنصب. عطف على ماتقدم: أى ورأيت عجاجة، أو بالجر على إضمار رب، والعجاجة: الغبار، وتبسم ــ بحذف إحدى التاءين ــ أى تتبسم، والقذال: جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس فوق فأس القفا، وقال ابن الأعرابى: القذال: مادون القمحدوة إلى قصاص الشعر، قال الأزهرى: القمحدوة ما أشرف على القفا من عظم الرأس، والهامة فوقها، والقذال دونها مما يلى القذ، ويقال: القذالان ما اكتنف فأس القفا عن يمين وشمال، والزنج ــ بفتح الزاى وكسرها ــ جيل من السودان، وهم الزنوج يقول: إن بريق الأسلحة فى سواد الغبار يشبه تبسم الزنج أو شيب القذال، ولمحمود الوراق:

حتى تبدّى الصبح يتلو الدُّجى كالحَبَشِىِّ افترّ للضحك

ولأبى نواس:

لما تَبَدَّى الصبح مِن حجابِهِ كطلعةِ الأشمط من جلبابه

وهذا التشبيه متداول كثير فى الشعر:

---

(١) تمامه: هائلة أهواله من أدلجا. قال فى اللسان: هالك بمعنى مهلك لغة تميم كما يقال: ليـل غاض أى مغض، وقال الأصمعى فى قوله، هالك من تعرجا: أى هالك المتعرجين إن لم يهذبوا فى السير: أى من تعرض فيه هلك.

فَكَأَنَّمَا كُسِيَ النَّهَارُ بِهَا دُجَى ... لَيْلٍ وَأَطْلَعَتِ الرِّمَاحُ كَوَاكِبَا(١)
قَدْ عَسْكَرَتْ مَعَهَا الرَّزَايَا عَسْكَراً ... وَتَكَتَّبَتْ فِيهَا الرِّجَالُ كَتَائِبَا(٢)
أُسْدٌ فَرَائِسُهَا الْأُسُودُ يَقُودُهَا ... أَسَدٌ تَصِيرُ لَهُ الْأُسُودُ ثَعَالِبَا
فِي رُتْبَةٍ حَجَبَ الْوَرَى عَنْ نَيْلِهَا ... وَعَلَا فَسَمَّوْهُ عَلِيَّ الْحَاجِبَا(٣)
وَدَعَوْهُ مِنْ فَرْطِ السَّخَاءِ مُبَذِّراً ... وَدَعَوْهُ مِنْ غَصْبِ النُّفُوسِ الْغَاصِبَا
هٰذَا الَّذِي أَفْنَى النُّضَارَ مَوَاهِبَا ... وَعِدَاهُ قَتْلاً وَالزَّمَانَ تَجَارِبَا(٤)
وَمُخَيِّبُ الْعُذَّالِ فِيمَا أَمَّلُوا ... مِنْهُ وَلَيْسَ يَرُدُّ كَفّاً خَائِبَا(٥)

---

(١) شبه بياض الحديد فى ظلمة العجاجة بكواكب فى ليل . يقول : كأن النهار ألبس بتلك العجاجة ظلمة ليل ، وكأن الرماح أطلعت من أسنتها كواكب، أو أطلعت هى كواكب فى تلك الظلمة . فقوله : أطلعت إما قرأتها بصيغة المعلوم على أنه من فعل الرماح ، وإما بصيغة المجهول لمشاكلة قوله كسى ، وهذا المعنى من قول صريع الغوانى :

فى عَسْكَرٍ شَرِقَ الأرضُ الفضاء بِهِ ... كالليلِ أنجمُهُ القُضبانُ والأسَلُ

وقول بشار :

كأن مُثارَ النَّقْعِ فوق رءوسِنا ... وأسيافَنا ليل تهاوى كواكبه

(٢) عسكرت : تجمعت ، وتكتبت : تجمعت كتائب ، والكتائب : جمع كتيبة . الفرقة من الجيش ـ وعسكرا وكتائب : حالان . يقول : إن المصائب تجمعت مع تلك العجاجة كأنها عسكر تقع بالعدو ، وتكاثرت فيها رجال الممدوح حتى صارت كتائب .

(٣) هذا مثل قول ابن الرومى :

كأن أباهُ حينَ سَمّاهُ صاعِداً ... دَرَى كيفَ يَرْقَى فى المَعالى ويَصْعَدُ

وقوله على : أراد عليا ، فاضطره الوزن إلى حذف التنوين ، وسوغ له ذلك سكونه وسكون اللام فى الحاجب : ومثله كثير ، وذلك كقراءة من قرأ « قل هو الله أحد » الله » بغير تنوين ، حذفه لا لتقاء الساكنين .

(٤) النضار : الذهب ، ومواهبا وما بعده : تمييز . يقول : إنه أفنى الذهب بالعطاء، والأعداء بالقتل ، والزمان بالتجارب : أى أنه حصل له من التجاريب ما يعرف به ما يأتى فيما يستقبل من الزمان ، فكأنه أفنى الزمان لأنه لا يحدث عليه شيئا لا يعرفه .

(٥) ومخيب : عطف على «هذا الذى أفنى» فى البيت قبله، وذكر الكف ـ وإن كان

هٰذا الّذِى أَبْصَرْتُ مِنْهُ حاضِراً ... مِثْلُ الّذِى أَبْصَرْتُ مِنهُ غائِبا(١)
كالْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ الْتَفَتَّ رَأَيْتَهُ ... يُهْدِى إلى عَيْنَيْكَ نُوراً ثاقِبا(٢)
كالْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلقَرِيبِ جَواهِراً ... جُوداً وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحائِبا
كالشَّمْسِ فى كَبِدِ السَّماءِ وَضَوْؤُها ... يَغْشَى الْبِلادَ مَشارِقاً وَمَغارِبا

الأفصح تأنيثها ــ على معنى العضو ، أو على إرادة السائل : أى لا يرد سائلا ، أو المراد خائبا صاحبها . وبعد : فان أكثر ما استعمل العرب الكف مؤنثة على أنها بمعنى اليد ، فهم يقولون هذه كف واحدة ، وقال بشر بن أبى خازم :

له كفَّان كفٌّ كفُّ ضُرٍّ ... وَكفٌّ فواضِلِ خَضِلٌ نَداها

وقال الأعشى :

يداكَ يَدَا صِدْقٍ فَكَفٌّ مُفيدَة ... وأخرى إذا ما ضُنَّ بالمال تُنفِق

وقالت الخنساء :

فما بَلغَتْ كفُّ امرِىءٍ متناوِلٍ ... بِها المجدَ إلا حيْثُ ما نِلتَ أطْوَلُ
وَما بَلغَ المُهْدُون نحوك مِدحَةً ... وإن أطنبوا إلا وما فيك أفضلُ

أما قول الأعشى :

أرَى رَجُلا منهم أسيفاً كأنما ... يَضُمُّ إلى كَشْحَيْه كفّاً مُخَضَّبا

فانه أراد العضو ، وقيل هو حال من ضمير يضم ، أو من هاء كشحيه .

(١) أبصرت ــ بتاء المتكلم ــ يعنى المتنبى نفسه ، ويروى على الخطاب وحاضراً وغائبا على الروايتين : حال من فاعل أبصرت ، ومثل : يجوز فيه الرفع والنصب ، فالرفع قال ابن جنى : هذا مبتدأ أول ، والذى : مبتدأ ثان ، ومثل : خبر الذى ، والجملة خبر هذا ، والعائد على هذا من الجملة التى هى خبر عنه الهاء فى منه . والنصب بجعل هذا ابتداء ، والذى : خبره ، ونصب مثل بأبصرت . يقول : إنه يرى عطاءه حيثما كان حضره أو غاب عنه ، ومثله لأبى تمام :

شهدتُ جَسيماتِ العُلا وَهوَ غائبٌ ... ولو كان أيضاً حاضِراً كان غائِبا

(٢) الثاقب : المضىء . يقول : حيثما كنت ترى عطاءه قد غمر الناس — قريبهم

أَمُهجِّنَ الْكُرَمَاءِ وَالْمُزرِى بِهِمْ   وَتَرُوكَ كُلِّ كَرِيمِ قَوْمٍ عَاتِبا[(١)]

وبعيدهم ـ كما ترى ضوء القمر حيثما كنت من البلاد ، والبيتان التاليان فى معنى هذا البيت : يريد أنه عام النفع ، ومثل هذا لأبى تمام :

قَرِيبُ النَّدَى نَائِى الْمَحَلِّ كَأَنَّهُ   هِلالٌ قَرِيبُ النورِ نَائِى مَنازِلِهْ

وللبحترى :

كالبَدْرِ أفْرَطَ فى العُلُوِّ وَضوْؤُهُ   لِلعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

وله أيضا :

عَطاء كَضَوْءِ الشَّمْسِ عَمَّ فَمَغْرِبٌ   يَكُونُ سَوَاءً فى سَناهُ وَمَشْرِقُ

وقال العباس بن الأحنف :

نعمةٌ كالشَّمْسِ لما طلعَتْ   بَثتَ الإشراقُ فى كلِّ بَلَد

(١) أمهجن : أى يا مهجن ، فالهمزة للنداء ، وهجنه : قبحه ، قال صاحب اللسان : الهجنة من الكلام مايعيبك ، والهجين : العربى ابن الأمة لأنه معيب ، ولهذه الناسبة تقول : إن الهجنة فى الناس والخيل إنما تكون من قبل الأم ، فإذا كان الأب عتيقا والأم ليست كذلك : كان الولد هجينا . قال الراجز :

العبدُ والهجِينُ وَالفَلَنْقَسُ   ثلاثةٌ فأيَّهـم تَلَمَّسُ

والأقراف : من قبل الأب ، أو الذى أمه عتيقة وأبوه ليس كذلك . روى الرواة أن روح بن زنباع كان قد تزوج هند بنت النعمان بن بشير فقالت ـ وكانت شاعرة ـ :

وهل هندُ إلا مُهْرَةٌ عربيـة   سَليلةُ أفْرَاسٍ تَجلَّلها بَغْـلُ

فإنْ نُتِجَتْ مُهْراً كَريماً فبالحَرَى   وإنْ يَكُ إقرافٌ فَمِنْ قِبَلِ الفَحلِ

وأزرى به : عابه ، قال فى اللسان : الإزراء : التهاون بالشىء ، يقال أزريت به : إذا قصرت به ، وحقرته ، وهونته ، وزريت عليه ، وزرى عليه زريا ، وزراية ، ومزرية ، ومزراة ، وزريانا : عابه وعاتبه . قال الشاعر :

يا أيُّها الزَّارِى على عُمَـرٍ   قد قلتَ فيه غيْرَ ما تعْـلَمْ

وقال الآخر :

وَإنى عَلَى ليلَى لَزارٍ وَإننى   على ذاكَ فيما بيننا مُسْتَدِيمُها

شَادُوا مَنَاقِبَهُمْ وَشِدْتَ مَنَاقِباً وُجِدَتْ مَنَاقِبُهُمْ بِهِنَّ مَثَالِبَا[١]
لَبَّيْكَ غَيْظَ الْحَاسِدِينَ الرَّاتِبَا إِنَّا لَنَخْبُرُ مِنْ يَدَيْكَ عَجَائِبَا[٢]
تَدْبِيرُ ذِي حُنَكٍ يُفَكِّرُ فِي غَدٍ وَهُجُومُ غِرٍّ لَا يَخَافُ عَوَاقِبَا[٣]

أى عاتب ساخط غير راض، وزرى عليه عمله : إذا عابه وعنفه ، وتروك مبالغه فى تارك ، وهو مضاف لكل ـ الذى هو مفعوله الأول ـ وعاتبا مفعول ثان ، وروى عائبا . يقول : إنك هجنت الكرماء لتقصيرهم عن بلوغ كرمك وتركتهم عاتبين عليك لما يظهر من كرمك المزرى بهم أو عاتبين على أنفسهم حيث لم يفعلوا مافعلت ، أو تركتهم عائبين لك حسدا .

(١) شادوا : بنوا ورفعوا ، وتشييد البناء : إحكامه ورفعه ، والبناء المشيد ـ بالتشديد ـ المطول ، أما المشيد فهو : المبنى بالشيد ، والشيد كل ما طلى به الحائط من جص أو بلاط. قال عدى بن زيد :

شَادَهُ مَرْمَراً وَجَلَّلَهُ كِلْـ ـساً فلِلطَّيْرِ فِي ذُرَاهُ وُكُورُ

هذا ما عليه أكثر أهل اللغة ، ومنهم من يجعل المشيد والمشيد بمعنى ، ومما يتفرع عن هذه المادة قولهم : أشاد بذكره : أى نوه به ورفع قدره ، وقال أبو عمرو : أشدت بالشىء : عرفته . والمناقب : المفاخر ، والمثالب : المخازى والمعايب . يقول : لفضل مناقبك على مناقبهم صارت مناقبهم كالمثالب ، وهذا كقول أبى تمام :

مَحَاسِنُ مِنْ مَجْدٍ مَتَى يَقْرِنُوا بِهَا مَحَاسِنَ أَقْوَامٍ تَكُنْ كَالْمَعَايِبِ

(٢) لبيك : أى إجابة لك بعد إجابة ، ونصبه على المصدر ، وغيظ الحاسدين : منادى ، والراتب : الثابت المقيم ، ونخبر : نشاهد ونعلم . قال الواحدى : أظهر الإجابة إشارة إلى أنه بنداء مناد . أى كأن الممدوح يناديه بلسان كرمه للتنويه به . وسماه غيظ الحاسدين إشارة إلى أنه قد بالغ فى غيظهم حتى صار يعرف بذلك . قال الخطيب : وصرع البيت لا نتقاله من المدح إلى الإجابة .

(٣) تدبير : مبتدأ محذوف الخبر : أى لك تدبير . وروى تدبير وهجوم : منصوبين، على أن تدبير بدل من عجائب ـ فى البيت السابق ـ وهجوم : عطف عليه . وحنك : جمع حنكة ، وهى الخبرة والتجربة ، وضده الغر : أى الذى لم يجرب الأمور ولا يفكر فى العواقب . يقول : إنك تدبر ملكك تدبير مجرب مختبر مفكر فى العواقب . وإذا

وَعطاءِ مَالٍ لَوْ عَــــدَاهُ طَالِبٌ أَنْفَقْتَهُ فِى أَنْ تُلاَقِىَ طَالِبا(١)
خُذْ مِنْ ثَنَاىَ عَلَيْكَ مَا أَسْطِيعُهُ لاَ تُلْزِمَنِّى فِى الثَّنَاءِ الْوَاجِبا(٢)
فَلَقَدْ دَهِشْتُ لِمَا فَعَلْتَ وَدُونَهُ مَا يُدْهِشُ الْمَلَكَ الْحَفِيظَ الْكَاتِبا(٣)

هجمت فى الوغى هجمت هجوم الغر : أى أنك تفعل كلا فى موضعه ، فتدبر الملك تدبير مجرب بصير بأعقاب الأمور ، وتقدم فى الحرب إقدام الغر ؛ وهذا من قول أبى تمام :

وَمُجَرَّبونَ سقاهُمُ مِنْ بأسه فإذا لُقوا فكأنهم أغمارُ

وقوله :

كَهلُ الأناةِ فتى الشَّدَّاتِ إذا غدا للحرْبِ كان الماجــدَ الغِطْريفا

وقال البحترى :

ملكٌ له فى كلِّ يوم كريهةٍ إقْدَامُ غِرٍّ واعتزَامُ مجربِ

(١) وعطاء : عطف على تدبير ؛ وعداه : تجاوزه . يقول : إذا لم يأتك طالب أنفقت مالك فى البحث عن طالب تعطيه .

(٢) أسطيعه : هو أستطيعه ، وبهما جاء التنزيل الحكيم . يقول : إنى إنما أثنى عليك بقدر ماأستطيع ، لا بقدر ما يجب لك وما تستحقه ، لأنه فوق طاقتى ، فاعذرنى فى ذلك ، ثم بين عذره فى البيت التالى . وقد قصر أبو الطيب الثناء فى قوله ثناى ــ وهو ممدود ــ ضرورة . قال العكبرى : حكى ابن سعد عن أبى الطيب ــ وهو على بن سعد ، وليس هو محمد بن سعد صاحب الطبقات ، لأن ذلك قديم الوفاة . توفى بعد المائتين ، وأبو الطيب ولد سنة ثلاث وثلثمائة ــ قال سمعت أبا الطيب يقول : ما قصرت ممدوداً فى شعرى إلا هذا الموضع ــ خذ من ثناى ــ وذلك أنه رأى بخط أبى الفتح ــ ابن جنى ــ :

* وقد فارقت دارك واصطفاك *

بكسر الطاء ــ هذا وقد قال أهل اللغة : إن الثناء ماتصف به الإنسان من مدح أو ذم أى أنه يستعمل فى الخير والشر ، وأنشدوا :

أثنِى عَلَىَّ بما علمتِ فإننى أُثنِى عليكِ بمثل رِيح الجورب

وخص بعضهم به المدح .

(٣) دهش : تحير ، ومثله شده . قال صاحب اللسان : دهش دهشا ، فهو دهش

وقال يمدح بدر بن عمار ارتجالا وهو على الشراب والفاكهة والنرجس حوله :

إِنَّمَا بَدْرُ بْنُ عَمَّارٍ سَحَابُ ... هَطِلٌ فِيهِ ثَوَابٌ وَعِقَابُ (١)

إِنَّمَا بَدْرٌ رَزَايَا وَعَطَايَا ... وَمَنَايَا وَطِعَانٌ وَضِرَابُ (٢)

مَا يُجِيلُ الطَّرْفَ إِلاَّ حَمِدَتْهُ ... جُهْدَهَا الأَيْدِي وَذَمَّتْهُ الرِّقَابُ (٣)

ودهش فهو مدهوش ، وكرهها بعضهم وأدهشه الله وأدهشه الأمر ودهش الرجل — بالكسر — دهشاً : تحير ويقال : دهش وشده ، واللغه العالية : دهش ، على فعل ، والملك الحفيظ : هو الموكل بالإنسان يكتب حسناته وسيآته . يقول : لقد تحيرت أمام أفعالك فلا أقدر أن أحصيها وأثنى بها ، وأقل من ذلك ما يحير الملك الموكل بك ، لأنه لم ير مثله من غيرك ، ولأنه لكثرته يعجز عن كتابته .

(١) يقول ؛ هو نفاع ضرار ، مثله فى ذلك مثل السحاب الذى ينهل بالمطر وتنقض منه الصواعق ، ففيه حياة لقوم ، وهلاك لآخرين . قال الواحدى : هذه الأبيات مضطربة الوزن ، وهى من الرمل ، وذلك لأنه جعل العروض فاعلاتن ، وهو فى الأصل فى الدائرة ، ولكن لم يستعمل العروض ههنا إلا محذوفة السبب على وزن فاعلن كقول عبيد :

مِثْلَ سَحْقِ البُرْدِ عَفَّى بَعْدَكِ الْـ ... ـقَطْرُ مَغْنَاهُ وَتَأْوِيبُ الشَّمَالِ (١)

غير أن هذا البيت الأول صحيح الوزن ، لأنه مصرع ، فتبعت عروضه ضربه .

(٢) جعله هذه الأشياء مبالغة لكثرة وقوعها منه حتى صارو إياها كالشىء الواحد ، على حد قول الخنساء :

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَرَتْ ... فَإِنَّمَا هِىَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

« تصف الخنساء وحشية تطلب ولدها مقبلة ومدبرة ، فجعلها إقبالا وإدبارا لكثرتهما منها »

(٣) الطرف ـ بفتح الطاء ـ العين ؛ والجهد ـ بالضم ـ الطاقة ، أما بالفتح فهو المشقة ، وقيل هما لغتان : كالشهد والشهد ، والأيدى : فاعل حمدته . يقول : إنه لا يجيل طرفه إلا على إحسان وإساءة ، فله فى كل طرفة ونظرة إحسان تحمده الأيدى جهدها لأنه

---

(١) السحق : الثوب الخلق الذى انسحق وبلى ؛ كأنه بعد من الانتفاع به

مَا بِهِ قَتْلُ أعَادِيهِ وَلٰكِنْ يَتَّقِي إخْلَافَ مَا تَرْجُو الذِّئَابُ(١)

فَلَهُ هَيْبَةُ مَنْ لَا يُتَرَجَّى وَلَهُ جُودُ مُرَجًّى لَا يُهَابُ(٢)

طَاعِنُ الفُرْسَانِ فِي الأَحْدَاقِ شَزْراً

وَعَجَاجُ الحَرْبِ لِلشَّمْسِ نِقَابُ(٣)

بَاعِثُ النَّفْسِ عَلَى الهَوْلِ الَّذِي لَيْسَ لِنَفْسٍ وَقَعَتْ فِيهِ إيَابُ(٤)

بِأَبِي رِيحُكَ لَا نَرْجِسُنَا ذَا وَأَحَادِيثُكَ لَا هٰذَا الشَّرَابُ(٥)

علوّها بالعطاء ، وذهب اليازجى إلى أن الطرف بكسر الطاء ـ أى الفرس الكريم . قال : يقول المتنبى : إنه ما أجال فرسه فى الحرب إلا ملأ أيدى أوليائه من الغنائم فحمدته جهدها ؛ وضرب رقاب أعدائه فذمته . . .

(١) يقول : لايقتل أعاديه ليستريح منهم لأنه أمن جانبهم لعجزهم عن أذاه فلا يهمه بقاؤهم ، ولكنه قد عود الذئاب أن يطعمها لحوم القتلى ، فهو إنما هو يقتل الأعداء خشية أن يخلف رجاء الذئاب ، وهو لم يتعود أن يخيب راجيا ؛ وهذا كقول مسلم :

قَدْ عَوَّدَ الطيرَ عاداتٍ وثِقْنَ بها فهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فى كل مُرْتَحَلِ

(٢) يقول: إنه مهيب كل الهيبة ، وجواد غاية فى الجود ، فإنه يهاب هيبة من لايرجى العفو عنده ، ويجود جود سمح كريم يرجى إحسانه ولاتخشى مهابته .

(٣) الطعن الشزر : ماكان عن يمين وشمال ، والعجاج : الغبار ، والنقاب : ماتستر به المرأة وجهها . يصفه بالحذق فى الطعن . يقول : إنه يصيب أحداق الفرسان والجو مظلم بغبار الحرب الذى كأنه نقاب للشمس يسترها ، وهذا كقوله :

* يضع السنان بحيث شاء محاولا *

(٤) يقول : إنه يحمل نفسه على ركوب الأمر العظيم الهائل الذى لاخلاص لمن وقع فيه .

(٥) بأبى : تفدية . قال الواحدى : يريد أن ريحه أطيب من ريح النرجس « الذى بين يديه » وحديثه ألذ من الشراب ، وليس هذا مما يمدح به الرجال : أى وإنما يخاطب بمثله المحبوب .

لَيسَ بالمُنكَرِ إنْ بَرَّزْتَ سَبقاً غَيْرُ مَدْفوعٍ عَنِ السَّبْقِ العِرَابُ (١)

وجلس بدر بن عمار يلعب بالشطرنج وقد كثر المطر فقال أبو الطيب :

أَلَمْ تَرَ أَيُّها المَلِكُ المُرَجَّى عَجَائِبَ مَا رَأَيْتُ مِنَ السَّحَابِ
تَشَكَّى الأَرْضُ غَيْبَتَهُ إِلَيْهِ وَتَرْشُفُ مَاءَهُ رَشْفَ الرُّضَابِ ؟ (٢)
وَأُوهِمُ أَنَّ فِى الشِّطْرَنْجِ هَمِّى وَفِيكَ تَأَمُّلِى وَلَكَ انْتِصَابِى (٣)

---

(١) برز : بذ وسبق ، وسبقا : مفعول مطلق ، كأنه قال إن سبقت سبقا ، والعراب : الخيل العربية . يقول : ليس بمستنكر أن تسبق الناس وتبذهم لأنك أهل ذلك ، كما أن كرام الخيل لاتدفع عن السبق . هـذا وكان الوجه أن يقال غير مدفوعة عن السبق العراب ، كما تقول هند غير مصروفة ، ولكنه ذكر ضرورة كأنه أراد العراب جنس غير مدفوع . قال ابن جنى : كان يجوزله أن يقول غير هذا ويقول : لاتدفع عن السبق العراب — بالتاء والياء — فأجرى غير مجرى لا ، وأجرى مدفوع مجرى يدفع ضرورة ؛ وقد يتزن البيت بأن يقول :

* قط لا يدفع عن سَبقِ عراب *

أقول : وأين قط لايدفع عن سبق عراب من غـير مدفوع عن السبق العراب ؟ ولكنه النحو والنحويون .

(٢) تشكى — بحذف إحدى التائين — أى تتشكى ؛ وإليه : متعلق بتشكى ، والضمير فى غيبته وفى إليه : للسحاب ؛ والرشف : المص ، وأصله أن تستقصى مافى الإناء حتى لاتدع فيه شيئا ، والرضاب : الريق . يريد بيان ماذكره فى البيت السابق من العجائب . يقول : إن الأرض بعطشها تشكو إلى السحاب غيبته عنها ، وعند لقائه ترشف ماءه كما يرشف العاشق ريق المعشوق .

(٣) يقول : إنى أنما أتأمل فى محاسنك لافى الشطرنج ، وأنتصب جالسا لأراك لا لأراه . والشطرنج فارسى معرب من شدرنج ، ومعناه — كما قال العكبرى — من اشتغل به ذهب عناؤه باطلا . وكسر الشين فيه أجود ليكون من باب جردحل : وهو الضخم من الإبل : هذا وقد قال ابن جنى : إن هـذه الأبيات لم أقرأها عليه ، وشعره عندى أجود منها ، وقال غيره هى مقروءة عليه بمصر وبغداد .

سَأَمْضِي وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ مِنِّي مَغِيبِي لَيْلَتِي وَغَداً إِيَابِي[١]

وقال فى لعبة أحضرت مجلس بدر على صورة جارية وأديرت فوقفت حذاء بدر رافعة رجلها وكانت ترقص بحركات :

يَاذَا المَعَالِي وَمَعْدِنَ الْأَدَبِ سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِ الْعَرَبِ
أَنْتَ عَلِيمٌ بِكُلِّ مُعْجِزَةٍ وَلَوْ سَأَلْنَا سِوَاكَ لَمْ يُجِبِ[٢]
أَهٰــذِهِ قَابَلَتْكَ رَاقِصَةً أَمْ رَفَعَتْ رِجْلَهَا مِنَ التَّعَبِ ؟

وقال يمدح على بن محمد بن سيار بن مُكرَم التميمى ، وكان يحب الرمى بالنشّاب ويتعاطاه ، وكان له وكيل يتعرض للشعر ، فأنفذه إلى أبى الطيب يناشده ، فتلقاه وأجلسه فى مجلسه ، ثم كتب إلى علىّ يقول :

ضُرُوبُ النَّاسِ عُشَّاقٌ ضُرُوباَ فَأَعْــذَرُهُمْ أَشَفُّهُمُ حَبِيباَ[٣]
وَمَا سَكَنِي سِوَى قَتْلِ الْأَعَادِي فَهَلْ مِنْ زَوْرَةٍ تَشْفِي الْقُلُوبَا ؟[٤]

---

(١) يقول: إنى سأمضى وأغيب عنك ليلة واحدة ثم أعود إليك .

(٢) بكل معجزة : أى بكل مسألة يعجز الناس عن بيانها والإجابة عليها ، فلو سئل عنها غيره أجبل « انقطع » قال العكبرى : هـذه أبيات رديئة عملها ارتجالا فى معان ليست هناك .

(٣) الضروب : الشكول والأصناف ؛ وأشفهم : أفضلهم . يقول : شكول الناس على اختلافهم يحبون شكول المحبوبات على اختلافها ، وأحقهم بأن يعذر فى العشق والحب من كان محبوبه أفضل ، وهذا كالتمهيد للبيت التالى . هـذا وقد ذهب بعض الشراح إلى أن ضروبا : حال ، كأنه قال : الناس عشاق مختلفين فى عشقهم . ولكن الأجود أن يكون منصوبا بوقوع الفعل عليه وهو العشق : أى ضروب الناس يعشقون ضروبا .

(٤) السكن : ماتسكن نفسك إليه وتهواه . يقول : فالذى أحبه أنا وتسكن إليه نفسى هو قتل أعدائى ، فهل من زيارة لهذا الحبيب ؟ أى هل أظفر بذلك وأتمكن منه حتى أشفى قلبى كما يشفى قلب المحب زورته الحبيب ؟

تَظَلُّ الطَّـيْرُ مِنْهَا فِى حَدِيثٍ تَرُدُّ بِهِ الصَّرَاصِرَ وَالنَّعِيبَا[1]
وَقَدْ لَبِسَتْ دِمَاءَهُمُ عَلَيْهِمْ حِـدَاداً لَمْ تَشُقَّ لَهَا جُيُوبَا[2]
أَدَمْنَا طَعْنَهُمْ وَالْقَتْلَ حَتَّى خَلَطْنَا فِى عِظَامِهِمِ الْكُعُوبَا[3]
كَأَنَّ خُيُولَنَا كَانَتْ قَدِيماً تُسَقَّى فِى قُحُوفِهِمِ الْحَلِيبَا[4]
فَمَرَّتْ غَـيْرَ نَافِرَةٍ عَلَيْهِمْ تَدُوسُ بِنَا الْجَمَاجِمَ وَالتَّرِيبَا[5]
يُقَدِّمُهَا وَقَدْ خُضِبَتْ شَوَاهَا فَتًى تَرْمِي الْحُرُوبُ بِهِ الْحُرُوبَا[6]

---

(١) ترد : أى تردد : والصراصر : جمع صرصرة ، وهو صوت النسر والبازى ونحوهما ، والنعيب : صوت الغراب . يقول : هل من سبيل إلى وقعة تكثر فيها القتلى فيجتمع عليها الطير فيصرصر النسر وينعب الغراب ؟ جعل صياح الطيور المجتمعة على القتلى كأنه حديث يتحدثن به .

(٢) وقد لبست : أى الطير ؛ وعليهم : متعلق بحدادا ؛ والحداد : الثياب السود تلبس عند المصيبة ؛ والجيوب : جمع جيب ، وهو طوق القميص ؛ وعند العامة : كيس يخاط فى جانب الثوب من الداخل ويجعل فمه من الخارج . يقول : إن هذه الطير تغوص فى دماء القتلى فتتلطخ بها وتجف عليها فتسود وتصير كأنها ثياب حداد على القتلى . بيد أنها لم تشق على هؤلاء القتلى جيوبا كما تفعل ربات الحداد . هذا وقد روى دماؤهم — بالرفع — فيكون المعنى أن الدماء اسودت على القتلى ، فكأنها لبست ثوبا غير ما كانت تلبس من الحمرة .

(٣) الكعوب : جمع كعب ، وهو مابين الأنبوبتين من القناة . يقول : لم نزل نطعنهم حتى كسرنا كعوب الرماح فيهم فاختلطت فى أبدانهم بعظامهم .

(٤) و (٥) القحوف : جمع قحف — بكسر القاف — وهو العظم الذى فوق الدماغ ؛ والجمجمة : العظم الذى فيه الدماغ ؛ والتريب : عظم الصدر ، والجمع : الترائب : موضع القلادة من الصدر . يقول : كأن خيلنا كانت فى صغرها تسقى اللبن فى أقحاف رءوسهم فألفتهم حتى صارت تدوس جماجمهم وصدورهم ونحن عليها لاتنفر منهم ... وقد جرت عادة العرب بأن تسقى اللبن كرام خيولها .

(٦) الشوى من الخيل : قوائمها . يقال : فرس عبل الشوى ، والشوى من الآدميين اليدان والرجلان ؛ وقبل اليدان والرجلان والرأس ، وكل ماليس مقتلا ؛ ومن هذا

شَـــدِيدُ الْخُنْزُوَانَةِ لاَ يُبَالِي ... أَصَابَ إِذَا تَنَمَّرَ أَمْ أُصِيبَا[١]
أَعَزْمِي طَالَ هَــذَا اللَّيْلُ فَانْظُرْ ... أَمِنْكَ الصُّبْحُ يَفْرَقُ أَنْ يَئُوبَا ؟[٢]
كَأَنَّ الفَجْرَ حِبٌّ مُسْتَزَارٌ ... يُرَاعِي مِنْ دُجُنَّتِهِ رَقِيبَا[٣]

قولهم : رماه فأشواه : أى أصاب شواه ، ولم يصب مقتله ، قال الهذلى :

فإنّ من القَوْل التى لا شَوَى لها ... إذا زَلَّ عن ظَهْر اللسانِ انفلاتُها

« أى إن من القول كلة لاتشوى ولكن تقتل » وقال الفراء فى قوله تعالى « كلا إنها لظى نزاعة للشوى » — : الشوى اليدان والرجلان وأطراف الأصابع وقحف الرأس : ويقال لجلدة الرأس شواة ، وقد توسعوا فى الشوى فاستعملوه فى كل من أخطأ غرضا وإن لم يكن له شوى ولا مقتل — وقد رويت خضبت — بالبناء للمعلوم ، والضمير للخيل — ، يقول : إن هذه الخيل يقدمها إلى الحرب — وقد خضبت قوائمها بالدم — فتى قد طال تمرسه بالحروب — يعنى نفسه — فكلما فرغ من حرب : خاض حربا أخرى .

(١) الخنزوانة فى الأصل : ذبابة تطير فى أنف البعير فيشمخ لها بأنفه ، واستعيرت للكبر . وتنمر . صار كالنمر غضبا . وقوله أصاب ، أى أأصاب — بهمزة التسوية — يقول : إذا غضب على أعدائه وقاتلهم لايبالى أقتلهم أم قتلوه .

(٢) الهمزة فى أعزمى : للنداء ، ويفرق : يخاف ، ويئوب : يرجع . يقول . — مخاطبا عزمه — انظر ياعزمى هل علم الصبح بما أنا عازم عليه من الاقتحام فتأخر خشية أن يصاب فى جملة أعدائى ؟ وعبارة ابن فورجه : أراد : لعظم ما عزمت عليه ولشدة ما أنا عليه من الأمر الذى قمت به ، كأن الصبح يفرق من عزمى ، ويخشى أن يصيبه بمكروه ، فهو يتأخر ولايئوب.

(٣) الحب : المحبوب : ويراعى : يراقب وينتظر ، والدجنة الظلمة ، والدجنة من الغيم المطبق تطبيقا والريان المظلم الذى ليس فيه مطر ، يقال : يوم دجن ويوم دجنة — وكذلك الليلة على وجهين بالوصف والإضافة ، — والدجنة : الظلمة جمعها دجن ودجنات ، والداجنة : المطرة المطبقة نحو : الديمة ، والضمير فى دجنته : لليل . شبه الفجر بحبيب قد طلب إليه زيارة محبه وهو يراعى من ظلمة الليل رقيبا فتأخر زيارته خوف الرقيب — يريد طول الليل ، وأن الفجر ليس يطلع ، فكأنه حبيب يخاف رقيبا .

كَأَنَّ نُجُومَهُ حَلْيٌ عَلَيْهِ وَقَدْ حُذِيَتْ قَوَائِمُهُ الْجَبُوبا(١)
كَأَنَّ الْجَوَّ قَاسَى مَا أُقَاسِي فَصَارَ سَوَادُهُ فِيهِ شُحُوبا(٢)
كَأَنَّ دُجَاهُ يَجْذِبُهَا سُهَادِي فَلَيْسَ تَغِيبُ إِلاَّ أَنْ يَغِيبا(٣)
أُقَلِّبُ فِيهِ أَجْفَانِي كَأَنِّي
أَعُدُّ بِهِ عَلَى الدَّهْرِ الذُّنُوبا(٤)

---

(١) الجبوب : وجه الأرض ومتنها ، من سهل أو حزن أو جبل ، وقيل الأرض الغليظة ، وقيل: الأرض الغليظة من الصخر لا من الطين ، ولا يجمع . والحلى : ماتزين به من الذهب والفضة وغيرهما ، وجمعها حلى : مثل ثدى وثدى ، وقد تكسر الحاء لمكان الياء مثل عصى . قال الفارسى : وقد يجوز أن يكون الحلى جمعا وتكون الواحدة حلية كبدية وهدى ؛ وحذيت قوائمه الجبوب : أى جعل الجبوب حذاء لقوائمه . يقول : كأن النجوم حلى على الليل فليست تفارقه ، وكأن الأرض قد جعلت حذاء له فلا يستطيع أن يمشى لثقل الأرض على قوائمه .

(٢) الشحوب : تغير اللون من هزال ونحوه ، والضمير من سواده لليل ، ومن فيه : للجو . يقول : كأن الجو كابد ما أكابد من طول الوجد فاسود لون الليل وصار سواده شحوبا : أى كأن الليل اسود لأنه دفع إلى مادفعت إليه فصار السواد بمنزلة الشحوب

(٣) الدجى : جمع دجية ، وهى الظلمة ، والسهاد : السهر . يقول : إن سهاده يطول والليل يطول معه ، فكأن سهاده يجذب ظلمة الليل ، فهى لا تنقضى إلا بانقضائه ، وسهاده لا ينقضى ، وكذلك ظلمة الليل .

(٤) يقول : إنى أقلب أجفانى فى ذلك الليل ، ولكثرة تقليبى إياها كأنى أعد على الدهر ذنوبه ، فكما أن ذنوب الدهر كثيرة متوافرة لاتكاد تفنى . كذلك تقليبى أجفانى كثير لا يفنى ، فلا نوم هناك . ولك أن تقول : أقلب أجفانى فى ذلك الليل وأنا أرعى نجومه كأنى أعد بها ذنوب الدهر التى هى مثلها فى العدد . وهذا المعنى ينظر إلى قول ديك الجن :

أَنَا أُحْصِي فِيكَ النجومَ وَلَكِنْ لِذُنُوبِ الزَّمَانِ لَسْتُ بِمُحْصِ

وَمَا لَيْـــلٌ بِأَطْوَلَ مِنْ نَهَارٍ يَظَلُّ بِلَحْظِ حُسَّادِى مَشُوبَا(١)
وَمَا مَوْتٌ بِأَبْغَضَ مِنْ حَيَاةٍ أَرَى لَهُمُ مَعِى فِيهَا نَصِيبَا(٢)
عَرَفْتُ نَوَائِبَ ٱلْحَدَثَانِ حَتَّى لَوِ ٱنْتَسَبَتْ لَكُنْتُ لَهَا نَقِيبَا(٣)
وَلَمَّا قَلَّتِ ٱلْإِبِلُ ٱمْتَطَيْنَا إِلَى ٱبْنِ أَبِى سُلَيْمَانَ ٱلْخُطُوبَا(٤)
مَطَايَا لَا تَذِلُّ لِمَنْ عَلَيْهَا وَلَا يَبْغِى لَهَا أَحَدٌ رُكُوبَا(٥)
وَتَرْتَعُ دُونَ نَبْتِ ٱلْأَرْضِ فِينَا فَمَا فَارَقْتُهَا إِلَّا جَـــدِيبَا(٦)
إِلَى ذِى شِيمَةٍ شَغَفَتْ فُؤَادِى فَلَوْلَاهُ لَقُلْتُ بِهَا ٱلنَّسِيبَا(٧)

---

(١) بلحظ حسادى أى بلحظى حسادى . يقول : ليس ليلى وإن طال بأطول من نهار يشوبه ـ أى يخالطه ـ أن أنظر فيه إلى حسادى وأعدائى .

(٢) يقول : إذا كان لحسادى نصيب معى فى الحياة وشاركونى فيها وعاشوا كما أعيش فليس الموت بأبغض إلى من تلك الحياة : أى أنه لا تحلو له الحياة حتى يقتل حساده .

(٣) الحدثان : حوادث الدهر ونوبه ؛ ويقال: انتسب الرجل إلى فلان : إذا نسب نفسه إليه ؛ والنقيب : الخبير بأحوال القوم وأنسابهم . يقول : لكثرة ما أصابنى من نوائب الدهر صرت عارفاً بها حتى لو كان لها أنساب لكنت أنا نقيبها .

(٤) يقول : لما أعوزتنا الإبل وفقدناها لقلة ذات اليد أدتنى المحن والشدائد إلى الممدوح ، فكأنها كانت مطايا ركبناها إليه .

(٥) و (٦) رتعت الإبل : رعت فى بحبوحة وخصب ؛ والجدب : ضد الخصب ؛ ومكان جديب : لا نبات فيه . يقول : إن الخطوب مطايا لا يبغى أحد ركوبها ، وهى لا ترعى نبات الأرض ، إنما ترعانا وتنال منا . فما فارقتها عند وصولى إليك إلا جديبا لأنها رعتنى وأتت على فلم تترك منى شيئا .

(٧) الشيمة : الخلق ؛ وتقول : شغفتنى حبا وشغفتنى ؛ والمعنى تيمتنى وبلغت منى ، وشغفتنى : من شغاف القلب ، وهو غلافه ، أو سويداؤه . والنسيب : التشبيب بالنساء فى الشعر . يقول : إن أخلاق الممدوح شغفتنى بحسنها . فلو لا مهابته واحتشامه لتغزلت بها كما يتغزل العاشق بمعشوقه .

تُنَازِعُنى هَوَاهَا كُلُّ نَفْسٍ ... وَإِنْ لَمْ تُشْبِهِ الرَّشَأَ الرَّبِيبَا[١]
عَجِيبٌ فى الزَّمَانِ وَمَا عَجِيبٌ ... أَتَى مِنْ آلِ سَيَّارٍ عَجِيبَا[٢]
وَشَيْخٌ فى الشَّبَابِ وَلَيْسَ شَيْخاً ... يُسَمَّى كُلُّ مَنْ بَلَغَ الْمَشِيبَا[٣]
قَسَا فَالْأُسْدُ تَفْزَعُ مِنْ قُوَاهُ ... وَرَقَّ فَنَحْنُ نَفْزَعُ أَنْ يَذُوبَا[٤]
أَشَدُّ مِنَ الرِّيَاحِ الْهُوجِ بَطْشاً ... وَأَسْرَعُ فى النَّدَى مِنْهَا هُبُوبَا[٥]
وَقَالُوا ذَاكَ أَرْمَى مَنْ رَأَيْنَا ... فَقُلْتُ رَأَيْتُمُ الْغَرَضَ الْقَرِيبَا[٦]

---

(١) الضمير فى هواها : للشيمة ؛ والرشأ : ولد الظبية إذا تحرك ومشى ؛ والربيب المربى . يقول : إن كل نفس تعشق أخلاقه كما أعشقها أنا . فهى محبوبة إلى كل إنسان ، وإن لم يكن بينها وبين الرشأ شبه ، لأنها من الرجولة والفضل بحيث تسمو عن شبهها بالظباء التى تشبه بها الحسان .

(٢) عجيب : خبر مبتدأ محذوف يعود إلى الممدوح ؛ وعجيبا : خبر ما العاملة عمل ليس . يقول : هو عجيب فى الزمان ، وليس ما يأتى من آل سيار عجيبا ، لأنهم الغاية فى المجد والكرم .

(٣) وليس شيخا إلخ : أى ليس كل من بلغ المشيب يسمى شيخا ؛ فشيخا : مفعول ثان مقدم ليسمى ؛ وكل : يجوز أن يكون اسم ليس ، أو نائب فاعل يسمى على طريق التنازع . يقول : هو مع أنه شاب — فى حنكة الشيوخ وجودة رأيهم ورجحان ألبابهم ؛ ورب إنسان غيره بلغ المشيب ولكنه لا يستحق أن يسمى شيخا لتخلفه ونقصه .

(٤) قوله من قواه : يروى من يديه . يقول : قسا قلبه فى الحروب حتى لتخاف الأسد بطشه وسطوته وهو مع ذلك فى مجلسه قد رق طبعا وكرما حتى لنخاف أن يذوب ؛ ويقال فلان يذوب ظرفا : إذا لان جانبه ، واحلولت شيمته .

(٥) الهوج : جمع هوجاء : وهى الشديدة العصف فى حمق وطيش . والبطش : الأخذ بقوة ؛ والندى : الجود ؛ وبطشا وهبوبا : نصبا على التمييز ؛ وقال آخرون : هما مصدران وقعا موقع الحال . يقول : هو لدى الوغى أشد بطشا من هوج الرياح ، ولدى الجود أسرع منها فى العطاء .

(٦) الغرض : الهدف يرمى بالسهام . يقول : إن الناس يقولون: إنه أرمى من رأيناه

وَهَلْ يُخْطِي بِأَسْهُمِهِ الرَّمَايَا ... وَمَا يُخْطِي بِمَا ظَنَّ الغُيُوبَا(١)
إِذَا نُكِبَتْ كِنَانَتُهُ اسْتَبَنَّا ... بِأَنْصُلِهَا لِأَنْصُلِهَا نُدُوبَا(٢)
يُصِيبُ بِبَعْضِهَا أَفْوَاقَ بَعْضٍ ... فَلَوْلَا الكَسْرُ لَاتَّصَلَتْ قَضِيبَا(٣)
بِكُلِّ مُقَوَّمٍ لَمْ يَعْصِ أَمْرًا ... لَهُ حَتَّى ظَنَنَّاهُ لَبِيبَا(٤)
يُرِيكَ النَّزْعُ بَيْنَ القَوْسِ مِنْهُ ... وَبَيْنَ رَمِيِّهِ الهَدَفَ المَهِيبَا(٥)

يرمى السهام ، فقلت: إنكم رأيتموه وهو يرمى الغرض القريب منه . فكيف لو رأيتموه يرمى الغرض البعيد ؟

(١) الرمايا : جمع رمية ، اسم لكل ما يرمى بالسهم من غرض أو صيد . يقول : إنه صائب الفكرة فهو يرمى المغيبات بسهام ظنه فيصيبها لثقوب فكره ، فكيف لا يصيب المحسات بسهامه ؟

(٢) و (٣) الكنانة : الجعبة التى توضع فيها السهام ؛ ونكبت : قلبت على رأسها لينثر ما فيها ؛ واستبنا : تبينا ورأينا ؛ والندوب فى الأصل : آثار الجروح ؛ والمراد هنا مطلق الأثر ؛ والأفواق ؛ جمع فوق ، وهو موضع الوتر من السهم . يقول : إذا نثرت كنانته وأفرغ ما فيها من السهام رأينا لنصوله آثاراً فى نصوله لسرعة رميه ورميه إياها على طريقة واحدة حتى يدرك بعضها بعضا من غير أن يميل عنه ويصيب اللاحق منها فوق السابق ، فلولا أن ينكسر النصل بالفوق لاتصل بعضها يعض وصارت مستوية كالقضيب . وكان الوجه أن يقول : بأفوقها لأنصلها ندوبا بدليل البيت الثانى ، ولأن النصال إذ ذاك لا تتقابل ، اللهم إلا إذا كان يريد بالأنصل : السهام ، لا الحديد بخصوصه.

(٤) بكل مقوم : بدل من قوله يعضها : أى يصيب بكل سهم هذه صفته . يقول : إن سهمه يتجه كيف شاء ، فكأنه عاقل يأمره فيطيع .

(٥) النزع : جذب الوتر للرمى ؛ وضمير منه : للسهم ؛ والرمى المرمى ، فهو فعيل بمعنى مفعول ؛ والهدف : بدل من رميه . يقول : إذا جذب الوتر ورمى السهم رأيت منه ناراً بين القوس والهدف ، وذلك أن حفيف السهم فى سرعة مروره يشبه حفيف النار فى التهابها ؛ والعرب إذا وصفت شيئاً بالسرعة شبهته بالنار ؛ ومنه قول العجاج يصف سرعة مشى الحمار والأتان :

أَلَسْتَ ابْنَ الْأُولَى سَعِدُوا وَسَادُوا ... وَلَمْ يَلِدُوا امْرَأً إِلاَّ نَجِيبا[١]
وَنَالُوا مَا اشْتَهَوْا بِالْحَزْمِ هَوْناً ... وَصَادَ الْوَحْشَ نَمْلُهُمُ دَبِيبا[٢]
وَمَا رِيحُ الرِّيَاضِ لَهَا وَلَكِنْ ... كَسَاهَا دَفْنُهُمْ فِى التُّرْبِ طِيبا[٣]
أَيَا مَنْ عَادَ رُوحُ المَجْدِ فِيهِ ... وَعَادَ زَمَانُهُ الْبَالِى قَشِيبا[٤]

كأنما يستضرمان العَرْفجا[١]

(١) الأولى بمعنى الذين : والاستفهام للتقرير أى أنت ابن أولئك ، وسعدوا ؛ من السعادة ؛ والنجيب : الكريم .

(٢) يقول : وأنت ابن الذين أدركوا بحزمهم ماطلبوا فى رفق وأناة وتؤدة فأدركوا الصعب البعيد بأهون سبب ودون جهد ونصب . وجعل الوحش مثلا للمطلوب البعيد ؛ ودبيب النمل مثلا لرفقهم ولطف تأنيهم .

(٣) يقول : إن الطيب الذى يتضوع من الرياض ليس لها فى الحقيقة ولكنه شىء أفادته من دفن آبائه فى التراب ، وهذا من قول أبى تمام :

أرادُوا لِيُخْفُوا قَبْرَهُ عَنْ عَدوِّه ... فَطِيبُ تُرَابِ القَبْرِ دَلَّ على القَبْرِ

(٤) الضمير فى زمانه : للمجد ، والقشيب الجديد ، قال ابن جنى : معناه أن روح المجد انتقل إليه فصار هو المجد مبالغة ، وقال غيره : إن روح مجد آبائه انبعث فيه فعاد إلى عالم الظهور ، وتجدد زمانه بعد انقضائه ، وقال آخرون : معناه يا من عاد به روح المجد فى المجد ، أى أن المجد كان ميتاً فعاد به حياً وعاد الزمان الذى كان باليا جديداً به ، وقد نظر إلى هذا المعنى بعضهم فقال :

سألت الندى والمجد حيَّانِ أنتما ... وهل عشتما من بعد آل محمد
فقالا نعم متنا جميعاً وضمنا ... ضريح وأحيانا دبيس بن مزيَدِ

---

(١) العرفج شجر معروف سريع الاشتعال بالنار ، ولهبه شديد الحمرة ، ويبالغ بحمرته فيقال : كأن لحيته ضرام عرفجة .

تَيَمَّمَنِى وَكِيلُكَ مَادِحاً لِى ‏ ‏ ‏ ‏ وَأَنْشَدَنِى مِنَ الشِّعْرِ الْغَرِيبَا(١)
فَآجَرَكَ الْإِلٰهُ عَلَى عَلِيلٍ ‏ ‏ ‏ ‏ بَعَثْتَ إِلَى الْمَسِيحِ بِهِ طَبِيبَا(٢)
وَلَسْتُ بِمُنْكِرٍ مِنْكَ الْهَدَايَا ‏ ‏ ‏ ‏ وَلٰكِنْ زِدْتَنِى فِيهَا أَدِيبَا
فَلَا زَالَتْ دِيَارُكَ مُشْرِقَاتٍ ‏ ‏ ‏ ‏ وَلَا دَانَيْتَ يَا شَمْسُ الْغُرُوبَا(٣)
لِأُصْبِحَ آمِناً فِيكَ الرَّزَايَا ‏ ‏ ‏ ‏ كَمَا أَنَا آمِنٌ فِيكَ الْعُيُوبَا(٤)

---

(١) تيممنى قصدنى ، قال الواحدى : سمعت الشيخ أبا المجد كريم بن الفضل رحمه الله قال : سمعت والدى أبا بشر قاضى القضاة يقول : أخبرنى أبو الحسين الشامى الملقب بالمشوق قال : كنت عند المتنبى لجاءه هذا الوكيل فأنشده هذه الأبيات :

فؤادى قد انصدع ‏ ‏ ‏ ‏ وضرسى قد انقلع
ولليـــالى عقلى ‏ ‏ ‏ ‏ قد انهوى وما رجع
يا حب ظبى غنــج ‏ ‏ ‏ ‏ كالبدر لما أن طلع
رأيتــه فى بيته ‏ ‏ ‏ ‏ من كوة قد اطلع
فقلت ته ته ته وته ‏ ‏ ‏ ‏ فقال لى مر يالكع
هات قطع ثم قطع ‏ ‏ ‏ ‏ ثم قطع ثم قطع
وضع بكفى وفى ‏ ‏ ‏ ‏ جيبى أدعك أن تضع

فهذا الذى عناه المتنبى بقوله : وأنشدنى من الشعر الغريبا .

(٢) آجره الله : أثابه ؛ جعل نفسه كالمسيح ؛ وهذا الشاعر كعليل قد جاء ليداوى المسيح الذى يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ، وإذاً فلا حاجة به إلى طبيب ؛ ولاسيما إذا كان الطبيب عليلا .

(٣) جعله شمسا لشرفه وعموم منفعته ، يدعو له بأن لاتزال دياره مشرقات بنوره وبأن لايشرف على الغروب : أى لايموت .

(٤) لأصبح : تعليل للدعاء السابق : يقول : أنا آمن عليك من العيوب فإنها لاتقربك ، ولكن الذى أخشاه أن ترزأ فيك ، فأنا أدعو الله أن يقيك الرزايا لأصبح آمنا فيك المحذورين معا .

وقال يصف مجلسين لأبى محمد الحسن بن عبد الله بن طُغج ، قد انزوى أحدهما عن الآخر ليُرى من كل واحد منهما ما لا يُرى من صاحبه :

المَجْلِسانِ عَلَى التَّمْييزِ بَيْنَهُما مُقابِلانِ وَلَكِنْ أَحْسَنَا الْأَدَبَا(١)
إِذَا صَعِدْتَ إِلَى ذَا ، مَالَ ذَا رَهَبًا وَإِنْ صَعِدْتَ إِلَى ذَا ، مَالَ ذَا رَهَبَا(٢)
فَلِمْ يَهَابُكَ مَا لَا حِسَّ يَرْدَعُهُ إِنِّى لَأُبْصِرُ مِنْ شَأْنَيْهِمَا عَجَبَا(٣)

وقال وقد استقل فى القبة ونظر إلى السحاب :

تَعَرَّضَ لِي السَّحَابُ وَقَدْ قَفَلْنَا فَقُلْتُ إِلَيْكَ إِنَّ مَعِى السَّحَابَا(٤)
فَشِمْ فى القُبَّةِ المَلِكَ المُرَجَّى فَأَمْسَكَ بَعْدَ مَا عَزَمَ انْسِكَابَا(٥)

وأشار إليه طاهر العلوى بمسك وأبو محمد حاضر فقال :

أَلطِّيبُ مِمَّا غَنِيتُ عَنْهُ كَفَى بِقُرْبِ الأَمِيرِ طِيبَا
يَبْنِى بِهِ رَبُّنَا المَعَالِى كَمَا بِكُمْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَا(٦)

---

(١) و (٢) يقول : إن هذين المجلسين — وإن كان قد ميز كل منهما فى وضعه عن الآخر — مقابلان بعضهما لبعض ولكنهما أحسنا الأدب فتميزا فإنك إذا صعدت إلى أحدهما فجلست عليه مال الآخر عنه هيبة لك .

(٣) يقول : إذا كان مالا حس له ولا عقل يهابك فما الظن بغيره ؟

(٤) و (٥) قفلنا : رجعنا ، وإليك بمعنى اكفف ، وشم أمر من شام البرق إذا نظر إليه يرجو المطر ، وتقول عزم فلان الأمر وعزم عليه إذا هم به ، وقوله فشم ـ البيت ـ يأمر السحاب بأن ينظر إلى الأمير يرجو مطره كما ترجو الناس من السحاب مبالغة فى جود الأمير حتى صار السحاب مفتقراً إلى سقياه ، ثم قال : إنه لما قال ذلك للسحاب أمسك عن الانسكاب بعد أن هم به حياء من جوده .

(٦) ضمير به للأمير . والخطاب فى بكم لطاهر العلوى ، وهو من نسل الزهراء كريمة سيدنا رسول الله عليه وسلم ، ومن ثم قال : كما بكم يغفر الذنوبا .

وقال وقد استحسن عين باز فى مجلسه :

أَيَا مَا أُحَيْسِنَهَا مُقْلَةً وَلَوْلَا المَلَاحَةُ لَمْ أَعْجَبِ (١)

خَلُوقِيَّةٌ فى خَلُوقِيِّهَا سُوَيْدَاءُ مِنْ عِنَبِ الثَّعْلَبِ (٢)

إِذَا نَظَرَ البَازُ فى عِطْفِهِ كَسَتْهُ شُعَاعًا عَلَى المَنْكِبِ (٣)

وقال يمدح أبا القاسم طاهر بن الحسين العلوى (*) :

أَعِيدُوا صَبَاحِى فَهْوَ عِنْدَ الكَوَاعِبِ

وَرُدُّوا رُقَادِى فَهْوَ لَحْظُ الحَبَائِبِ (٤)

---

(١) التصغير فى ما أحيسنها : مبالغة فى الاستحسان ؛ وقوله لم أعجب : أى لم أقل ما أحيسنها : أى لولا حسنها لم أقل ذلك .

(٢) خلوقية : نسبة إلى الخلوق ضرب من الطيب أصفر اللون — وفى خلوقيها : خبر مقدم ، وسويداء : مبتدأ مؤخر يقول : هذه المقلة صفراء مثل لون الخلوق يتوسط صفرتها إنسان — إنسان عين — أسود كأنه الحبة الصغيرة من عنب الثعلب .

(٣) يقول : إذا نفت الباز إلى جانبه اكتسى من نور مقلته شعاعا .

* قالوا : إن الأمير أبا محمد بن طغج لم يزل يسأل المتنبى أن يخص أبا القاسم طاهراً العلوى بقصيدة من شعره وأنه قد اشتهى ذلك ، وأبو الطيب يقول : ما قصدت إلا الأمير ولا أمدح سواه ؛ فقال أبو محمد : عزمت أن أسألك قصيدة تنظمها فى فاجعلها فيه . وضمن له عنده مئات من الدنانير فأجاب . قال محمد بن القاسم الصوفى : فسرت أنا والطلبى برسالة طاهر إلى أبى الطيب فركب معنا حتى دخلنا عليه وعنده جماعة من الأشراف ، فلما أقبل أبو الطيب ، نزل طاهر عن سريره والتقاه مسلما عليه ؛ ثم أخذه بيده فأجلسه فى المرتبة التى كان فيها ، وجلس هو بين يديه وتحدث معه طويلا . ثم أنشده أبو الطيب فخلع عليه — للوقت — خلعا نفيسة . قال على بن القاسم الكاتب : كنت حاضرا هذا المجلس ، فما رأيت ولا سمعت أن شاعرا جلس الممدوح بين يديه مستمعا المدحه غير أبى الطيب ؛ فإنى رأيت هذا الشريف قد أجلسه فى مجلسه وجلس بين يديه فأنشده هذه القصيدة .

(٤) الكواعب : جمع كاعب ، وهى التى بدا ثدياها للنهود ، والحبائب : جمع حبيبة ولحظ الحبائب أى رؤيتهن . يقول : أصبح دهرى ليلا كله بعد ظعن الأحبة فليس هناك

فَإِنَّ نَهَارِى لَيْلَةٌ مُدْلَهِمَّةٌ عَلَى مُقْلَةٍ مِنْ بَعْدِكُمْ فى غَيَاهِبِ (١)
بَعِيدَةِ مَا بَيْنَ الْجُفُونِ كَأَنَّمَا عَقَدْتُمْ أَعَالِىَ كُلِّ هُدْبٍ بِحَاجِبِ (٢)
وَأَحْسَبُ أَنِّى لَوْ هَوِيتُ فِرَاقَكُمْ
لَفَارَقْتُهُ وَالدَّهْرُ أَخْبَثُ صَاحِبِ (٣)

صباح إلا بردهن ، وقد نفى عنى الكرى فلا رقاد إلا برؤيتهن ، والمعنى ردوهن على حتى يرتد صباحى ورقادى .

(١) مدلهمة: شديدة السواد ، والغياهب : الظلمات ، وهذا البيت كالتعليل لما ذكره فى البيت السابق . يقول : لما رحلتم لم أبصر بعدكم شيئا : أى بكيت حتى عميت ، فآض نهارى ليلا حالك السواد . وعبارة الواحدى : يريد أن جفونه مختومة بعدهن لم تفتح ، وإذا انطبقت الجفون فالنهار ليل . وقال التبريزى : هذا معنى البيت الأول : أى غاب عنى الكواعب فغاب صباحى بعدهن ، لأن الدنيا تظلم فى عين المحزون ، فردوا رقادى فقد كنت أراهم فى نومى وقد فقدتهم منذ فارقت الرقاد . والعرب إذا وصفت الأمر الشديد شبهت النهار بالليل لإظلام الأمر .

(٢) بعيدة : بدل من مقلة — فى البيت السابق — ومن روى بعيدة بالرفع فهى خبر ابتداء محذوف أى هى بعيدة ، والهدب : الشعر النابت على أشفار العين ولكن المراد بأعالى كل هدب : ما نبت على الجفن الأعلى فهو عام قد خصص . ونص عبارة الواحدى : إذا حمل قوله كل هدب على العموم فالحاجب هنا بمعنى المانع لأنا إذا حملنا الحاجب على المعهود كان مغمضا لأن هدب الجفن الأسفل إذا عقد بالحاجب حصل التغميض ، وإذا جعلنا الحاجب بمعنى المانع صح الكلام : وإن جعلنا الحاجب المعهود حملنا قوله كل هدب على التخصيص ، وإن كان اللفظ عاما ، وهذا مثل قول الآخر :

وَرَأْسِىَ مَرْفوعٌ لِنجمٍ كأنما قفاه إلى صُلبى بخيطٍ مُخَيَّطُ

يقول : إن عينيه لا تنطبقان وتباعدت أجفانه حتى لكأن أعالى أهدابها قد عقدت بالحاجبين ، وهذا مثل قول بشار بن برد :

جفَتْ عينى عَنِ التغميضِ حتى كأنَّ جُفُونَهَا عنها قِصَارُ

(٣) يقول : إن الدهر مولع بمخالفتى حتى لو هويت فراقكم لواصلتمونى : يعنى أن

فَيَالَيْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحِبَّتِي ... مِنَ الْبُعْدِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَصَائِبِ (١)
أَرَاكِ ظَنَنْتِ السِّلْكَ جِسْمِي فَعُقْتِهِ ... عَلَيْكِ بِدُرٍّ عَنْ لِقَاءِ التَّرَائِبِ (٢)
وَلَوْ قَلَمٌ أُلْقِيتُ فِي شَقِّ رَأْسِهِ ... مِنَ السُّقْمِ مَا غَيَّرْتُ مِنْ خَطِّ كَاتِبِ (٣)

من أهواه يبعد عنى ، ومن أجتويه يقرب منى لسوء صحبة الدهر إياى ، فقوله لفارقته : أى لفارقت الفراق مضطراً بحكم الدهر — وفى هذا يقول بعضهم :

أَرَى مَا أَشْتَهِيهِ يَفِرُّ مِنِّي ... وَمَالَا أَشْتَهِيهِ إِلَيَّ يَأْتِي
وَمَنْ أَهْوَاهُ يُبْغِضُنِي عِنَاداً ... وَمَنْ أَشْنَاهُ يَشْبَثُ فِي لَهَاتِي
كَأَنَّ الدَّهْرَ يَطْلُبُنِي بِثَأْرٍ ... فَلَيْسَ يَسُرُّهُ إِلَّا وَفَاتِي

وقال العكبرى : قوله لفارقته : كان الوجه أن يقول لفارقنى ، لكنه قلبه لأن من فارقك فقد فارقته ، وهذا من باب القلب . ثم قال : وكان حقه أن يقول أخبث الأصحاب لأنه أراد خبث من يصحبه ؛ وإذا كان اسم الفاعل فى مثل هذا يجوز فيه الإفراد والجمع كقوله تعالى « ولا تكونوا أول كافر به » أى أول من يكفر :

وأنشد الفراء :

وإذا هُمُ طَعِمُوا فألأمُ طَاعِمٍ ... وإذا هم جاعوا فشرُّ جياع

فأتى الأمرين جميعا :

(١) يقول : ليت أحبتى واصلونى مواصلة المصائب ، وليت المصائب بعدت عنى بعدهم . يعنى أن المصائب ملازمة له فهو يتمنى أن تكون أحبته كذلك وهذا كما قال أيضا :

ليتَ الحبيبَ الهاجرى هَجْرَ الكرى ... من غير جرم واصلى صلة الضنا

(٢) أراك أظنك ، والسلك الخيط الذى ينظم فيه الدر وغيره ، وقوله عليك بدر يريد بدر عليك فقدم الجار والمجرور ، والترائب موضع القلادة من الصدر يقول : أظنك حسبت السلك الذى فى قلادتك جسمى لمشابهته إياه فى الدقة فحلت بينه وبين ترائبك بالدر المنظوم فيه لئلا يلامس صدرك ، أى أن ولوعك بعشاقى حملك على منافرة كل ما يشاكلنى ، يشكو مخالفتها إياه ورغبتها عن وصاله وهو من معانى المتنبى البديعة .

(٣) يقول : لشدة سقمى نحلت حتى لم يبق لى جثمان يحس به فلو ألقيت فى شق

تُخَوِّفُنِي دُونَ الَّذِي أَمَرَتْ بِهِ وَلَمْ تَدْرِ أَنَّ العَارَ شَرُّ العَوَاقِبِ (١)
وَلَا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ يَطُولُ اسْتِمَاعِي بَعْدَهُ لِلنَّوَادِبِ (٢)
يَهُونُ عَلَى مِثْلِي إِذَا رَامَ حَاجَةً وُقُوعُ العَوَالِي دُونَهَا وَالقَوَاضِبِ (٣)
كَثِيرُ حَيَاةِ المَرْءِ مِثْلُ قَلِيلِهَا يَزُولُ وَبَاقِي عَيْشِهِ مِثْلُ ذَاهِبِ (٤)

قلم ، لم يتغير بى خط كاتب ، وهذا من مبالغات الشعراء ، وقد افتنوا فى هذا المعنى كل الافتنان فمن ذلك قول بعضهم :

ذبتُ مِنَ الوَجْدِ فلو زُجَّ بى فى مُقلة الوَسْنانِ لم ينتبِهِ

وقول الآخر :

فاستبقِ ما أبقيتَ لى فلعلَّنى يوماً أقيكَ بهِ مِنَ الأعداء
مِنْ مُهجَة ذابَتْ أسًى فلو انَّها فى العيْنِ لم تَمنع من الإغفاء

(١) قال الواحدى : الذى أمرت به هو ملازمة البيت وترك السفر ، والذى خوفته به هو الهلاك ؛ وتقدير اللفظ : تخوفنى بشىء دون الذى أمرت به : أى تخوفنى بالهلاك وهو دون ما تأمر به من ملازمة البيت ، لأن فيها عارا ، والعار شر من البوار ؛ والضمير فى تخوفنى . للحبيبة ، أو العاذلة : وعبارة ابن جنى : تخوفنى الهلاك وهو عندى دون العار الذى أمرتنى بارتكابه .

(٢) يقول : لابد لى من يوم مشهور أكثر فيه قتل الأعادى فأسمع بعده صياح النوادب عليهم ؛ والأغر فى الأصل : الذى فى وجهه بياض ، والمحجل : قال أبو عبيدة : المحجل من الخيل أن تكون قوائمه الأربع بيضا يبلغ البياض منها ثلث الوظيف أو نصفه أو ثلثيه بعد أن يتجاوز الأرساغ ولا يبلغ الركبتين ، العرقوبين — وأغر محجل كما ترى من صفات الخيل — استعارهما لليوم ؛ يريد يوما مشهورا يمتاز عن الأيام كما يمتاز الفرس بالغرة والتحجيل .

(٣) العوالى : صدور الرماح : أى الأسنة ؛ والقواضب : السيوف القواطع يقول : مثلى إذا رام أمرا لم يبال أن يكون دون الوصول إليه رماح وسيوف : يريد أنه يتوصل إليه وإن كان دونه حروب وأهوال .

(٤) كثير : مبتدأ ، ومثل : خبر أول ؛ ويزول : خبر ثان : يحث على الشجاعة

إِلَيْكِ فَإِنِّى لَسْـــتُ مِمَّنْ إِذَا اتَّقَى
عِضَـــاضَ الْأَفَاعِى نَامَ فَوْقَ الْعَقَارِبِ (١)

أَتَانِى وَعِيـــدُ الْأَدْعِيَاءِ وَأَنَّهُمْ أَعَدُّوا لِىَ السُّودَانَ فِى كَفْرِ عَاقِبِ (٢)

وَلَوْ صَدَقُوا فِى جَدِّهِمْ لَحَذِرْتُهُمْ فَهَلْ فِىَّ وَحْدِى قَوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ (٣)

والإقدام وينهى عن الجبن . يقول : إن طول العمر وقصره سيان لأن نهاية كل منهما الزوال ، وما بقى من العيش لا حق بما ذهب فهو فى حكمه ، وإذن لا وجه للحرص على الحياة . وقال ابن الرومى :

رأيتُ طويلَ العمْرِ مثلَ قصيرِهِ إذا كان مُفضاهُ إلى غايةٍ ترى

قال العكبرى : وهذا من كلام الحكماء قال الحكيم : أواخر حركات الفلك كأوائلها وناشىء العالم كلاشيه فى الحقيقة لا فى الحس :

(١) إليك : اسم فعل بمعنى كُفِّى. يقول : كُفِّى عنى فإنى لست ممن إذا خشى الهلاك صبر على الذل والهوان . جعل الأفاعى مثلا للهلاك لأنها تقتل بسمها دفعة واحدة ، والعقارب مثلا للذل والهوان لأن لسعها لا يقتل ولكنه يتكرر ، فيكون أطول عذابا ، وأمر آلاما وإليك كلمات الشراح . قال ابن جنى : لست ممن إذا تخوف عظيمة صبر على مذلة وهوان ، فشبه الأفاعى بالعظيمة والعقارب بالذل . وقال الواحدى : جعل عض الأفاعى لكونه قاتلا مثلا للهلاك وجعل لسع العقارب مثلا للعار لأنه لا يقتل قال ابن فورجه تعليقا على هذا : من بات فوق العقارب أدته بكثرة لسعها إلى الهلاك كما لو نهشته الأفعى ، إنما يريد أن العار أيضا يؤدى الإنسان ذا الجد إلى الهلاك لتعيير الناس إياه بل هو أشد لأنه عذاب يتكرر والهلاك دفعة واحدة فجعل الأفاعى مثلا للهلاك والعقارب مثلا للعار .

(٢) الأدعياء جمع دعى وهو المنتسب إلى غير أب يريد بهم هنا جماعة يدعون نسب على رضى الله عنه أرادوا به سوءا وأعدوا له جماعة من السودان ليقتلوه . وكفر عاقب قرية بالشام من أعمال حلب .

(٣) يقول : لو كانوا قد صدقوا فى دعوى انتسابهم إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم لجاز صدقهم فى الوعيد أيضا فحذرتهم ، ولكنهم إذ كذبوا فى نسبهم علمت أنهم لا يصدقون فهل يكون قولهم فى وحدى صادقا ؟

إِلَىَّ لَعَمْرِى قَصْدُ كُلِّ عَجِيبَةٍ ... كَأَنِّى عَجِيبٌ فى عُيُونِ الْعَجَائِبِ (١)
بِأَىِّ بِلَادٍ لَمْ أُجُــرَّ ذُؤَابَتِى ... وَأَىُّ مَكَانٍ لَمْ تَطَأْهُ رَكَائِبِى (٢)
كَأَنَّ رَحِيلِى كَانَ مِنْ كَفِّ طَاهِرٍ ... فَأَثْبَتَ كُورِى فى ظُهُورِ الْمَوَاهِبِ (٣)
فَلَمْ يَبْقَ خَلْقٌ لَمْ يَرِدْنَ فِنَاءَهُ ... وَهُنَّ لَهُ شِرْبٌ وُرُودَ الْمَشَارِبِ (٤)
فَتًى عَلَّمَتْهُ نَفْسُــهُ وَجُدُودُهُ ... قِرَاعَ الْأَعَادِى وَابْتِذَالَ الرَّغَائِبِ (٥)

---

(١) يعرض بالذين توعدوه . يقول : لا عجب من قصدهم إلى بهذا الوعيد فإنى لا أزال أتعثر بالعجائب حتى لكأنها بذلك تتعجب من صبرى وأناتى وعلو همتى فهى تيممنى وتنسل إلى من كل حدب .

(٢) ذؤابة النعل ما أصاب الأرض من المرسل على القدم لتحركه ، وروى بدل ذؤابتى ذوائبى ، يصف نفسه بكثرة الأسفار يقول : إنى لم أدع موضعا من الأرض إلا جولت فيه .

(٣) الكور : الرحل ، وطاهر هو طاهر بن الحسين العلوى الذى قال فيه المتنبى هذه القصيدة . وهذا البيت من أبدع ما قيل فى حسن التخلص . يقول : كما أن مواهب الممدوح لم تدع مكانا إلا أتته كذلك أنا لم أدع مكانا إلا أتيته ، فكأنى امتطيت ظهور مواهبه .

(٤) يقول : لم يبق أحد لم ترد مواهب الممدوح داره كما ترد الناس المشارب مع أن مواهبه شرب للناس فكان حقها — كما هى العادة — أن يردها الشاربون ولكنها هى ترد الشاربين ، فقوله يردن أى المواهب وهو من ورود الماء ، والفناء الساحة والمنزل ، والضمير فيه للخلق والشرب المورد وحظ الوارد من الماء ، وورود : مفعول مطلق ليردن مضاف إلى مفعوله . وعبارة الخطيب التبريزى : كأنهن قد وردن عليه ورود الناس المشارب لينتفعوا بها : يعنى أن هذه منفعة للخلق الذى ترد إليه كما ينفع الماء وارده . وقريب من معنى البيت قول القائل :

إذا سألوا شكرتهم عليه ... وإن سكتوا سألتهم السؤالا

(٥) الابتذال : مثل البذل ؛ والرغائب : جمع رغيبة ، وهى الشىء المرغوب فيه . يقول : إن شجاعته وسخاءه غريزتان موروثتان ؛ والأعادى : يروى العوالى ، وهى صدور الرماح .

فَقَدْ غَيَّبَ الشُّهَّادَ عَنْ كُلِّ مَوْطِنٍ
وَرَدَّ إِلَى أَوْطَانِهِ كُلَّ غَائِبِ (١)

كَذَا الْفَاطِمِيُّونَ النَّدَى فِى بَنَانِهِمْ أَعَزُّ امِّحَاءً مِنْ خُطُوطِ الرَّوَاجِبِ (٢)

أُنَاسٌ إِذَا لاَقَوْا عِدًى فَكَأَنَّمَا سِلاَحُ الَّذِى لاَقَوْا غُبَارُ السَّلاَهِبِ (٣)

---

(١) الشهاد : جمع شاهد ، بمعنى حاضر . يقول : إنه غيب عن وطنه كل من ليس من ديدنه السفر لأن سخاءه يدعوهم إليه ، وردهم إلى الأوطان بعد أن غمرهم بنعمه وأغدق عليهم العطاء فاستغنوا عن السفر إلى غيره .

(٢) الندى : مبتدأ ، وأعز : خبر ؛ وأصل البنان : أطراف الأصابع ، والمراد بها هنا : الأكف . وقد روى بدل فى بنانهم : فى أكفهم ؛ والممدوح من ولد السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج على ابن أبى طالب ، ومن ثم قال: كذا الفاطميون . يقول : إن الجود لا يفارقهم حتى إن خطوط الرواجب قد يمكن أن تمحى منها والجود لا يمحى من أكفهم ، هذا وثمت فرق بين الفاطميين وبين العلويين ؛ فالفاطميون هم أولاد فاطمة من ولدها الحسن والحسين ، فكل فاطمى هو من ولد الحسن والحسين ؛ وأما العلويون فهم من ولد على يدخل فيهم الفاطميون وغيرهم كأولاد العباس بن على وعمر بن على ومحمد بن على بن الحنفية ، والرواجب : واحدتها راجبة ، وهى مفاصل أصول الأصابع التى تلى الأنامل وقيل : هى بواطن مفاصل أصول الأصابع وقيل هى ظهور السلاميات وقيل هى ما بين البراجم من السلاميات وقيل هى مفاصل الأصابع ثم البراجم ثم الأشاجع التى تلى الكف ؛ وقال ابن الأعرابى : الراجبة البقعة الملساء بين البراجم ، والبراجم الشنجات فى مفاصل الأصابع فى كل أصبع ثلاث برجمات إلا الإبهام .

(٣) السلاهب : جمع سلهب ، وهو الفرس الطويل . يقول : إنهم من الشجاعة والإقدام بحيث يعد سلاح أعدائهم فى نظرهم كأنه غبار خيلهم لا يعبأون به ولايكترثون، بل يشقونه لا يرتدون عن أعدائهم : وخص السلاهب لأنها أسرع وغبارها أرق وألطف. وقال الواحدى : يجوز أن يكون السلاهب خيل المدوحين ويقال : فرس مسلهب أى ماض ، ولذا قال الجوهرى : السلهب من الخيل الطويل على وجه الأرض ، ومنه قول الأعرابى فى صفة الفرس : وإذا عدا اسلهب ، وإذا قيد اجلعب ، وإذا انتصب اتلأب . «اسلهب : امتد ، واجلعب انبسط ولم ينقبض : واتلأب ؛ أقام صدره ورأسه»

رَمَوْا بِنَوَاصِيهَا الْقِسِيَّ فَجِئْنَهَا دَوَامِي الْهَوَادِي سَالِمَاتِ الْجَوَانِبِ (١)
أُولَئِكَ أَحْلَى مِنْ حَيَاةٍ مُعَادَةٍ وَأَكْثَرُ ذِكْراً مِنْ دُهُورِ الشَّبَائِبِ (٢)
نَصَرْتَ عَلِيًّا يَا ابْنَهُ بِبَوَاتِرٍ مِنَ الْفِعْلِ لَا فَلٌّ لَهَا فِي الْمَضَارِبِ (٣)
وَأَبْهَرُ آيَاتِ التِّهَامِيِّ أَنَّهُ أَبُوكَ وَأَجْدَى مَا لَكُمْ مِنْ مَنَاقِبِ (٤)

---

(١) الضمير فى نواصيها : للسلاهب ؛ وهى جمع ناصية ، مقدم شعر الرأس ؛ ومنه نواصى الناس أى أشرافهم . قالت أم قبيس الضبية :

وَمَشْهَدٍ قد كَفَيْتُ الغائبين به فى مجمع من نواصى الناس مشهود

وجئنها : أي جئن القسى : أى بلغت السلاهب القسى ؛ والهوادى الأعناق .

ودوامى : حال ؛ وأسكن الياء ضرورة . يقول : إنهم استقبلوا رماة أعدائهم بوجوه خيلهم فلم تنثن حتى وصلت إليهم ، وقد رميت أعناقها دون أعطافها وأعجازها لأنها صممت على الإقدام لا تنحرف يمنة ولا يسرة ، ولهذا لم تصب سهام الأعداء إلا أعناقها وسلمت سائر أعضائها ، وفى سبيل هذا المعنى يقول بعضهم :

شَكَرَتْ جيادُك منك بَرْدَ مَقيلها فى الحرّ بين براقعٍ وجِلال
فجزتك صبراً فى الوغى حتى انثنت جرحى الصدور سوالم الأكفال

(٢) الشبائب : جمع شبيبة ، وهو أيضاً جمع شبة : مثل ضرة وضرائر ؛ أما الشابة فجمعها شواب . تقول : نسوة شبائب وشواب ، قال الراجز :

عجائزاً يَطلبن شيئاً ذاهباً يَخضِبْنَ بالحِنّاء شيباً شائبا
* يَقُلْنَ كنّا مرّةً شبائبا *

يقول : هم أحلى فى القلوب من الحياة إذا أعيدت على صاحبها ، وذكرهم أكثر على الألسنة من ذكر أيام الشباب .

(٣) يريد بعلى : على بن أبى طالب كرم الله وجهه . لأن الممدوح علوى ؛ والبواتر : السيوف القواطع : والفل ؛ الثلم والمضارب : جمع مضرب ، حد السيف . يقول : أتيت من الفعال ما عززت به فعال أبيك ، فكان ذلك منك بمنزلة النصر له ، وقد سلمت أفعالك من العيوب فكانت كأنها سيوف قواطع لا فلول فى مضاربها .

(٤) التهامى : يريد به سيدنا رسول الله . قال ابن جنى : قد أكثر الناس القول

. . . .

فى هـذا البيت ، وهو فى الجملة شنيع الظاهر ، وقد كان يتعسف فى الاحتجاج له والاعتـذار منه بما لست أراه مقنعا . ومع هذا فليست الآراء والاعتقادات فى الدين مما يقدح فى جودة الشعر ورداءته . يقول المتنبى : إن أبهر آيات النبى أنه أبوك ، وكونه أباك هو أجدى مناقبكم معشر الفاطميين . أو هو إحدى مناقبكم الكثيرة ـ على رواية إحدى بدل أجدى ـ وروى بعضهم البيت هكذا

* وأكبر آيات التهامى آية *

أبوك : يعنى أن على بن أبى طالب أبا الممدوح هو أكبر آيات سيدنا رسول الله ؛ وهو حسن لو كانت الرواية صحيحة . وقال العروضى : هذا بيت حسن المعنى ، مستقيم اللفظ ، حتى لو قلت إنه أمدح بيت فى الشعر لم أبعد عن الصواب ؛ ولا ذنب له إذاجهل الناس غرضه واشتبه عليهم ؛ ومعنى البيت : إن كفار قريش كانوا يقولون إن محمدا صنبور ـ أى منفرد أبتر لا عقب له ـ فإذا مات استرحنا منه ، فأنزل الله تعالى ـ إنا أعطيناك الكوثر ـ أى الكثير ، ولست بأبتر كما قالوا ؛ ما شانئك : فهو الأبتر فقال المتنبى أنتم من معجزات النبى وآية لتصديقه وتحقيق قوله تعالى وذلك أجدى مالكم من مناقب ، ثم قال : فإن قيل : الأنساب إنما تنعقد بالآباء والأبناء لا بالأمهات والبنات كما قال الشاعر :

بَنونا بَنُو أبْنائنا ـ وبَناتُنا　　　بَنُوهُنَّ أبناء الرجالِ الأباعِدِ (١)

قلنا : هذا خلاف حكم القرآن العزيز ، قال تعالى « ومن ذريته داود وسليمان ـ إلى قوله ـ ويحيى وعيسى » فجعل عيسى من ذرية إبراهيم ولا خلاف أن عيسى من غير أب وأما قوله التهامى ؛ فإن الله أنزل فى التوراة على موسى : إنى باعث نبياً من تهامة من ولد إسماعيل فى آخر الزمان ؛ وأمر موسى أمته أن يؤمنوا به إذا بعث ودل عليه بآيات أخر ، فأنكر اليهود نبوته . فقال صلى الله عليه وسلم : أنا النبى التهامى الأمى الأبطحى، فلا أدرى كيف نقموا على المتنبى لفظة افتخر النبى بها .

---

(١) قيل إنه للفرزدق ؛ وبنونا خبر مقدم ؛ وبنو أبنائنا مبتدأ مؤخر أى أن بنى أبنائنا مثل بنينا .

إذَا لَمْ تَكُنْ نَفسُ النَّسِيبِ كَأَصْلِهِ
فَمَاذَا الَّذِى تُغْنِى كِرَامُ المَنَاصِبِ (١)
وَمَا قَرُبَتْ أَشْبَاهُ قَوْمٍ أَبَاعِدٍ وَلاَ بَعُدَتْ أَشْبَاهُ قَوْمٍ أَقَارِبِ (٢)

---

(١) النسيب : ذو النسب الشريف ، والمناصب : الأصول . يقول : إذا لم تكن نفس النسيب مشابهة لأصله فى الكرم لم ينفعه الانتساب إلى أصل كريم . يعنى : إن كرم الأصل لا ينفع مع لؤم النفس . وكثيراً ما تعاور الشعراء هذا المعنى ، قال :

وما يَنْفَعُ الأصلُ مِن هاشِمٍ إذا كانَتِ النفسُ مِنْ باهِلَهْ

وقال أبو يعقوب الخريمى :

إذا أنت لم تحمِ القديمَ بحادِثٍ مِنَ المجدِ لم ينفعكَ ما كان مِن قَبلُ

وقال البحترى :

ولستُ أعتدُّ للفتى حَسباً حتى يُرى فى فعاله حَسَبُهْ

(٢) الأشباه : جمع شبه بمعنى شبيه والبيت كالتتمة لما ذكره فى البيت السابق . يقول : إن صحة النسب لاتتحقق إلا بمشابهة الفروع للأصول ؛ فإذا ادعى قوم نسبا وهم أشباه لقوم أباعد عن أهل ذلك النسب فليسوا لهم بأقارب ، وكذلك القول فى الأقارب وهذا تعريض بالذين ذكرهم من الأدعياء . وإليك عبارة الواحدى : لم أجد فى هذا البيت بياناً شافياً ولا تفسيراً مقنعاً وكل تفسير لا يساعده لفظ البيت لم يكن تفسيرا للبيت والذى يصح فى تفسيره أنه يقول : الأشباه من الأباعد لا يقرب بعضهم من بعض لأن الشبه لا يحصل القرب فى النسب والأشباه من الأقارب لا يبعد بعضهم من بعض لأن الشبه يؤكد قرب النسب . هذا إذا جعلنا الأشباه الذين يشبه بعضهم بعضا كقوله :

* الناس مالم يروك أشباه *

فإن جعلنا الأشباه جمع الشبه من قولهم بينهم شبه : فمعنى البيت : لم يقرب شبه قوم أباعد أى لا يتقاربون فى الشبه ولا يشبه بعضهم بعضا ولا يبعد شبه قوم أقارب ؛ يريد أنهم إذا تقاربوا فى النسب تقاربوا فى الشبه . أقول وهذا لعمرى من الواحدى غريب : وغريب أن يلف هذا اللف والمعنى منه قريب ؛ وتحرير لفظ البيت : إن الذين يشبهون قوماً أباعد لا يكونون أقارب والذين يشبهون قوماً أقارب لا يكونون أباعد .

إذَا عَلَوِىٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا هُوَ إلاَّ حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ [(١)]
يَقُولُونَ تَأْثِيرُ الكَوَاكِبِ فى الوَرَى
فَمَا بَالُهُ تَأْثِيرُهُ فى الكَوَاكِبِ [(٢)]
عَلاَ كَتَدَ الدُّنْيَا إلى كُلِّ غَايَةٍ تَسِيرُ بِهِ سَيْرَ الذَّلُولِ بِرَاكِبِ [(٣)]
وَحُقَّ لَهُ أنْ يَسْبِقَ النَّاسَ جَالِساً وَيُدْرِكَ مَالَمْ يُدْرِكُوا غَيْرَ طَالِبِ [(٤)]

---

(١) النواصب : الخوارج الذين نصبوا العداء على بن أبى طالب رضى الله عنه. يقول: إذا لم يكن العلوى تقيا ورعا كطاهر — وهو الممدوح — كان حجة لأعداء أبى تراب ، لأنهم يستدلون بنقصه على نقص أبيه : وهذا من قوله عليه السلام الولد سر أبيه ، وفى المثل من أشبه أباه فما ظلم وقال بعضهم ؛

شريف أصله أصلٌ شريف ولكن فعلهُ غيرُ الحميد
كأن الله لم يخلقه إلا لتنعطف القلوب على يزيد

(٢) يقول : إن الناس تقول : إن الكواكب تؤثر فى الخلق — يريد ما يذهب إليه المنجمون من السعد والنحس — ولكن الممدوح يؤثر فى الكواكب ، إذ يجعل المنحوس بحكم النجوم سعيداً بما يفيض عليه من نعمته ؛ وكذلك يجعل السعيد بحكم النجوم منحوساً بما ينزله به من نقمته ، فلا تستطيع الكواكب أن تحول دون ما يريد . وقال ابن فورجه : تأثيره فى الكواكب إثارته الغبار حتى لا تظهر وحتى يزول ضوء الشمس وتظهر الكواكب بالنهار . هذا ولك أن تجعل قوله تأثير الكواكب مبتدأ محذوف الخبر تقديره يقولون تأثير الكواكب حق أو كائن ولك أن تجعل الخبر الجار والمجرور أى قوله فى الورى :

(٣) الكتد : مجتمع الكتفين من الإنسان ، والذلول المنقادة التى تذل لراكبها. يقول : إنه استوى على ظهر الدنيا فانقادت له انقياد الدابة الذلول لراكبها تسير به إلى كل غاية قصدها . هذا ومن روى علا فعلا ماضياً نصب به كتد ؛ ومن خفض كتد بعلى الجارة فهى متعلقة بمحذوف تقديره ركب على كتد .

(٤) يقول : خليق به أن يسبق الناس فى سبيل المعالى وهو لا يتكلف لذلك جهداً، ويدرك مالم يدركوه من غير ما طلب وسعى ؛ يعنى أنه بلغ ما بلغه بشرف نسبه وما طبعه

وَيُحذَى عَرَانِينَ المُــلُوكِ وَإِنَّهَا ... لِمَنْ قَدَمَيْهِ فِي أَجَــلِّ المَرَاتِبِ (١)

يَدٌ لِلزَّمَانِ الجَمْعُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ... لِتَفْرِيقِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوَائِبِ (٢)

هُوَ ابْنُ رَسُولِ اللهِ وَابْنُ وَصِيِّهِ ... وَشِبْهُهُمَا شَبَّهْتُ بَعْدَ التَّجَارِبِ (٣)

يَرَى أَنَّ مَا مَا بَانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ ... بِأَقْتَلَ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لِعَائِبِ (٤)

الله عليه من الفضل وعلو الهمة ، وهذا مالا يكتسب ويدرك بالسعى والاجتهاد . هذا وقد قال الفراء : حق لك أن تفعل ذلك وحق وإنى لمحقوق أن أفعل كذا فإذا قلت حق قلت لك وإذا قلت حق قلت عليك ومعنى قول من قال حق عليك أن تفعل وجب عليك

(١) العرانين : الأنوف ، وعرانين : مفعول ثان ليحذى ؛ والمفعول الأول : نائب فاعل يحذى ـ الذى يعود على الممدوح . يقول : وجدير به أن تجعل عرانين الملوك أحذية له يطؤها بقدميه ، ولو هو فعل ذلك لكانت فى أجل المراتب لأنها تتشرف بوطأته .

(٢) يد : خبر مقدم ؛ والجمع : مبتدأ مؤخر ؛ واليد : النعمة ؛ ومعنى البيت مأخوذ من قول أبى تمام :

إذا العيسُ لاقَتْ بى أبا دُلَف فقدْ ... تقطَّعَ ما بينى وَبينَ النَّوَائِبِ

(٣) هو ابن رسول الله لأنه ابن السيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول الله ، وابن وصيه لأنه ابن سيدنا على كرم الله وجهه ، وسيدنا على هو وصى سيدنا رسول الله . وقوله وشبههما : أى وهو شبههما ، وقوله شبهت بعد التجارب : كلام مستأنف . يقول : شبهته بهما بعد تجربتى واختبارى إياه ، فليس تشبيهى عبثا .

(٤) اسم أن محذوف هو ضمير الشأن ؛ وما الأولى : نافية بمعنى ليس ، والثانية : بمعنى الذى ، والتقدير : يرى أنه ليس الذى ظهر من الإنسان لضارب بالسيف كالعنق ونحوه بأقتل له مما ظهر لطعن عائب . يقول : إنه يرى العيب أشد من القتل ، وهذا من قول أبى تمام :

فتًى لا يَرَى أنَّ الفَرِيصَةَ(١) مَقتَلٌ ... ولكن يَرَى أن العيوبَ المقاتلُ

وقال ابن جنى : ما الأولى زائدة ، والثانية بمعنى الذى ؛ واسم أن مضمر فيها .

---

(١) الفريصة : لحمة عند نغض الكتف فى وسط الجنب عند منبض القلب وهما فريصتان ترتعدان عند الفزع .

أَلَا أَيُّهَا الْمَالُ الَّذِي قَدْ أَبَادَهُ تَعَزَّ فَهَذَا فِعْلُهُ فِي الْكَتَائِبِ[1]

لَعَلَّكَ فِي وَقْتٍ شَغَلْتَ فُؤَادَهُ
عَنِ الْجُودِ أَوْ كَثَّرْتَ جَيْشَ مُحَارِبِ[2]

حَمَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ لِسَانِي حَدِيقَةً
سَقَاهَا الْحِجَى سَقْيَ الرِّيَاضَ السَّحَائِبِ[3]

---

(١) تعز : يروى تسل ، والكتائب : جمع كتيبة ، وهى الفرقة من الجيش . يقول : تأس أيها المال الذى أباده الممدوح ، فلست وحدك المباد على يده ، ولك الأسوة بأعدائه الذين أبادهم مثلك قتلا وأسراً .

(٢) يقول : لعلك أيهذا المال المباد شغلت فؤاد الممدوح يوماً ما عن السخاء بفتنتك أو أطمعت الأعداء فى محاربته رغبة فيك ، فاستحققت عقوبته بسبب ذلك فأبادك . كأنه يلتمس للمال ذنباً عند الممدوح حتى استوجب أن يفعل به فعله بالعدو .

(٣) الحديقة : الروضة قد أحدق بها حاجز ، والمراد بها هنا : القصيدة ، والحجى : العقل ؛ جعل العقل ساقياً لها ، لأن المعانى التى فيها إنما تحسن بالعقل ، فجعل العقل ساقيها كما تسقى السحائب . وقوله : سقى الرياض السحائب : أراد سقى السحائب الرياض، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وهو من شواذ الاستعمال وقد جاء كثيراً فى الشعر — كقول أبى حية النميرى :

كَمَا خُطَّ الْكِتَابُ بِكَفِّ يَوْماً يَهُودِيٍّ يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ[1]

وقول عمرة الخثعمية ترثى ابنيها :

هُمَا أَخَوَا فِي الْحَرْبِ مَنْ لَا أَخَا لَهُ إِذَا خَافَ يَوْماً نَبْوَةً فَدَعَاهُمَا[2]

---

(١) يقول : إن رسم هذه الدار دقيق متناسب كخط الكتاب الذى كتبه ماهر حاذق فى الكتابة ؛ وخص اليهودى لأنه من أهل الكتاب ، وقيل : المراد التشبيه فى عدم الانتظام . وقوله يقارب : أى يدنى الكتابة بعضها من بعض ؛ ويزيل : أى يباعد ما بينها . وكف : مضاف إلى يهودى ، وفصل بينهما يوما ، وهو الشاهد.

(٢) من أبيات فى باب الرثاء من حماسة أبى تمام . فصل بين المضاف والمضاف

فَحُيِّيتَ خَيْرَ ابْنٍ لِخَيْرِ أَبٍ بِهَا لِأَشْرَفِ بَيْتٍ فِي لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ[١]

وقول جرير :

تَسْقِي امْتِيَاحاً نَدَى الْمِسْوَاكَ رِيقَتِهَا كَمَا تَضَمَّنَ مَاءَ الْمُزْنَةِ الرَّصَفُ[١]

وقول الأعشى فى كلمة يمدح بها سلامة ذا فائش :

أَنْجَبَ أَيَّامَ وَالِدَاهُ بِهِ إِذْ نَجَلَاهُ فَنِعْمَ مَا نَجَلَا[٢]

(١) خير أب : منادى ، أو حال ، وبها : أى بالحديقة المعنى بها القصيدة ؛ وكان من عاداتهم أن يحيوا بالزهور والرياحين ؛ ويجوز أن يكون الضمير فى بها : للأرض ؛ وإن لم تذكر ؛ قال الخطيب التبريزى : إذا كان الضمير للأرض كان أمدح . ويعنى بخير ابن : الممدوح ، وبخير أب : سيدنا رسول الله ، وبأشرف بيت : هاشم بن عبد مناف ، إذ أن بيته أشرف ولد لؤى بن غالب .

إليه بقوله : فى الحرب ، يعنى أنهما كانا غوثا لمن لاغوث له ؛ ونبوة السيف كلاله ، والمراد هنا : الشدة .

(١) وقبله :

مَا اسْتَوْصَفَ النَّاسُ عَنْ شَيْءٍ يَرُوقُهُمُ إِلَّا أَرَى أُمَّ عَمْرٍو فَوْقَ مَا وَصَفُوا

كَأَنَّهَا مُزْنَةٌ غَرَّاءُ وَاضِحَةٌ أَوْ دُرَّةٌ لَا يُوَارِي ضَوْءَهَا الصَّدَفُ

والامتياح : الاستياك ؛ والندى : البلل ؛ والمزنة : السحابة البيضاء ، والرصف : جمع رصفة ـ حجارة مرصوف بعضها إلى بعض ، وماؤها أرق وأصفى من غيره وامتياحاً ظرف : أى وقت امتياح أو حال . أى ممتاحة ، والمسواك : مفعول أول لتسقى ، وندى: مفعول ثان مضاف إلى ريقتها ؛ وقد فصل بينهما بالمسواك .

(٢) أنجب الرجل . ولد ولداً نجيبا ، ونجلاه : ولداه ، ووالداه : فاعل أنجب وأيام : ظرف لأنجب ؛ وبه : متعلق بأنجب ؛ وأيام : مضاف إلى إذ ؛ وقد فصل بينهما بقوله : أيام ، وبه .

وقال يمدح كافوراً سنة ست وأربعين وثلثمائة : وهى من محاسن شعره :

مَنِ الْجَآذِرُ فى زِىِّ الأَعَارِيبِ ... حُمْرَ الْحُلَى وَالْمَطَايَا وَالْجَلاَبِيبِ [١]

إنْ كُنْتَ تَسْأَلُ شَكّاً فى مَعَارِفِهَا ... فَمَنْ بَلاَكَ بِتَسْهِيدٍ وَتَعْذِيبِ [٢]

---

(١) من : استفهام ، والجآذر : جمع جؤذر ، وهو ولد البقرة الوحشية ، تشبه بها النساء فى حسن العيون . والأعاريب : جمع أعراب ، وهم سكان الخيام والوبر . وقوله فى زى : حال من الجآذر ؛ والعامل فيها معنى الاستفهام ؛ وحمر الحلى : حال بعد حال والجلابيب : جمع جلباب ــ الملحفة تلبسها المرأة فوق ثيابها ــ قالت جنوب أخت عمرو ذى الكلب ترثيه ، وكان قد قتل :

تَمْشِي النسورُ إليهِ وَهْيَ لاهِيَةٌ ... مَشْيَ العَذَارَى عَلَيْهِنَّ الجلابِيبُ [١]

يقول : من هؤلاء النسوة ، الشبيهات بالجآذر : وهن فى زى الأعاريب ، ومتحليات بالذهب الأحمر ، ومتطيات النياق الحمر ، ومشتملات فى الثياب الحمراء — يعنى أنهن من نساء الملوك ، لأن الحمرة لون ملابس الأشراف عندهم ، والنياق الحمر أكرم النياق لدى العرب .

(٢) شكا : مفعول لأجله : يقول — مخاطبا نفسه — : إن كنت تسأل عنهن لشك بدا لك فى معرفتهن ، فمن الذى امتحنك بالسهر والعذاب ؟ يعنى أنهن دلهنك بحبهن حتى صرت مسهدا معذبا ، فكيف لا تعرفهن ؟ وإنما استفهم عنهن لقوة شبههن بالجآذر حتى كأنهن جآذر لا نساء ؛ وهذا من باب تجاهل العارف كما قال ذو الرمة :

أيا ظبيةَ الوَعْساءِ بَينَ جُلاجِلٍ ... وَبين النَّقا آأنْتِ أمْ أُمُّ سالِمِ [١]

---

(١) قوله وهى لاهية : يريد أن النسور آمنة منه لا تخافه لكونه ميتاً ، فهى تمشى إليه مشى العذارى .

(١) جلاجل : روى حلاحل ــ بالحاء المضمومة ــ وقل ابن برى : روت الرواة هذا البيت فى كتاب سيبويه : جلاجل ــ بضم الجيم لا غير ــ

لَا تَجْزِنِى بِضَنًى بِى بَعْدَهَا بَقَرٌ تَجْزِى دُمُوعِىَ مَسْكُوباً بِمَسْكُوبِ (١)
سَوَائِرٌ رُبَّمَا سَارَتْ هَوَادِجُهَا مَنِيعَةً بَيْنَ مَطْعُونٍ وَمَضْرُوبِ (٢)
وَرُبَّمَا وَخَدَتْ أَيْدِى الْمَطِىِّ بِهَا عَلَى نَجِيعٍ مِنَ الْفُرْسَانِ مَصْبُوبِ (٣)

---

(١) المراد بالبقر : النساء التى وصفها : يدعو لهن يقول : لا جزينى مقابل الضنا الذى حل بى بعد فراقهن ضنى مثله كما تجزين دموعى دموعا مثلها : يعنى لا أورثهن الله السقام بعدى كما أورثنى بعدهن ، وإن كن قد بكين لفراقى كما بكيت لفراقهن . فقوله لا تجزنى : دعاء ، مجزوم بالدعاء ، لأنه بلفظ النهى ؛ فحكمه فى الجزم حكم النهى كقول مالك بن الريب من كلمة يرثى بها نفسه :

يَقُولُونَ لَا تَبْعَدْ وهم يَدْفِنونَنِى وأَيْنَ مَكانُ البُعْدِ إلا مَكانِيا؟(١)

والباء فى قوله بضنى : للمقابلة ، وبى : صفة لضنى : أى ضنى حال بى أو واقع بى ، وبقر : فاعل تجزنى : أى لا تجزنى بقر بضنى حل بى ضنى يحل بهن ؛ وبعدها : أى بعد فراقها والهاء : راجعة إلى قوله بقر ، وإن كانت متأخرة ، وجاز ذلك لأنها فاعل والفاعل رتبته التقديم ؛ فإذا أخر جاز تقديم الضمير العائد عليه ، لأن النية به التقديم ، وقوله : تجزى دموعى الخ صفة لبقر ؛ وقوله مسكوبا : بدل من دموعى : أى تجزى دموعى مسكوبا منها بمسكوب من دموعها ، وتعبيره ببقر هنا ؛ غير لائق .

(٢) سوائر : أى هن سوائر ، والهوادج : مراكب النساء على الإبل . يقول: إنهن من قومهن فى عز ومنعة ، فمن تصدى لهن طعن أو ضرب ، فسارت هوادجهن ما بين مطعون ومضروب .

(٣) الوخد : ضرب من سير الإبل ، وهو سعة الخطو فى المشى . والنجيع الدم . يقول : ربما سارت بهن مطاياهن على دم مصبوب من الفرسان .
يريد أنهن فى منعة، دونهن طعان وضراب وقتال ، فالبيت فى معنى البيت السابق .

---

(١) الاستفهام : فى قوله : وأين الخ بمعنى النفى ، ولذا وقعت «إلا» بعده .

كَمْ زَوْرَةٍ لَكَ فِي الْأَعْرَابِ خَافِيَةٍ
أَدْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زَوْرَةِ الذِّيبِ (١)

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي
وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي (٢)

قَدْ وَافَقُوا الْوَحْشَ فِي سُكْنَى مَرَاتِعِهَا
وَخَالَفُوهَا بِتَقْوِيضٍ وَتَطْنِيبِ (٣)

جِيرَانُهَا وَهُمُ شَرُّ الْجِوَارِ لَهَا
وَصَحْبُهَا وَهُمُ شَرُّ الْأَصَاحِيبِ (٤)

فُؤَادُ كُلِّ مُحِبٍّ فِي بُيُوتِهِمِ
وَمَالُ كُلِّ أَخِيذِ الْمَالِ مَحْرُوبِ (٥)

---

(١) يصف جرأته فى زيارة الحبائب بعد أن ذكر منعتهن يقول — مخاطبا نفسه — كم قد زرتهن زيارة لم يشعر بها أحد كزيارة الذئب الغنم يقع فيها، ويذهب بما يذهب منها على غفلة من الراعى . وقوله : وقد رقدوا ، جملة معترضة بين أدهى ومن زورة الذيب .

(٢) جمع فى هذا البيت بين خمس مطابقات : الزيارة والانثناء والسواد والبياض والليل والصبح والشفاعة والإغراء ولى وبى . وأنثنى : أى أعود، وأغراه به: ضراه به وحضه عليه . يقول : أزورهم والليل لى شفيع لأنه يسترنى عنهم ، وأنصرف وكأن الصبح يغرى بى ، إذ يشهرنى ويدلهم على مكانى . وهذا البيت — كما ترى — من معجزات المتنبى .

(٣) يقول : إن هؤلاء الأعراب قد وافقوا الوحش فى سكنى البرارى وخالفوها فى أن لهم خياما ، يهدمونها لدى الرحيل وينصبونها لدى الإقامة ؛ أما الوحش فلا خيام لها ، يريد أنهم ممن يسكنون البادية ، والمراتع المسارح التى ترتع فيها الوحوش وتسرح؛ والتقويض : الهدم ؛ والتطنيب : شد الخيام بالأطناب .

(٤) يقول : هم جيران الوحوش ، يريد أنهم يسيئون جوارها لأنهم يصيدونها ويذبحونها ، وقوله وهم شر الجوار : أى وجوارهم شر الجوار — على حد قوله تعالى « ولكن البر من آمن بالله » والأصاحيب : جمع أصحاب ؛ جمع صحب اسم جمع لصاحب .

(٥) أخيذ : أى مأخوذ ؛ والمحروب : الذى ذهب كل ماله . يقول : إن فيهم الجمال والشجاعة : فنساؤهم ينهبن القلوب ، ورجالهم ينهبون الأموال

وقال التبريزى : يريد أنهم ملكوا قلوب الرجال — أى بالسخاء — وأموال الأعداء .

مَا أَوْجُهُ الْحَضَرِ الْمُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ   كَأَوْجُهِ الْبَدَوِيَّاتِ الرَّعَابِيبِ (١)
حُسْنُ الْحِضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ   وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ (٢)
أَيْنَ الْمَعِيزُ مِنَ الْآرَامِ نَاظِرَةً   وَغَيْرَ نَاظِرَةٍ فِي الْحُسْنِ وَالطِّيبِ (٣)

---

(١) الرعابيب : جمع رعبوبة ، وهى المرأة التارة السمينة : والضمير فى به : للحضر يقول : ليست الأوجه المستحسنات بالحضر كأوجه نساء البدو يفضل نساء البدو على نساء الحضر ، وبين السبب فى البيت التالى .

(٢) الحضارة — بكسر الحاء ، أو فتحها — الإقامة بالحضر ؛ والبدواة : الإقامة فى البدو ؛ والتطرية : المعالجة . تقول : طرى الطيب : خلطه بالأفاويه ، وطرى الطعام : خلطه بالتوابل . يذكر السبب فى تفضيل البدويات على الحضريات . يقول : إن حسن أهل الحضارة متكلف مجلوب بالحيلة والعلاج أما حسن البدويات فهو خلقة ، لا يعرفن التكلف والحسن المجلوب بالاحتيال .

(٣) المعيز : اسم لجماعة المعز — كالكليب والعبيد — قال العكبرى : المعيز : اسم للمعزى ، وهو خلاف الضأن ، وهو اسم جنس ، تقول المعز والمعيز والأمعوز ، وواحد المعز : ماعز : مثل صحب وصاحب ؛ والأنثى ماعزة وهى العنز والجمع مواعز . والمعز بالفتح والمعز بسكون العين لغتان فصيحتان قرأ أهل الكوفة ونافع بسكون العين ، وقرأ الباقون بفتحها . وقال سيبويه : معزى منون مصروف ، لأن الألف للالحاق — لا للتأنيث — وهو ملحق بدرهم على فعلل ، لأن الألف الملحقة تجرى مجرى ما هو من نفس الكلمة ، يدل على ذلك قولهم : معيز وأريط — فى تصغيرى معزى وأرطى — فى قول من نون فكسروا مابعد ياء التصغير كما قالوا دريهم ، ولو كانت للتأنيث لم يقلبوا الألف ياء ، كما لم يقلبوها فى تصغير حبلى وأخرى . وقال الفراء : المعزى مؤنثة وقال بعضهم : مذكرة ، وحكى أبو عبيد أن العرب كلها تنون المعزى فى النكرة ، والآرام : لظباء الخالصة البياض . وقوله ناظرة حال : أى فى حال نظرهن وامتداد أعناقهن ، أو فى حال إقبالهن . وقال بعض الشراح : ناظرة : تمييز ، وليست اسم فاعل ، والتقدير من حسن الآرام عيونا . شبه نساء الحضر بالمعيز ، ونساء البدو بالآرام . يقول : أين تقع المعيز من الظباء فى الحسن والطيب أكانت مقبلة أم معرضة ؟ فالظباء تفضلها عيوناً وغير عيون .

أَفْدِى ظِبَـاءَ فَلَاةٍ مَا عَـرَفْنَ بِهَا
مَضْغَ الْكَلَامِ وَلَا صَـبْغَ الْحَوَاجِيبِ [1]
وَلَا بَرَزْنَ مِنَ الْحَمَّامِ مَائِلَةً أَوْرَاكُهُنَّ صَقِيلَاتِ الْعَرَاقِيبِ [2]
وَمِنْ هَـوَى كُلُّ مَنْ لَيْسَـتْ مُمَوِّهَةً
تَرَكْتُ لَوْنَ مَشِـيبِي غَيْرَ مَخْضُـوبِ [3]

---

(١) يريد بظباء الفلاة : البدويات نساء الأعاريب . ومضغ الكلام : ترك إبانته ، كأن المتكلم يمضغ شيئا : يقول : هن فصيحات مبينات ، لايمضغن كلامهن غنجا وتخنثا كنساء الحضر ، ولا يصبغن حواجبهن طلبا للزينة مثلهن ، والحواجيب : جمع حاجب أشبع الكسرة فتولد عنها ياء كما قال الفرزدق :

* نفى الدنانير تنقاد الصياريف [1] *

(٢) مائلة : شاخصة ؛ ويروى مائلة ، والأولى أظهر . والعراقيب : جمع عرقوب ، وهو العصب الغليظ فوق عقب الرجل . يقول : وليست البدويات كالحضريات يجلبن حسنهن بأن يدخلن الحمام فيخرجن منه وقد شددن خصورهن فشخصت أوراكهن من تحتها وصقلن عراقيبهن .

(٣) أصل التمويه : الطلى بماء الذهب أو الفضة ، ثم استعمل بمعنى التدليس والتزوير . وقوله : من هوى ، متعلق بقوله تركت . يقول : ومن أجل أنى لا أحب إلا كل امرأة لا تموه جمالها تركت بياض شيبي دون خضاب : أى لم أموه شيبي كما لم يموهن حسنهن .

---

(١) صدره :

* تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة *

يصف ناقة تسرع فى الهواجر فيقول إن يديها لشدة رفعهما الحصى تنفيانه فيقرع بعضه بعضا ويسمع له صليل كصليل الدنانير ينتقدها الصيرف فينفى رديئها عن جيدها وخص الهاجرة لتعذر السير فيها والشاهد فى الصياريف وروى بدل الدنانير الدراهيم فيكون الشاهد فى الصياريف والدراهيم

وَمِنْ هَوَى الصِّـــدْقِ فى قَوْلِى وَعَادَتِهِ
رَغِبْتُ عَنْ شَـعَرٍ فى الرَّأْسِ مَكْذُوبِ (١)
لَيْتَ الْحَوَادِثَ بَاعَتْنِى الَّذِى أَخَــــذَتْ
مِــــنِّى بِحِلْمِى الَّذِى أَعْطَتْ وَتَجْرِيبِى (٢)
فَمَا الْحَدَاثَةُ مِنْ حِــلْمٍ بِمَانِعَــةٍ قَدْ يُوجَدُ الْحِلْمُ فى الشُّبَّانِ وَالشِّيبِ (٣)
تَرَعْرَعَ الْمَلِكُ الْأُسْتَاذُ مُكْتَهِلاً قَبْلَ اكْتِهَالٍ أَدِيباً قَبْلَ تَأْدِيبِ (٤)

---

(١) رغب عن الشىء : زهد فيه . والضمير فى قوله : وعادته ، يرجع إلى الصدق وهو عطف على هوى . يقول : ومن أجل أنى أحب الصدق وقد تعودته لم أجعل شعر رأسى مكذوبا : أى مسودا بالخضاب ، إذ هو غير لونه . فقوله: ومن هوى ، متعلق برغبت ، ويروى بدل قوله عن شعر فى الرأس : عن شعر فى الوجه .

(٢) يقول : إن حدثان الدهر ونوائبه أخذت منى الشباب وأعطتنى الحلم والتجارب، فوددت لو أنها باعت ما أخذت منى بما أعطت : أى ردت على الشباب واستردت الحلم . والحلم العقل والأناة . وهذا من قول على بن جبلة :

وَأَرَى اللَّيالِىَ ما طَوَتْ مِنْ قوَّتِى زَادَتْهُ فى عَقْـــلى وفى أفهامى

وقول ابن المعتز :

وَما يُنْتَقَصْ من شباب الرجال يُزَدْ فى نهاها وألبابِهـا

(٣) الحداثة : حداثة السن والشباب . يريد أنه كان حليما قبل تحليم الحوادث إياه . يقول : إن حداثة السن لاتحول دون الحلم ، فالمرء قد يكون حليما فى الشباب كما يكون حليما فى المشيب — كما قال أبو تمام :

حَلَّمَــتْنِى زَعَمْـــتُمُ وَأَرَانى قبل هذا التحليم كنتُ حليما

(٤) ترعرع الصبى : نشأ وشب ، والأستاذ : لقب كافور ؛ وهى كلمة فارسية ، من معانيها : المعلم ، والمدبر ، والعالم . يريد المتنبى أن يؤكد بهذا البيت معنى البيت السابق ، وفيه من البديع حسن التخلص . يقول : إن كافورا نشأ على الاكتهال — أى حلم الكهول — قبل أن يكتهل سنا ، وعلى الأدب قبل أن يؤدب : أى أنه ترعرع على ذلك

مُجَرَّباً فَهَماً مِنْ قَبْلِ تَجْرِبَةٍ ... مُهَذَّباً كَرَماً مِنْ غَيْرِ تَهْذِيبِ (١)
حَتَّى أَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا نِهَايَتَهَا ... وَهَمُّهُ فِي ابْتِدَاآتٍ وَتَشْبِيبِ (٢)
يُدَبِّرُ الْمُلْكَ مِنْ مِصْرٍ إِلَى عَدَنٍ ... إِلَى الْعِرَاقِ فَأَرْضِ الرُّومِ فَالنُّوبِ (٣)
إِذَا أَتَتْهَا الرِّيَاحُ النُّكْبُ مِنْ بَلَدٍ ... فَمَا تَهُبُّ بِهَا إِلَّا بِتَرْتِيبِ (٤)

طبعاً دون أن يفيده من كر الغداة ومر العشى ، وهذا دليل على أن الحداثة ليست بمانعة من حلم .

(١) قال صاحب اللسان : رجل مجرب كمضرس — بالفتح — جرب فى الأمور وعرف ما عنده ، كأن الأمور جربته وأحكته ؛ ومجرب — بالكسر — عرف الأمور وجربها . ثم قال : إلا أن العرب تكلمت به بالفتح . يقول المتنبى : نشأ كافور مجربا قبل أن يجرب — لما جبل عليه من الفهم — مهذباً قبل أن يهذب — بما طبع عليه من الكرم — ففهما وكرما : مفعول لهما .

(٢) التشبيب فى الأصل : ذكر أيام الشباب : وهو يكون فى ابتداء القصائد ، ثم سمى ابتداء كل أمر تشبيبا ، وإن لم يكن فيه ذكر أيام الشباب ، ويريد بنهاية الدنيا : الملك ، لأنه لا شىء إلا والملك فوقه يقول : إن كافوراً أصاب الغاية القصوى من دنياه وهو الملك ، ومع ذلك لا تزال همته فى بداية أمرها : أى أنه بعيد مرتقى الهمة .

(٣) يريد فسحة رقعة ملكه وترامى حدودها إلى هذه الأطراف ، لا أنها داخلة فى مملكته ، لأن كافوراً لم يكن من ملكه عدن ولا العراق ولا أرض الروم — الأناضول — ولا النوب ، إنما مملكته تحد بهذه البلاد ؛ إذ كانت مصر والحجاز والشام فحسب .

(٤) يقول : إنه لهيبته وعظمه فى النفوس وغيرها إذا هبت الرياح الهوج فى بلاده هبت مستوية رزينة مرتبة إعظاماً له وإجلالا ، والرياح مثل أراد به المبالغة فى إعظام الناس إياه وتنكبهم التمرد عليه حتى لو كانت الرياح تعقل لاستوت واطردت مهابة له . وعبارة الخطيب التبريزى : يعظم أمره وسياسته ، ولم يرد الرياح بعينها ، بل يريد أن الناس له هائبون ، حتى الرياح إذا هبت هبت بترتيب واستواء هيبة له . فالضمير فى أتتها : يعود على الملك بمعنى المملكة والنكب : جمع نكباء ، وهى الريح تهب فى غير استواء .

وَلا تُجَاوِزُهَا شَمسٌ إذا شَرَقَتْ   إلاَّ وَمِنهُ لَهَا إذْنٌ بِتَغْرِيبِ (١)

يُصَرِّفُ الأمْرَ فِيهَا طِينُ خَاتَمِهِ   وَلَوْ تَطَلَّسَ مِنهُ كُلُّ مَكْتُوبِ (٢)

يَحُطُّ كُلَّ طَوِيلِ الرُّمْحِ حَامِلُهُ   مِنْ سَرْجِ كُلِّ طَوِيلِ البَاعِ يَعْبُوبِ (٣)

كَأنَّ كُلَّ سُؤالٍ فى مَسَامِعِهِ   قَمِيصُ يُوسُفَ فى أجْفَانِ يَعْقُوبِ (٤)

إذا غَزَتْهُ أعَادِيهِ بِمَسْألَةٍ   فَقَدْ غَزَتْهُ بِجَيْشٍ غَيْرِ مَغْلُوبِ (٥)

---

(١) هذا البيت فى معنى الذى سبقه . يقول : ولاتغرب الشمس عن مملكته بعد أن تشرق إلا بإذنه ، وكل هذا مبالغة .

(٢) طلس الكتاب : طمسه ومحاه ، كطرسه . يقول : إن أمره ممتثل مطاع فى بلاده حتى لو كتب مكتوباً بأمر من الأمور وختم مكتوبه هذا بالطين — كما هى عادتهم إذ ذاك — ثم انمحى كل ما كتب ولم يبق إلا الخاتم امتثل أمره بمجرد رؤية الخاتم إعظاماً وإجلالا . وخاتم : يقال بفتح التاء وكسرها ، وفيه خاتام وخيتام .

(٣) يحط : ينزل ويضع ، وحامله : فاعل يحط ، والضمير فى حامله : يعود إلى الخاتم ، واليعبوب : الفرس السريع الجرى . يقول : إن حامل خاتم كافور ينزل الفارس البطل الطويل الرمح من سرج الفرس السريع الجرى: أى أن الفارس إذا رأى خاتم كافور سجد له إعظاماً فنزل عن فرسه ، والمعنى أنه نافذ الأمر مطاع ، وعبارة الواحدى : لم يعرف ابن جنى هذا . فقال مرة : يقتل حامل خاتمه كل فارس فينزل له عن سرج فرسه ومرة : يحط حامل كتابه أعداءه عن سروجهم ، وليس البيت من القتل ولا من إنزال الأعداء فى شىء ؛ والمعنى : يريد نفاذ أمره واتساع قدرته ، وقال ابن القطاع : الهاء يعود على كافور : أى إذا رآه الأبطال انحطوا .

(٤) يقول : إنه يسر ويبتهج إذا سمع سؤال سائل ـ يستجديه ـ ابتهاج يعقوب حين رأى قميص يوسف ، وذلك لكرمه وجوده

(٥) يقول : إنه لا يرد السائل أيا كان ، فلو صمدت إليه أعداؤه سائلة مستجدية نالت مطلوبها ، فكأنها غزته بجيش لا يغلب .

أَوْ حَارَبَتْهُ فَمَا تَنْجُو بِتَقْدِمَةٍ ... مِمَّا أَرَادَ وَلَا تَنْجُو بِتَجْبِيبِ (١)

أَضْرَتْ شَجَاعَتُهُ أَقْصَى كَتَائِبِهِ ... عَلَى الْحِمَامِ فَمَا مَوْتٌ بِمَرْهُوبِ (٢)

قَالُوا هَجَرْتَ إِلَيْهِ الْغَيْثَ قُلْتُ لَهُمْ

إِلَى غُيُوثِ يَدَيْهِ وَالشَّآبِيبِ (٣)

إِلَى الَّذِي تَهَبُ الدَّوْلَاتِ رَاحَتُهُ ... وَلَا يَمُنُّ عَلَى آثَارِ مَوْهُوبِ (٤)

---

(١) التقدمة : التقدم ؛ والتجبيب : الهرب . قال صاحب اللسان : التجبيب النفار ، وجبب الرجل تجبيبا إذا فر وعرد ، وفي الحديث : المتمسك بطاعة الله إذا جبب الناس عنها كالكار بعد الفار : أي إذا ترك الناس الطاعات ورغبوا عنها . يقال جبب الرجل . إذا مضى مسرعا فارا من الشيء . يقول : إذا قصده أعداؤه محاربين ، لم ينجوا من إرادته فيهم فلا يفيدهم الإقدام لأنهم لا يقدرون عليه ولا الهرب لأنه يدركهم لامحالة .

(٢) أضرت : من الضراوة ، وهي الدربة والعادة ، تقول : ضرى فلان بكذا : لزمه واعتاده ، وضراه بكذا : ألهجه به ؛ وفي الأثر : إن للحم ضراوة كضراوة الخمر : أي إن له عادة طلابة لأكله كعادة الخمر مع شاربها ، ويريد بأقصى كتائبه الجبناء الذين لا يشهدون القتال ؛ والحمام : الموت . يقول : إن شجاعته عودت الجبناء من رجاله لقاء الموت وجرأتهم عليه فليس الموت مرهوباً عندهم .

(٣) الشؤبوب : الدفعة الشديدة من المطر ؛ وأل في الشآبيب تقوم مقام الضمير : أي إلى غيوث يديه وشآبيبهما . يعرض المتنبي — فيما يظهر — بسيف الدولة ، يقول ؛ يلومني الناس على هجري الغيث — يعني سيف الدولة — وهم واهمون في هذا اللوم ؛ لأني تركت غيثاً إلى غيوث : أي أني فارقت كريماً إلى من هو أكرم ... وقال ابن فورجه: أراد أن مصر لا تمطر فيقول : لا مني الناس في هجري بلاد الغيث ، فقلت تعوضت عنها غيوث يديه . وهذا تعسف من ابن فورجه ، بدليل البيت التالي .

(٤) يقول : إني هجرت إلى من يعطي العطاء الجزيل ويهب الهبات الخطيرة ولا يتبع هبته بالمن . وهذا تعريض بين بسيف الدولة . والدولات : جمع دولة وهو ما يتداول ، فيكون مرة لهذا ومرة لذلك ؛ فتطلق على المال والغلبة ؛ والمراد هنا : المال الجزل أو الولايات والممالك .

وَلا يَرُوعُ بِمَغْدُورٍ بِهِ أَحَداً ... وَلا يُفَزِّعُ مَوْفُوراً بِمَنْكُوبِ (١)
بَلَى يَرُوعُ بِذِى جَيْشٍ يُجَدِّلُهُ ... ذا مِثْلِهِ فى أَحَمِّ النَّقْعِ غِرْبِيبِ (٢)
وَجَدْتُ أَنْفَعَ مَالٍ كُنْتُ أَذْخَرُهُ ... ما فى السَّوَابِقِ مِنْ جَرْىٍ وَتَقْرِيبِ (٣)
لَمَّا رَأَيْنَ صُرُوفَ الدَّهْرِ تَغْدِرُ بِى ... وَفَيْنَ لِى وَوَفَتْ صُمُّ الأَنَابِيبِ (٤)
فُتْنَ المَهَالِكَ حَتَّى قَالَ قَائِلُهَا ... مَاذا لَقِينَا مِنَ الجُرْدِ السَّرَاحِيبِ (٥)

---

(١) راعه : خوفه وأفزعه ؛ وبه : صلة مغدور ؛ والموفور : الذى لم يصب فى ماله ولم يؤخذ منه شىء ، والمنكوب : ضده . يقول إنه لا يغدر بأحد كى يروع به غيره ولا ينكب أحداً فيتحيفه أو يسلب ماله ليفزع به الموفور الذى لم ينكب . يعنى أنه حسن السيرة فى رعيته ، عادل لا يظلم أحداً بحال .

(٢) يقول : لا يغدر بأحد « إلى آخر البيت السابق » وإنما يروع صاحب جيش بصاحب جيش آخر يصرعه على الأرض : أى ينكل بصاحب جيش ليعتبر به صاحب جيش آخر ، وهو — أى كافور — فى جيش أسود الغبار قد علاه سواد الحديد . وبلى : حرف جواب تختص بالنفى وتفيد إبطاله ، ويجدله أى يصرعه على الجدالة وهى الأرض — وجملة يجدله : صفة لذى جيش ؛ وذا مثله : مفعول يروع ذا جيش ، مثل جيشه . وقوله فى أحم : أى فى جيش أحم النقع : أى أسود الغبار ؛ والغربيب : الشديد السواد ، ومعنى جيش غربيب : أسود الحديد . وقال ابن جنى : إذا رآه ملك وقد صنع بملك آخر ما صنع فإنه يخافه ويحذره .

(٣) يقول : إنى وجدت ما فى الخيل من عدو وجرى أنفع الأشياء التى ادخرتها لأنها حملتنى إلى كافور وأخرجتنى من بين الغادرين بى كما بين ذلك فى البيت التالى .
فالسوابق الخيل والتقريب ضرب من العدو

(٤) : لما رأت الخيل حدثان الدهر ونوبه تغدر بى — يريد الناس — وفت لى بحملها إياى عن موطن الغدر إلى كافور ؛ وكذلك وفت لى الرماح لأنى استظهرت بها على الوصول إلى مصر . فصم الأنابيب . الرماح ، والصم . الصلاب ، والأنابيب : جمع أنبوب ، وهو ما بين العقدتين من الرمح وما شاكله .

(٥) يقول : إن خيلنا قطعت المفاوز وفاتتها حتى لو كان لها — أى للمفاوز — قائل لقال ماذا لقينا من هذه الخيل إذ جابتنا بسرعة وذللت الصعب منا ونجت من غوائلنا ،

تَهْوِى بِمُنْجَرِدٍ لَيْسَتْ مَذَاهِبُهُ   لِلُبْسِ ثَوْبٍ وَمأْكُولٍ وَمَشْرُوبِ[1]

فالمراد بالمهالك: المفاوز ، والجرد : القصيرة الشعر ، وذلك يحمد فى الخيل،والسراحيب: جمع سرحوب ، وهو الفرس الطويل . وعبارة ابن جنى : ضجت المفاوز من سرعة خيلى وقوتها ، وقال ابن فورجه : إذا أطلقت المهالك لم يفهم منها المفاوز ، وإنما تفهم الأمور المهلكة : يعنى أن هذه الخيل لم يعلق بها شىء من الهلاك حتى تعجبت المهالك من نجاتها بسلامتها منها .

(١) تهوى : أى تسرع ؛ وقوله بمنجرد : يعنى نفسه ، والمتجرد : الجاد فى الأمور الماضى فيها لا يرده شىء ؛ وقوله ليست مذاهبه : أى ليست رحلاته للبس ثوب أو ليست أسفاره لهذا . يقول : إن هذه الخيل تسرع برجل جاد ليست أسفاره طلاباً لمثل كسوة أو طعام ، وإنما طلبته المعالى .

وهذا كقوله :

فَسِرتُ إليك فى طلب المعالى   وسار سوایَ فى طلب المعاش

وقديما تعاور الشعراء هذا المعنى ، قال امرؤ القيس :

فلو أنَّ ما أسْعى لأدْنى مَعيشةٍ   كفانى ـ ولم أطْلبْ ـ قليلٌ من المال
ولـكنما أسْـعَى لمجدٍ مُؤَثَّلٍ   وَقدْ يُدْرِكُ المجدَ المُؤثل أمثالى[1]

وقال حاتم الطائى :

لحا اللهُ صُعْلوكاً مُناهُ وَهمُّـهُ   من الدهْرِ أنْ يَلقى لَبوساً ومَطعْما[2]

وقال آخر :

وليس فتى الفتيانِ مَن راح واغتَدَى   لِشُرْبِ صَبوحٍ أوْ لِشُرْبِ غَبوقِ
ولـكن فتى الفتيانِ مَن رَاحَ واغتَدَى   لضَرِّ عَدُوٍّ أوْ لِنَفعِ صَـديق

---

(١) ما ـ فى قوله ماأسعى ـ مصدرية ومجد مؤثل قديم له أصل . والتأثل اتخاذ أصل مال ، وقيل المؤثل : المجموع وقيل : المستمر المثبت

(٢) لحاه الله : قبحه وأهلكه . من لحوت العود ، إذا قشرته ، والصعلوك : الفقير الذى لا مال له ، وصعاليك العرب : ذؤبانها .

يَرَى النُّجُومَ بِعَيْنَيْ مَنْ يُحَاوِلُها ... كَأَنَّها سَلَبٌ فى عَيْنِ مَسْلُوبِ (١)

حَتَّى وَصَلْتُ إلى نَفْسٍ مُحَجَّبَةٍ ... تَلْقَى النُّفُوسَ بِفَضْلٍ غَيْرِ مَحْجُوبِ (٢)

فى جِسْمِ أَرْوَعَ صافِى العَقْلِ تُضْحِكُهُ ... خَلائِقُ النَّاسِ إِضْحاكَ الأعاجِيبِ (٣)

فالحَمْدُ قَبْلُ لَهُ والحَمْدُ بَعْدُ لَها ... وَلِلْقَنا وَلِإِدْلاجِى وَتَأْوِيبِى (٤)

---

(١) السلب : الشيء المسلوب . يريد أنه بعيد مرتقى الهمة . يقول : إنه لطموحه وبعد همته يطمع فى إدراك النجوم ، فهو ينظر إليها بعين من يحاول تناولها حتى لكأنها شيء قد سلب منه فلا يستريح أو يحصل عليه، شأن المسلوب لا تطيب نفسه أو يرجع إليه ما سلب منه .

(٢) يقول : حتى وصلت إلى ملك محجب — لأن الملوك محجبون لا يبتذلون أنفسهم للناس — بيد أنه وإن كان محجبا فإن نواله دان قريب لمن طلبه غير محجوب عنه ، ويجوز أن يريد بالنفس همته ، وأنها محتجبة عن الناس لايبلغها كل أحد ، بدليل قوله فى البيت التالى: فى جسم أروع، وما أبدع قول أبى تمام :

لَيْسَ الحِجابُ بِمُقْصٍ عَنْكَ لى أَمَلاً ... إنَّ السماءَ تُرَجَّى حينَ تَحْتَجِبُ

وقبله يقول مسلم :

كذلكَ الغَيْثُ يُرْجَى فى تَحَجُّبِه ... حتى يُرَى مُسْفِراً عَنْ وابِلِ المطَرِ

(٣) فى جسم : صفة لنفس — فى البيت السابق — أو حال منها ، والأروع هنا : الشهم الذكى الفؤاد وفى غير هذا الموضع الذى يروعك حسنه ؛ والخلائق : الأخلاق . يقول : إذا نظر إلى أخلاق الناس وما هى عليه من الخسة والدناءة : ضحك منها هزؤا واستصغاراً ، لأنه أسمى منهم نفسا وعقلا .

(٤) له : أى لكافور ؛ ولها أى للخيل ، والإدلاج : سير أول الليل ، والتأويب : سير عامة النهار . يقول : إنى أحمدك وأحمد خيلى ورماحى وإدلاجى وتأويبى إذ بلغتنى إليك — كما ذكر فى البيت التالى .

وَكَيْفَ أَكْفُرُ يَا كَافُورُ نِعْمَتَهَا   وَقَدْ بَلَغْنَكَ بِى يَا كُلَّ مَطْلُوبِى
يَا أَيُّهَا المَلِكُ الغَـانِى بِتَسْـمِيَةٍ   فِى الشَّرْقِ وَالغَرْبِ عَنْ وَصْـفٍ وَتَلْقِيبِ (١)
أَنْتَ الحَبِيبُ وَلَـكِـنِّى أَعُوذُ بِهِ   مِنْ أَنْ أَكُونَ مُحِبًّا غَيْرَ مَحْبُوبِ (٢)

---

(١) الغانى : المستغنى . يقول : أنت مشهور الاسم إذا ذكر اسمك عرفت به ، فلم يحتج معه إلى وصف أو ذكر لقب ، وهذا كما روى ، أن رؤبة بن العجاج أتى البكرى النسابة فقال: من أنت ؟ قال: أنا رؤبة بن العجاج، فقال : قصرت وعرفت ، فقال رؤبة يفتخر بذلك :

وقد رفع العجّاجُ باسمى فادْعُنى   باسمى إذا الأنسابُ طالتْ يكفِنى

(٢) الضمير — فى قوله به — يرجع إلى الحبيب ، ولو أمكنه أن يرده إلى الخطاب لكان أحسن ، وهـذا أبلغ . يقول : إنى أحبك وأنت حبيب إلى ، وإنى أعوذ بك من أن لا تحبنى ، لأن من نكد الدنيا أن تحب من لا يحبك كما قال القائل :

وَمِنَ الشَّـقَاوَةِ أَنْ تُحِـبَّ وَلَا يُحِبُّكَ مَنْ تُحِبُّهُ

وقال يمدحه فى شوال سنة سبع وأربعين وثلاثمائة(*) :

أُغالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ وَأَعْجَبُ مِنْ ذا الهجْرِ وَالْوَصْلُ أَعْجَبُ (١)

أَما تَغْلَطُ الأَيَّامُ فِىَّ بِأَنْ أَرى بَغِيضاً تُنائِى أَوْ حَبِيباً تُقَرِّبُ (٢)

---

* قالوا : إن كافوراً كان قد تقدم إلى الحجاب وأصحاب الأخبار ، فكانوا كل يوم يرجفون بأنه قد ولى أبا الطيب ناحية من الصعيد ، وينفذ إليه قوماً يعرفونه بذلك فلما كثر ذلك وعلم أن المتنبى لايثق بكلام سمعه حمل إليه ستمائة دينار ذهباً ، فقال أبو الطيب هذه القصيدة يمدحه بها .

(١) يقول : إن بينى وبين الشوق مغالبة لأجلك ، والغلبة للشوق : إذ هو يغلب صبرى ، وإنى أعجب من هذا الهجر لتراخيه وطوله ، على أن الوصل لو وافقنا كان أعجب منه لأن من شيم الأيام التفريق . وقال الواحدى : الأغلب الغليظ الرقبة الذى لايطاق ولا يغالب ، فكأنه قال : إن الشوق صعب شديد ممتنع .

(٢) تنائى تفاعل ، من النأى . وهو البعد ، يقال نأى وأنأيته على أفعل ؛ ولكنه نقله إلى فاعل ، كما يقال أبعدته وباعدته وروى الواحدى تنأى بالتشديد يقول : إن الدهر مولع بتقريب من أبغضه وإبعاد من أحبه ، أفلا يغلط مرة فيبعد البغيض ويدنى الحبيب ؟ وجعل ذلك غلطا من الدهر ، لأنه خلاف ما يأتى به الدهر ؛ وأصل هذا المعنى من قول مضرس :

لَعَمْرُكَ إنى بالخليلِ الذى لهُ علىَّ دلالٌ وَاجِبٌ لَمُفَجَّعُ

وإنىَ بالمَولى الذى ليسَ نافعى ولا ضائِرِى فُقدانه لَمُمَتَّعُ

ويقول الطرماح :

يُفَرِّقُ مِنا مَنْ نُحِبُّ اجتماعَه ويَجْمعُ مِنا الدَّهْرُ بين الضغائن

ويقول الآخر :

عجِبْتُ لِتَطْوِيحِ النوَى مَنْ أُحِبُّه وإدناءِ مَنْ لا يُسْتَلَذُّ له قُرْبُ

وقال المحدث :

ومَنْ أهواهُ يُبْغِضنِى عِناداً ومن أشْناهُ شِخْصٌ فى لهاتى

وَلِلّٰهِ سَيْرِى ما أَقَلَّ تَئِيَّةً عَشِيَّةَ شَرْقِيَّ الحَدَالَى وَغُرَّبِ(١)
عَشِيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِى مَنْ جَفَوْتُهُ وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّتِى أَتَجَنَّبُ(٢)
وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ المَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ(٣)
وَقَاكَ رَدَى الأَعْدَاءِ تَسْرِى إِلَيْهِمِ وَزَارَكَ فِيهِ ذُو الدَّلَالِ المُحَجَّبُ(٤)

---

(١) التئية التلبث والتمكث قال الشاعر :

قِفْ بِالدِّيَارِ وُقُوفَ زَائِرْ وَتَأَىَّ إِنَّكَ غَيْرُ صَاغِرْ

وتئية : منصوبة على التمييز ، وأراد ما أقله تئية ، فحذف لضيق المقام والحدالى : موضع بالشام ، وغرب: جبل هناك معروف ، والحدالى : مبتدأ وشرقى : ظرف خبره ، وأصله شرقيي — بثلاث ياءات — فحذفت الثانية من ياء النسبة للتخفيف . يتعجب من سرعة سيره ويقول : ما كان أسرع سيرى وأقل لبثة عشية كان هذان المكانان على جانبى الشرق : يعنى عند رحيله من حلب .

(٢) يريد بأحفى الناس به : سيف الدولة . وعشية : بدل من عشية فى البيت السابق — وأحفى : أفعل تفضيل — من حفى به حفاوة : إذا بالغ فى إكرامه وإلطافه — يقول : إن سيف الدولة كان أحفى الناس بى فجفوته وغادرته ، وكانت أهدى طريق هى التى أعود فيها إليه فعدلت عنها إلى مصر . قال ابن جنى : كان يترك القصد ويتعسف خوفاً على نفسه .

(٣) المانوية : أصحاب مانى — القائل بالنور والظلمة ؛ وأن الخير كله من النور والشر كله من الظلمة — يخاطب نفسه يقول : كم للظلمة من نعمة عندك تبين أن المانوية الذين ينسبون الشر إليها كاذبون وليس الأمر على ما زعموا وقد بين تلك النعمة فى البيت التالى .

(٤) الردى : الهلاك ؛ والسرى : السير ليلا ، يقول : إن ظلام الليل وقاك غائلة الأعداء وأنت تسير فيما بينهم ليلا فلا يبصرونك وزارك فيه المحبوب آمنا لم يخش الرقيب إذ حجبه عن عيونه وقال ابن فورجه : الطيف قد يزور نهاراً ، فيكون كقول ابن المعتز :

لا تَلْقَ إِلَّا بِلَيْلٍ مَنْ تُوَاصِلُهُ فالشمسُ نَمَّامَةٌ والليل قواد

هذا وقد ذكر شر النور فى البيت التالى

وَيَوْمٍ كَلَيْلِ الْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ ... أُرَاقِبُ فِيهِ الشَّمْسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ[١]
وَعَيْنِي إِلَى أُذْنَيْ أَغَرَّ كَأَنَّهُ ... مِنَ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ[٢]
لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِهِ فِي إِهَابِهِ ... تَجِيءُ عَلَى صَدْرٍ رَحِيبٍ وَتَذْهَبُ[٣]
شَقَقْتُ بِهِ الظَّلْمَاءَ أُدْنِي عِنَانَهُ ... فَيَطْغَى وَأُرْخِيهِ مِرَاراً فَيَلْعَبُ[٤]
وَأَصْرَعُ أَيَّ الْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ ... وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ[٥]

---

(١) يقول : ورب يوم طال على طول ليل العاشقين استترت فيه خوفا من الأعداء أراقب غروب الشمس لأخرج من الكمين وآمن على نفسي . فالواو واو رب ؛ وكمنته: أي كمنت فيه ، وأيان بمعنى متى

(٢) يقول : إنه كان في مسيره يراعي أذني فرسه يحفظ نفسه بهما ، وذلك أن الفرس إذا أحس شيئا من بعيد نصب أذنيه حياله فيعلم الفارس أنه أبصر شيئا . ثم وصف فرسه فقال : كأنه في سواده قطعة من الليل وكأن الغرة في وجهه كوكب من كواكب الليل قد بقي بين عينيه ، وهذا من قول أبي داود :

وَلَهَا جَبْهَةٌ تَلَأْلَأُ كَالشِّعْـرَى أَضَاءَتْ وَغُمَّ مِنْهَا النُّجُومُ

والغرة : البياض في جبهة الفرس وباق : حال من الليل ، وسكن الياء ضرورة ثم حذفها لالتقاء الساكنين ؛ وقوله كوكب : أي كوكب ـ من كواكبه ـ أي كواكب الليل .

(٣) الإهاب : الجلد ؛ والرحيب : الواسع . يقول : إن هذا الفرس رحيب الصدر رحيب الإهاب ، ومن ثم كان واسع الخطو سريع الجرى ؛ إذ لو كان ضيق الصدر كان خطوه قصيراً ، وكذلك إذا كان ضيق الجلد ضاق عن مد يديه ، ولهذا ترى الحمار يضيق إهابه عن مد يديه ، وإذن ففي إهاب هذا الفرس فضلة عن جسمه تجيء وتذهب على صدره الرحيب .

(٤) يقول : شققت ظلام الليل بهذا الفرس فإذا أدنيت لجامه إلى بجذبه وثب وطغى مرحا ونشاطا ، وإذا أرخيت لجامه لعب برأسه . فالمراد بطغيان الفرس : شدة النشاط والمرح ، والعنان : سير اللجام .

(٥) قفيته : أتبعته ، ومثله حال من الضمير في عنه ، وحين أركب : حال من الضمير

وَمَا الْخَيْلُ إِلاَّ كَالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ
وَإِنْ كَثُرَتْ فِى عَيْنِ مَنْ لا يُجَرِّبُ(١)

إِذا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا
وَأَعْضَائِهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ(٢)

لَحَا اللهُ ذِى الدُّنْيَا مُنَاخًا لِرَاكِبٍ
فَكُلُّ بَعِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ(٣)

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِى هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً
فَلاَ أَشْتَكِى فِيهَا وَلاَ أَتَعَتَّبُ(٤)

وَبِى مَا يَذُودُ الشِّعْرَ عَنِّى أَقَلُّهُ
وَلَكِنَّ قَلْبِى يا ابْنَةَ الْقَوْمِ قُلَّبُ(٥)

فى مثله . يقول : إذا طردت به وحشا لحقه فصرعته ـ قتلته ـ وإذا نزلت عنه بعد الصيد كان مثله حين أركبه فلم يدركه لغب ولم ينقص من جريه ونشاطه شىء ، مثل ما كان حين الركوب كما قال ابن : المعتز

تخالُ آخرَهُ فى الشـدِّ أوَّلَهُ
وفيهِ عَدْوٌ وراءَ السبقِ مَذخورُ

(١) يقول : إن الخيل بمثابة الصديق قليلة لدى التجربة والامتحان كثيرة فى عين من لم يجرب ، فبالتجربة تعرف الكوادن من السوابق ، كما أن الصديق يعرف بالتجربة ماعنده من صدق الود أو مذقه ، وحاصل المعنى أن الجياد من الخيل قليلة ، كما أن الصديق الذى يستحق الصداقة قليل .

(٢) الشيات : الألوان ـ جمع شية ـ يقول : إن مزايا الخيل فيما وراء ألوانها من جريها وعدوها وطباعها ، فإذا لم تر منها إلا حسن ألوانها وأعضائها لم تر حسنها ومزاياها .

(٣) لحاه الله : دعاء عليه : أى قبحه ولعنه ، وأصله من لحوت العود إذا قشرته ، ومناخا : نصب على التمييز . يذم الدنيا ويدعو عليها . يقول : بئس المنزل الدنيا ، فإن من كان بعيد مرتقى الهمة كان أشد نصبا فيها .

(٤) يقول : ليتنى أعلم هل تخلو لى قصيدة من شكاية الدهر وعتابه بأن يبلغنى المراد وأنال منه ما أطلب فأترك الشكاية ؟

(٥) يذود : يدفع ويطرد ؛ وأقله : فاعل يذود ؛ وفلان قلب حول بصير عارف ذو حيلة قلب الأمور . رووا أن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه قال فى مرضه الذى مات فيه لا بنيه : إنكما لتبكيان حولا قلبا إن سلم من هول المطلع . يقول المتنبى : إن

وَأَخْــــلاَقُ كافُورٍ إذا شِئْتُ مَدْحَهُ
وَإنْ لَمْ أَشَــاْ تُمْلِي عَلَيَّ وَأَكْتُبُ(١)

إذا تَرَكَ الإنْسَانُ أَهْلاً وَرَاءَهُ وَيَمَّمَ كَافُوراً فَما يَتَغَرَّبُ(٢)

فَتًى يَمْــلأ الأفْعالَ رَأْياً وَحِـكْمَةً
وَنَادِرَةً أَحْــيانَ يَرْضَى وَيَغْضَبُ(٣)

بي من هموم الدهر وما انصب على من حدثانه ونوبه ما أقله يمنع الشعر ويلهى الخاطر عنه ولكن قلبي حسن التقليب للأمور ؛ فلا يضيق بنوازل الدهر ولا تخمدمعهاخطراته، وقوله ياابنة القوم فان العرب من عادتهم أن يخاطبوا النساء فسمت صمتهم ، وإنما قال ياابنة القوم إشارة إلى كثرة أهلها ، وقال ابن جنى : هو كناية عن قولهم ياابنة الكرام .

(١) يقول : إن خلائق كافور من الظهور والنباهة بحيث تنبىء عنه فما هو إلا أن تملى على فأكتب ولا أحتاج إلى جلب معنى أو جلب منقبة فأمدحه شئت أو أبيت إذ لم آت بشيء من عندى ، وإنما هى أخلاقه تملى على . وقد أخذ الصاحب بن عباد هذا المعنى فقال :

وما هــــذه إلا وليدةُ ليلةٍ يغور لها شِعرُ الوليد وينضب
على أنها إملاء مجدك ليس لى سوى أنه يُملِي عَلَيَّ وأكتبُ

(٢) يمم قصد يقول: إذا اغترب الإنسان وفارق أهله وصمد إلى كافور آنسه بعطاياه وتفقده إياه حتى كأنه بين أهله لم يفارقهم ؛ وفى هذا المعنى يقول الأول :

نزلت عَلَى آل المهلب شــاتياً غريباً عن الأوطانِ فى زَمَنِ المحل
فما زالَ بى إكرامهم وافتقــادهم وإلطـافهم حتى حسِــبتهم أهلى

ويقول أبو تمام :

هُمْ رَهْطُ مَنْ أمسى بعيداً رَهْطه وبنو أبى رَجُــل بغيرِ بَنى أبِ

(٣) يقول : إن أفعاله مفعمة عقلا وحكمة ونوادر غريبة ترى ذلك له فى حالى رضاه وغضبه لا يخلو منها فى حال وكل من نظر إلى أفعاله استشف منها العقل والسداد وأصالة الرأى . والنادرة : الشيء النادر الغريب ، ورواها ابن جنى بادرة : أى بديهة .

إذا ضَرَبْتَ فى الحَرْبِ بالسَّيْفِ كَفُّهُ
تَبَيَّنْتَ أنَّ السَّيْفَ بالكَفِّ يَضْرِبُ(١)

تَزِيدُ عَطَايَاهُ عَلَى اللَّبْثِ كَثْرَةً وَتَلْبَثُ أمْوَاهُ السَّحابِ فَتَنْضَبُ(٢)

أبَا المِسْكِ هَلْ فى الكَأْسِ فَضْلٌ أنالُهُ
فإنِّى أُغَنِّى مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ(٣)

وَهَبْتَ عَلَى مِقْدَارِ كَفَّىْ زَمَانِنَا وَنَفْسِى عَلَى مِقْدَارِ كَفَّيْكَ تَطْلُبُ(٤)

---

(١) يقول : إن سيفه يعمل بكفه لا بنفسه فاذا نظرت إلى مضاء سيفه وأثره فى الوغى استبان لك أن سيفه إنما يستظهر بكفه على القطع ، لا أن كفه يستظهر بالسيف لأن القطع إنما يحصل بقوة الكف لا بجودة السيف الماضى فى يد الضعيف لا يؤثر شيئاً — كما قال البحترى :

فلا تُغْلِيَنَّ بالسَّيفِ كل غَلائِهِ
ليمضى فإنَّ الكف ـ لا السيفَ ـ يقطع(١)

(٢) يقول : إن جوده أفضل من جود السحاب لأن عطاياه إذا مكثت عندك لم تنضب لأنه يعطى الجزيل الذى لا ينفد ، أو لأنه يوالى هباته وعدها بغيرها . أما ماء السحاب فهو إذا مكث فى الأرض وأقام حينا نضب وذهب فى الأرض وجف مكانه ، وقوله على اللبث : أى مع اللبث : حال من عطاياه ؛ واللبث : المكث ؛ ونضب الماء : ذهب فى الأرض .

(٣) يعرض المتنبى بتقاضى ما يؤمل . يقول : إنى أغنى منذ حين : أى أطربك بمديحى ، وأنت تشرب على غنائى : أى تلتذ سماع مديحى ، ومع ذلك تحرمنى الشراب ، فهل فى الكأس فضلة أشربها ؟ أى هلا أعطيتنى ما يتوقعه مثلى من مثلك ؟ يعرض بطلب ولاية — كما صرح بذلك بعد .

(٤) يقول : إنك إذ تعطينى تعطينى على ما يليق بالزمان ويتفق وكرمه ، وأنا إنما أطلب ما توجبه همتك ويقتضيه كرمك .

---

(١) قوله فلا تغلين بالسيف : يقال غالى بالشىء وأغلى به إذا اشتراه بثمن غال ؛ وغالى به وغلاه : سام فأبعد وجاوز الحد .

إذا لَمْ تَنُطْ بى ضَيْعَةً أَوْ وِلَايَةً فَجُودُكَ يَكْسُونى وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ(١)
يُضَاحِكُ فى ذَا العِيدِ كُلٌّ حَبِيبَهُ حِذَائِى وَأَبْكِى مَنْ أُحِبُّ وَأَنْدُبُ(٢)
أَحِنُّ إِلَى أَهْلِى وَأَهْوَى لِقَاءَهُمْ وَأَيْنَ مِنَ المُشْتَاقِ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ(٣)
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَبُو المِسْكِ أَوْهُمُ فَإِنَّكَ أَحْلَى فى فُؤَادِى وَأَعْذَبُ(٤)

---

(١) ناط به كذا : أسنده إليه ؛ والضيعة : ما نسميه الآن « عزبة » . يقول : إذا لم تقطعنى ضيعة أو تفوض إلى ولاية فإن ما تكسونى إياه بجودك — أى ما يحدثه جودك من الآمال — تسلبنى إياه باشتغالك عن تحقيق تلك الآمال .

(٢) يقول : أرى كل الناس فى هذا العيد فرحين مبتهجين يضاحكون من يحبون أمامى ؛ أما أنا فعلى العكس منهم : أبكى من أحب وأندبه — كما يندب الميت — لأنه بعيد عنى . يقصد المتنبى أن يغرى الأسود بإعطائه ما يطلب لقاء هذه الآلاق التى يلاقيها من جراء اغترابه .

(٣) العنقاء المغرب قيل: العقاب ، وقيل : طائر ضخم ليس بالعقاب ؛ وقيل : كلمة لا أصل لها : كالغول ، وقال ابن الكلبى : كان لأهل الرس نبى يقال له حنظلة بن صفوان وكان بأرضهم جبل يقال له دمخ ، مصعده فى السماء ميل فكان ينتابه طائرة كأعظم ما يكون ، لها عنق طويل ، وكانت تقع منقضة ، فكانت تنقض على الطير فتأكلها فجاعت وانقضت على صبى فذهبت به ، فسميت عنقاء مغربا ، لأنها تغرب بكل ما أخذته ثم انقضت على جارية « وليدة » ترعرعت ، وضمتها إلى جناحين لها صغيرين — سوى جناحيها الكبيرين — ثم طارت بها فشكوا ذلك إلى نبيهم . فدعا عليها . فسلط الله عليها آفة فهلكت . فضربتها العرب مثلا فى أشعارها : يقولون ألوت به العنقاء المغرب ، وطارت به العنقاء : يريدون هلاكه أو ذهوبه إلى حيث لا يرجع . قال :

ولولا سليمان الخليفةُ حلّقت بهمن يد الحجّاج عنقاء مُغْرِبُ

ومغرب — من أغرب فى البلاد : ذهب وأبعد . يذكر المتنبى تشوقه إلى أهله ، وبعد ما بينه وبينهم . بحيث لا يرجو لقاءهم .

(٤) يقول : إنى أوثر لقاءك على لقائهم حين لا يتيسر لقاؤكما معاً لأنك أحب إلى منهم .

وَكُلُّ امْرِىءٍ يُولِي الْجَمِيلَ مُحَبَّبٌ وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ الْعِزَّ طَيِّبُ(١)
يُرِيدُ بِكَ الْحُسَّادُ مَا اللهُ دَافِعٌ وَسُمْرُ الْعَوَالِي وَالْحَدِيدُ الْمُذَرَّبُ(٢)
وَدُونَ الَّذِي يَبْغُونَ مَا لَوْ تَخَلَّصُوا
إِلَى الْمَوْتِ مِنْهُ عِشْتَ وَالطِّفْلُ أَشْيَبُ(٣)
إِذَا طَلَبُوا جَدْوَاكَ أُعْطُوا وَحُكِّمُوا
وَإِنْ طَلَبُوا الْفَضْلَ الَّذِي فِيكَ خُيِّبُوا(٤)

---

(١) أولاه جميلا : صنعه إليه . يقول : إنما أحببتك وآثرتك على أهلى لما أسديت إلى من الجميل ، وطابت لى الإقامة بساحتك لما القيت فيها من العز كما قال البحترى :

وأحَبّ أوْطانِ البلادِ إلى الفتى أرْضٌ يَنالُ بها كريمَ المطلب

ومعنى بيت المتنبى مبنى على ماذكره فى عجز البيت السابق .

(٢) والحديد المذرب : أى المحدد ، ومنه لسان ذرب : أى حاد ـ يريد السيوف ـ يقول إن الحساد يريدون بك السوء ، فلا ينالون ما يبتغون ، لأن الله يدفعه عنك ثم الرماح والسيوف .

(٣) يقول : ودون وصول الحساد إلى الذى يبتغون ـ من التياث الأمر عليك ـ أهوال أى أهوال من جراء بأسك وبطشك هى أمر عليهم من الموت ، ولو هم تخلصوا منها إلى الموت لبقيت أنت وشاب أطفالهم لشدة ما يقاسون . وقد روى الجماعة بدل إلى الموت : إلى الشيب . قال الواحدى : أى دون الذى يطلب الحساد — من زوال ملكك وفساد أمرك — الموت وهو قوله مالو تخلصوا منه ـ أى الموت ـ أى أنهم يموتون قبل أن يروا فيك ما يطلبون ، ولو لم يموتوا عشت أنت وشاب طفلهم لشدة ما يرون وصعوبة مايلحقهم وما يقاسون منك . وقال ابن جنى : دون مايريدون من السوء الموت الذى لو تخلصوا منه إلى الشيب لشاب طفلهم ، ولكنهم لا يتخلصون من الموت إلى الشيب بل يقتلهم .

(٤) يقول : إذا طلبوا عطاياك أعطيتهم وجعلت لهم الحكم فيما يطلبون فينالون كل مايقترحون ، أما إذا حاولوا أن يحصلوا على الفضل الذى آتاكه الله فإنهم لا يدركونه ، لأنه لا ينال بالاكتساب ، وإنما ذلك شىء آتاك الله به . وعبارة ابن جنى : إن راموا فضلك منعتهم منه . قال ابن فورجه ـ معقباً على عبارة ابن الفتح : كيف يقدر الإنسان

وَلَوْ جَازَ أَنْ يَحْوُوا عُلاكَ وَهَبْتَهَا ... وَلٰكِنْ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَالَيْسَ يُوهَبُ(١)
وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ(٢)
وَأَنْتَ الَّذِي رَبَّيْتَ ذَا الْمُلْكِ مُرْضَعاً ... وَلَيْسَ لَهُ أُمٌّ سِوَاكَ وَلاَ أَبُ(٣)
وَكُنْتَ لَهُ لَيْثَ الْعَرِينِ لِشِبْلِهِ ... وَمَا لَكَ إِلاَّ الْهِنْدُوَانِيَّ مِخْلَبُ(٤)
لَقِيتَ الْقَنَا عَنْهُ بِنَفْسٍ كَرِيمَةٍ ... إِلَى الْمَوْتِ فِي الْهَيْجَا مِنَ الْعَارِ تَهْرُبُ(٥)

أن يمنع آخر من أن يكون فى مثل فضله ؟ وإنما الله القادر على ذلك . وقد أتى به المتنبى على مالم يسم فاعله فأحسن .

(١) يقول : لست تؤتى من بخل وشح ، فلو كانت العلى توهب لوهبتها ، ولكنها لا توهب . والأصل فى هذا المعنى قول الأول :

وإن يَقتسِمْ مالِى بَنِىَّ وَنِسْوَتِى ... فلن يَقسِموا خُلقَى الكريمَ ولا فضلى

وقد قول أبى تمام :

فانفح لنا من طِيبِ خِيمِكَ نفحةً ... إن كانتِ الأخلاقُ مما يُوهَبُ(١)

(٢) يقول : إن هؤلاء الحاسدين يتقلبون فى نعمائك ، فما كان ينبغى لهم أن يحسدوك ، لأن أشد الظالمين ظلما من تقلب فى نعمة إنسان ثم بات يحسده على تلك النعمة .

(٣) ذو الملك : هو على بن الأخشيد صاحب مصر الذى رباه كافور بعد أبيه ـ يقول: أنت الذى ربيته وقمت عنه بحفظ ملكه وهو طفل مرضع ، فكنت له أباً وكنت له أماً فقوله ربيت ذا الملك : أى صاحب هذا الملك : قالوا : ولو قال المتنبى وأنت الذى ربى لكان أحسن ، ولكنه قال ربيت كما قال كثير :

وأنتِ التى حبَّبت كل قصيرة ... إلىَّ وما تدرى بذاك القصائر

(٤) يقول : وكنت لذى الملك كالأسد لشبله تذود عنه وتحميه بسيفك الذى هو لك بمنزلة المخلب للأسد يحمى أشباله به ؛ والعرين : الأجمة ، والشبل : ولد الأسد ، والهندوانى : السيف الهندى ، والمخلب للسباع وجوارح الطير بمنزلة الظفر للانسان .

(٥) يقول . ذدت عنه الرماح ولقيتها بنفسك دونه ، حمية له وحفاظاً وكرما

---

(١) الخيم : الخلق وقيل سعة الخلق ، والخيم الأصل

وقَدْ يَتْرُكُ النَّفْسَ الَّتي لا تَهابُهُ ويَخْتَرِمُ النَّفْسَ الَّتي تَتَهَيَّبُ[١]

وما عَدِمَ اللّاقُوكَ بَأْساً وشِدَّةً ولٰكِنَّ مَنْ لاقَوْا أَشَدُّ وأَنْجَبُ[٢]

ثَناهُمْ وبَرْقُ البِيضِ في البَيْضِ صَادِقٌ
عَلَيْهِمْ وبَرْقُ البَيْضِ في البِيضِ خُلَّبُ[٣]

سَلَلْتَ سُيُوفاً عَلَّمَتْ كُلَّ خَاطِبٍ
عَلَى كُلِّ عُودٍ كَيْفَ يَدْعُو ويَخْطُبُ[٤]

لأنك من الشجاعة والإباء بحيث تهرب فى الحرب من العار إلى الموت : أى تلق بنفسك إلى التهلكة ، وتعتام « تختار » ذلك على الهزيمة . فالقنا : الرماح . والهيجا : الحرب — تمد وتقصر ،

(١) يقول : إن الموت قد يترك الشجاع المقدام الذى لا يهابه ولا يباليه ، ويلق بنفسه إلى التهلكة ، وقد يدرك الجبان الهيابة الذى يهاب الموت ويخشاه . فالضمير فى يترك : للموت . ويخترم : أى يهلك .

(٢) يقول : وإن الذين يلاقونك فى الحرب لم يعدموا بأساً وشدة : أى هم شجعان أشداء ، بيد أنك أشد منهم وأنجب ، ومن ثم تبطش بهم . ومثل هـذا لزفر ابن الحارث :

سقيناهُمُ كأساً سقَوْنا بمثلها ولكنهم كانوا على الموتِ أصبرا

(٣) البيض ـ بالكسر ـ السيوف ، وبالفتح : جمع بيضة ، وهى الخوذة من حديد . والبرق الخلب : الكاذب الذى لا مطر فيه يقول : لقد هزمتهم وصرفتهم عنك وسيوفك تقرع خوذهم ، فكان لكل من السيوف والخوذ برق فى الآخر ، غير أن برق السيوف فى الخوذ صادق لأنها تقطع الجماجم فتسيل دماؤهم بعده ، أما برق الخوذ فى السيوف ، فهو خلب كاذب لأنها تبرق ولا تسيل الدم فليس لها أثر . وعبارة ابن جنى : يريد أن لمع السيوف صادق لأن السيف إذا ضرب به قطع وبلغ البيض ، وبرق البيض ـ الخوذ ـ لا يصدق على السيوف لأنه لا أثر للمع البيض فى السيوف ، فشبه بالبرق الخلب الذى لا مطر فيه ، والأول تأثيره كالبرق الصادق الذى فيه المطر :

(٤) العود هنا : المنبر . قال ابن جنى : يقول ، لما رأى الناس ماصنعت سيوفك بأعدائك أذعنوا لك بالطاعة فدعوا لك على منابرهم رغبة ورهبة . وقال بعض الشراح :

وَيُغْنِيكَ عَمَّا يَنْسُبُ النَّاسُ أَنَّهُ إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ (١)
وأيُّ قَبِيلٍ يَسْتَحِقُّكَ قَدْرُهُ مَعَدُّ بْنُ عَدْنَانَ فِدَاكَ وَيَعْرُبُ (٢)
وَما طَرَبِي لَمَّا رَأَيْتُكَ بِدْعَةً لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ فَأَطْرَبُ (٣)
وَتَعْذُلُنِي فِيكَ الْقَوَافِي وَهِمَّتِي كَأَنِّي بِمَدْحٍ قَبْلَ مَدْحِكَ مُذْنِبُ (٤)

يريد أن سيوفك تعلم الخطباء الخطبة باسمك فى الدعاء : يعنى أنك أخذت البلاد بسيفك ، فصار كل خطيب بلد يخطب باسمك : أى يدعو لك .

(١) تناهى ـ بحذف إحدى التاءين ـ أى تتناهى . يقول : إنك فى غنى عن الأنساب التى يذكرها النسابون لغيرك ، لان المكرمات تتناهى إليك وتعزى ـ إذ كنت أصلا لها ـ إليك ؛ وحسبك هذا شرفا يغنيك محموده عن النسب . وليلحظ أن هذا شبه غمز فى كافور قد يكون مقصوداً للمتنبي الداهية ، وقد يكون غير مقصود ، ومن هنا قال التبريزى : ليس هذا مما يمدح به ، ولا سيما الملوك ، لانه أشبه بنفى النسب عنه . على أن هذا المعنى ينظر إلى قول ابن طاهر :

خَلائقُهُ لِلمَكرُماتِ مَناسِب تناهى إليها كلُّ مَجْدٍ مُؤثَّلِ

وقوله عما ينسب الناس ، فالناس : فاعل ينسب ؛ والتقدير عما ينسبه الناس : أى عن النسب الذى ينسبه الناس .

(٢) يقول : ليس هناك من يستحق أن تنسب إليه ، لانك فوق كل أحد . قال التبريزى : هذا سخرية منه وقد كان المتنبي يقول لو قلبت مدحى فيه كان هجاء .

(٣) فأطرب : عطف على أرجو . يقول : ليس طربى عند رؤيتك بدعا لأنى كنت أرجو أن أراك فأطرب على الرجاء . قال الواحدى : هذا البيت يشبه الاستهزاء به لأنه يقول : طربت على رؤيتك كما يطرب الإنسان على رؤية القرد وكل ما يستملح ويضحك منه ! . قال ابن جنى : لما قرأت على أبى الطيب هذا البيت قلت له ما زدت على أن جعلت الرجل أبازنة ـ وهى كنية القرد ـ فضحك !

(٤) يقول : إن شعرى وهمتى يلومانني على أن لم أقصدك قبل غيرك ولم أقصر مدحى عليك ، فكأنى أذنبت بمدحى غيرك ، فكنت أهلا لأن ألام . وهذا المعنى من قول أبى تمام :

وهل كنتُ إلا مُذنِباً يومَ أنتحي سِواكَ بآمالي فجئتُكَ تائبا

وقال الواحدى : المصراع الأول هجاء صريح لولا الثانى . قال الخطيب التبريزى :

وَلٰكِنَّهُ طَــــالَ الطَّرِيقُ وَلَمْ أَزَلْ
أُفَتِّشُ عَنْ هَــذَا الْكَلَامِ وَيُنْهَبُ[١]

فَشَرَّقَ حَــتَّى لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ
وَغَرَّبَ حَــتَّى لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبُ[٢]

إِذَا قُلْتُهُ لَمْ يَمْتَنِعْ مِنْ وُصُــولِهِ
جِــدَارٌ مُعَــلًّى أَوْ خِبَاءٌ مُطَنَّبُ[٣]

***

ليس فى البيت هجاء ومعناه أن همته عذلته كيف قنع بغيره ؛ والقوافى لم صرفها فى مدح غيره ؟ وشهد له بذلك بقية البيت . أقول : إن الخطيب لم يقل شيئا ؛ ومالا حظه الواحدى صحيح .

(١) يقول : ولكنه طال طريقى إليك ، فجبت كثيرا من البلدان حتى وصلت إليك وكنت فى غضون ذلك أطالب بقول الشعر ومدح الناس ، فكان شعرى لذلك كأنه ينهب نهبا . يعتذر المتنبى إلى كافور عن مدح غيره .

(٢) يقول : فشرق كلامى حتى بلغ أقصى الشرق حيث لا مشرق وراء ذلك ، وكذلك غرب حتى بلغ أقصى الغرب . وهذا من قول أبى تمام :

فغَرَّبْتُ حتى لم أجِدْ ذِكرَ مَشرِقٍ وشرَّقتُ حتى قدْ نسِيتُ المغاربا

(٣) مطنب : أى مشدود الأطناب . يقول : إذا قلت شعرا لم يمتنع من وصوله إلى ما وراءه حائط قائم مرتفع ولا خيمة مشدودة بالأطناب . يريد أن شعره قد عم الأرض حتى شمل الحضر سكان المدر، والبدو سكان الوبر . وهذا كقوله :

قوَافٍ إذا سِرْنَ مِنْ مِقوَلِى وَثَبْنَ الجبالَ وخُضْنَ البحارا

وقال يمدحه ، وأنشده إياها فى شوال سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ، وهى آخر ما أنشده ، ولم يلقه بعدها :

مُنًى كُنَّ لِى أنَّ الْبَيَاضَ خِضَابُ فَيَخْفَى بِتَبْيِيضِ الْقُرُونِ شَبَابُ(١)

---

(١) لك أن تقول أن البياض خضاب مؤولة بمصدر مبتدأ مؤخر ، ومنى : خبر مقدم ، وكن لى : وصف لمنى ؛ والمنى : جمع منية ؛ والقرون : ضفائر الشعر ، قال قيس:

وهل مالت عليك قرون ليلى كميل الأقحوانة فى نداها

يقول : إن مشيبى هذا وكون البياض خضابا لى يخفى به سواد شعرى منى كانت لى قديما : يعنى أنه كان يتمنى الشيب من قديم ليخفى شبابه بابيضاض شعره لأنه أوقر وأجل فى العين . وجمع المنى نظرا إلى أن ذلك قد تكرر منه مرة بعد أخرى ، فصارت كل مرة منية ، وسمى البياض بالشيب خضاباً لإخفاء السواد به ، كما أن السواد الذى يخفى البياض يسمى خضابا .

(هذا) . ولا علينا فى أن نورد هنا تحقيقاً نحويا للعلامة العكبرى لمناسبة إعراب

* منى كن لى أن البياض خضاب *

قال العكبرى:

منى نكرة وهى مبتدأ ، وقد يفيد الابتداء بالنكرة إذا أخبرت عنها بجملة تتضمن اسما معرفة ، كقولك امرأة خاطبتنى ، وكذلك إن أخبرت بظرف مضاف إلى معرفة كقولك رجل خلفك ؛ وإنما منع الابتداء بالنكرة لأن النفس تتنبه بالمعرفة على طلب الفائدة ، وإذا كان المخبر عنه مجهولا كان الخبر حقيقا باطراح الإصغاء إلى خبره لأنه لا يعرف من أخبر عنه وشرط الكلام إذا كان المبتدأ نكرة أن يتضمن الخبر اسما معرفا أو أن يتقدم الخبر : كقولك لزيد مال ؛ لأن الغرض فى كل خبر أن يتطرق إليه بالمعرفة وبصدر الكلام بها ، وهذا موجود ههنا لأنك وضعت زيدا مجروراً لتخبر عنه بأن له مالا قد استقر ، فقولك لزيد مال فى تقدير زيد ذو مال ، فالمبتدأ الذى هو مال هو الخبر فى الحقيقة ، ولزيد هو المبتدأ فى المعنى ، وقوله كن لى مفيد ، لأن فى ضمن الخبر ضمير المتكلم ، وهو أعرف المعارف ؛ ولو قال منى كن لرجل لم يحصل بذلك فائدة لخلوه من اسم معروف وقوله إن البياض يحتمل الرفع والنصب ؛ فالرفع على إضمار ابتداء

. . . .

كأنه قال إحداهن أن البياض لأنه قد أخبر أن ذلك أيام شيبته بقوله ليالى عند البيض وأما النصب فعلى إضمار تمنيت لدلالة منى عليه كما أضمر تتبع فى قوله تعالى « قل بل ملة إبراهيم » وإذا قيل إن التمنى مما لم يثبت كالرجاء والطمع فلا يقع على أن الثقيلة لأنها للتحقيق ، فهى أشبه باليقين ، وإنما يقع التمنى وما شاكله على أن الخفيفة لأنها تخلص الفعل للاستقبال ، فهى أشبه بالطمع والرجاء والتمنى من حيث تعلقت هذه المعانى بما يتوقع ، ومنه قول لبيد :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما   وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر (١)

قيل لا يمتنع وقوع التمنى على أن الثقيلة ، كما لم يمتنع وقوع وددت عليها ووددت وتمنيت بمعنى واحد . وفى التنزيل : « وتودون أن غير ذات الشوكة » الآية ويجوز أن يكون منى : منصوبة نصب الظروف ؛ والجملة التى هى كن وأن واسمها وخبرها نعت لها ، فتتعلق أن بما قبلها كأنه قال فى منى كن لى أى فى جملة منى ، كما قالوا : أحقا أنك ذاهب وأكبر ظنى أنك مقيم يريدون فى حق وفى أكبر ، وإذا أردت معنى الظرفية فى منى فلك فى أن مذهبان : فمذهب سيبويه والاخفش والكوفيين رفع أن بالظرف ، وكل اسم حدث يتقدمه ظرف يرتفع عند سيبويه بالظرف ارتفاع الفاعل ، وقد مثل ذلك بقوله غدا الرحيل وأحقاً أنك ذاهب ، قال : حملوه على أفى حق أنك ذاهب ، وإذا كان هذا مذهب سيبويه ومن معه فالمنية تقارب الظن ، فيحسن أن تقول أكبر مناى أنك ذاهب، فتنصب أكبر بتقدير فى ، وأنشد:

أحقًّا بَنِي أبناء سَلمَى بن جَندلٍ   تهدُّدُكم إيَّاىَ وَسْطَ المجالس (٢)

---

(١) من أبيات للبيد قالها قرب وفاته وبعده

فقوما فقولا بالذى تعلمانه   ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر

وقولا هو المرء الذى لا صديقه   أضاع ولا خان عهداً ولا غدر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما   ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

(٢) هذا البيت للأسود بن يعفر شاعر جاهلى ، وهو من أبيات راجعها وراجع سببها فى الأغانى وفى خزانة الأدب فى شواهد المبتدأ والخبر . وبنى منادى مضاف لما

لَيالِىَ عِنْدَ الْبِيضِ فَوْدَاىَ فِتْنَةٌ ... وَفَخْرٌ وَذَاكَ الْفَخْرُ عِنْدِىَ عَابُ(١)
فَكَيْفَ أُذِمُّ الْيَوْمَ مَا كُنْتُ أَشْتَهِى ... وَأَدْعُو بِمَا أَشْكُوهُ حِينَ أُجَابُ(٢)
جَلاَ اللَّوْنُ عَنْ لَوْنٍ هَدَى كُلَّ مَسْلَكٍ ... كَمَا انْجَابَ عَنْ ضَوْءِ النَّهَارِ ضَبَابُ(٣)

والمذهب الأخر مذهب الخليل ، وذلك أنه يرفع أسماء الحدث بالابتداء ، ويخبر عنه بالظرف المتقدم حكاه عنه سيبويه قال : وزعم الخليل أن التهدد هنا بمنزلة الرحيل فى غد وأن أن بمنزلته وموضعها كموضعه .

(١) البيض : النساء ، والفودان جانبا الرأس ؛ والعاب : هو العيب . يقول : إن تمنى المشيب كان فى الليالى التى كان شعر رأسه فيها لدى النساء فتنة لحسن شعره وسواده، وكن يفخرن بوصلى ؛ بيد أن ذلك الفخر عيب عندى ، لأنى ممن يعف عن النساء ويرغب عن وصالهن .

* والشَّيبُ أوقرُ والشَّبيبةُ أنزقُ *

وقوله ليالى : منصوب بفعل مضمر دل عليه منى كأنه قال تمنيت ذلك ليالى فوداى عند النساء فتنة وليالى مضاف إلى الجملة بعده ، وقد فصل بالظرف وهو قبيح

(٢) يقول : فكيف أذم المشيب اليوم ، وقد كنت أتمناه وأشتهيه ؟ وكيف أدعو لنفسى وأطلب لها ما إذا أجبت إليه شكوته : يعنى لا ينبغى أن أشكو الشيب انتهاء وقد دعوته ابتداء . وقد سمت فى هذا سمت ابن الرومى فى قوله :

هِىَ الأَعْيُنُ النُّجْلُ التى كنت تَشْتكِى ... مَوَاقِعَها فى القلبِ والرَّأْسُ أَسْوَدُ
فَمالكَ تأسَى الآنَ لما رَأَيْتَها ... وقد جَعلَتْ مَرْمَىً سواكَ تعمَّدُ

(٣) جلا : زال وانكشف — من قولهم جلا القوم عن منازلهم : إذا ارتحلوا . وانجاب : انكشف ، والضباب : ما يصعد من الأرض إلى السماء ، مثل الدخان : الواحد ضبابة ؛ ويقال أضب يومنا : أى صعد فيه الضباب يقول : إن بياض الشيب كان

بعده ، وتجد فى الخزانة تحقيقا وافيا لهذا الموضوع الذى تعرض له الإمام العكبرى فراجعه إن شئت

وَفِى الْجِسْمِ نَفْسٌ لاَ تَشِيبُ بِشَيْبِهِ
وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْوَجْهِ مِنْهُ حِرَابُ(١)

لَهَا ظُفُرٌ إِنْ كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ
وَنَابٌ إِذَا لَمْ يَبْقَ فِى الْفَمِ نَابُ(٢)

يُغَيِّرُ مِنِّى الدَّهْرُ مَا شَاءَ غَيْرَهَا
وَأَبْلُغُ أَقْصَى الْعُمْرِ وَهْىَ كَعَابُ(٣)

وَإِنِّى لَنَجْمٌ تَهْتَدِى بِى صُحْبَتِى
إِذَا حَالَ مِنْ دُونِ النُّجُومِ سَحَابُ(٤)

غَنِىٌّ عَنِ الْأَوْطَانِ لاَ يَسْتَفِزُّنِى
إِلَى بَلَدٍ سَافَرْتُ عَنْهُ إِيَابُ(٥)

كأنه كامن فى السواد ، فلما زال السواد عنه بدا وانكشف ، فاهتدى صاحبه إلى كل طريق من الرشد والخير : كالنهار إذا جلا عنه الضباب اهتدى السالك فى ضوئه .

(١) لما ذكر أنه كان يتمنى الشيب — والشيب فيه الضعف والعجز — ذكر أن همته لا تشيب ولا ينال منها الضعف بشيب جسمه، ولو أن الشعرات البيض فى وجهه كانت حرابا . والهاء فى قوله منه : للجسم .

(٢) يقول : إن كل ظفرى ولم يبق فى فمى ناب من الكبر ، فهمتى لا يكل ظفرها ولا يذهب نابها ، قال العكبرى : قوله أعده فى موضع جزم ، جواب الشرط ، واختار سيبويه فى المضاعف الرفع فى موضع الجزم

(٣) غيرها استثناء ، والكعاب : الجارية يبدو ثديها للنهود . يقول : إن نفسى شابة أبدا لا يغيرها الدهر ، وإن تغير جسمى .

(٤) يقول : إذا خفيت النجوم بالسحاب فلم يهتد للطريق اهتدى بى أصحابى وكنت لهم كالنجم الذى يهتدى به ، يريد أنه خريت خبير بالفلوات . والصحبة : اسم جمع بمعنى الأصحاب ، وروى تهتدى صحبتى به .

(٥) يستفزنى : يستخفنى ويحركنى . يقول : إنى غير مولع بالأوطان وجميع البلاد عندى سواء ، فاذا غادرت وطنا لم يستخفنى حب الرجوع إليه .

وَعَنْ ذَمَلاَنِ الْعِيسِ إنْ سَامَحَتْ بِهِ ... وَإِلاَّ فَفِى أَكْوَارِهِنَّ عُقَابُ(١)

وَأَصْدى فَلاَ أُبْدِى إلَى المَاء حَاجَةً ... وَلِلشَّمْسِ فَوْقَ الْيَعْمَلاَتِ لُعَابُ(٢)

وَلِلسِّرِّ مِنِّى مَوْضِعٌ لاَ يَنَالُهُ ... نَدِيمٌ وَلاَ يُفْضِى إلَيْهِ شَرَابُ(٣)

وَلِلْخَوْدِ مِنِّى سَاعَةً ثُمَّ بَيْنَنَا ... فَلاَةٌ إلَى غَيْرِ اللِّقَاء تُجَابُ(٤)

---

(١) الذملان : ضرب من السير ؛ والعيس : الإبل . وقوله : إن سامحت به ، كلام مستأنف وجواب الشرط محذوف للعلم به تقديره : سرت عليها ؛ والأكوار : جمع كور ، وهو الرحل . والعقاب : الطائر المعروف . يقول : وأنا غنى كذلك عن سير الإبل ، فإن سمحت به سرت عليها ، وإلا فإننى كالعقاب : أجوب الفيافى دون أن أحتاج إلى ما يحملنى

(٢) اليعملات : النياق النجيبة المعتملة المطبوعة على العمل ؛ ولعاب الشمس : مايراه المسافر من أشعة الظهيرة كأنه خيوط تتدلى فوق رأسه . يقول : وأعطش فى الفيافى الحارة التى يشتد فيها حر الشمس ويسيل لعابها فوق الإبل ، فلا أبدى حاجتى إلى الماء تصبرا وتجلداً وحزما، وهذا من قول أبى تمام :

جَدِيرٌ أنْ يكُر الطرْفَ شَزْراً ... إلى بعض الموارِدِ وَهْوَ صادى

(٣) النديم : الذى ينادمك ويجالسك على الشراب . يقول: إنه كتوم للأسرار يضع السر حيث لا يطلع عليه النديم ولا يصل إليه الشراب مع تغلغله فى البدن كما قال مسكين الدارمى :

يظلون شتى فى البلاد وسرهم ... إلى صخرة أعين الرجال انصداعها

وقد نظر المتنبى فى هذا البيت إلى قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود

تغلغل حُبُّ عثمة فى فؤادى ... وباديهِ مع الخافى يسيرُ

تغلغل حَيثُ لم يَبلغ شرابٌ ... ولا حُزنٌ ولم يبلغ سُرورُ

(٤) الخود من النساء : الشابة الناعمة . وتجاب : تقطع . يقول : إنما أصحب المرأة قدرا يسيرا ثم أسافر عنها ، فيكون بينى وبينها فلاة أقطعها إلى غير لقائها . أو تقول : ثم أبتعد عنها ، وأمعن فى الابتعاد .

وَمَا الْعِشْقُ إِلاَّ غِرَّةٌ وَطَمَاعَةٌ   يُعَرِّضُ قَلْبٌ نَفْسَهُ فَيُصَابُ(١)

وَغَيْرُ فُؤَادِى لِلْغَوَانِى رَمِيَّةٌ   وَغَيْرُ بَنَانِى لِلزُّجَاجِ رِكَابُ(٢)

تَرَكْنَا لِأَطْرَافِ الْقَنَا كُلَّ شَهْوَةٍ   فَلَيْسَ لَنَا إِلاَّ بِهِنَّ لِعَابُ(٣)

نُصَرِّفُهُ لِلطَّعْنِ فَوْقَ حَوَادِرٍ   قَدِ انْقَصَفَتْ فِيهِنَّ مِنْهُ كِعَابُ(٤)

---

(١) الغرة : الغرور . يقول : إن عشق النساء غرورهن وطمع فى وصلهن إذا وقعا فى قلب العاشق عرض نفسه للعشق فيصاب به . وروى فتصاب — بضمير النفس — فيكون المعنى : إن دواعى العشق تقع أولا فى القلب ، ثم تنقاد النفس لهوى القلب ، لأنه يستهويها ويغلبها على رشدها .

(٢) الغوانى : الحسان ؛ والرمية الطريدة التى ترمى . يقول : إن قلبى لا تصيبه النساء بسهام ألحاظهن إذلا أصبو إليهن ، وإنما أنا عزهاة عزوف النفس عنهن ، وكذلك لا أحب الخمر ومعاقرتها فبنانى ليست مطايا للزجاج : أى لا أحمل كأس الخمر بيدى . ويروى للرخاخ — جمع رخ — فيكون المعنى : ولست ممن يلعب الشطرنج . قال ابن فورجه : يرد على هذه الرواية : البنان ركاب القدح وأما الرخ فالبنان راكبة له فى حال حمله ، وأيضا فإنه كلمة أعجمية لم تستعملها العرب القدماء ولا الفصحاء ، والتنزه عن شرب الخمر أليق بالتنزه عن الغزل من اللعب بالشطرنج .

(٣) اللعاب : الملاعبة ومنه حديث جابر : مالك وللعذارى ولعابها ؟ والتلعاب — بالفتح — اللعب ، صيغة تدل على تكثير المصدر . ويقال رجل تلعابة — بكسر التاء — وتلعاب وتلعابة : كثير اللعب . يقول : تركنا شهواتنا للرماح : أى لا لذة لنا إلا فيها ، يريد أنه فطم نفسه عن الملاهى ، وقصرها على الجد فى طعان الأعداء .

(٤) نصرفه : أى القنا ؛ والحوادر : الخيل الغلاظ السمان . وتروى خوادر — بالخاء المعجمة — أى كأنها أصابها الخدر لما لحقها من التعب والجراحات ورويت حواذر — بالحاء المهملة والذال المعجمة — يعنى خيلا تحذر الطعن لأنها معودة ومن ثم تميل عنه . والكعاب : العقد بين أنابيب الرمح . يقول — على رواية حوادر — : نصرف الرماح ونتقلها من حال إلى حال فوق خيل غلاظ سمان قد ألفت الطعن وانكسرت فيها كعاب من القنا ؛ وهذا من قول الجاهلى :

أَعَــزُّ مَـكَانٍ فِي الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ
وَخَــيْرُ جَلِيسٍ فِى الزَّمَانِ كِتَابُ(١)

وَبَحْرٌ أَبُو المِسْكِ الخِضَمُّ الَّذِى لَهُ عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُبَابُ(٢)

تجاوَزَ قَدْرَ المَدْحِ حَــتَّى كَأَنَّهُ بِأَحْسَنِ مَا يُثْنَى عَلَيْهِ يُعَابُ(٣)

وكنتُ إذا ما الخيلُ شمَّسها القنا لبيقاً بتصريفِ القناةِ بنانيا

هذا ورواية حواذر هى رواية ابن جنى ، وقد نقدها بعض الشراح بقوله : كيف يصفها بالحذر وقد وصفها بانكسار الرماح فيها ؟ وقد دافع بعضهم عن هـذه الرواية بقوله : يجوز على رواية ابن جنى هذه أن يكون حواذر أى تميل عن الطعن وتحذره بكثرة ما قد طوعن عليها ، فقد عرفت كيف تحيد عن الطعن . وقوله انقصفت فيهن من الطعن كعاب ، يجوز أن يكون فى أول ما طوعن عليها وهى فى غرة من الطعن فلما كثر الطعان عليها وألفته صارت تحذره وتبطله بميلها عنه . ويجوز أن يكون المراد تحذر الطعن وتحيد عنه . ومن كثرة الفرسان الذين يقاتلونها يصيبها من الطعن قليل وتسلم لحذرها من طعن كثير .

(١) الدنى : جمع دنيا ، والسابح : الفرس السريع الجرى يقول : إن سرج الفرس هو أعز مكان لأنه يمتطى لطلب المعالى أو محاربة الاعداء لدفع شرهم ، أو للهرب من الضيم واحتمال الذل ، وأن الكتاب هو خير جليس لأنه مأمون الجانب فلا أذى ولاشر ولا يحتاج فى مجالسته إلى مؤنة فضلا أنه يفاد من آدابه وكل ما يحتويه ولله قول القائل :

ما تَطَعَّمْتُ لذةَ العَيشِ حــتى صِرْتُ فى وَحْدتى لِكُتْبى جليسا

(٢) بحر : خبر مقدم ، وأبو المسك : مبتدأ مؤخر . والخضم : صفة له ، والخضم : الكثير الماء ، وزخر البحر : طمى وامتد ، والعباب كثرة الموج وارتفاعه . يقول . وأبو المسك الخضم بحر يربو على كل بحر جوداً وعطاء ، وهذا كقول الشاعر :

دعانى إلى عُمَرٍ جوده وقول العشيرة بحر خضم

وروى : وبحر أبى المسك ، على أن بحر : مبتدأ مضاف إلى أبى المسك والخضم خبره : أى أن بحر المسك هو البحر الخضم . وروى ابن جنى وبحر ـ بالجر ـ عطفا على جليس: أى وخير بحر أبو المسك .

(٣) يقول : هو فوق كل مدح يثنى عليه به ، فإذا بالغت فى حسن الثناء عليه استحق

وَغَالَبَهُ الأَعْدَاءُ ثُمَّ عَنَوْا لَهُ كَمَا غَالَبَتْ بِيضَ السُّيُوفِ رِقَابُ(١)
وَأَكْثَرُ مَا تَلْقَى أَبَا المِسْكِ بِذْلَةً إِذَا لَمْ تَصُنْ إِلاَّ الحَدِيدَ ثِيَابُ(٢)

قدره فوق ذلك ، فيصير ذلك الثناء الحسن كأنه عيب لقصوره عن استحقاقه ، وهذا كقول البحترى :

جل عن مذهبِ المديح فقد كا د يكون المديح فيــهِ هجاء

وقال ابن جنى : هذا من المدح الذى كاد أن ينقلب لإفراطه هجوا ، وهذا ضد قول أبي نواس :

وكلهم أثنَوْا ولم يعلموا عليك عندى بالذى عابوا

(١) عنوا : خضعوا وذلوا : قال تعالى : وعنت الوجوه للحى القيوم » من العنوة » وهى القهر . يقول : وحاول الأعداء غلابه ثم عجزوا عن غلبته خضعوا له وانقادوا كالرقاب إذا غالبت السيوف أضحت مغلوبة

(٢) بذلة : تمييز ؛ اسم من الابتذال ؛ وهو أن يترك المرء صيانة نفسه يقول : وأ كثر ما تلقاه مبتذلا نفسه لم يحصنها بالدرع حين لا يصون الأبدان شيء من الثياب إلا الحديد : أى إبان اشتداد الوغى وتكاثر الجيش عليه يعنى أنه لشجاعته وإقدامه لا يتوقى الحرب بالدرع والحديد . فالحديد مستثنى مقدم من الثياب . وهذا كما قال الأعشى :

وإذا تَكُونُ كَتِيبةٌ ملمومةٌ شهباء يَخشَى الذائدون نهالهــا
كُنتَ المقدم غَيرَ لابِسِ جُنةٍ بالسيفِ تضرب مُعلِماً أبطالها(١)

هذا ، وقد ذهب ابن جنى إلى غير ماأوردناه قال : إذا لبست الأبطال الثياب فوق الحديد خشية واستظهاراً ، فذلك الوقت أشد ما يكون تبذلا للطعن فجعل الثياب كما ترى تصون الحديد . قال العروضى يرد عليه : أظن أبا الفتح يقول قبل أن يتدبر ؛ وإنماالتنبي جعل الصون للحديد لا للثياب . يريد إذا لم يصن الثياب إلا الحديد يعنى الدروع ، وإنما يريد النفى لانه المستثنى . وأنشد بيت الكميت .

ومالِى إلا آلَ أحمدَ شيعة ومالِى إلا مذهبَ الحق مذهبُ

---

(١) كتيبة ملمومة مجتمعة : وشهباء لما فيها من بياض السلاح والحديد ، ونهالها عطاشها ، والجنة ما وراك من السلاح ، وأبطالها مفعول تضرب ، ومعلما : حال . ورجل معلم إذا علم مكانه فى الحرب بعلامة أعلمها . وسيأتى شرح البيتين .

وَأَوْسَعُ مَا تَلْقَاهُ صَدْراً وَخَلْفَهُ ... رِمَاءٌ وَطَعْنٌ وَالْأَمَامَ ضِرَابُ(١)

وَأَنْفَذُ مَا تَلْقَاهُ حُكْماً إِذَا قَضَى ... قَضَاءً مُلُوكُ الْأَرْضِ مِنْهُ غِضَابُ(٢)

يَقُودُ إِلَيْهِ طَاعَةَ النَّاسِ فَضْلُهُ ... وَلَوْ لَمْ يَقُدْهَا نَائِلٌ وَعِقَابُ(٣)

أَيَا أَسَداً فِي جِسْمِهِ رُوحُ ضَيْغَمٍ ... وَكَمْ أُسْدٍ أَرْوَاحُهُنَّ كِلَابُ(٤)

ومعنى البيت : أكثر ما يلق هذا الممدوح فى الحرب باذلا نفسه لم يحصنها بدرع كما تفعل الأبطال ، وذلك لشجاعته وإقدامه ، ومن ثم لا يتوقى الحرب بالدرع . . وهذا الذى قاله العروضى هو الذى قلناه .

(١) يقول : وأوسع ما يكون صدرا إذا حمى الوطيس وأحاط به العدو من كل جانب وكان خلفه الرماء والطعن وأمامه الضراب . فقوله وأوسع : مبتدأ ؛ وقوله وخلفه رماء : جملة حالية قامت مقام خبر أوسع ، والرماء : الرمى ، والضراب:الضرب؛ ولكنهما تدلان على المفاعلة ، والأمام : منصوب على الظرفية ؛ وقال ابن جنى : المعنى : أوسع ما يكون صدراً إذا تقدم فى أول الكتيبة يضرب بالسيف وأصحابه من ورائه بين طاعن ورام . فجعل ابن جنى الرماة من أصحاب الممدوح ، وليس فى هذا مدح ، لأن كل أحد إذا كان خلفه من يرمى ويطعن من أصحابه فصدره واسع وقلبه مطمئن ، وإنما أراد ـ كما قلنا ـ خلفه رماء وأمامه طعن من أعدائه . يعنى : إذا كان فى مأزق متضايق فى الحرب ، وقد أحاط به العدو من كل جانب لم يضق صدره وإنما تراه أوسع ما يكون صدراً .

(٢) يقول : إذا أراد أمرا لا يرضى به سائر الملوك فذلك الأمر أنفذ أحكامه لأنهم لا يقدرون على خلافه وقد استقادوا له : أى أعطوه مقادتهم . فمهما أبرم أمراً نفذ وإن غاضبهم فيه .

(٣) النائل : العطاء . يقول : لو لم يطعه الناس رغبة فى عطائه ولا رهبة لعقابه لأطاعوه محبة وإجلالا لما اختصه الله به من الفضل

(٤) يقول : أنت أسد قوة وبطشا ، وهمتك همة الأسود — والأسد موصوف بعلو الهمة ، فهو لا يأكل من فريسة غيره كما قال الشاعر : :

وكانوا كأنفِ الليثِ لا شَمَّ مَرغماً ... ولا نالَ قط الصيدَ حتى يُعفِّرا(١)

---

(١) أى أنه لا يطعم إلا مما صاده بنفسه .

. . . .

وقد قال أبو تمام :

إن الأُسُودَ أُسُـودَ الغابِ همتها　　يومَ الكريهةِ فى المسلوبِ لا السلبِ

ثم قال المتنبى — وأراد ما عداه من الملوك — : وكم من أسد دنىء النفس ساقط الهمة؟ أى كم من ملك يشبه الاسد فى قوة بطشه ولكن روحه روح كلب ؟ هذا وللعلامة العكبرى هنا كلمة فى المنادى أوردها لمناسبة إعرابه «أيا أسدا» رأينا أن نوردها لنفاستها ولأنا أخذنا على أنفسنا أن لا نغفل شيئا مما أورده جميع الشراح . قال العكبرى : أيا أسداً : هو نداء منكر ينتصب بفعل مضمر ، ولو رفع ونون لكان أجود؛لأنه خصصه؛ والنكرات إذا خصصت كان حكمها فى النداء كحكم المفرد العلم : قال الله تعالى « ياجبال أوبى معه » فلما خصصها بالنداء كان حكمها حكم العلم المفرد ؛ والطير من رفعه جعله عطفا على الجبال ، ومن نصبه — وهو المشهور — فله ثلاثة أوجه : الأول: أن يكون عطفا على موضع الجبال لأنها فى موضع نصب؛ الثانى: أن تكون الواو بمعنى مع ؛ الثالث: أن يكون مفعولا عطفا على ما قبله وهو قوله تعالى « ولقد آتينا داود منا فضلا » ؛ واختلف البصريون وأصحابنا الكوفيون فى المنادى ؛ فقال البصريون : هو مبنى على الضم وموضعه النصب ، لانه مفعول . وقال أصحابنا : بل هو معرب مرفوع بغير تنوين ، وحجتنا أنا وجدناه لا يصحبه ناصب ولا رافع ولا خافض ووجدناه مفعولا فى المعنى ولم نخفضه لئلا يشتبه بالمضاف إلى ياء المتكلم ؛ ولم ننصبه لئلا يشبه مالا ينصرف فرفعناه بغير تنوين ليكون بينه وبين ما هو مرفوع برافع صحيح فرق . وأما المضاف فنصبناه لأنا وجدنا أكثر الكلام منصوبا فحملناه على وجه من النصب لأنه أكثر استعمالا من غيره . وحجة البصريين على أنه ليس بمعرب بل هو مبنى — وإن كان يجب فى الأصل أن يكون معربا — أنه أشبه كاف الخطاب ، وهى مبنية فكذلك ما أشبهها من هذه الأوجه ، فوجب أن يكون مبنيا ؛ ووجه آخر : وهو أنه وقع موقع اسم الخطاب ، لأن الأصل فى قولك : يازيد ، يا إياك ، ويا أنت . لأن المنادى لما كان مخاطبا كان ينبغى أن يستغنى عن ذكر اسمه ويؤتى باسم المخاطب ، فيقال ياإياك ؛ ويا أنت ، فلما وقع الاسم المنادى موقع الخطاب ؛ وجب أن يكون مبنيا ؛ كما أن اسم الخطاب مبنى . قالوا وبنيناه على الضم لوجهين ، أحدهما : أنه لا يخلو إما أن يبنى على الفتح أو على الكسر أو الضم ، بطل أن يبنى على الفتح لأنه كان يلتبس بما لا ينصرف ، وبطل أن يبنى على الكسر

وَيَا آخِذاً مِنْ دَهْرِهِ حَقَّ نَفْسِهِ ... وَمِثْلُكَ يُعْطَى حَقَّهُ وَيُهَابُ[(١)]
لَنَا عِنْدَ هٰذَا الدَّهْرِ حَقٌّ يَلُطُّهُ ... وَقَدْ قَلَّ إِعْتَابٌ وَطَالَ عِتَابُ[(٢)]
وَقَدْ تُحْدِثُ الْأَيَّامُ عِنْدَكَ شِيمَةً ... وَتَنْعَمِرُ الْأَوْقَاتُ وَهْيَ يَبَابُ[(٣)]

لأنه كان يلتبس بالمضاف إلى النفس ، وإذا بطل أن يبنى على الفتح والكسر وجب أن يبنى على الضم ؛ والوجه الآخر : أنه يبنى على الضم فرقاً بينه وبين المضاف إليه لأنه إن كان مضافا إلى النفس كان مكسوراً ، وإن كان مضافا إلى غيرها كان منصوباً ، فبنى على الضم لئلا يلتبس بالمضاف ، وقلنا إنه مفعول لأنه فى موضع نصب لأن تقدير يازيد أدعو زيداً ، وأنادى زيداً ، فلما قامت «يا» مقام أدعو : عملت عمله ، فدلت على أنها قامت مقامه من وجهين : أحدهما أنها تدخلها الإمالة نحو يازيد والإمالة لا تدخل الحروف ، وإنما تدخل الاسم والفعل . والثانى أن لام الجر تعلق بها نحو يالزيد ويالعمرو ، فإن هذه اللام لام الاستغاثة وهى حرف جر ، فلو لم تكن قد قامت مقام الفعل : لما جاز أن يتعلق بها حرف الجر ، لأن الحرف لا يتعلق بالحرف .

(١) يقول : إن الدهر يخشاك ويهابك ولا يجترىء على أن ينقصك حقك ، ومن ثم تأخذ منه كل حقوقك . يعنى : لا تجحفك الأيام شيئا لمنعتك .

(٢) يلطه : يجحده ويمطل به ومنه قول يحيى بن يعمر فى رواية : أنشأت تلطها : أى تمنعها حقها من المهر ، ويروى تطلها وأصله لططت حقه إذا جودته وربما قالوا تلطيت حقه لأنهم كرهوا اجتماع ثلاث طاآت فأبدلوا من الأخيرة ياء كما قالوا من اللعاع تلعيت[(١)] . ويقال ألطه على أى أعانه أو حمله على أن يلط حقى . يقال : مالك تعينه على لططه . وأعتبه : أزال عتبه أى أرضاه . يقول : لنا عند الدهر حق يجحده ويماطل فى قضائه ، وقد طال عتابنا له ، فلم يزل عتبنا : أى لم يرضنا بقضاء الحق .

(٣) الشيمة : العادة والخلق ، وتنعمر : مطاوع عمرت المكان : إذا صيرته عامراً آهلا ، واليباب : الخالى ليس به أحد . يقول : إن الأيام قد تغيرت شيمتها لديك ، إذ أنها ترضى المعاتب وتسالم أهل الفضل ، فلا يلحقهم منها سوء لنزولهم فى كنفك وجوارك وهذا خلاف عادتها من اضطهاد ذوى الفضل ، والأوقات تصير عامرة لهم : بأن يدركوا

---

(١) اللعاع : هو الهندباء ؛ بقل معروف يؤكل ، وتلعى اللعاع : أكله

وَلاَ مُلْكَ إلاَّ أنْتَ وَالْمُلْكُ فَضْلَةٌ ... كَأنَّكَ سَيْفٌ فِيهِ وَهْوَ قِرَابُ(١)

أرَى لِي بِقُرْبِي مِنْكَ عَيْناً قَرِيرَةً ... وإنْ كَانَ قُرْباً بِالبِعَادِ يُشَابُ(٢)

وهَــلْ نَافِعِي أنْ تُرْفَعَ الْحُجْبُ بَيْنَنَا ... ودُونَ الَّذِي أمَّلْتُ مِنْــكَ حِجَابُ(٣)

أُقِلُّ سَلاَمِي حُبَّ مَا خَفَّ عَنْــكُمُ ... وأسْكُتُ كَيْمَا لا يَكُونَ جَوَابُ(٤)

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ ... سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وخِطَابُ(٥)

مطلوبهم مع أنها عند غيرك خراب لا تسعف : يعنى إن أظفرتنى الأيام بمطلوبى لديك فلا عجب فإنها تحدث شيمة غير شيمتها مهابة لك وإجلالا

(١) القراب : قراب السيف وهو غمده . يقول : إنما الملك فى الحقيقة والواقع هو أنت ، لا ذلك السؤدد الذى أنت فيه والذى نلته بعلو همتك وسداد رأيك ، فهو بالقياس إليك نافلة وفضلة ، وكأنه قراب وأنت فيه السيف . والمزية كلها للسيف لا للقراب . ويروى بدل قوله كأنك سيف : كأنك نصل .

(٢) و (٣) قرت عينه : بردت ، وهو كناية عن السرور ، وضمير كان : يعود إلى القرب ، ويشاب : يمزج ويخلط . يقول : إن عينى قريرة بقربك وأنا مبتهج بذلك لأنى بلغت ما كنت أود من لقائك وإن كان هذا القرب مشوباً بالبعاد ، لأنى لم أنل منك ما كنت أرجوه من الصنيعة إلى ، وهل ينفعنى أن لا حجاب بيننا وماأرجيه منك محجوب عنى ؟ وهذا كلام بديع يغزو المتنبى به — وبما بعده — الإشارة إلى مايتوقعه من كافور من الحصول على ولاية من الولايات .

(٤) حب : مفعول له ، كأنه قال : لحب ماخف عنكم . يقول : لإيثارى التخفيف عنكم أقلل التسليم عليكم وأسكت عن الكلام كى لا أحوجكم إلى الإجابة : هذا ولك أن تنصب يكون : على إعمال كى ، وتكون ما : زائدة ، وأن ترفعها على أنها لاتعمل، وتكون ما : مصدرية .

(٥) يقول : إن فى نفسى حاجات لا ينبعث بها لسانى وأنت من الفطانة بحيث تدركها دون أن أذكرها ، فسكوتى عنها يقوم مقام الإفصاح عنها . وهذا كما يقول أمية ابن أبى الصلت :

وَمَا أَنَا بِالْبَاغِي عَلَى الْحُبِّ رِشْوَةً ضَعِيفٌ هَوًى يُبْغَى عَلَيْهِ ثَوَابُ[١]
وَمَا شِئْتُ إِلاَّ أَنْ أَدُلَّ عَوَاذِلِي عَلَى أَنَّ رَأْيِي فِي هَوَاكَ صَوَابُ[٢]

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حِبَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحِبَاءُ[١]
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ المَرْءُ يَوْماً كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

ويقول أبو تمام :

وإِذَا الجودُ كانَ عونِي عَلَى المرْءِ تقاضَيتُه بِتَرْكِ التقاضِي

ويقول أبو بكر الخوارزمى :

وإِذا طَلبت إلى كَرِيمٍ حاجَةً فلِقاؤهُ يكفيك والتسلِيمُ
فإذا رآكَ مُسلِّماً عرَف الذي حَمَّلتَهُ وكأنَّهُ مَلزومُ

(١) يريد أن يستدرك على نفسه . يقول : أنا لا أطلب ماطلبته منك رشوة على حبي إياك ، لأن الحب الذى يطلب عليه ثواب ضعيف . فقوله ضعيف : خبر مقدم ، وهوى : مبتدأ مؤخر ، ثم ذكر السبب فى البيت التالى . هذا : والرشوة ؛ بضم الراء، وفتحها ، وكسرها ، والجمع رشى ، ورشى . قال سيبويه من العرب من يقول : رشوة ورشى ، ومنهم من يقول : رشوة ورشى ، والأصل : رشى ، وأكثر العرب يقول : رشى . ورشاه يرشوه رشواً : أعطاه الرشوة ، وارتشى منه رشوة : إذا أخذها . قال المبرد : الرشوة مأخوذة من رشا الفرخ إذا مد رأسه إلى أمه لتزقه . وقال ابن الأثير عند ذكره الحديث : لعن الله الراشى والمرتشى والرائش : الرشوة ، والرشوة الوصلة إلى الحاجة بالمصانعة ، وأصله من الرشاء الذى يتوصل به إلى الماء ؛ فالراشى من يعطى الذى يعينه على الباطل ، والمرتشى : الآخذ ، والرائش : الذى يسعى بينهما يستزيد لهذا ويستنقص لهذا .

(٢) يقول : وإنما أردت بطلب ما طلبت أن أعرف اللائى يلمننى على قصدى إليك أنى كنت مصيبا فى هواك ، وأنك تفضل على وتبلغنى ما أرجيه منك .

---

(١) الحباء : ما يحبو به الرجل صاحبه ويكرمه به ، أو هو العطاء بلا من ولاجزاء ويروى حياؤك إن شيمتك الحياء .

وَأُعْلِمَ قَوْمًا خَالَفُونِى فَشَرَّقُوا وَغَرَّبْتُ أَنِّى قَدْ ظَفِرْتُ وَخَابُوا(١)
جَرَى الْخُلْفُ إِلَّا فِيكَ أَنَّكَ وَاحِدٌ وَأَنَّكَ لَيْثٌ وَالْمُلُوكُ ذِئَابُ(٢)
وَأَنَّكَ إِنْ قُويِسْتَ صَحَّفَ قَارِىءٌ ذِئَابًا وَلَمْ يُخْطِىءْ فَقَالَ ذُبَابُ(٣)
وَإِنَّ مَدِيحَ النَّاسِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَمَدْحُكَ حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ كِذَابُ(٤)

---

(١) يقول : وأردت أن أعلم الذين خالفونى وصمدوا إلى غيرك من الملوك أنى قد ظفرت بقصدى إليك ، وأنهم أخفقوا بعدولهم عنك إلى سواك . وهذا كقول البحترى :

وأَشْهَدُ أَنِّى فى اختيارِيكَ دُونَهم مُؤَدًّى إلى حَظِّى وَمُتبِع رُشْدِى

والتشريق والتغريب فى البيت تمثيل أراد به تحقيق المخالفة ، ولعله أراد به الحقيقة .

(٢) يقول : إن الخلاف جار فى كل شىء إلا فى أنك واحد ممتاز عن الأشكال ؛ وفى أنك أسد ، والملوك بالقياس إليك ذئاب ، وهذا ينظر إلى قول أبى تمام :

لو أن إجماعنا فى فضل سُودَدِهِ فى الدين لم يَختلف فى الأمة اثنان

وقول البحترى :

وأَرَى الناسَ مجمعين عَلَى فضلِك مِنْ بين سَيِّدٍ ومَسُودِ

فالخلف بمعنى الاختلاف وأنك واحد بدل اشتمال من الكاف فى قوله فيك .

(٣) يقول : إذا صحف القارىء لدى هذه المقايسة لفظ الذئاب — المذكورة فى البيت السابق — فقال وإنك ليث والملوك ذباب : لم يخطىء ولم يعد الصواب فى هذا التصحيف ، لأن من عداك من الملوك كذلك .

(٤) الكذاب : الكذب ، يقال كذب يكذب كذباً وكِذبا وكذابا وكذابا . قال الشاعر :

فَصدَقتها وكَذَبتها والمرء ينفعه كِذابه

وأنشدوا :

نادت حليمة بالوَداع وآذَنَت أهل الصفاء وودّعت بكذاب

ورجل كاذب وكذاب وتكذاب وكذوب وكذوبة وكذبة مثال همزة وكذبان

إذَا نِلْتُ مِنْكَ الْوُدَّ فالمَالُ هَيِّنٌ ... وَكُلُّ الّذِى فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ
وَمَا كُنْتُ لَوْلاَ أَنْتَ إلاَّ مُهَاجِراً ... لَهُ كُلَّ يَوْمٍ بَلْدَةٌ وَصِحَابُ[1]
وَلٰكِنَّكَ الدُّنْيَا إِلَىَّ حَبِيبَةٌ ... فَمَا عَنْكَ لى إلاَّ إلَيْكَ ذَهَابُ[2]

وكِيذبان وكَيذبان ومكذبان ومكذبانة وكذبذبان وكذبذب وكذبذب . قال الشاعر :

فإذا سَمِعْتَ بأننى قد بعتكم ... بوصال غانية فقل كُذُّبُذُب[1]

والكذب : جمع كاذب ، مثل راكع وركع . قال أبو داود الرؤاسى :

مَتى يقُل تنفــع الأقوام قَولته ... إذا اضمحل حديث الـكذب الولَعَهْ
أليس أقرَبَهُم خيراً وأبعَــدهم ... شراً وأسمَحَهــم كفاً لِمَن مَنعَه
لا يَحْسُد الناسَ فضلَ الله عندهمُ ... إذا تَشوهُ نفوسُ الحُسَّد الجُشَعه

« الولعة جمع والع وهو الكاذب » يقول : إن الناس يمدحون بالحق وبالباطل لأن بعضه يكون كذبا : أما أنت فمدحك الحق الصراح لا كذب فيه وهذا كقول أبى تمام :

لما كرُمْتَ نَطقتُ فِيكَ بِمَنطِقٍ ... حَــقٍ فلم آثَمْ ولم أتَحَوَّبِ[1]
وَلو امْتدَحتُ سِــوَاكَ كنتَ مَتَى يَضِقْ ... عَنِّى لهُ صِــدْقُ المقالة أكذِبِ

(١) يقول : لولاك لكان كل بلد بلدى وكل أهل أهلى : أى لولاك لم أقم بمصر وكنت لا أزال مهاجراً فى الأرض أنتقل من بلد إلى بلد ومن ناس إلى ناس ، لأن جميع البلاد وجميع الناس لدى سواء .

(٢) يقول : ولكنك جميع الدنيا الحبيبة إلى والتى انصبت عليها آمالى ، فإن

---

(١) الرواية قد بعته ـ يعنى جمله ـ وقبله :

قد طال إيضاعى المخدم لا أرى ... فى الناس مثلى فى معد يخطب
حتى تأوبت البيوت عشية ... فحططت عنه كوره يتثأب

فإذا سمعت بأنى قد بعته الخ .

(٢) فلان يتحوب من كذا : أى يترك الحوب ، وهو الإثم ، كيتأثم : أى يترك الإثم .

ومر في صباه برجلين قد قتلا جرذاً وأبرزاه يُعجبان الناسَ من كِبَره فقال :

لَقَدْ أَصْبَحَ الْجُرَذُ الْمُسْتَغِيرُ ... أَسِيرَ الْمَنَايَا صَرِيعَ الْعَطَبْ(١)
رَمَاهُ الْكِنَانِيُّ وَالْعَامِرِيُّ ... وَتَلَّاهُ لِلْوَجْهِ فِعْلَ الْعَرَبْ(٢)
كِلَا الرَّجُلَيْنِ اتَّلَا قَتْلَهُ ... فَأَيُّكُمَا غَلَّ حُرَّ السَّلَبْ(٣)
وَأَيُّكُمَا كَانَ مِنْ خَلْفِهِ ... فَإِنَّ بِهِ عَضَّةً فِي الذَّنَبْ

حاولت الذهاب عنك كان ذلك ذهابا إليك ، وكذلك الدنيا : من أراد السفر عنها سافر إليها ، إذ ليس من سبيل إلى الخروج عنها . فقوله حبية حال من الدنيا وإلى متعلق بحبية . وقوله فما عنك : أى فمالى ذهاب عنك إلا إليك . وأورد العكبرى حبية — بالرفع — وقال إنها مبتدأ ، وإلى : خبر ، وقال ابن جنى : التقدير هى إلى حبية . يريد أن حبية خبر مبتدإ محذوف . وقال : إن المعنى يريد أنك السلطان ، والسلطان هو الدنيا ، يعنى أنت جميع الدنيا ، فإن ذهبت عنك عدت إليك ، فإن الحى لا بد له من الدنيا . وهذا قريب مما قلناه .

(١) الجرذ : ضرب من الفأر ، والمستغير : الذى يطلب الغارة على ما فى البيوت وغيرها .

(٢) تلاه صرعاه ، يقال تله يتله تلا فهو متلول ، وتليل : صرعه ، قال تعالى : « فلما أسلما وتله للجبين » أى صرعه كما تقول كبه لوجهه . يقول : رماه هذان الرجلان اللذان أحدهما من بنى كنانة والآخر من بنى عامر ، وصرعاه لوجهه ، كما تفعل العرب بالقتيل .

(٣) اتلا : تولى وباشر ، وغل : خان من الغلول : الخيانة فى المغانم ، والسلب ، ما يسلب من ثياب القتيل وسلاحه وما إليهما ، وحره جيده . يقول : لقد اشتركتما فى قتله فأيكما انفرد بجيد سلبه وخانه فى ذلك ، وهذا كله من باب التهكم والسخرية ولمناسبة كلا وكلتا نقول : ذهب الكوفيون إلى أن كلا وكلتا فيهما تثنية لفظية ومعنوية فأصل «كلا» كل ، خففت اللام وزيدت الألف للتثنية ؛ وزيدت التاء فى كلتا للتأنيث ، والألف فيهما كالألف فى قولك الزيدان ، وحذفت نون التثنية منهما للزومهما الإضافة وذهب البصريون إلى أن فيهما إفراداً لفظيا وتثنية معنوية والألف فيهما كألف رحا

. . . .

وعصا . وحجة الكوفيين النقل والقياس ؛ فالنقل قول الشاعر :

فى كِلْتَ رِجْلَيها سُلَامَى زائدهْ   كِلتاهما قد قُرِنَت بِواحِدَه[(١)]

فإفراده كلت يدل على أن كلتا تثنية ؛ والقياس أنها تنقلب إلى الياء جراً ونصبا إذا أضيفت إلى المضمر ، نحو : رأيت الرجلين كليهما والمرأتين كلتيهما ، ومررت بكلتيهما ، فلو كانت الألف فى آخرها كألف عصا ورحا لم تنقلب كما لم تنقلب ألفاهما نحو رأيت عصاهما ومررت برحاهما . فلما انقلبت الألف فيهما انقلاب ألف الزيدان دل على أن تثنيتهما لفظية ومعنوية ، وحجة البصريين: أن الضمير يعود إليهما تارة مفرداً حملا على اللفظ ، وتارة مثنى حملا على المعنى ؛ فرد الضمير مفرداً كقوله تعالى « كلتا الجنتين آتت أكلها » وكقول جرير :

كِلا يومَىْ أُمامة يومُ صدٍّ   وإن لم نأتِهـا إلا لِمـاما

فقال يوم بالإفراد ، وأما رد الضمير مثنى حملا على المعنى فكقول الفرزدق :

كلاهما حين جَد الجرىُ بينهما   قد أقلعا وكلا أنفيهما رابى[(٢)]

---

(١) قيل : إن هذا البيت من رجز يصف به نعامة ، فضمير رجليها يرجع إلى النعامة ، والسلامى : عظم فى فرسن البعير وعظامه صغار طول أصبع أو أقل فى اليد والرجل ، والجمع سلاميات ، والفرسن للبعير بمنزلة الحافر للفرس ، والضمير فى كلتاهما : للرجلين ، والمصراع الثانى : تأكيد للأول ، وقوله قرنت بواحدة: أى من السلاميات .

(٢) من أبيات للفرزدق فى جرير ؛ وكان جرير روج بنته أم غيلان من عصيدة ابن أخى امرأته وكان منقوص العضد فخلعها منه أى طلقها فقال الفرزدق :

ما كان ذنب التى أقبلت تعتلها   حتى اقتحمت بها أسكفة الباب

كلاهما . . . . .

يا ابن المراغة جهلا حين تجعلها   دون القلوص ودون البكر والناب

تعتلها : تجذبها جذبا عنيفا ، والضمير لأم غيلان بنت جرير وفى رواية : ما بال لومكها أى لومك إياها ، والأسكفة ، عتبة الباب : أى حتى أدخلتها عتبة بابك ، وكلاهما أى كل من ابنة جرير وزوجها ؛ وجد الجرى : أى اشتد ، وأقلعا : أى أقلعا

وقال يهجو ضبة بن يزيد العتبى(*) :

مَا أنْصَفَ القَوْمُ ضَـبَّهْ   وَأُمَّهُ الطُّرْطُبَـــــهْ(١)

فقال : قد أقلعا حملا على المعنى ـ وقال رابى حملا على اللفظ ـ وقالوا : الدليل على أن فيهما إفراداً لفظيا أنك تضيفهما إلى التثنية . فتقول : جاءنى كلا أخويك ، ورأيت كليهما ؛ وكذلك حكم كلتا فى المضمر والمظهر ، فلو كانت التثنية منهما لفظية لما جاز إضافتهما إلى التثنية لأن الشىء لا يضاف إلى نفسه ويدل على أن الألف لا تكون فيهما للتثنية أنها تمال فى قراءة حمزة والكسائى . وإذا أردت التوسع فى هذا الباب فارجع إلى كتب النحاة وإلى لسان العرب * كان ضبة هذا فيمن كان مع الخارجى الذى نجم فى بنى كلاب وهو المشار إليه فى القصيدة التى مدح بها دلير بن لشكروز بالكوفة ـ وسبب هذه الأبيات القبيحة أن قوما من أهل العراق قتلوا أبا ضبة هــذا وسبوا امرأته ـ أم ضبة ـ وفسقوا بها ، وكان ضبة غداراً بكل من نزل به ، واجتاز به أبو الطيب فى جماعة من أشراف الكوفة ، فامتنع منهم ، وأقبل يجاهر بشتمهم ، فأرادوا أن يجيبوه بمثل ألفاظه القبيحة ، وسألوا ذلك أبا الطيب فتكلفه لهم على كراهة وقال هــذه القصيدة وهو على ظهر فرسه . قال الواحدى : كان المتنبى إذا قرئت عليه هذه القصيدة ينكر إنشادها ـ أقول : ولولا أن يقال إننا تصرفنا فى الديوان وأن هذا الديوان أدركه الخداج — إذا حذفنا منه بعض شعر المتنبى فيسىء الناس بنا الظن — لما أثبتنا هذه الأبيات التى ينبو بها السمع .

(١) يقول : ما أنصف القوم هذا الرجل إذ فعلوا بأبيه وأمه ما فعلوا ، والطرطبة : القصيرة الضخمة ، وقيل المسترخية الثديين أو الطويلة الثديين قال الشاعر :

لَيْسَتْ بِقَتَّاتَةٍ سَبَهْلَلَةٍ   ولا بِطُرْطُبَّةٍ لها هُلُبُ(١)

عن الجرى ؛ ورابى من الربو وهو النفس العالى المتتابع ، وهذا تمثيل يقول : إن بنت جرير وزوجها قد افترقا حين حصلت الألفة بينهما ولم يمضيا على حالهما كفرسين جدا فى الجرى ووقفا قبل الوصول إلى الغاية :

(١) القتاتة النموم من القت وهو النميمة والكذب المهيأ ، ويقال للفارغ النشيط الفرح سبهللا ، وروى عن عمر أنه قال ، إنى لأكره أن أرى أحدكم سبهللا لا فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة . وكل فارغ سبهلل ، والهلب ما غلظ من الشعر .

رَمَوْا بِرَأْسِ أَبِيهِ ... وَبَاكُوا الأُمَّ غُلُبَّهْ(١)
فَلاَ بِمَنْ مَاتَ فَخْرٌ ... وَلاَ بِمَنْ نِيكَ رَغْبَهْ(٢)
وَإِنَّمَا قُلْتُ مَا قُلْـ ... ـتُ رَحْمَةً لاَ مَحَبَّهْ(٣)
وَحِيلَةً لَكَ حَتَّى ... عُذِرْتَ لَوْ كُنْتَ تِيبَهْ(٤)
وَمَا عَلَيْكَ مِنَ القَتْـ ... ـلِ إِنَّمَا هِيَ ضَرْبَهْ(٥)
وَمَا عَلَيْكَ مِنَ الغَدْ ... رِ إِنَّمَا هُوَ سُبَّهْ(٦)
وَمَا عَلَيْكَ مِنَ العَا ... رِ إِنَّ أُمَّكَ قَحْبَهْ(٧)
وَمَا يَشُقُّ عَلَى الكَلْـ ... ـبِ أَنْ يَكُونَ ابْنَ كَلْبَهْ
مَا ضَرَّهَا مَنْ أَتَاهَا ... وَإِنَّمَا ضَرَّ صُلْبَهْ

---

(١) يقال باك الحمار الأتان : نزا عليها ، والغلبة : الغالبة جعلهم كالحمير فى غشيانها بفحش .

(٢) يقول : فلا فخر له بأبيه ولا يرغب بأمه أيضاً عما فعل بها .

(٣) يقول : وإنما قلت ما أصفوك رحمة بك لما أصابك من الذل والعار لا محبة لك وغيرة عليك . يريد شدة ما وصل إليه حتى صار بالرحمة أحق منه بالشماتة ، وليلحظ أن ضبة هذا من الغباء بحيث لم ير المتنبى بدا من أن يسلك معه هذا المسلك ، فقد صرح باسمه . . . وأيضاً كان يكفى أن يقول ما أنصف الناس ضبة وأمه الطرطبة ، ولا يقول بعد ذلك : وإنما قلت رحمة لا محبة .

(٤) تيبه بكسر التاء ـ مضارع ، وبه : بمعنى أبه وبالى وا كترث ، وتروى لو كنت تنبه . أى تفطن . يقول : وقلت ذلك حيلة لك حتى يعذرك الناس فيما ألم بك إذا سمعوا قولى هذا وعرفوا أنك مظلوم .

(٥) و (٦) و (٧) مافى الأبيات الثلاثة استفهام إنكارى ، وهى فى البيتين الأولين : ضمير الشأن ، والسبة : العار يسب به ، والقحبة : البغى ، والفاسدة الفاجرة. وهذا من أبى الطيب استهزاء واستهجان لضبة . يقول : لا يعلق بك من قتل أبيك عار ، إنما ذلك ضربة وقعت بأبيك فمات منها ، والغدر سبة تسب به ، فما عليك منه ؟ولا عار عليك من فجور أمك .

وَلَمْ يَنِكْهَا وَلَكِنْ عِجَانُهَا نَاكَ زُبَّهْ(١)
يَلُومُ ضَبَّةَ قَوْمٌ وَلاَ يَلُومُونَ قَلْبَهْ
وَقَلْبُهُ يَتَشَهَّى وَيُلْزِمُ الْجِسْمَ ذَنْبَهْ
لَوْ أَبْصَرَ الْجِذْعَ شَيْئاً أَحَبَّ فِى الْجِذْعِ صَلْبَهْ(٢)
يَا أَطْيَبَ النَّاسِ نَفْساً وَأَلْيَنَ النَّاسِ رُكْبَهْ(٣)
وَأَخْبَثَ النَّاسِ أَصْلاً فِى أَخْبَثِ الأَرْضِ تُرْبَهْ
وَأَرْخَصَ النَّاسِ أُمًّا تَبِيعُ أَلْفاً بِحَبَّهْ
كُلُّ الْفُعُولِ سِهَامٌ لِمَرْيَمٍ وَهْىَ جَعْبَهْ(٤)
وَمَا عَلَى مَنْ بِهِ الدَّا ءُ مِنْ لِقَاءِ الأَطِبَّهْ(٥)
وَلَيْسَ بَيْنَ هَلُوكٍ وَحُرَّةٍ غَيْرُ خِطْبَهْ(٦)
يَا قَاتِلاً كُلَّ ضَيْفٍ غَنَاهُ ضَيْحٌ وَعُلْبَهْ(٧)

---

(١) العجان : ما بين القبل والدبر . يقول : إنها عجوز كبيرة مهزولة تصيب بعجانها متاع من أتاها فتصكه .

(٢) هذا كناية عن الأير . يقول : لحبه ذلك يحب أن يكون مصلوباً فى ذلك الجذع .

(٣) يقول : إنه سمح القياد يلين لمن راوده وقد أملست ركبته لكثرة البروك عليها .

(٤) يريد بالفعول : الذين يفعلون بها ، فجعلها تجمعهم وتضمهم كما تضم الجعبة السهام .

(٥) يقول : إن الذين يأتونه كالأطباء له ، ومن كان به داء فعالجه بدوائه لم يعب به . يهون عليه ما يسبه به من الأمر القبيح استجهالا له .

(٦) الهلوك : البغى الفاجرة . يقول : إن الفاجرة كالحرة المخطوبة إلى أهلها لا فرق بينهما إلا الاستحلال بالخطبة .

(٧) غناه : هو غناؤه ، فقصره : أى يكفيه ضيح وعلبة ، والضيح : اللبن الممزوج بالماء ، والعلبة : قدح من جلد يشرب فيه اللبن . يقول : إنه لشحه ولؤمه إذا نزل به ضيف قتله ليتخلص من قراه ؛ ولو كان هذا الضيف صعلوكا : يكتفى بقليل من الضيح فى علبة . ويجوز أن يكون المعنى أنه لما طبع عليه من الغدر يقتل كل من ألم به ، ولو كان صعلوكا لا مال معه يطمع فيه

وَخَوْفُ كُلِّ رَفِيقٍ أَبَاتَكَ اللَّيْلُ جَنْبَهُ(١)
كَذَا خُلِقْتَ وَمَنْ ذَا الَّذِي يُغَالِبُ رَبَّهُ(٢)
وَمَنْ يُبَالِي بِذَمٍّ إِذَا تَعَوَّدَ كَسْبَهُ
أَمَا تَرَى الْخَيْلَ فِي النَّخْلِ سُرْبَةً بَعْدَ سُرْبَهْ(٣)
عَلَى نِسَائِكَ تَجْلُو فُعُولَهَا مُنْذُ سَنْبَهْ(٤)
وَهُنَّ حَوْلَكَ يَنْظُرْنَ وَالْأُحَيْرَاحُ رَطْبَهْ(٥)
وَكُلُّ غُرْمُولِ بَغْلٍ يَرَيْنَ يَحْسُدْنَ قُنْبَهْ(٦)
فَسَلْ فُؤَادَكَ يَا ضَبَّ أَيْنَ خَلَّفَ عُجْبَهْ(٧)
وَإِنْ يَخُنْكَ لَعَمْرِي لَطَالَمَا خَانَ صَحْبَهْ(٨)
وَكَيْفَ تَرْغَبُ فِيهِ وَقَدْ تَبَيَّنْتَ رُعْبَهْ(٩)

---

(١) وخوف : عطف على قاتلا — فى البيت السابق — أى ويا خوف كل رفيق الخ . يقول : هو من الغدر بحيث إذا باته رفيق فى السفر لا يأمن أن يغدر به إذا نام .

(٢) يقول : إن الله خلقه مجبولا على الغدر والسفال ، ومن ثم لا يزال على ما جبله الله عليه لا يستطيع الناس تهذيبه ، لأن الله جل شأنه لا يغالب

(٣) و (٤) السربة : الجماعة من الخيل ، وفعولها : كناية عن غرمولها . والسنبه : الحين والقطعة من الزمان .

(٥) الأحيراح : تصغير أحراح — جمع حر ، وأصله حرح — الفرج

(٦) القنب : وعاء القضيب من ذوات الحافر .

(٧) ضب : ترخيم ضبة . يقول : اسأل فؤادك ياضبة أين ترك ما كان فيه من العجب والكبر ؟ يعنى حين اختبأ وامتنع منهم بالحصن وهو يسمع الشتم فلا يخرج إليهم .

(٨) و (٩) يقول : إن خانك فؤادك — أى خذلك فى هذا الموقف فلم يطاوعك على الإقدام علينا خوفا ورعباً — فلست أول من خانه قلبه ، لأنه تعود خيانة أصحابه .

مَا كُنْتَ إلاَّ ذُبَابًا ... نَفَتْكَ عَنَّا مِذَبَّهْ(١)
وَكُنْتَ تَفْخَرُ تِيهًا ... فَصِرْتَ تَضْرِطُ رَهْبَهْ
وَإنْ بَعُدْنَا قَلِيلاً ... حَمَلْتَ رُمْحًا وَحَرْبَهْ(٢)
وَقُلْتَ لَيْتَ بِكَفِّي ... عِنَانَ جَرْدَاءَ شَطْبَهْ(٣)
إنْ أوْحَشَتْكَ المَعَالِي ... فَإنَّهَا دَارُ غُرْبَهْ(٤)
أوْ آنَسَتْكَ المَخَازِي ... فَإنَّهَا لَكَ نِسْبَهْ(٥)
وَإنْ عَرَفْتَ مُرَادِي ... تَكَشَّفَتْ عَنْكَ كُرْبَهْ(٦)
وَإنْ جَهِلْتَ مُرَادِي ... فَإنَّهُ بِكَ أشْبَهْ(٧)

---

(١) يقول : إنك حين اختبأت وتحصنت منا جبنا ما كنت إلا ذبابا طردناه بمذبتنا فهرب ، وروى «عنه» بدل عنا ، والضمير فى عنه وفى فيه : يرجع إلى العجب : يعنى كيف تريد العجب وقد علمت شؤمه وكنت كالذباب يقتل بالمذبة . وذهب ابن جنى إلى أن الضمير يعود إلى القلب فقال : يريد بقيت بلا قلب .

(٢) يقول : وإذا بعدنا عنك فأمنت ، عاودك العجب فحملت السلاح ، وهـــذا مثل قوله :

وإذا ما خلا الجبان بأرض ... طلب الطعن وحده والنزالا

(٣) العنان : سير اللجام ، والجرداء من الخيل : القصيرة الشعر ؛ والشطبة : الطويلة .

(٤) و (٥) يقول : إذا استوحشت من المعالى فلا بدع فى ذلك ، لأنك غريب عنها ، أما المخازى فإنك تستأنس بها لما بينك وبينها من النسب والقرابة .

(٦) يقول : إن مرادى أن أنبه إلى ما فيك من الغدر والشح ، فإن عرفت مرادى هذا : سررت بما قلت ، لأنه لا يقصدك إنسان بسؤال أو قرى بعد ما أشعت من خلالك وقال ابن جنى يقول : أنت مع ما أوضحته من هجائك غير عارف به لجهلك فإذا عرفت أنه هجاء زالت عنك كربة لمعرفتك إياه . . وهذا كلام من لم يعرف معنى البيت كما قال الواحدى .

(٧) فان الجهل بك أشبه لأنك لست ممن يفهم .

وقال يعزى أبا شجاع عضد الدولة بِعَمَّتِهِ وقد توفيت ببغداد :

آخِرُ مَا المَلْكُ مُعَزًّى بِهِ ... هٰذَا الَّذِى أَثَّرَ فِى قَلْبِهِ (١)

لَا جَزَعاً بَلْ أَنَفاً شَابَهُ ... أَنْ يَقْدِرَ الدَّهْرُ عَلَى غَصْبِهِ (٢)

لَوْ دَرَتِ الدُّنْيَا بِمَا عِنْدَهُ ... لَاسْتَحْيَتِ الأَيَّامُ مِنْ عَتْبِهِ (٣)

لَعَلَّهَا تَحْسَبُ أَنَّ الَّذِى ... لَيْسَ لَدَيْهِ لَيْسَ مِنْ حِزْبِهِ (٤)

وَأَنَّ مَنْ بَغْدَادُ دَارٌ لَهُ ... لَيْسَ مُقِيماً فِى ذَرَى عَضْبِهِ (٥)

وَأَنَّ جَدَّ المَرْءِ أَوْطَانُهُ ... مَنْ لَيْسَ مِنْهَا لَيْسَ مِنْ صُلْبِهِ (٦)

---

(١) هذا خبر معناه الدعاء . يقول : جعل الله هذا الحادث آخر ما يعزى به الملك فلا يصاب بشيء بعده . والملك تخفيف الملك . وهذا : مبتدأ مؤخر وآخر : خبر مقدم .

(٢) جزعا : مفعول له ، عامله أثر ، والأنف الحمية والاستنكاف ، وشابه خالطه . يقول : لم يؤثر هذا الحادث فى قلبه لأنه جزع له فإنه شجاع لا عهد له بالجزع ، ولكنه أخذته الحمية والأنفة حين رأى الدهر قد استطاع أن يتطرق حماه ويستبيح حرمه ويغتصبه من يعز عليه

(٣) يقول : لو كانت الدنيا تدرى ما يحوزه من الفضل لأخذها الحياء من عتبه عليها ولكفت عنه أذاها ، وقيل : إن المعنى لعل الأيام لم تعلم من غاب عن حضرته من أهله وأسرته ، ولو علمت لما عرضت لشيء من أسبابه . وقددل البيت التالى على ذلك.

(٤) يعتذر عن الأيام . يقول : لعل الدنيا ظنت أن عمته — وقد توفيت فى بغداد بعيدة عنه — لما لم تكن عنده لم تكن من أسرته فسطت عليها .

(٥) الذرى : الكنف ، والعضب : السيف القاطع . يقول : ولعل الدنيا ظنت أن عمتك لما كانت ببغداد ولم تكن بحضرتك لم تكن ممن يحميه سيفك فلذلك عرضت لها وأخذتها .

(٦) يقول : ولعلها ظنت أن جد الإنسان بلده ، فمن لم يكن من أهل بلده فليس من صلب جده : يعنى أن عمته لما كانت فى غير وطنه ظنت الأيام أنها ليست من عشيرته ومن ثم اجترأت عليها ولم ترع حقه . وروى : وأن حد المرء ـ بالحاء ـ فيكون المعنى أن حرمه وطنه ، فمن لم يكن مستوطنا معه لم يكن من عشيرته .

أَخَافُ أَنْ تَفْطُنَ أَعْدَاؤُهُ فَيُجْفِلُوا خَوْفًا إِلَى قُرْبِهِ (١)
لابُدَّ لِلإِنْسَانِ مِنْ ضَجْعَةٍ لاَ تَقْلِبُ المُضْجَعَ عَنْ جَنْبِهِ (٢)
يَنْسَى بِهَا ما كَانَ مِنْ عُجْبِهِ وَمَا أَذَاقَ المَوْتُ مِنْ كَرْبِهِ (٣)
نَحْنُ بَنُو المَوْتَى فَمَا بَالُنَا نَعَافُ مَا لابُدَّ مِنْ شُرْبِهِ (٤)
تَبْخَلُ أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنا عَلَى زَمانٍ هِيَ مِنْ كَسْبِهِ (٥)

---

(١) أجفل: أسرع فى الهرب، يقول: إنى أخاف ـ إذ قلت هذا ـ أن تفطن أعداؤه إلى أن الأيام لا ترزأ كل من كان فى حماه وقربه فيسرع إلى حضرته خوفا من الأيام وطلبا للسلامة بحصولهم فى ذمته واشتمالهم بعزه.

(٢) يقول: لا بد للانسان من اضطجاع فى القبر لا يتقلب معه المضطجع أى يبقى كذلك أبد الدهر، ولو قال لن ـ بدل لا ـ لكان أحسن؛ لأن لن تدل على التأبيد.

(٣) يقول: ينسى الإنسان بتلك الضجعة تيه وإعجابه بنفسه وما أذاقه الموت من البرح والكرب عند احتضاره: أى ينسى بتلك الضجعة كل ما لاقاه فى حياته وفى مماته.

(٤) يقول: نحن أبناء الموتى لأن آباءنا كلهم ماتوا فلابد لنا أن نرد الموت كما وردوه؛ فما بالنا نكره ما لابد منه؛ وهذا ينظر إلى قول أبى نواس:

ألا يا ابنَ الذين فنُوا وبادوا أما واللهِ ما بادوا لتبقَى

وأصله قول متمم بن نويرة:

فعَدَدْتُ آبائى إلى عِرقِ الثرى فدعوتهم فعلمتُ أن لم يسمعوا
ولقد عَلِمْتُ ولا محالة أننى للحادِثات فهل ترانى أجْزعُ؟

وروى أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عمرو بن عبيدة يعزيه عن أبيه: «أما بعد» فإنا أناس من أهل الآخرة، أسكنا فى الدنيا أمواتاً آباء أموات، وأبناء أموات فالعجب لميت يكتب إلى ميت يعزيه عن ميت والسلام.

(٥) يقول: إننا نحرص على أرواحنا ضنا بها على الزمان مع أنها مما كسب الزمان لا من كسبنا نحن، وقد فسر ذلك فى البيت التالى؛ قال العكبرى: وهذا من قول الحكيم: إذا كان تناشؤ الأرواح من كرور الأيام فما لنا نعاف رجوعها إلى أما كنها.

فَهٰذِهِ الْأَرْوَاحُ مِنْ جَوِّهِ ... وَهٰذِهِ الْأَجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ (١)
لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِى مُنْتَهَى ... حُسْنِ الَّذِى يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ (٢)
لَمْ يُرَ قَرْنُ الشَّمْسِ فِى شَرْقِهِ ... فَشَكَّتِ الْأَنْفُسُ فِى غَرْبِهِ (٣)
يَمُوتُ رَاعِى الضَّأْنِ فِى جَهْلِهِ ... مَوْتَةَ جَالِينُوسَ فِى طِبِّهِ (٤)
وَرُبَّمَا زَادَ عَلَى عُمْرِهِ ... وَزَادَ فِى الْأَمْنِ عَلَى سِرْبِهِ (٥)
وَغَايَةُ الْمُفْرِطِ فِى سِلْمِهِ ... كَغَايَةِ الْمُفْرِطِ فِى حَرْبِهِ (٦)

---

(١) يريد أن الإنسان مركب من جوهر لطيف ـ هو الروح ـ وجوهر كثيف ـ هو البدن ـ فجعل اللطيف من الهواء ، والكثيف من التراب . قال العكبرى : وهذا من قول الحكيم : اللطائف سماوية والكثائف أرضية ، وكل عنصر عائد إلى عنصره ، « هذا » ؛ وليس ثم مجال للكلام على الروح وذكر المذاهب الفلسفية فيه ، لأن هذا إنما هو تفسير لشعر المتنبي حسب .

(٢) يقول : لو فكر العاشق المستهام فيما تصير إليه محاسن معشوقه من البلى والفناء لأقلع عن عشقه ولم تملك تلك المحاسن قلبه . ولك أن تجعل هذا مطرداً فى كل معنى من معانى الحياة فتقول : لو فكر الحريص المتهالك على جمع المال فى منتهى ذلك وأن مصير هذا المال إلى الزوال أو أنه مائت عنه لا محالة : لما تهالك على جمعه ، وهلم . قال العكبرى: وهو من قول الحكيم : النظر فى عواقب الأشياء يزيد فى حقائقها ؛ والعشق عمى الحس عن درك رؤية المعشوق .

(٣) قرن الشمس : أول ما يبدو منها . وهذا مثل ، معناه . أن كل حادث لا بد أن ينتهى إلى الزوال : كالشمس من رآها طالعة لم يشك فى غروبها .

(٤) قوله: فى جهله وفى طبه ، حالان . يقول: إن الموت حتم على رقاب العباد لاينجو منه إنسان : أكان شريفاً أم وضيعاً ، عاقلا أم جاهلا . فيموت الراعى الجاهل كما يموت الطبيب الحاذق .

(٥) السرب : النفس . يقول : وربما زاد راعى الضأن عمراً على عمر جالينوس ، وكان آمن على نفسه منه ؛ لأن الطبيب لعلمه وتقديره لضروب الأدواء وارتباط الأسباب بالمسببات يبقى دائماً قلقاً خائفاً كثير الوسواس .

(٦) يقول : من بالغ فى السلم والمودة كمن بالغ فى الحرب والمعاداة والتحرش بالخطر

فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ ... فُؤَادُهُ يَخْفِقُ مِنْ رُعْبِهِ[١]
أَسْتَغْفِرُ اللهَ لِشَخْصٍ مَضَى ... كَانَ نَدَاهُ مُنْتَهَى ذَنْبِهِ[٢]
وَكَانَ مَنْ عَدَّدَ إِحْسَانَهُ ... كَأَنَّهُ أَفْرَطَ فِى سَبِّهِ[٣]
يُرِيدُ مِنْ حُبِّ الْعُلَى عَيْشَهُ ... وَلَا يُرِيدُ الْعَيْشَ مِنْ حُبِّهِ[٤]
يَحْسَبُهُ دَافِنُهُ وَحْدَهُ ... وَمَجْدُهُ فِى الْقَبْرِ مِنْ صَحْبِهِ[٥]
وَيُظْهَرُ التَّذْكِيرُ فِى ذِكْرِهِ ... وَيُسْتَرُ التَّأْنِيثُ فِى حُجْبِهِ[٦]

كلاهما إلى الموت . قال العكبرى . وهذا من قول الحكيم : آخر إفراط التوقى أول موارد الخوف ؛ ويقال أفرط : إذا أسرف وجاوز الحد ؛ وفرط بتشديد الراء : قصر . وفى الحديث « لا يرى الجاهل إلا مفرطا أو مفرطا » .

(١) يقول : لا أدرك حاجته من يرهب الموت ، يعنى إذا كان لا متدوحة عن الموت فلم يخافه الإنسان ؟ يحث على الشجاعة والإقدام ، ويدعو على الهيابة الجبان . والضمير فى رعبه : للفؤاد :

(٢) هذا ضرب من المدح الذى يشبه الذم ، يقول : أستغفر الله لشخص مضى كان جوده هو غاية ذنبه : أى لا ذنب له أستغفر الله له لأجله إلا جوده ؛ يعنى المرثية عمة عضد الدولة .

(٣) يقول : وكان يكره ذكر إحسانه تناسياً للمعروف ، فمن أحصى فواضله وأياديه كان عنده كمن أسرف فى سبه .

(٤) يقول : إنه كان يحب أن يعيش لكسب المعالى لا لحب العيش : فالضمير فى عيشه : للمرثى ، والتقدير : يريد عيشه من حب العلى ، ولا يريد العيش من حب العيش .

(٥) يقول : إن الذى يدفنه يظن أنه يدفنه وحده ، وهو قد دفن معه المجد والعفاف والبر وسائر فضائله التى هى أصحابه لا تفارقه .

(٦) يقول : إنها فى حجبها وخدرها أنثى على الحقيقة ، وليس ثم إلا الصون والعفاف وما إليهما مما هو شيمة المخدرات ، أما إذا ذكرت أفعالها ومساعيها — من طلب المعالى وإيثار المعروف وإغاثة الملهوف — فهناك التذكير حقاً ، لأن مثل هذه الأفعال إنما هى من شيم الرجال .

أُخْتُ أَبِي خَيْرِ أَمِيرٍ دَعَا ... فَقَالَ جَيْشٌ لِلْقَنَا لَبِّهِ (١)

يَا عَضُدَ الدَّوْلَةِ مَنْ رُكْنُهَا ... أَبُوهُ وَالْقَلْبُ أَبُو لُبِّهِ (٢)

وَمَنْ بَنُوهُ زَيْنُ آبَائِهِ ... كَأَنَّهَا النَّوْرُ عَلَى قُضْبِهِ (٣)

فَخْراً لِدَهْرٍ أَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ ... وَمُنْجِبٍ أَصْبَحْتَ مِنْ عَقْبِهِ (٤)

إِنَّ الْأَسَى الْقِرْنُ فَلَا تُحْيِهِ ... وَسَيْفُكَ الصَّبْرُ فَلَا تُنْبِهِ (٥)

---

(١) أخت : خبر مبتدأ محذوف : أى هى أخت ، ولبه : أجيبه ، يقول : هى أخت ركن الدولة الذى هو أبو عضد الدولة خير أمير دعا إلى نفسه ، فقال الجيش للرماح - أجيبه : أى يدعو الجيش فيجيبه بالسلاح . ويجوز أن يكون المعنى : أن عضد الدولة خير أمير دعاه جيش فقال للقنا: لب الجيش . يعنى أنه يجيب الصارخ ويغيث المستغيث .

(٢) يريد أن عضد الدولة أفضل من أبيه ركن الدولة وضرب لهما المثل بالقلب واللب — أى العقل — فجعل اللب مثلاله والقلب مثلا لأبيه ، والقلب ، وإن كان أبا اللب — أى مصدره — إلا أن اللب أشرف من القلب ، فكذلك عضد الدولة أفضل من أبيه ركن الدولة ، وإن كان ركن الدولة أباه : قال ابن جنى : لولا حذق المتنبى ماجرأ على هذا .

(٣) النور : الزهر ؛ والقضب : جمع قضيب . يقول : إن أبناء عضد الدولة زين لآبائه ، وليسوا بزين له هو ، لاستغنائه بمزية علائه عن أن يتزين بأبنائه : يعنى أن أبناءك يزينون آباءك كما يزين النور القضب .

(٤) فخراً : مفعول مطلق ، نائب عن عامله ، واللام فى قوله لدهر : لبيان الفاعلية ؛ كما فى قولهم: تباً لزيد ؛ والمنجب : الذى يلد النجباء : وعقب الرجل : أولاده . يقول : ليفتخر الدهر بكونك من أهله ، وليفخر أبوك الذى صار منجباً بكونك من عقبه .

(٥) الأسى هنا : الحزن ، وهو مقصور مفتوح ، والقرن : من قارنك وماثلك فى السن أو القوة والشجاعة ؛ ونبا السيف : إذا لم يقطع ويعمل فى الضريبة . يقول : إن الحزن — أى حزن عضد الدولة على عمته — بمنزلة القرن الغالب لك فلا تحيه بإعانته على نفسك : وأن الصبر الذى تغالب به الحزن بمنزلة السيف فلا تجعله نابيا كليلا . أى لا تضعه فيغلبك الحزن .

مَا كَانَ عِنْدِي أَنَّ بَدْرَ الدُّجَى يُوحِشُهُ الْمَفْقُودُ مِنْ شُهْبِهِ (١)
حاشاكَ أَنْ تَضْعُفَ عَنْ حَمْلِ ما
تَحَمَّلَ السَّائِرُ فى كُتْبِهِ (٢)
وَقَدْ حَمَلْتَ الثِّقْلَ مِنْ قَبْلِهِ فَأَغْنَتِ الشِّدَّةُ عَنْ سَحْبِهِ (٣)
يَدْخُلُ صَبْرُ المَرْءِ فى مَدْحِهِ وَيَدْخُلُ الإشْفاقُ فى ثَلْبِهِ (٤)
مِثْلُكَ يَثْنِي الْحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ وَيَسْتَرِدُّ الدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ (٥)
إِيمَا لِإِبْقَاءٍ عَلَى فَضْلِهِ إِيمَا لِتَسْلِيمٍ إِلَى رَبِّهِ (٦)

---

(١) جعله كالبدر ، وأهله وعشيرته كالنجوم حول البدر . يقول : ماكان ينبغى أن تغتم لفقد أحدهم لأن البدر يستغنى بنوره عن الكواكب .

(٢) أراد بالسائر : الذى حمل إليه الكتاب بوفاتها . يقول : حاشاك أن تضعف عن حمل ما أطاق حمله الرسول : أى إذا كان الرسول أطاق حمل ذكر وفاتها فأنت أشد إطاقة له ، قال الواحدى : وهذا فى الحقيقة ضرب من المغالطة ، وإنما أراد تسكينه فتوصل إلى ذلك من كل وجه :

(٣) يقول : إنك قد حملت الثقيل من الأمور قبل هذا الحادث فأغنتك قوتك عن جر ذلك الثقل — وذلك أن حامل الثقل إذا عجز عن حمله جره على الأرض ، كما قال عتاب بن ورقاء :

وَجرّه إذ كلّ عن حَمْله ونفسُه مِنْ حَتفهِ على شفا

والمعنى : أنك صبور على تحمل الشدائد فلا تجزع عن حمل هذا الرزء .

(٤) الإشفاق : الخوف والجزع ، والثلب ، الذم — ثلبه : ذمه وعابه ، يقول : إن الصبر مما يمدح به الإنسان والجزع مما يعاب به . يريد : أن يحسن الصبر لديه ليرغب فيه ، ويقبح الجزع ليجتنبه .

(٥) الصوب : القصد والناحية ؛ والغرب : مجرى الدمع . يقول : مثلك يقدر على صرف الحزن والتغلب عليه بالصبر إذا قصدك ؛ ومثلك يسترد الدمع عن مجراه إلى قراره .

(٦) إيما : لغة فى إما . يقول : يفعل ذلك إما إبقاءً على فضله لئلا يضيع فضله بالجزع ، وإما لتسليم الأمر إلى الله ، ورعا وتقوى .

وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِي بِهِ سِوَاكَ يَا فَرْداً بِلاَ مُشْبِهِ (١)

وقال فى صباه يهجو القاضى الذهبى :

لَمَّا نُسِبْتَ فَكُنْتَ ابْناً لِغَيْرِ أَبِ
ثُمَّ امْتُحِنْتَ فَلَمْ تَرْجِعْ إِلَى أَدَبِ

سُمِّيتَ بِالذَّهَبِيِّ الْيَوْمَ تَسْمِيَةً
مُشْتَقَّةً مِنْ ذَهَابِ الْعَقْلِ لا الذَّهَبِ (٢)

مُلَقَّبٌ بِكَ مَا لُقِّبْتَ وَيْكَ بِهِ
يَا أَيُّهَا اللَّقَبُ الْمُلْقَى عَلَى اللَّقَبِ (٣)

---

(١) يقول : لم أعن بقولى : مثلك يثنى الحزن عن صوبه — إنساناً آخر غيرك . لأنك الفرد الذى لا مثل له ، ولكن المثل قد يذكر فى الكلام صلة ويراد به عين ما أضيف إليه كقوله تعالى : « ليس كمثله شىء » — يريد إنما أردت نفسك لاغيرك .

(٢) هذا البيت جواب لما فى البيت الأول . يقول : لما لم يعرف لك أب ولم يكن لك أدب تعرف به : سميت اليوم بالذهبى : أى أن هذه النسبة مستحدثة لك ليست بموروثة واشتقاقها من ذهاب العقل ، لا من الذهب : أى إنما قيل لك الذهبى لذهاب عقلك .

(٣) ويك : هى ويلك ، حذفت اللام لكثرة الاستعمال . يقول : إن الذى لقبت به هو ملقب بك : أى أنت شين وعار للقبك ، فلقبك ملق على لقب — أى على عار وخزى — قال الواحدى : ومثل هذا الكلام لا يستحسن ولا يستحق التفسير ولا يساوى الشرح ، ولو طرح أبو الطيب شعر صباه من ديوانه كان أولى به ، وأكثر الناس لم يرو هذه القطعة ولا القطعة التى أولها :

لقد أصبح الجرذ المستغير أسير المنايا سريع العطب

وقال يهجو وردان بن ربيعة الطائى ، وقد كان أبو الطيب نزل به فى أرض حِسْمَى مُنْصرَفه من مصر ؛ فاستغوى وردانُ عبيد أبى الطيب ، فجعلوا يسرقون له من أمتعته ؛ فلما شعر أبو الطيب بذلك ضرب أحد عبيده بالسيف فأصاب وجهه وأمر الغلمان فأجهزوا عليه :

لَحَا ٱللهُ وَرْدَانًا وَأُمًّا أَتَتْ بِهِ
لَهُ كَسْبُ خِنْزِيرٍ وَخُرْطُومُ ثَعْلَبِ[١]
فَمَا كَانَ فِيهِ ٱلْغَدْرُ إِلَّا دَلَالَةً
عَلَى أَنَّهُ فِيهِ مِنَ ٱلْأُمِّ وَٱلْأَبِ[٢]
إِذَا كَسَبَ الإِنْسَانُ مِنْ هَنِ عِرْسِهِ
فَيَا لُؤْمَ إِنْسَانٍ وَيَا لُؤْمَ مَكْسَبِ[٣]
أَهٰذَا اللَّذَيَّا بِنْتُ وَرْدَانَ بِنْتُهُ
هُمَا الطَّالِبَانِ الرِّزْقَ مِنْ شَرِّ مَطْلَبِ[٤]

---

(١) الخنزير يأكل العذرة ، وكذلك بنات وردان ، وهى دويبة كريهة الريح . تألف الأماكن القذرة فى البيوت – ولاتفاق الاسمين جعله كالخنزير فى أكل العذرة ، ويريد بقوله : له خرطوم ثعلب ، أنه ناتىء الوجه . فوجهه كخرطوم الثعلب ، وهو أنفه وفمه ؛ ولحاه الله . قبحه ولعنه .

(٢) يقول : إن غدره بى دلالة على أنه ورث الغدر من أمه وأبيه : يعنى أنهما كانا غادرين ، والغدر موروث له . لا عن كلالة ؛ وأحسن من هذا ما رواه ابن جنى .

* على أنه فيه من الأم بالأب *

أى أن غدره بى دلالة على أن أمه غدرت فيه بأبيه ، فجاءت به لغير رشده .

(٣) الهن : الفرج – قرفه بأنه ديوث يقود إلى امرأته ويجعل ذلك كسباً له .

(٤) يقول – تجاهلا واستهزاء – : أهذا هو الذى تنسب إليه بنت وردان –

لَقَدْ كُنْتُ أَنْفِي الْغَدْرَ عَنْ تُوسِ طَيِّءٍ
فَلاَ تَعْذِلاَنِي رُبَّ صِدْقٍ مُكَذَّبِ (١)

* * *

هذه الحشرة الحقيرة القذرة ؟ — ثم قال : هو وهى يلتمسان الرزق من شر مطلب : هى تطلبه من الحشوش — أماكن العذرة — وهو يطلبه من هن عرسه . واللذيا : تصغير الذى

(٣) التوس والسوس : الأصل . يقول : لقد كنت أقول أن طيئاً لا تغدر وأن آباءهم ليسوا بغدارين ، فلا تلومانى إن قلت: إن هذا قد غدر لأنه ليس من الأصل الذى يدعى إليه من طيء . وقوله: رب صدق مكذب : يعنى أنه كان صادقا فى نفى الغدر عن طيء وإن كذبه الناس لأجل وردان بادعائه أنه من طيء . يريد أنه صادق ، وأن وردان ليس من طيء .

قافية التاء

وأنفذ إليه سيف الدولة قول الشاعر :

رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا
فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ [1]

---

(١) الخلة : الحاجة والفقر ، ويقال : فى الدعاء للميت : اللهم اسدد خلته : أى الثلمة التى ترك . وأصله من التخلل بين الشيئين . قال الأصمعى : يقال للرجل إذا مات له ميت اللهم اخلف على أهله ، واسدد خلته : يراد الفرجة التى ترك بعده من الخلل الذى أبقاه فى أموره ، وفى المثل . الخلة تدعو إلى السلة ، والسلة : السرقة . ورجل مخل ومختل وأخل وخليل : معدم فقير ؛ قال زهير :

وإنْ أتاهُ خَليلٌ يَومَ مسْغبَةٍ ... يقولُ لا غائِبٌ مالى ولا حَرِمُ

يعنى بالخليل المحتاج الفقير المختل الحال ، والحرم : الممنوع ، وقوله :من حيث يخفى مكانها يريد : من حيث لا يدركها لحاظ غيره ، وقد أدمج فى هذه الكلمة نزاهة نفسه وصيانة عرضه.وقوله : فكانت قذى عينيه : أبرع كلة فى معنى الاهتمام بالحاجة ، وتجلت انكشفت وزالت ، والقذى : ما يقع فى العين من غبار ونحوه ، والبيت لعبد الله ابن الزبير الأسدى وقبله :

سأشكرُ عمْراً ما تراخَتْ مَنيَّتى ... أيادِىَ لم تُمـنَنْ وَإنْ هى جلت

فتى غيرُ محجُوبِ الغنى عن صديقه ... ولا مُظهِرُ الشكوى إذا النَّعلُ زلَّتِ [1]

قيل أنه زار عمرو بن عثمان بن عفان يوما ، فنظر عمرو فرأى تحت ثيابه ثوباً رثاً ــ وهذا هو مغزى قوله : * رأى خلتى من حيث يخفى مكانها * فدعى وكيله وقال

---

(١) قوله سأشكر : فإن العرب تستعمل السين إذا أرادت تكرار الفعل وتأكيده ولا تريد التنفيس فيه ، ولم تمنن : لم يتبعها من ؛ وزلت نعله : يريد زلت قدمه فى مزالق الدهر فلا يجد مركباً بقيه مصرع السوء .

وسأله إجازته ، فقال أبو الطيب والرسول واقف ارتجالا :

لَنَا مَلِكٌ لا يَطْعَمُ النَّوْمَ هَمُّهُ   مَمَاتٌ لِحَيٍّ أَوْ حَيَاةٌ لِمَيِّتِ(١)
وَيَكْبُرُ أَنْ تَقْذَى بِشَيْءٍ جُفُونُهُ   إِذَا مَا رَأَتْهُ خَلَّةٌ بِكَ فَرَّتِ(٢)
جَزَى اللهُ عَنِّي سَيْفَ دَوْلَةِ هَاشِمٍ   فَإِنَّ نَدَاهُ الْغَمْرَ سَيْفِي وَدَوْلَتِي(٣)

وقال فى صباه عند وداعه بعض الأمراء :

أَنْصُرْ بِجُودِكَ أَلْفَاظاً تَرَكْتُ بِهَا
فى الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ مَنْ عَادَاكَ مَكْبُوتَا(٤)

اقترض لنا مالا ، فقال: هيهات ، مايعطينا التجار شيئاً . قال: فأربحهم ماشاءوا ، فاقترض له عشرة آلاف درهم . فوجه بها إليه مع تخت ثياب فقال هذه الأبيات :

(١) همه : مبتدأ ، ومماث : خبر ، ويطعم : يذوق . يقول : لنا ملك لا يذوق النوم ، إذ ليس بصاحب لهو ، وإنما همه الحرب والجود ؛ فيميت بقتاله الأعداء ، ويحيي بنواله الأولياء .

(٢) هذا كالرد على قوله : فكانت قذى عينيه . يقول : هو أكبر من أن تقذه جفونه — أى يتأذى بشىء — فمتى رأته خلة فرت وزالت ولا تمكث حتى يراها ويقذى بها : أى أن صاحب الخلة متى رأى هذا الملك — سيف الدولة — استغنى بتأميله قبل أن يرى خلته ، ومن ثم كان أكبر من أن يرى شيئا يتأذى به .

(٣) حذف مفعول جزى للتعميم : أى جزاه عنى كل خير ، ونداه : أى جوده ، والغمر : الكثير ، وماء غمر : كثير مغرق ، ويقال رجل غمر الرداء وغمر الخلق : أى واسع الخلق كثير المعروف سخى ، وإن كان رداؤه صغيراً قال كثير :

غَمْرُ الرداء إذا تبسم ضاحكا   غلقتْ لِضحكته رقاب المال

وكله على المثل :

(٤) مكبوتاً ذليلا. قال الجوهرى : الكبت : الصرف والإذلال . يقال : كبت الله العدو : أى صرفه وأذله ، وكبته : أى صرعه لوجهه . وفى القرآن الكريم « كبتوا كما كبت الذين من قبلهم » . وفيه أيضاً « أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » وقال الفراء : كبتوا أى غيظوا وأحزنوا يوم الخندق كما كبت من قاتل الأنبياء قبلهم . قال الأزهرى : وقال

فَقَدْ نَظَرْتُكَ حَتَّى حَانَ مُرْتَحَلِي وَذَا الوَدَاعُ فَكُنْ أَهْلاً لِمَا شِيتَا(١)

وقال مرتجلا يمدح بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدى :

فَدَتْكَ الْخَيْلُ وَهْيَ مُسَوَّمَاتُ وبِيضُ الهِنْدِ وَهْيَ مُجَرَّدَاتُ(٢)
وَصَفْتُكَ فى قَوَافٍ سَائِرَاتٍ وَقَدْ بَقِيَتْ وَإِنْ كَثُرَتْ صِفَاتُ(٣)
أَفَاعِيلُ الْوَرَى مِنْ قَبْلُ دُهْمٌ وَفِعْلُكَ فى فِعَالِهِمِ شِيَاتُ(٤)

من احتج للفراء : أصل الكبت : الكبد ، فقلبت الدال تاء — أخذاً من الكبد وهو معدن الغيظ والأحقاد — فكأن الغيظ لما بلغ بهم مبلغه أصاب أكبادهم فأحرقها. ولهذا قيل للأعداء : هم سود الأكباد . يقول : انصر بعطاياك قصائدى التى مدحتك بها والتى غاظت أعداءك فى الشرق والغرب حتى تركتهم أذلاء . ومن نصره إياها أن يصدقها فيما وصفه به من الجود ويعطيه حتى يزيده منها .

(١) نظرتك : أى انتظرتك ؛ والمرتحل : الارتحال . يقول : لقد انتظرت عطاءك حتى قرب ارتحالى عنك ، وهذا وقت وداعى إياك فاختر : إما أن تجود فتكون أهلا للمدح ، أو تمنع وتحرم فتكون أهلا للذم . وهذا كقول أحمد بن أبى فنن :

حانَ الرحيلُ فقدْ أوْلِيتنا حَسناً والآن أحْوَج ما كنا إلى زادِ

(٢) مسومات : معلمات بعلامات تعرف بها . يقول : فدتك الخيل والسيوف فى الحرب حتى تفنى هى وتبقى أنت ، إذ يبقى الخير لنا مابقيت .

(٣) فاعل كثرت : ضمير القوافى ، وفاعل بقيت : صفات . يقول : لقد وصفتك بقصائد كثيرة ، بيد أنه — مع كثرتها — بقيت صفات لك لم أحط بها .

(٤) أفاعيل : جمع أفعال ، جمع فعل ، والدهم : السود ، والشيات : جمع شية ، وهى لون يخالف بقيـة لون الجلد كالغرة والتحجيل . يقول : إن أفعال الناس من قبلكُ سود بالقياس إلى فعلك ، وفعلك متميز منها تميز الشية من اللون الأسود : أو هى — أفعالهم — تزين بفعلك تزين الأدهم بالغرة والتحجيل — كما يقول أبو تمام :

قَوْم إذا اسْوَدَّ الزمان توَضَّحُوا فيه وَغُودِرَ وَهْوَ منهم أبلقُ

وقال يمدح أبا أيوبَ أحمدَ بن عمران :

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا ... دَانِي الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا(١)

أَوْفَى فَكُنْتُ إِذَا رَمَيْتُ بِمُقْلَتِي ... بَشَراً رَأَيْتُ أَرَقَّ مِنْ عَبَرَاتِهَا(٢)

يَسْتَاقُ عِيسَهُمُ أَنِينِي خَلْفَهَا ... تَتَوَهَّمُ الزَّفَرَاتِ زَجْرَ حُدَاتِهَا(٣)

وَكَأَنَّهَا شَجَرٌ بَدَتْ لَكِنَّهَا ... شَجَرٌ جَنَيْتُ الْمَوْتَ مِنْ ثَمَرَاتِهَا(٤)

ومعنى البيت من قول أبي تمام أيضاً :

حتى لوأن الليالى صُوِّرَت لغدَت ... أفعاله الغرُّ فى آذانها شَـنَفا(١)

(١) السرب : القطيع من الظباء والقطا وما إليهما ، والمراد هنا : جماعة النساء ، وسرب : خبر مبتدأ محذوف : أى الذى أشتاقه أو أصفه مثلا ، وذواتها : صواحباتها . يقول : إن هذا السرب قد حرمت ربات محاسنه لما حيل بينى وبينهن ، وهو قريب الصفات لأن صفاته — أى محاسنه — لا تزال نصب عينى وعلى ذكر منى ، ولكن الموصوفات بهذه الصفات — أى أشخاص النساء — بعيدة عنى .

(٢) أوفى : أى السرب : أى أشرف ، والبشر : جمع بشرة . وهى ظاهر الجلد . يقول : إن هذا السرب أشرف على — لما سار — من مكان عال ، أو علا هوادجه للسير ، فكان بصرى إذا وقع علىّ بشرته رأى شيئا أرق وألطف من دموع المقلة ، ولك أن تجعل الضمير فى عبراتها : للبشر . ويراد بالعبرات : العرق الذى يسيل من البشرة ، ويكون المراد أنهن عرقن من الجهد والإعياء ، وروى الخوارزمى : نشزا ، وهو ما ارتفع من الأرض . يقول : إذا نظرت إلى النشز الذى أوفى عليه السرب رأيته لطول البعد كأنه سراب ؛ والسراب أرق من العبرات . ويكون الضمير للمقلة .

(٣) يستاق : يسوق . والعيس : الإبل ، والحداد الذين يسوقون الإبل . يقول : إن الإبل كانت تسمع أنينى خلفها فتسرع فى سيرها لأنها تظن زفراتى أصوات الحداة تزجرها لتسرع ، فسائقها ـ على الحقيقة ـ أنينى وزفراتى .

(٤) العرب تشبه الإبل عليها هوادجها بالنخل والشجر والسفن .

---

(١) الشنف كفلس — وحركه ضرورة — ما يعلق فى أعلى الأذن

لاَ سِرْتِ مِنْ إِبِلٍ لَوَ اَنِّى فَوْقَهَا ... لَمَحَتْ حَرَارَةُ مَدْمَعَىَّ سِمَاتِهَا(١)
وَحَمَلْتُ مَا حُمِّلْتِ مِنْ هَذِى الْمَهَا ... وَحَمَلْتِ مَا حُمِّلْتُ مِنْ حَسَرَاتِهَا(٢)
إِنِّى عَلَى شَــغَفِى بِمَا فِى خُمْرِهَا ... لَأَعِفُّ عَمَّا فِى سَرَاوِيلاَتِهَـــا(٣)

يقول : كأن هذه الإبل شجر ، يد أنى جنيت الموت من ثمراتها ، لأنها كانت سبب فراق أحبته ، وروى ابن جنى : بلوت المر من ثمراتها . وبلوت : اختبرت وذقت وهذا من قول أبى نواس :

لا أذودُ الطيرَ عن شَجرٍ ... قد بلوتُ المـرَ مِن ثمرِه

(١) لا سرت : دعاء ؛ ومن إبل . تمييز ؛ وقوله لمحت : من المحو ؛ واللام : جواب لو . والمدامع فى الأصل : مجرى الدمع من العين ، والمراد بها هنا : الدموع والسمات : جمع سمة ، وهى أثر الكى على الجلد . يدعو على الإبل أن لا تسير لأنها فرقت بينه وبين من يحب ، ثم قال : ولو كنت من ركاب هذه الإبل لكانت حرارة دمعى تمحو آثار وسمها ، وقوله : لو انى : حرك الواو الساكنة من لو بحركة الهمزة وحذفها وهو كثير مستعمل فى كلامهم

(٢) المها : بقر الوحش ، والمراد : النساء الشبيهات بالمها لحسن عيونهن . وهذا دعاء أيضاً . يدعو أن يكون حاملا ما حملته هذه الإبل من الحبائب ، وأن تحمل الإبل ما حمله هو من حسرات فراقهن .

(٣) الخمر : جمع خمار . وهو ما تغطى به المرأة رأسها ، والسراويلات : جمع سراويل ، فارسى معرب ، وهو ذلك اللباس الذى يستر النصف الأسفل من الجسم . وقال سيبويه : سراويل واحدة ، وهى أعجمية عربت ، فأشبهت من كلامهم مالاينصرف فى معرفة ولا نكرة ، فهى مصروفة فى النكرة ، وإن سميت بها رجلا لم تصرفها ، وكذلك إن حقرتها اسم رجل ، لأنها مؤنث على أكثر من ثلاثة أحرف مثل عناق؛ومن النحويين من لايصرفها فى النكرة . ويزعم أنها جمع سروال وسروالة ، وينشد :

عليه منَ اللؤمِ سِرْوَالَةٌ ... فليس يَرِقُّ لِمستَعْطِفِ(١)

---

(١) قيل: إن هذا البيت مصنوع وقيل قائله مجهول : قال السيرافى : سروالة : لغة فى السراويل . وقوله من اللؤم : كان فى الأصل صفة لسروالة . فلما قدم عليه صار حالا منه واللؤم : شح النفس ودناءة الآباء .

وَتَرَى الْفُتُوَّةَ وَالْمُرُوَّةَ وَالْأُبُوَّ ةَ فِي كُلِّ مَلِيحَةٍ ضَرَّاتِهَا[١]

ويحتج فى ترك صرفه بقول ابن مقبل يصف الثور الوحشى :

أَتَى دُونَهَا ذَبُّ الرِّيَادِ كأنه فتى فارسِىٌّ فى سراويلَ رَامِحُ[٢]

قال الصاحب ابن عباد : كان الشعراء يصفون المآزر تنزيها لألفاظها عما يستشنع ؛ حتى تخطى هذا الشاعر المطبوع ... إلى التصريح ... وكثير من العهر عندى أحسن من هذا العفاف . قال بعضهم : هذا مما عابه الصاحب على المتنبى ... ، وإنما قال المتنبى عما فى سرابيلاتها ؛ جمع سربال ، وهو القميص ، وكذا رواه الخوارزمى . يريد المتنبى : إنى مع حبى لو جههن أعف عن أبدانهن ، ومثله لنفطويه — أحد أئمة النحو وتلميذ ثعلب — :

أَهْوَى النساءَ وأهوَى أن أجالسَها وليس لى فى خَنا ما بيننا وطَــرُ

وما أروع قول العباس بن الأحنف :

لا يُضْمِرُ السوءَ إن طالَ الجلوسُ به عَفُّ الضميرِ ولـكنْ فاسقُ النظرِ

(١) كل مليحة : فاعل ترى ، والفتوة وما عطف عليها : مفعول أول لترى ؛ وضراتها : مفعول ثان . والفتوة : الكرم والسخاء ، والمروة والمروءة الإنسانية ، والأبوة هنا الأنفة وعزة النفس والأبوة أيضاً : الآباء — مثل العمومة والخؤولة — وكان الأصمعى يروى قول أبى ذؤيب :

لو كان مِدحة حىّ أنشرت أحداً أحيى أبوّتك الشم الأماديح

وغيره يرويه .

* أحيَا أبا كن يا ليلَى الأماديحُ *

يقول : إن هذه المعانى تحول بينه وبين الخلوة بالحسان فكأنها ضرائر لهن ، وقد زاد ذلك تبياناً فى البيت التالى .

(٢) الضمير فى دونها : لأتاه ، ودون : بمعنى قدام ؛ وذب الرياد : الثور الوحشى : قال القالى : يقال فلان ذب إذا كان لا يستقر فى موضع ؛ ومنه قيل للثور الوحشى : ذب الرياد . شبه الشاعر ما على قوائم الثور الوحشى من الشعر بالسراويل — وهو من لباس الفرس — ولذا شبهه بفتى فارسى ! وشبه قرنه بالرمح ، ولذا قال رامح .

هُنَّ الثَّلَاثُ الْمَانِعَاتِي لَذَّتِي ... فِي خَلْوَتِي لَا الْخَوْفُ مِنْ تَبِعَاتِهَا(١)
وَمَطَالِبٍ فِيهَا الْهَلَاكُ أَتَيْتُهَا ... ثَبْتَ الْجَنَانِ كَأَنَّنِي لَمْ آتِهَا(٢)
وَمَقَانِبٍ بِمَقَانِبٍ غَادَرْتُهَا ... أَقْوَاتَ وَحْشٍ كُنَّ مِنْ أَقْوَاتِهَا(٣)
أَقْبَلْتُهَا غُرَرَ الْجِيَادِ كَأَنَّمَا ... أَيْدِي بَنِي عِمْرَانَ فِي جَبَهَاتِهَا(٤)
أَلثَّابِتِينَ فُرُوسَةً كَجُلُودِهَا ... فِي ظَهْرِهَا وَالطَّعْنُ فِي لَبَّاتِهَا(٥)

---

(١) يقول : إن الفتوة وما بعدها هي التي تكفه عن لذاته في خلوته لاخوفه من عواقب هذه اللذة : يعني أنه لو لم يكن للذة عواقب آثمة يخشاها لاجتنبها بما طبع عليه من الفتوة والمروءة والأنفة . قال العكبري : وهذا من قول الحكيم : النفوس المتجوهرة تترك الشهوات البهيمية طبعا لا خوفا أقول : ولله شيخ المعرة إذ يقول : — وإن كان أعمى —

ولتفعلِ النفسُ الجميلَ لأنه ... خيرٌ وأفضلُ لا لِأجل ثوابها

(٢) الواو : واو رب ، والجنان القلب . يقول : رب مطالب فيها الهلاك أتيتها وقلبي هو هو على حاله لم يتغير كأنني لم آتها ولم أر أهوالها . يصف نفسه بالشجاعة ورباطة الجأش وأنه لا يبالي الأخطار .

(٣) المقانب : جمع مقنب — الطائفة من الخيل تجتمع للغارة ، وغادرتها : تركتها ، وأقوات : مفعول ثان لغادرتها . يقول : ورب جيش من الفرسان لقيته بمثله من صحبي فتركته قوتا للوحوش التي كانت قوتا له ، يصيدها ويذبحها ويأكلها ، وجمع الوحش على عادة العرب في أكلهم مادب ودرج .

(٤) أقبلتها : أي المقانب التي أهلكها : يقال أقبلته الشيء : أي وجهته إليه وجعلته قبالته مما يليه ، والغرر : جمع غرة ، وهي البياض يكون في وجه الفرس ، والأيدي هنا النعم . شبه بياض غرر خيله بنعم الممدوحين ، ويد النعمة توصف بالبياض مجازاً . وقد جرت العادة في جمع يد النعمة بالأيادي وفي يد العضو بالأيدي ، ولكن المتنبي وضع هذه مكان تلك في موضعين : أحدهما هذا البيت . . . وقال ابن القطاع — في قوله أقبلتها غرر الجياد : جعلتها تقبل غرر جيادها التي أوصلتهم إلى أعدائهم وشفت صدورهم منهم كأنها أيدي بني عمران المعتادة التقبيل ، ويقال أقبلت الرجل يد فلان : أي جعلته يقبلها . وفي البيت من البديع حسن التخلص كما ترى .

(٥) يصفهم بالإقدام والشجاعة والحذق بركوب الخيل ، يقول : إنهم يثبتون في ظهور الخيل ثبات جلودها عليها حال كونهم في معمعة الحرب والطعن متتابع في لباتها ،

الْعَـارِفِينَ بِهَا كَمَا عَرَفَتْهُمُ وَالرَّاكِبِينَ جُدُودُهُمْ أُمَّاتِهَا(١)
فَكَأَنَّمَا نُتِجَتْ قِيَاماً تَحْتَهُمُ وَكَأَنَّهُمْ وُلِدُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا(٢)

وفروسة أى — أى حذقا — تميز ، والثابتين : فى موضع خفض على النعت أو البدل من بنى عمران ، ويجوز أن يكون فى موضع نصب على المدح ؛ ومن روى والطعن — بالرفع — فالواو واو الحال ، ومن رواه بالخفض فمعناه يثبتون فى ظهورها ثبوت الطعن ؛ والتقدير: كجلودها وكالطعن : واللبات جمع لبة ، وهى المنحر .

(١) كان الوجه أن يقول والراكب جدودهم أماتها : أى والذين ركب جدودهم أماتها ، إلا أن هذا على لغة من يقول : قاموا إخوتك وذهبا أخواك ، والأمات : جمع أم لما لا يعقل ، وتجمع للعاقل أمهات ، هذا هو الغالب ، ويجوز العكس . قال الواحدى : والذى يذكره الناس فى معنى البيت أن هذه الخيل تعرفهم وهم يعرفونها ، لأنها من نتائجهم تناسلت عندهم ، فجدود الممدوحين كانوا يركبون أمهات هذه الخيل ؛ وسياق الأبيات قبله يدل على أنه يصف خيل نفسه لاخيل الممدوحين بنى عمران — وهو قوله : أقبلتها غرر الجياد — وإذا كان كذلك لم يستقم هذا المعنى ، إلا أن يدعى مدع أنه قاتل على خيل الممدوحين فإنهم يقودون الخيل إلى الشعراء . قال ابن فورجه : والذى عندى أنه يصف معرفتهم بالخيل ولا يعرفها إلا من طال مراسه لها ، والخيل تعرفهم أيضاً لأنهم فرسان . هذا كلامه . ولم يوضح ماوقع به الإشكال ، وإنما يزول الإشكال بأن يقال الجياد اسم جنس فى قوله : غرر الجياد أراد جياد نفسه ، وفيما بعده أراد جياد الممدوحين . والجياد تعم الخيلين جميعاً . وقوله : والراكبين جدودهم أماتها : يريد أن جدودهم كانوا من ركاب الخيل ، يعنى أنهم عريقون فى الفروسية طالما ركبوا الخيل ، فهذه الخيل مما ركب جدودهم أمهاتها . ويشبه هذا قول شيخ المعرة :

يا ابن الألى غير زجر الخيل ماعرفوا إذْ تعرفُ العُرْبُ زجر الشاء والعَكَر

« العكر : جمع عكرة : القطعة من الإبل : أى أنهم ملوك ما اعتادوا إلا ركوب الخيل وزجرها ولم يكونوا رعاة شاء وإبل » .

(١) نتجت — بالبناء للمجهول — ولدت ، قال الأزهرى: يقال نتجت الناقة إذا ولدت فهى منتوجة ؛ وأنتجت إذا حملت ، فهى نتوج ، ولا يقال منتج ، ونتجت الناقة : إذا ولدتها ؛ والناتج للابل كالقابلة للنساء ، وعبارة الجوهرى فى الصحاح : نتجت الناقة على

إنَّ الكِرَامَ بِلاَ كِرَامٍ مِنهُمُ مِثْلُ القُلُوبِ بِلاَ سُوَيْدَاوَاتِهَا(١)
تِلْكَ النُّفُوسُ الغَالِبَاتُ عَلَى العُلَى وَالمَجْدُ يَغْلِبُهَا عَلَى شَهَوَاتِهَا(٢)
سُقِيَتْ مَنَابِتُهَا الَّتِي سَقَتِ الوَرَى بِيَدَىْ أَبِي أَيُّوبَ خَيْرِ نَبَاتِهَا(٣)

مالم يسم فاعله تنتج ، وقد نتجها أهلها : نتجا . قال الكميت :

وقال المُذَمِّرُ لِلنَّاتِجِين مَتَى ذُمِّرَتْ قَبْلِيَ الأَرْجُلُ(١)

والنتوج من الخيل وجميع الحافر الحامل ، وقد أنتجت . وبعضهم يقول : نتجت ، وهو قليل ؛ أما ابن الأعرابى فقد قال نتجت الفرس والناقة : ولدت وأنتجت : دنا ولادها ، كلاهما فعل مالم يسم فاعله — ولم أسمع نتجت ولا أنتجت على صيغة فعل الفاعل . . والصهوة : مقعد الفارس . يقول : كأن الخيل ولدت تحتهم قائمة مستعدة للجرى ؛ وكأنهم ولدوا راكبين على ظهورها يصفهم بطول إلفهم للفروسية وطول مراسهم ركوب الخيل .

(١) السويداوات جمع سويداء — حبة القلب — يقول . إن الكرام من الخيل إذا لم يكن عليها فرسان من هؤلاء الممدوحين كالقلب دون سوداء . وقال بعض الشراح : يعنى أنهم زبدة الكرم ولبابه . فهم من الكرام بمنزلة السويداء من القلب .

(٢) يقول : إنهم يغلبون الناس على العلى فيحرزونها دونهم ، والمجد يغلبهم على شهواتهم ؛ فلا يمكنهم من الشهوات المركبة فى بنى آدم خشية العيب والشين .

(٣) أراد بمنابت هذه النفوس : آباء الممدوحين ، وجعل أبا أيوب أكرم نبات تلك المنابت : يعنى أن نفسه أشرف هذه النفوس . ولما جعلهم منابت أثبت لهم السقيا التى تحيي الأرض ، وجعل النبات يسقى المنابت على عكس العادة تفننا وإغرابا فى الصنعة . يقول : إن آباء الممدوحين الذين أحيوا الناس بجودهم قد حيي مجدهم بجود هذا الممدوح الذىهو خير أبنائهم . ويروى بدل يدى : بندى — بالنون — وعبارة ابن جنى : لا أزال الله ظله عن أهله وذويه . قال ابن فورجه : ليس الغرض أن يدعو لقومه بدوام إفضاله عليهم ، ولكن الغرض تعظيم شأنه وعطائه .

---

(١) المذمر : الذى يدخل يده فى حياء الناقةلينظر أذكر جنينها أم أنثى ؟ سمى بذلك لأنه تلمس المذمر فيعرف ما هو . والمذمر : هو الكاهل والعنق وما حوله إلى الذفرى . وهو الذى يذمره المذمر . يقول الكميت : إن التذمير إنما هوفىالأعناق لافى الأرجل .

لَيْسَ التَّعَجُّبُ مِنْ مَوَاهِبِ مالِهِ بَلْ مِنْ سَلامَتِها إلى أوْقاتِها(١)

عَجَباً لَهُ حَفِظَ العِنانَ بِأنْمُلٍ ما حِفْظُها الأشْياءَ مِنْ عاداتِها(٢)

لَوْ مَرَّ يَرْكُضُ في سُطُورِ كِتابَةٍ أحْصَى بِحافِرِ مُهْرِهِ مِيماتِها(٣)

يَضَعُ السِّنانَ بِحَيْثُ شاءَ مُجاوِلاً حَتَّى مِنَ الآذانِ في أخْراتِها(٤)

تَكْبُو وَرَاءَكَ يا ابْنَ أحْمَدَ قُرَّحٌ لَيْسَتْ قَوائِمُهُنَّ مِنْ آلاتِها(٥)

---

(١) يقول: لسنا نتعجب من كثرة عطاياه ومواهبه، وإنما نتعجب كيف سلمت أمواله من بذله وتفريقه إلى وقت بذلها؟ إذ ليس من عادته أن يمسك شيئاً.

(٢) العنان. سير اللجام، وروى: حفظ العنان: بإضافة حفظ إلى العنان، والبيت في معنى البيت السابق: يتعجب منه كيف حفظ العنان بأنمل ماعادتها أن تحفظ الاشياء؟ يريد أنه شجاع يكثر ركوب الخيل في الحرب، وأنه جواد معطاء.

(٣) يصفه بالفروسية، وأن فرسه يطاوعه في جميع حركاته، فلا يضع حافره إلا حيث أراد؛ وخص الميم لأنها أشبه بالحافر من سائر حروف المعجم.

(٤) مجاولا: من الجولان، وروى محاولا: من المحاولة. وهي الطلب والأخرات: جمع خرت، وهو الثقب. يقول: إنه من الحذق في الطعن بحيث يضع رمحه في ثقب الأذن متى أراد.

(٥) القرح: جمع القارح من الخيل، وهو ما أتى عليه خمس سنين، وهو إذ ذاك يكون في جن نشاطه وقوته. والضمير في آلاتها: يعود إلى القرح: أي أن قوائمها لا تصلح أن تكون آلات لها في لحاقك، وهذا مثل. يقول: إنك سبقت الناس في المكارم، فإذا أراد فحولهم وكبارهم اللحاق بك كبت وسقطت وراءك ولم تستطع اللحاق بك لصعوبة مسالكك. ولك أن ترجع الضمير - من آلاتها - إلى وراء، وهي مؤنثة أي ليست قوائمهن من آلات الجرى وراءك. وإليك عبارات الشراح، قال ابن جنى: لو تبعتك هذه القرح لكبت وراءك ولم تحملها قوائمها لصعوبة مسالكك. وقال الواحدى: يجوز أن تكون الهاء عائدة إلى القرح: أى أنها إذا تبعتك لم تغنها قوائمها فليست من آلاتها، وهذا مثل، يريد أن الكبار والفحول إذا راموا لحاقك في مدى الكرم: عثروا وكبوا ولم يلحقوك، والمعنى أن سبيلك في العلى يخفى على من تبعك فيعثر وإن

رِعَدُ الْفَوَارِسِ مِنْكَ فى أَبْدَانِهَا   أَجْرَى مِنَ الْعَسَلاَنِ فى قَنَوَاتِهَا(١)
لاَ خَلْقَ أَسْمَحُ مِنْكَ إلاَّ عَارِفٌ   بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا(٢)

كان قويا كالقارح من الخيل . وقال ابن القطاع : المعنى ليست قوائم هذه الخيل من الآلات وراءك : أى ليست مما يكون خلفك فتطردك .

(١) الرعد : جمع رعدة ، والعسلان : الاهتزاز والاضطراب ؛ والقنوات ــ جمع قناة ــ الرمح . يقول : إن الارتعاد فى أبدان الفرسان من جراء خوفك أظهر وأسرع جريا من الاهتزاز فى رماحهم .

(٢) راء : مقلوب رأى ، كما قالوا : ناء ونأى . يقول ليس أحد أسمح منك إلا من كان عارفا بك وبما طبعك الله عليه من الكرم والجود ثم رآك ولم يسألك أن تهبه نفسك ، إذ لو سألك إياها لجدت بها ، فكان تركها لك جودا عليك بها ، وهذا من قول أبى تمام :

ولو لم يكن فى كفه غير نفسه   لجاد بها فليتق الله سائله

وإليك تحفة نحوية للعلامة العكبرى أوردها لمناسبة قول المتنبى : لا خلق : قال العكبرى : ذهب البصريون إلى النكرة التى مع لا مبنية على الفتح كقولك لا رجل فى الدار ، وتقديره : لامن رجل ، فلما حذفت «من» من اللفظ وركبت مع لا : تضمنت معنى الحرف ، فوجب أن يبنى ، وبنيت على حركة لأن لها حالة تمكن قبل البناء ، وبنيت على الفتح لأنه أخف الحركات . وذهب أصحابنا إلى أنها نكرة معربة منصوبة بلا ، وحجتنا أنه اكتفى بها عن الفعل ، لأن التقدير فى قولك : لارجل فى الدار ، أى لاأجد رجلا ، فاكتفوا بلا : من الفعل العامل ، كقولك : إن قمت قمت وإلا فلا ؛ تقديره وإن لم تقم فلا أقوم ؛ فلما اكتفوا بلا من الفعل العامل : نصبوا النكرة به ، وحذفوا التنوين بناء على الإضافة ، ووجه آخر : أن «لا» تكون بمعنى غير : كقولك زيد لاعاقل ولاجاهل : أى غير عاقل وغير جاهل ، فلما جاءت هنا بمعنى ليس نصبوا بها ليخرجوها من معنى «غير» إلى معنى «ليس» ووجه آخر : إنما أعملوها النصب لأنهم لما أولوها بالنكرة ــ ومن شأن النكرة أن يكون خبرها قبلها ، نصبوا بها من غير تنوين لما حدث فيها من التغيير . كما رفعوا المنادى بغير تنوين لما حدث فيه من التغيير . . ويقال : هات يا رجل ، بكسر التاء أى

غَلِتَ الَّذِى حَسَبَ الْعُشُورَ بِآيَةٍ تَرْتِيلُكَ السُّورَاتِ مِنْ آيَاتِها(١)

كَرَمٌ تَبَيَّنَ فِى كَلاَمِكَ مَاثِلاً وَيَبِينُ عِتْقُ الْخَيْلِ فِى أَصْوَاتِها(٢)

أَعْيَا زَوَالُكَ عَنْ مَحَلٍّ نِلْتَهُ لاَ تَخْرُجُ الأَقْمَارُ عَنْ هالاَتِها(٣)

أعطى ، وللاثنين هاتيا : مثل آتيا ، وللجمع هاتوا ، وللمرأة هاتى بالياء وللمرأتين هاتيا وللنساء هاتين مثل عاطين . وتقول هات لا هاتيت وهات ، إن كانت بك مهاتاة ، وما أهاتيك . كما تقول ما أعاطيك ، ولا يقال منه هاتيت ولا ينهى بها . وقال الخليل : أصل هات من آتى يؤاتى . فقلبت الألف هاء .

(١) غلت : هو غلط ، يقال فى الحساب خاصة . والعشور : جمع عشر ـ بفتح العين ـ الطائفة المعروفة من القرآن الكريم تقرأ مرة واحدة . والترتيل ؛ التبيين فى القراءة وبآية : متعلق بغلت ؛ وترتيلك : مبتدأ ؛ ومن آياتها : خبره ؛ والجملة استئنافية . يقول إن الذى عد أعشار القرآن قد غلط وفاتته آية لم يعدها ، وهى ترتيلك للسور ، فإن هذا الترتيل معجزة فى الإتقان وحسن الأداء : فهو آية من الآيات ينبغى أن تلحق بآيات التنزيل فيزيد آية إلى آياته ، ومعجزة إلى معجزاته .

(٢) ماثلا : ظاهرا : والعتق : الكرم ؛ وعتقت الفرس تعتق وعتقت عتقا : سبقت الخيل فنجت ، وفرس عاتق : سابق ، ورجل معتاق الوسيقة إذا طرد طريدة سبق بها وأنجاها ، وفرس معتاق الوسيقة . قال الأصمعى : وهو الذى إذا طرد عليه طريدة أنجاها وسبق بها . قال أبو المثلم يرثى صخرا :

حامِى الحقيقة نَسَّالِ الوديقَة معـتاقُ الوسيقة لانِكْسُ ولا وانى

« الوسيقة : القطيع من الإبل يطردها الطارد » يقول : من سمع كلامك عرف منه كرمك وطيب عنصرك ، كما أن الفرس الكريم إذا صهل عرف عتقه بصهيله . وإنما يعرف كرمه من كلامه ؛ لأن كلامه يدور على أمر بالعطاء ووعد بالإحسان وما إلى ذلك مما يدل على طيب أعراقه ومحاسن أخلاقه .

(٣) أعيا الشىء : أعجز طالبه . والهالة ، الدائرة حول القمر . يقول : لقد بلغت مكانا عليا من المجد والشرف ، فأنت فيه كالقمر فى علو المنزلة وهولك كالهالة . فلست تزايله ،

لاَ تَعْذُلُ المَرَضَ الَّذِى بِكَ شَائِقٌ
أنْتَ الرِّجالَ وَشَائِقٌ عِلاَّتِها(١)

فإذَا نَوَتْ سَفَراً إلَيْكَ سَبَقْنَها فَأَضَفْتَ قَبْلَ مُضَافِها حالاَتِها(٢)

وَمَنَازِلُ الحُمَّى الجُسُومُ فَقُلْ لَنا ما عُذْرُهَا فى تَرْكِها خَيْرَاتِها(٣)

أعْجَبْتَها شَرَفاً فَطالَ وُقُوفُها لِتَأَمُّلِ الأعْضَاءِ لاَ لِأذَاتِها(٤)

كما أن القمر لا يزايل هالته . قال الشراح : وجمع القمر — وإن كان فى المعنى واحداً — باعتبار ظهوره فى كل شهر ، فحسن الجمع .

(١) شاقه : حمله على الشوق،وشائق : خبر مقدم ، وأنت : مبتدأ مؤخر ، والرجال مفعول شائق ، والتقدير : أنت شائق الرجال وعلاتها . يقول : لاتلوم المرض الذى ألم بك ، لأنك أنت تشوق الرجال وتشوق علاتها : يعنى أن المرض الذى بك لا يلام على إلمامه بك . فإنك شوقت الرجال إلى زيارتك وشوقت علاتها أيضاً ، فهى تزورك مثلهم وتنتقل إليك عنهم شوقا إليك . قال العكبرى : وقد كان الممدوح مريضاً حين مدحه المتنبى بهذه القصيدة .

(٢) المضاف : مصدر بمعنى الإضافة : يقول : إذا نوت الرجال السفر إليك سبقتها علاتها فجاءت قبلها شوقا فأضفت حالات الرجال — أى علاتها المذكورة — قبل أن تضيفهم، لأنها وصلت إليك قبلهم . ويروى بدل سبقنها — بالنون — سبقتها — بالتاء — يعنى إذا أراد الرجال سفراً إليك : سبقتها بإضافة أحوالها قبل إضافتك إياها : يريد إقامة العذر للمرض الذى نزل به . وقال ابن القطاع : معناه إذا نوت الرجال سفراً إليك أعددت لها أموراً، فكأنك ضيفت أحوالها قبل نزولها بك .

(٣) خيراتها . جمع خيرة مؤنث خير أى أفضل ، والضمير للجسوم . يقول : إن الحمى إنما تنزل على الأجسام ، فإذا تركت جسمك — الذى هو أفضل الأجسام — وألمت بغيره فما عذرها فى ذلك ؟ «هذا» ويقال حمى وحمة . قال الضباب بن سبيع

لعَمْرى لقد بَرَّ الضَّبابَ بَنُوهُ و بعض البنين حُمَّـة وسُعالُ

(٤) يقول : لقد أعجبت الحمى بما رأت فيك من خصال الكرم والشرف فأطالت إقامتها بك لتتأمل أعضاءك المشتملة على تلك الخصال ، لا لتؤذيك . والأذاة : مصدر

وَبَذَلْتَ مَا عَشِقَتْهُ نَفْسُكَ كُلَّهُ حَتَّى بَذَلْتَ لِهٰذِهِ صِحَّاتِهَا(١)
حَقُّ الكَوَاكِبِ أَنْ تَزُورَكَ مِنْ عَلٍ
وَتَعُودَكَ الآسَادُ مِنْ غَابَاتِهَا(٢)
وَالجِنُّ مِنْ سُتُرَاتِهَا وَالوَحْشُ مِنْ فَلَوَاتِهَا وَالطَّيْرُ مِنْ وُكُنَاتِهَا(٣)
ذُكِرَ الأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً
كُنْتَ البَدِيعَ الفَرْدَ مِنْ أَبْيَاتِهَا(٤)
فِى النَّاسِ أَمْثِلَةٌ تَدُورُ حَيَاتُهَا كَمَمَاتِهَا وَمَمَاتُهَا كَحَيَاتِهَا(٥)

أذى ، فتكون من إضافة المصدر إلى فاعله : أى لتتأمل الأعضاء لا لتتأذى بها الأعضاء .

(١) لهذه : أى للحمى ، والضمير فى صحاتها للنفس . يقول : إنك بذلت كل ماأحبته نفسك ، حتى بذلت لهذه الحمى صحتك . يريد أنه جواد يجود بكل شىء يحبه .

(٢) من عل : من فوق . يقول : حق الكواكب أن تزورك عائدة لك لأنها شريكتك فى العلو ، وكذلك الآساد لأنها تشبهك فى الشجاعة .

(٣) والجن : عطف على الآساد . يقول : إن جميع هذه الأجناس تتألم لعلتك ، لعموم نفعك ، فلو قدرت على عيادتك لجاءت إليك عائدة . والسترات : جمع سترة ، والوكنات : جمع وكنة ، عش الطائر . زاد الجوهرى فى جبل أو جدار : والوكر مثله ، وقال الأصمعى : الوكنة والوكن : مأوى الطائر فى عش ، والوكر ــ بالراء ــ ماكان فى غير عش . وقال أبو عمرو ابن العلاء : الوكنة والأكنة ــ بالضم ــ مواقع الطير حيثما وقعت على حائط أو عود أو شجر ؛ وتوكن : تمكن ، ووكن الطائر : دخل فى الوكن ووكن بيضه : حضنه .

(٤) يقول : قد استأثرت ــ دون سائر الناس ــ بالمناقب والمحامد . فكنت منهم بمنزلة البيت البديع المبتكر الفرد من القصيدة .

(٥) أمثلة : جمع مثال ــ أى صور ، وتدور صفة لأمثلة . وحياتها : مبتدأ . وكمماتها: خبره . يقول : إنهم أشباه الناس وليسوا بناس فى الحقيقة تدور بين الوجود والعدم ، وحياتها كمماتها : فى أنه لاغناء فيها ولا نفع ، ومماتها كحياتها : فى عدم المبالاة به .

هِبْتُ النِّكَاحَ حِذَارَ نَسْلٍ مِثْلِهَا
حَتَّى وَفَرْتُ عَلَى النِّسَاءِ بَنَاتِهَا[١]

فَالْيَوْمَ صِرْتُ إِلَى الَّذِى لَوْ أَنَّهُ
مَلَكَ الْبَرِيَّةَ لَاسْتَقَلَّ هِبَاتِهَا[٢]

مُسْتَرْخَصٌ نَظَرٌ إِلَيْهِ بِمَا بِهِ
نَظَرَتْ وَعَثْرَةُ رِجْلِهِ بِدِيَاتِهَا[٣]

---

(١) يقول : خفت ـ إن تزوجت ـ أن يكون لى نسل مثل هذه الأمثلة ، فتركت البنات موفورة على الأمهات ، لم أتزوج واحدة منهن .

(٢) يقول : لو كانت الخليقة ملكا له ثم وهبها لا ستقل ذلك بالقياس إلى كرمه . ومن روى وهب البرية : كان المعنى أنه لوعم البرايا بالهبات لا ستقلها . والبرية : الخلق تقول : براه الله يبروه بروا أى خلقه . ويجمع على البرايا والبريات : من البرى . وهو التراب . هذا . إذا لم يهمز ، ومن ذهب إلى أن أصله الهمز : أخذه من برأ الله الخلق يبرؤهم : أى خلقهم ، ثم ترك فيها الهمز تخفيفاً . قال ابن الأثير : ولم تستعمل مهموزة.

(٣) نظر : مبتدأ مؤخر ؛ ومسترخص ، خبره مقدم ولك أن تجعل مسترخص خبر مبتدأ محذوف ، ونظر فاعل مسترخص وعثرة رجله : روى بدلها عثير رجله : أى غبار رجله . والديات : جمع دية ثمن دم القتيل . يقول : لو اشترت البرية نظرها إليه بأعينها التى بها لكان رخيصاً ولو فدت عثرة رجله بمثل أثمان دياتها لكان ذلك رخيصاً أيضا : أى أن دية عثرته أكثر من ديات الخلائق .

قافيــة الجيم

وقال يمدح سيف الدولة ، وقد صف الجيش فى منزل يعرَف بالسنبُوس وركب قاصداً سمندو :

لِهذَا الْيَوْمِ بَعْدَ غَدٍ أرِيجٌ   وَنَارٌ فى الْعَدُوِّ لهَا أجيجُ[1]
تبيتُ بِهَا الْحَوَاصِنُ آمِنَاتٍ   وَتَسْلَمُ فى مَسَالِكِهَا الْحَجِيجُ[2]

---

(١) الأريج : الرائحة الطيبة ؛ والأجيج اشتعال النار وتلهبها : أجت النار تؤج وتئج أجيجا . وكذلك ائتجت : على افتعلت ، وتأججت ؛ وقد أججها تأجيجاً ، وأجج بينهم الشر أوقده ؛ والأجوج : المضىء . قاله ابن العلاء ، وأنشد لأبي ذؤيب يصف برقا:

يُضِىءُ سَنَاهُ رَاتِقاً مُتَكَشِّفاً   أغَرَّ كمِصباحِ اليهود أجُوجُ[1]

يقول : سيكون لهذا اليوم — الذى سرت فيه للحرب — أنباء طيبة تسر الأولياء، ونار حرب يضطرم لهيبها على الأعداء ، وعبارة ابن جنى : يأتى خبر طيب يسر المسلمين ويسوء المشركين .

(٢) الحواصن : العفيفات ؛ وتروى الحواضن ـ أى النساء المربيات لأطفالهن — وتروى : الحواضر — أى نساء أهل الحضر — يقول : إن نار هذه الحرب تأمن بها النساء من السبى ، ويسلم الحجاج فى مسالكهم فلا يتعرض لهم الروم إذ تنتصر عليهم ، فالضمير فى مسالكها : للحجيج ؛ والحجيج : الحجاج : جمع حاج ، ومثله غاز وغزى وناج ونجى ، وناد وندى — للقوم يتناجون ويجتمعون فى مجلس — وللعادين على أقدامهم عدى ، والضمير فى بها : للنار ومن روى به : فالضمير للأجيج .

---

(١) يصف سحاباً متتابعا ؛ والهاء فى سناه : تعود على السحاب ، وذلك أن البرقة إذا برقت انكشف السحاب ؛ وراتقا : حال من الهاء فى سناه ، ورواه الأصمعى راتق متكشف ، فجعل الراتق : البرق .

فَلاَ زَالَتْ عُدَاتُكَ حَيْثُ كَانَتْ   فَرَائِسَ أَيُّهَا الأَسَدُ المَهِيجُ[(١)]
عَرَفْتُكَ وَالصُّفُوفُ مُعَبَّآتٌ   وَأَنْتَ بِغَيْرِ سَيْفِكَ لاَ تَعِيجُ[(٢)]
وَوَجْهُ البَحْرِ يُعْرَفُ مِنْ بَعِيدٍ
إِذَا يَسْجُو فَكَيْفَ إِذَا يَمُوجُ[(٣)]

---

(١) المهيج : الذى هاجه غيره ؛ وفرائس : خبر زالت . لما ذكر الأسد استعار له الفريسة فقال : لا زالت عداتك أيها الأسد فرائس لك فى حيثما كانت .

(٢) لا تعيج : لا تبالى . وكان أبو الطيب مع سيف الدولة فى بلاد الروم . فلما صف الجيش كان أبو الطيب متقدماً ، فالتفت فرأى سيف الدولة خارجاً من الصفوف يدير رمحا ، فعرفه وجاء إليه وسايره وأنشده . يقول : عرفتك والصفوف معبأة من حولك وأنت لا تبالى إلا بسيفك . يشير إلى أنه لا يحتفل بجنده وبتعبئته ، وأنه شجاع لا يعبأ إلا بسيفه ، هذا . ويقال عبأت الجيش عبأ وعبأتهم تعبئة ، وقد يترك الهمزفيقال عبيتهم تعبية : أى رتبتهم فى مواضعهم وهيأتهم للحرب ؛ وقد قلنا:لا تعيج بمعنى لا تبالى . قال صاحب اللسان : العيج شبه الاكتراث ، وأنشد :

وما رأيتُ بها شيئاً أعيجُ بهِ   إلا الثُّمامَ وإلا مَوقدَ النـار

قال ابن سيده : ما عاج بقوله عيجا وعيجوجة : لم يكترث له أو لم يصدقه ؛ وما عاج بالدواء عيجاً : أى ما انتفع ، وما أعيج من كلامه بشىء : أى ما أعبأ به ؛ وبنو أسد يقولون ما أعوج بكلامه: أى ما ألتفت إليه ؛ أخذوه من عجت الناقة. ويقال : ماعجت بخبر فلان، ولا أعيج به : أى لم أشتفِ به ولم أستيقنه . قال ابن العلاء : العياج الرجوع إلى ما كنت عليه .

(٣) يسجو : يسكن تموجه ، قال تعالى « والليل إذا سجا » أى سكن بالناس ،ومنه البحر الساجى ، قال الأعشى :

فما ذنبنا إنْ جاش بحر ابن عمكمْ   وَبحرُكَ ساجٍ لا يوارى الدعامصا[(١)]

وليلة ساجية : إذا كانت ساكنة البرد والريح والسحاب غير مظلمة .

---

(١) الدعامص والدعاميص : جمع دعموص : دويبة صغيرة تغوص فى الماء ، وكثيراً ما تكون فى المستنقعات .

بأرْضٍ تَهْلِكُ الأَشْوَاطُ فِيهَا
إذَا مُلِئَتْ مِنَ الرَّكْضِ الفُرُوجُ (١)

تُحَاوِلُ نَفْسَ مَلْكِ الرُّومِ فِيهَا
فَتَفْدِيهِ رَعِيَّتُهُ العُلُوجُ (٢)

أَبِالْغَمَرَاتِ تُوعِدُنَا النَّصَارَى وَنَحْنُ نُجُومُهَا وَهِيَ الْبُرُوجُ (٣)

وَفِينَا السَّيْفُ حَمْلَتُهُ صَدُوقٌ إذَا لَاقَى وَغَارَتُهُ لَجُوجُ (٤)

نُعَوِّذُهُ مِنَ الأَعْيَانِ بَأْساً وَيَكْثُرُ بِالدُّعَاءِ لَهُ الضَّجِيجُ (٥)

قال الحارثى :

يا حبذا القمراء والليلُ الساجْ وطُرُقٌ مثلُ مُلاء النساجْ

وامرأة ساجية : فاترة الطرف. وهو معنى حسن فى النساء ؛ وناقة سجواء : ساكنة عند الحلب ؛ وسجى الميت غطاه ، والتسجى : المتغطى ، من الليل الساجى ، لأنه يغطى بظلامه وسكونه . يقول : إن البحر يعرف وهو ساكن فكيف إذاماج وتحرك؟ وضرب هذا مثلا له لما رآه يدير رمحه بيده ؛ فشبهه بالبحر المائج .

(١) الشوط : الطلق من العدو ، قال فى اللسان : الشوط الجرى مرة إلى غاية ؛ والجمع أشواط . وقد عدا شوطاً : أى طلقاً ؛ والفروج : مابين قوائم الفرس . يقول : عرفتك بأرض واسعة يتلاشى فيها السير ، وإن كانت تملأ ما بين القوائم عدواً لطولها

(٢) تحاول : تطلب ، والضمير للخطاب، والضمير من فيها للأرض؛ والعلج: الجافى الغليظ من كفار العجم . يقول : تريد أن تأخذ نفس ملك الروم فى هذه الأرض فتفديه أصحاب العلوج إذ تفنيهم وتستأصلهم .

(٣) الغمرات : الشدائد . يقول : أتهددنا النصارى بالحرب ونحن أبناؤها لانفارقها كما لا تفارق النجوم منازلها .

(٤) لج فى الأمر لجاً ولجاجاً ولجاجة : تمادى عليه وأبى أن ينصرف عنه . يقول : وفينا سيف الدولة الذى إذا حمل على الأعداء صدق فى حملته ، ماجبن وما خام عن اللقاء وإذا أغار عليهم لجت غارته ودامت ، فلا ينثنى حتى يستأصلهم ويعصف بهم .

(٥) الأعيان : العيون ، جمع عين ، قال يزيد بن عبد المدان :

رَضِيناَ وَالدُّمُسْتُقُ غَيْرُ رَاضٍ
بِماَ حَكَمَ القَوَاضِبُ وَالْوَشِيجُ (١)

فَإِنْ يُقْدِمْ فَقَدْ زُرْنَا سَمَنْدُو
وَإِنْ يُحْجِمْ فَمَوْعِدُهُ الخَلِيجُ (٢)

ولكننى أغدو علىّ مُفاضَة دِلاصٌ كأغيان الجراد المنظم (١)

وبأسا : أى شدة وشجاعة ، وهو مفعول له ـ أى لبأسه ـ كما تقول نعوذه بالله حسنا : أى لحسنه . وقال ابن جنى : بأسا أى خوفا ـ من قولهم لا بأس عليك ـ وهو أصح فى التركيب ، إلا أن الأول أليق بالمعنى : يقول : نعوذ الممدوح بالله من أن تصيبه العيون لدى رؤية بأسه ، لأنا لا نخاف عليه غير ذلك .

(١) الدمستق : قائد جيش الروم ؛ والقواضب : السيوف القواطع والوشيج : عيدان الرماح ، ووشجت العروق والأغصان . اشتبكت ؛ والواشجة الرحم المشتبكة ، وقد وشجت به قرابة فلان ، والاسم الوشيج . يقول : رضينا بما حكمت به السيوف والرماح فى الحرب ، ولكن الدمستق لم يرض بذلك ، لأنها حكمت لنا بالفوز والظفر فرضينا ، وحكمت عليه بالهزيمة والفشل فلم يرض . هذا : والأوجه أن يكون الدمستق مبتدأ ، خبره : غير راض ، والجملة حال ، وبما حكم : متعلق برضينا .

(٢) سمندو : قلعة بالروم يقال هى المعروفة اليوم ببلغراد ؛ والخليج : خليج القسطنطينية . يقول : فإن أقدم على قتالنا فقد قصدنا بلاده ، وإن هرب وخام عن لقائنا لحقناه إلى الخليج .

(١) مفاضة دلاص : يريد درعا .

قافيـــة الحاء

وقال يعتذر إليه وقد تأخر مدحه عنه فظن أنه عاتب عليه :

أَدْنَى ابْتِسَامٍ مِنْكَ تَحْيَا الْقَـرَائِحُ
وَتَقْوَى مِنَ الْجِسْمِ الضَّعِيفِ الْجَوَارِحُ (١)
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْضِي حُقُـوقَكَ كُلَّهَا
وَمَنْ ذَا الَّذِي يُرْضِي سِوَى مَنْ تُسَامِحُ (٢)
وَقَدْ تَقْبَـلُ الْعُـذْرَ الْخَفِيَّ تَكَرُّماً
فَمَا بَالُ عُـذْرِي وَاقِفاً وَهْوَ وَاضِحُ (٣)

---

(١) القرائح : الطبائع ـ يقال فلان جيد الطبيعة : إذا كان ذكى الطبع ؛ وجيد القريحة : إذا كان له نظر وفهم ومعرفة ؛ وقيل القريحة : خالص الغريزة ـ من قولهم ماء قراح : أى خالص ـ وقريحة البئر : أول مايخرج من مائها ؛ ورجل قرحان : إذا لم يصبه جدرى ولا طاعون يراد خالص الجسد . والجوارح : الأعضاء ـ اليدان والرجلان والعينان والفم والأذن ـ وسميت كذلك لأن أصل الجرح الاكتساب ، والاكتساب يقع بهذه الجوارح من خير وشر . قال تعالى « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » أى كسبتم . وقال « أم حسب الذين اجترحوا السيئات » أى اكتسبوها . يقول : إذا ابتسمت إلى إنسان انشرح صدره وحي طبعه وقويت جوارحه وإن كان ضعيف الجسم ، لأنه يفرح والفرح يقوى القلب والجسم . يشير بذلك إلى عذره فى تأخر مدحه لأنه كان معتلا .

(٢) يقول : إن حقوقك أكثر من أن يقدر أحد على القيام بقضائها ، ومن ذا الذى يرضيك بقضاء حقوقك غير الذى تسامحه وتتساهل معه ؟

(٣) تكرما : مفعول لأجله ، وواقفا : حال من عذرى . يقول : إنك لكرمك تقبل العذر الخفى . فما بال عذرى واقفا لا يلتفت إليه وهو واضح ؟

وَإِنَّ مُحَالاً - إِذْ بِكَ الْعَيْشُ - أَنْ أُرَى
وَجِسْمُكَ مُعْتَلٌّ وَجِسْمِيَ صَالِحُ (١)

وَمَا كَانَ تَرْكِي الشِّعْرَ إِلاَّ لأَنَّهُ
تُقَصِّرُ عَنْ وَصْفِ الأَمِيرِ الْمَدَائِحُ

وقال فى صباه وقد بُلِّغَ عن قوم كلاماً :

أَنَا عَيْنُ الْمُسَوَّدِ الْجَحْجَاحِ هَيَّجَتْنِي كِلاَبُكُمْ بِالنُّبَاحِ (٢)
أَيَكُونُ الْهِجَانُ غَيْرَ هِجَانٍ أَمْ يَكُونُ الصُّرَاحُ غَيْرَ صُرَاحِ (٣)

---

(١) يقول : إذا كان عيشنا بك فمن المحال أن تعتل ولا أشاركك فى علتك . وهذا من قول أبى تمام :

وإن يجد عِلةً نَعُمُّ بها حتى ترانا نُعاد فى مَرَضِه

قال العكبرى : قوله إن محالا : جعل اسم إن نكرة للضرورة لأنها تدخل على المبتدأ والخبر ، ولا يجوز أن يكون المبتدأ نكرة إلا فى مواضع ليست هذه منها .

(٢) المسود : الذى جعله قومه سيدا . والسيد : الكريم . ولا توصف به المرأة ؛ وجمع الجحجاح : جحاجح ، قال الشاعر :

ماذا ببدر فالعقنقل مِنْ مَرَازبة جَحاجِح

وإن شئت جحاجيح ، وإن شئت جحاجحة ، والهاء عوض من الياء المحذوفة لابد منها أو من الياء ، ولا يجتمعان . ويظهر أن الجمع فى الحقيقة : جحاجيح ،لا الجحاجح، وإنما حذفت الياء من البيت — ماذا ببدر الخ — ضرورة قاله ابن برى . يقول : أنانفس الجحجاح — السيد الكريم — أثارتنى وأغضبتنى سفهاؤكم بسفهها . ولما سماهم كلاباً سمى كلامهم نباحا . ويروى — بدل هيجتنى — هجنتنى : أى نسبتنى إلى الهجنة . يدل على ذلك البيت التالى .

(٣) الهجان : الرجل الكريم الحسب النقيه ، وامرأة هجان : كريمة من نسوة هجائن وهى الكريمة الحسب التى لم تعرق فيها الإماء تعريقا . وقول على كرم الله وجهه :

هذا جناىَ وَهِجانه فيه إذ كل جانٍ يدُه إلى فيه

معناه: خياره وخالصه ، وأنشد أبو الهيثم :

جَهِلُونِي وَإِنْ عَمِرْتُ قَلِيلاً نَسَبَتْنِي لَهُمْ رُءُوسُ الرِّمَاحِ[(1)]

وقال يمدح مساور بن محمد الرومى :

جَلَلاً كَمَا بِي فَلْيَكُ التَّبْرِيحُ أَغِذَاءُ ذَا الرَّشَإِ الأَغَنِّ الشِّيحُ[(2)]

وإذا قيل مَن هِجانُ قرَيش كنتَ أنتَ الفتى وأنتَ الهِجَان

وكل ذلك مأخوذ من الإبل ؛ والهجان من الإبل : البيض الكرام . قال عمرو ابن كلثوم فى معلقته :

ذِرَاعى عَيطَلٍ أدْماءَ بِكرٍ هِجانِ اللونِ لم تقرأ جَنِينـا

« يصف امرأة يقول : تريك ذراعين ممتلئتين لحما كذراعى ناقة طويلة العنق لم تلد بعد ، بيضاء اللون ، فقوله : لم تقرأ جنينا : أى لم تضم فى رحمها ولدا » .

قال أهل اللغة : يستوى فيه المذكر والمؤنث والجمع ؛ يقال : بعير هجان وناقة هجان ، وربما قالوا : هجائن . قال ابن أحمر :

كأن عَلَى الجِمالِ أوانَ خَفت هَجائنَ مِنْ نِعاجِ أوارَعِينا

والصراح : الخالص النسب . يقول : إن الكريم الخالص النسب لا يصير غير كريم وغير خالص النسب : يعنى أن هجو الهاجى لا يؤثر فيه : لأنه ذكر فى البيت الأول شكواه من السفهاء واللئام ، وذكر فى هذا البيت أن سفههم لا يقدح فى نسبه ولا يغيره .

(١) يقول : إن أولئك العائبين قد جهلوا قدرى ونسبى وأصلى ، فإن عشت قليلا عرفتهم الرماح نسبى ، إذ يرون غنائى وحسن بلائى . يتوعدهم ويهددهم بالقتل . وعبارة الواحدى : يحتمل أنه أراد إذا طاعنتهم ورأوا حسن بلائى استدلوا بذلك على كرم نسبى.

(٢) الجلل : الأمر العظيم ؛ وجللا: خبر «فليك» مقدم . والتبريح : الجهد والشدة ، والرشأ : ولد الظبية ، والأغن : الذى فى صوته غنة ، وهو من أوصاف الظباء. والشيح نبات طيب الرائحة . يقول : ليكن تبريح الهوى عظيما مثل ماحل بى وإلا فلا ! ثم قال: أتظنون غذاء من فعل بى هذا الفعل الشيح شأن مثله من ظباء الصحراء ؟ إنما غذاؤه قلوب العشاق ينحلهم ويهزلهم فيورثهم هذا التبريح كما قال بعضهم :

يَرعَى القُلوبَ وتَرتَعِي الـــغِزْلانُ فى البيداء شيحه

. . . .

هذا : ــ وإليك ما أورده سائر الشراح زيادة على ماأوردناه . قال العكبرى : يريد أن من كان فى شدة فليك كما أنا ــ تعظما لما هو فيه من الشدة ــ وتم الكلام ههنا ، ثم استأنف قولا آخر متعجبا من حسن الشبه أى كأنه ظبى فى حسنه ، ووقع الشك لوقوع الاشتباه كقول قيس :

فعيناكِ عيناها وجيدكِ جيدُها ولكنَّ عَظم الساقِ منكِ دَقيقُ

وقوله أغذاء : هو استفهام معناه الإنكار ، يريد أن الرشأ الذى يهواه إنس لاوحش فيغذى بالشيح ، وقال ابن جنى : المصراعان متباينان ، فلذلك أفرد كل واحد بمعنى ، وقال أصحاب المعانى : قد يفعل الشاعر مثل هذا فى التشبيب خاصة ليدل به على ولهه وشغله عن تقويم خطابه ؛ كقول جران العود :

يَوْمَ ارتحلتُ برَحْلِي دُونَ برذَعَتِي والقلبُ مُسْتَوْهِلٌ بالبَين مشغول

ثم اغْتَرَزْتُ على نِضوى لأبعثه إثرَ الحمُولِ الغوادِي وَهْوَ معقول[1]

---

(١) جاء فى اللسان والقاموس وشرحه : جران العود شاعر من نمير قال الجوهرى : واسمه المستورد ، وقد غلطه الصاغانى . وقال : إنما اسمه عامر بن الحارث ــ وهو شاعر إسلامى ــ ولقب بذلك لقوله .

عَمَدْتُ لِعَودٍ فالتحيتُ جِرَانَه ولَلْكيسُ أمْضَى فى الأمور وأنجح

خُذا حَــذراً ياخُلَّتىَّ فإننى رَأيْتُ جِرانَ العَودِ قد كادَ يصلح

يخاطب امرأتيه . وأراد بجران العود ــ والعود البعير المسن ــ سوطاً قده من جلد عنق عود نحره ، وهو أصلب مايكون ، ليضرب به امرأتيه ، وكانتا قد نشزتا عليه . والجران . باطن العنق الذى يضعه البعير على الأرض إذا مد عنقه لينام ، والتحيت أخذت ؛ والكيس ، حسن التأنى فى الأمور ، وياخلتى يروى ياجارتى ؛ وقوله فإنى الخ : يقول : فإنى رأيت السوط قد قارب صلاحه للضرب ، وقوله يوم ارتحلت الخ فالبرذعة الحلس الذى يلقى تحت الرحل ، ويكنى عن الزوجة بالبرذعة ، ومستوهل . فازع ، واغترزت . وضعت رجلى فى الغرز ، وهو الركاب . والنضو . البعير الذى أنضاه السفر ، والحمول . الإبل ، ومعقول : أى لم يحلل عقاله دهشاً .

. . . .

يريد أنه لشغل قلبه لم يدر كيف يرحل ، ولم يدر أن بعيره معقول ؛ وفى كلامه ما يدل على ولهه مما ذكر من حاله ، وعلى هذا يحمل قول زهير :

* قف بالديار التى لم يَعْفُها القِدَم *

ثم قال :

* بلى وغيّرها الأرواحُ والديَمُ *

وقال القاضى الجرجانى : بين المصراعين اتصال لطيف ، وهو أنه لما أخبر عن عظم تبريحه بين أن الذى أورثه ذلك هو الرشأ الذى شكله على شكل الغزلان فى غذائه . وإليك بعد هذا تحفة نحوية للعلامة العكبرى قال : قوله : فليك : حذف النون لسكونها وسكون التاء فى التبريح ، ولم يكن حذفها كحذفها من قوله تعالى « ولم تك شيئاً » وقوله :

* لم يَكُ شىء يا إلهى قبلكا *

لأنها قد ضارعت بالمخرج والسكون والغنة حروف المد فحذفت كما تحذفن وهى هنا فى قول المتنبى قوية بالحركة ، لأن سبيلها أن تحرك ، فكان ينبغى أن لا يحذفها ، لكنه لم يعتد بالحركة فى النون لما كانت غير لازمة ضرورة ؛ ومثله :

لم يكُ الحق سوى أن هاجَهُ   رَسم دار قد تعفى بالسرَرْ[(1)]

وقد حذفت النون من لكن فى الشعر ضرورة ، أنشد سيبويه .

فلستُ بآتيه ولا أستطيعُه   ولاكِ اسْقِنى إن كان ماؤك ذا فضل[(2)]

---

(١) جاء فى لسان العرب أنه للحسن بن عرفطة ، جاهلى ، والسرر لعله يريد الموضع الذى هو على أربعة أميال من مكة قال أبو ذؤيب :

بآيةِ ما وقفتْ والركابُ   وبين الحَجُون وبين السرَرْ

(٢) للنجاشى الشاعر وقبله :

وماء قديم العهدِ بالوِرْدِ آجِنٍ   يُخال رُضابا أو سلافا من العُسل

لقيتُ عليه الذئب يعوى كأنه   ضَليعٌ خلا من كل مالٍ ومن أهلِ

لَعِبَتْ بِمِشْيَتِهِ الشَّمُولُ وَغَادَرَتْ
صَنَماً مِنَ الأَصْنَامِ لَوْلَا الرُّوحُ[١]

مَا بَالُهُ لَاحَظْتُهُ فَتَضَرَّجَتْ وَجَنَاتُهُ وَفُؤَادِيَ المَجْرُوحُ[٢]

وإذا جاز حذف النون من لكن — وقد حذف منها نون أخرى — جاز أن تحذف من قوله: فليك التبرع. وفيه قبح من وجه آخر: وهو أنه حذف النون مع الإدغام وهو غريب جدا، لأن من قال في بنى الحرث بلحارث لم يقل في بنى النجار بنجار . . . والأغن الذى فى صوته غنة، وهو صوت من الخيشوم، والأغن: الذى يتكلم من قبل خياشيمه، وواد أغن: كثير العشب لأنه إذا كان كذلك ألفه الذباب، وفى أصواته غنة؛ ومنه قيل للقرية الكثيرة الأهل والعشب: غناء، وأما قولهم: واد مغن: فهو الذى صار فيه صوت الذباب ولا يكون الذباب إلا فى واد مخصب معشب؛ وأغن السقاء: إذا امتلأ ماء.

(١) الشمول: الخمر. يقول: إن الخمر رنحته فتمايل فى مشيته وزادت فى حسنه حتى تركته كأنه صنم لولا أنه ذو روح. وفى هذا البيت نظر إلى قول ديك الجن:

ظَلِلْنَا بِأَيْدِينَا نُتَعْتِعُ رُوحَهَا فَتَأْخُذُ مِنْ أَقْدَامِنَا الخَمْرُ ثَارَهَا

وقد جرت عادتهم بأن يشبهوا الحسان بالدمى والأصنام ناظرين إلى أن مصوريها أبدعوا فى تجميلها وافتنوا فى تزويقها حتى أصاروها كأنها الجمال ماثلا. ويروى بدل — وغادرت — وجردت: أى صيرته بحيث يجرد منه صنم لحسنه. هذا: وإنما سميت الخمر شمولا؛ قيل لأنها تشمل بريحها الناس؛ وقيل شبهت بالشمال من الريح لأنها تعصف باللب كما تعصف الشمال.

(٢) يقول: إن فؤادى هو المجروح بنظرى إليه، فما بال وجناته قد احمرت وظهر الدم فيها وفؤادي هو الأجدر بذلك؟ وفى هذا المعنى يقول كشاجم:

فقلت له يا ذئب هل لك فى أخ يُواسى بلا منٍّ عليك ولا بُخل
فقال هداك الله للرشد إنما دعوتَ لما لم يأته سبع قبلى
فلست بآتيه . . . . . . (البيت)

والعسل: جمع عسل كأعسال. والضليع: القوى الشديد؛ والمعوج، والمضروب فى ضلعه، والظاهر أن هذا هو المراد.

وَرَمَى وَمَا رَمَتَا يَدَاهُ فَصَابَنِي ... سَهْمٌ يُعَذِّبُ وَالسِّهَامُ تُرِيحُ[(١)]

قَرُبَ المَزَارُ وَلاَ مَزَارَ وَإِنَّمَا ... يَغْدُو الجَنَانُ فَنَلْتَقِي وَيَرُوحُ[(٢)]

وَفَشَتْ سَرَائِرُنَا إِلَيْكَ وَشَفَّنَا ... تَعْرِيضُنَا فَبَدَا لَكَ التَّصْرِيحُ[(٣)]

أَرَاهُ يُدَمِّي خَدَّهُ وَهْوَ جَارِحِي ... بِعَيْنَيْهِ وَالمَجْرُوحُ أَوْلَى بِأَنْ يَدْمَى

وقوله تضرجت : أى تلطخت بالدم . يريد احمرت خجلا ، وأصله من انضرج : إذا انشق ، كأنه قد انشق جلده فظهر الدم ؛ وفى الضرج بمعنى الشق يقول ذو الرمة يصف نساء :

* ضَرَجْنَ البُرُودَ عَنْ تَرَائِبَ حُرَّةٍ *

أى شققن . وتضرج الثوب : انشق ، وتقول : تكاد تضرج من الملء : أى تنشق ؛ ومنه انضرجت له الطريق : أى اتسعت ؛ وانضرج مابين القوم : تباعدمابينهم ، وتضرجت عن البقل لفائفه : إذا انفتحت .

(١) كان الوجه أن يقول : ومارمت يداه ولكنه على لغة من يقول قاما أخواك ، وصابه : لغة فى أصابه ؛ يقول : رمانى بلحظه فأصابنى منه سهم ليس كالسهام المعروفة تقتل فتريح ، وإنما يعذب من أصابه .

(٢) المزار الأول : مكان الزيارة ، والثانى : مصدر بمعنى الزيارة . والجنان : القلب . يقول : إن دارك أيها الحبيب قريبة منى ، ولكن لاسبيل إلى الزيارة خشية الرقباء ، وإنما نلاقى بالقلوب ، فيغدو قلبى إليك ويروح أى أتذكرك فامثلك فى قلبى ؛ فكأنا قد التقينا ـ كما قال ابن المعتز :

إنا عَلَى البِعَـادِ وَالتفرّقِ ... لنَلتَـقِى بالذِّكرِ إنْ لم نَلتقِ

ومثله لأبى الطيب :

لنا ولأهلِهِ أبداً قُلوبٌ ... تَلاقَى فى جُسوم ما تلاقى

(٣) السرائر : بمعنى الأسرار المكتتمة . وشفه : أنحله . يقول : إن كتمان الهوى اقتصارنا فيه على التعريض قد أسقمنا وهزلنا ، فذلك هزالنا البادى على ماتجنه الضلوع من الوجد ، فقام ذلك مقام التصريح .

لَمَّا تَقَطَّعَتِ الْحُمُولُ تَقَطَّعَتْ نَفْسِى أَسًى وَكَأَنَّهُنَّ طُلُوحُ(١)

وَجَلاَ الْوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيبِ مَحَاسِناً
حُسْنُ الْعَزَاءِ وَقَدْ جُلِينَ قَبِيحُ(٢)

فَيَدٌ مُسَلِّمَةٌ وَطَرْفٌ شَاخِصٌ
وَحَشًى يَذُوبُ وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحُ(٣)

يَجِدُ الْحَمَامُ وَلَوْ كَوَجْدِى لَانْبَرَى
شَجَرُ الْأَرَاكِ مَعَ الْحَمَامِ يَنُوحُ(٤)

---

(١) الحمول : الأحمال على الإبل ، ويريد بها الإبل التى حملتها ، والطلوح : جمع طلح ، وهو شجر أسفله دقيق وأعلاه كالقبة ، تشبه به الإبل عليها الهوادج . يقول : لما تفرقت الحمول سائرة وكأنها طلوح تقطعت نفسى وجداً وحزناً .

(٢) يقول : كشف الوداع محاسن الحبيب عند الفراق ، فصار الصبر الجميل عنها قبيحاً . وهذا ينظر إلى قول أبى تمام :

وقد كانَ يُدْعَى لابِسُ الصبرِ حازماً فأصبحَ يُدْعَى حازِماً حين يَجزَعُ

ويقول العتبى محمد بن عبيد الله يذكر ابناً له مات ومنه أخذ أبو تمام :

والصبر يُحْمَدُ فى المواطن كلِّها إلا عليك فإنهُ مذمومُ

وقوله حسن العزاء الخ : تقديره حسن العزاء قبيح ، وقد جلين : أى المحاسن : فأقحم بين المبتدأ والخبر جملة فعلية .

(٣) المراد بالمدمع : الدمع . يصف حال الوداع . يقول : لو ترانا عند الوداع ونحن على هذه الحال لرحمتنا ، فهناك يد تشير بالسلام ، وطرف شاخص إلى وجه المودع ، وقلب يذوب حزناً على الفراق ، ودمع مصبوب .

(٤) يجد : من الوجد . وقوله ولو كوجدى : أى ولو كان وجده كوجدى لانبرى الخ والأراك : شجر معروف . يقول : إن الحمام يحزن عند فراق إلفه ، ولو كان وجده كوجدى لرق له الشجر وانبعث يبكى معه وينوح رحمة ورقة ؛ وقوله: لانبرى ، يريد لاندفع وأخذ . ويقال : برى له يبرى بريا وانبرى : عرض له : وباراه عارضه ، وباريت فلاناً مباراة : إذا كنت تفعل مثل مايفعل .

وَأَمَقَّ لَوْ خَدَتِ الشَّمَالُ بِرَاكِبٍ
في عَرْضِهِ لَأَنَاخَ وَهْيَ طَلِيحُ(١)
نَازَعْتُهُ قُلُصَ الرِّكَابِ وَرَكْبُهَا خَوْفَ الْهَلَاكِ حُدَاهُمُ التَّسْبِيحُ(٢)
لَوْلَا الْأَمِينُ مُسَاوِرُ بْنُ مُحَمَّدٍ مَا جُشِّمَتْ خَطَراً وَرُدَّ نَصِيحُ(٣)

---

(١) وأمق : الواو واو رب . يصف مهمها طويلا . والأمق : المكان الطويل . والوخد . ضرب من السير ؛ وخدت هنا . أسرعت . والطليح : المعي ، يقال طلع البعير أعيا : فهو طليح ، وأطلحته أناوطلحته : حسرته ، ويقال ناقة طليح أسفار . إذا جهدها السير وهزلها ؛ وإبل طلح وطلائح ، والطلح ـ بالكسر ـ المعي من الإبل ، يستوى فيه الذكر والأنثى ، والجمع أطلاح . قل الحطيئة يصف إبلا وراعيها :

إذا نامَ طِلْحٍ أشعثُ الرأس خَلْفَها هداهُ لها أنفاسُها وزفيرُها

« يقول الحطيئة . إن هذه الإبل تتنفس من البطنة تنفساً شديداً فيقول . إذا نام راعيها عنها وندت تنفست ، فوقع عليها وإن بعدت » يقول : لو أسرعت ريح الشمال في ذلك المهمه وعليها راكب لأناخ ذلك الراكب ونزل والشمال معيبة ، وإذا كانت الشمال تعي فيه فكيف الإنسان أو الناقة ؟ وإنما ذكر العرض ليدل على السعة لأن العرض أقل من الطول .

(٢) القلص ـ جمع قلوص ـ الناقة الفتية . والركاب الإبل . يقول : خاصمت هذا المهمه على الإبل ، فهو يأبى إلا أن ينالمنهاويعصف بها بطوله ومشقته ، وأنا آبى إلا أن أستبقيها لمسيرى . ثم قل : وكان ركاب هذه الإبل ـ لخوفهم الهلاك ـ يسبحون الله ويسألونه النجاة ، فكان التسبيح حداء للإبل مكان الغناء الذى تحدى به . وقل ابن جنى : نازعته أخذت منه ـ من الأمق . أى المهمه ـ بقطعى إياه وأعطيته ما نال من الركاب ؛ قل الواحدى : ليس المعنى على ماقال ابن جنى ؛ لأن المتنازع فيها هى القلص ، فالبلد يفنيها ويأخذ منها وهو يستبقيها . والمعنى . إنى أحب إبقاءها ، والأمق يحب إفناءها بالمنازعة فيها كقول الأعشى :

* نازعتهم قُضُبَ الريحان مُتكِئاً *

أى أخذت منهم وأعطيتهم ، وهم أخذوا منى وأعطونى .

(١) جشمت : كلفت . يقول : لولا الممدوح ما عرضنا إبلنا لهذا الخطر ، ولا رددنا

. . . .

الناصح الذى كان ينصح لنا وينهانا عن ركوب هذه الأهوال . وإليك درة نحوية للعلامة العكبرى ، قال : لولا الأمير : الأمير مرتفع بالابتداء عند البصريين ، وعندنا أن الاسم مرفوع بها ، لأنها نائبة عن الفعل الذى لو ذكر لرفع الاسم كما تقول لولا زيد لجئت ، تقديره لو لم يمنعنى ، إلا أنهم حذفوا الفعل تخفيفاً وزادوا لا على لو فصارا بمنزلة حرف واحد . كقولهم: أما أنت منطلقا انطلقت معك . تقديره إن كنت منطلقا انطلقت معك . قال الشاعر :

أبا خُراشةَ أمّا أنت ذا نفر فإنّ قومىَ لم تأكلهمُ الضبُعُ(١)

أى إن كنت ذا نفر ، فحذف الفعل وزاد «ما» عوضا عنه ، والذى يدل على أنها عوض عن الفعل أنه لا يجوز ذكر الفعل معها لئلا يجمع بين العوض والمعوض ، وكقولهم أمالا فافعل هذا ، تقديره إن لم تفعل ما يلزمك فافعل هذا ، فحذف الفعل لكثرة الاستعمال وزيدت ما على أن عوضا عنه فصارتا بمنزلة حرف واحد . ويجوز إمالتها لأنها صارت عوضا عن الفعل ، كما أمالوا بلى ويا فى النداء ، والشواهد كثيرة على أن الفعل بعدها محذوف ، واكتفى الاسم بلولا ، ويدل على أن الاسم بعدها يرتفع بدون الابتداء أنها إذا وقع بعدها «أن» انفتحت كقولك: لولا أن زيدا منعنى ، قال الله تعالى :

---

(١) البيت لعباس بن مرداس السلمى الصحابى ، وأبو خراشة كنية خفاف بن ندبة، وندبة أمه ــ وهو صحابى جليل وأحد فرسان قيس وشعرائها ، وهو ابن عم الخنساء . وبعد البيت :

والسلمُ تأخذ منها ما رَضيتَ به والحرب يكفيك من أنفاسها جُرَعُ

ونفر الرجل رهطه ، ويقال لعدة من الرجال من ثلاثة إلى عشرة ، والمراد بالضبع السنة المجدبة ، وأصله أن الناس إذا أجدبوا ضعفوا عن الانتصار وسقطت قواهم فعاثت فيهم الضباع والذئاب فأكلتهم . يقول : ياأبا خراشة إن كنت عزيزا بقوم كثيرا لهم فإن قومى ليسوا بأذلاء ، ثم قال : إن السلم أنت فيها وادع تنال من مطالبك ما تريد ، أما الحرب فإنها على العكس من السلم ، وأراد بأنفاسها : أوائلها يحرضه على الصلح ويثبطه عن الحرب .

وَمَتَى وَنَتْ وَأبو المُظَفَّرِ أَمُّهَا فَأَتَاحَ لِي وَلَهَا الحِمَامَ مُتِيحُ[(١)]
شِمْنَا وَمَا حُجِبَ السَّمَاءُ بُرُوقَهُ وَحَرًى يَجُودُ وَمَا مَرَتْهُ الرِّيحُ[(٢)]

« فلولا أنه كان من المسبحين » ولو كانت فى موضع الابتداء لوجب أن تكسر ، فلما فتحت دل على صحة قولنا . وحجة البصريين على أنه يرتفع بالابتداء دون لولا : أن الحرف لا يعمل إلا إذا كان مختصاً و « لولا » يختص بالاسم دون الفعل ، وقد يختص بالفعل والاسم . قال الشاعر :

لا درَّ درُّكِ إنى قد حَمِدْتُهم لولا حُدِدت ولا عذرى بمحدود[(١)]

ونحن نقول : إن هذا البيت على معنى لولا أنى حددت ، فصارت مختصة بالاسم دون الفعل .

(١) ضمير ونت : للابل أى توانت وفترت ؛ وأمها قصدها : أى مقصودها وقوله فأتاح لى الخ دعاء وأتاح الله الشىء قدره . يقول : إذا توانت الإبل فى سيرها وهـذا الممدوح مقصودها فالموت خير لى ولها . يعنى : الموت خير لنا إن تخلفنا عنه .

(١) شمنا : فعل وفاعل ، وبروقه : مفعوله ، وما حجب السماء . جملة معترضة وشام البرق : نظر إليه يرجو المطر . وقوله : وحرى ، أى وشمنا سحابا حرى أن يجود : أى

(١) أورد عبد القادر البغدادى هذا البيت فى أبيات هذا نصها :

قالت أمامةُ لما جئتُ زائرَها هلّا رَميت ببعض الأسهم السُّودِ
لا دَرَّ درُّكِ إنى قد رَميتهمُ لَوْلا حُدِدْتُ ولا عُذرَى لِمَحْدودِ
إذ همْ كرِجْلِ الدَّبى لا دَرَّ دَرُّهُمُ يَغزُونَ كل طُوَالِ المشىِ مَحْدودِ
فما تَرَكْتُ أبا بِشرٍ وصاحبَه حتى أحاطَ صَريحِ الموْتِ بالجيد

قال قيل إنها لراشد بن عبد الله السلمى الصحابى ؛ وقيل للجموح ــ أحد بنى ظفر من سليم بن منصور ــ وحددت أى حرمت ومنعت ؛ وقد حد الرجل عن الرزق : إذا منعمنه ، وهو محدود . يقول : قد رميت واجتهدت فى قتالهم ولكنى حرمت النصر عليهم ، ولا يقبل عذر المحروم . والعذرى : اسم بمعنى المعذرة ، والرجل : القطعة من الجراد والدبى : أصغر الجراد ، والطوال : الطويل .

مَرْجُوُّ مَنْفَعَةٍ مَخُوفُ أَذِيَّةٍ مَغْبُوقُ كَأْسِ مَحَامِدٍ مَصْبُوحُ(١)
حَنِقٌ عَلَى بِدَرِ اللُّجَيْنِ وَمَا أَتَتْ بِإِسَاءَةٍ وَعَنِ الْمُسِيءِ صَفُوحُ(٢)
لَوْ فُرِّقَ الْكَرَمُ الْمُفَرِّقُ مَالَهُ فِى النَّاسِ لَمْ يَكُ فِى الزَّمَانِ شَحِيحُ(٣)
أَلِفَتْ مَسَامِعُهُ الْمَلَامَ وَغَادَرَتْ سِمَةً عَلَى أَنْفِ اللِّئَامِ تَلُوحُ(٤)

جديرا به أن يجود — أى يمطر — . ومرته الريح : استدرته وأصله فى الناقة يمسح ضرعها لتدر . يقول : شمنا بروق الممدوح : أى رجونا عطاءه والسماء لم يحجبها الغيم ، ونظرنا منه إلى سحاب حقيق بالجود : أى بالمطر وإن لم تمره الريح . يفضله على السحاب لأن السحاب يحجب جمال السماء ، ولا يجود إلا إذا استدرته الريح ، أما الممدوح فليس كذلك .

(١) المغبوق : الذى يسقى بالعشى ؛ والمصبوح : الذى يسقى صبحا . يقول : إنه يحمد فى كل وقت ، فكأنه يسقى كأس المحامد غبوقا وصبوحا .

(٢) البدر : جمع بدرة ، وهى عشر آلاف درهم . واللجين : الفضة . والمعنى ظاهر .

(٣) يقول : لو فرق فى الناس كرمه الذى يفرق ماله لصار الناس كلهم أسخياء . وهذا ينظر إلى قول منصور الفقيه :

أقول إذ سألونى عن سماحته ولستُ ممن يُطيلُ القولَ إن مدحا
لو أن ما فيه من جودٍ تقسَّمهُ أولادُ آدم عادوا كلُّهم سُمحا

والأصل فى هذا قول العباس بن الأحنف — وإن كان من باب آخر — :

لو قسَّمَ اللهُ جُزءاً من محاسنه فى الناسِ طرًّا لتمَّ الحسن فى الناس

ويقول أبو تمام :

لو اقتُسِمتْ أخلاقُه الغرُّ لم تجد معيباً ولا خلقاً من الناس عائبا

(٤) يقول : إن مسامعه أهملت وأسقطت لوم من يلومه على الجود ، فلم يبال به ومضى على سخائه ، وروى ابن جنى : ألفت — من الألفة — أى أن مسامعه — لكثرة ما سمعت اللوم — ألفته واعتادته فصار شيئاً مألوفاً لا قيمة له عنده ، وغيره ممن أطاعوا اللائم وأصغت مسامعهم إليه صاروا لئاماً يرى عليهم أثر اللؤم كما ترى السمة على الأنف .

هٰذَا الَّذِى خَلَتِ القُرُونُ وَذِكْرُهُ
وَحَدِيثُهُ فِى كُتْبِهَا مَشْرُوحُ(١)

أَلْبَابُنَا بِجَمَالِهِ مَبْهُورَةٌ وَسَحَابُنَا بِنَوَالِهِ مَفْضُوحُ(٢)

يَغْشَى الطِّعَانَ فَلَا يَرُدُّ قَنَاتَهُ
مَكْسُورَةً وَمِنَ الكُمَاةِ صَحِيحُ(٣)

---

(١) المراد بخلت ههنا : تخلو ؛ وأتى بالماضى : للتحقيق — على حد قوله تعالى « أتى أمر الله » — يقول : هذا الذى تمضى القرون والأدهار ويبقى ذكره ويخلد فى الكتب والأسفار . قال الواحدى : المعنى : أن الكتب مشحونة بذكر الكرم ونعت الكرام وأخلاقهم ، وهو المعنى بذلك ؛ إذ الحقيقة منها له ، فذكره إذا فى الكتب مشروح . « هذا » : وقوله وذكره وحديثه إلخ . قال العكبرى : قال ذكره وحديث مشروح ولم يقل مشروحان لأن الذكر والحديث واحد ، وقيل هما جملتان : حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ، وهذا مثل قوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » ، وهذا مذهب سيبويه ، وأنشد :

نحنُ بما عندنا وأنتَ بما عِندكَ راضٍ والرأىُ مختلِفُ(١)

وذهب المبرد إلى أن فى الكلام تقديماً وتأخيراً ، وتقديره : والله أحق أن يرضوه ورسوله . وقال قوم : بل الضمير عائد على المذكور ، كقول رؤبة :

فيها خُطُوطٌ مِنْ سَوادٍ وَبَلَقْ كأنه فى الجِلد توليعُ البَهَقْ(٢)

أى كأن المذكور :

(٢) الألباب : العقول ؛ والنوال : العطاء . والمعنى ظاهر .

(٣) يقول : يخوض الحرب فلا يرد رماحه إلا بعد أن لا يبقى من الأبطال صحيح .

---

(١) لقيس ابن الخطيم [راجع معاهد التنصيص ج ١ ص ٦٧] .

(٢) من أرجوزته التى مطلعها :

* وقاتم الأعماق خاوى المخترق *

[راجع أراجيز العرب للبكرى ، « وخزانة الأدب » للبغدادى ج ١ ص ٩٠] .

وَعَلَى التُّرَابِ مِنَ الدِّمَاءِ مَجَاسِدٌ ... وَعَلَى السَّمَاءِ مِنَ العَجَاجِ مُسُوحُ[(١)]
يَخْطُو الْقَتِيلَ إِلَى الْقَتِيلِ أَمَامَهُ ... رَبُّ الْجَوَادِ وَخَلْفَهُ الْمَبْطُوحُ[(٢)]
فَمَقِيلُ حُبِّ مُحِبِّهِ فَرِحٌ بِهِ ... وَمَقِيلُ غَيْظِ عَدُوِّهِ مَقْرُوحُ[(٣)]
يُخْفِي الْعَدَاوَةَ وَهِيَ غَيْرُ خَفِيَّةٍ ... نَظَرُ الْعَدُوِّ بِمَا أَسَرَّ يَبُوحُ[(٤)]

وهذا من قول الفرزدق :

بِأَيدِي رِجالٍ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُم ... ولم تَكثُرُ القَتلى بها حِينَ سُلَّتِ

« أى لم يغمدوها إلا بعد أن كثرت بها القتلى »[(١)] قال الواحدى : وقوله مكسورة حشو : أراد أن يطابق بينها وبين الصحيح ، لأنه لا فائدة من أن ترد القناة من الحرب مكسورة ، ولو ردها صحيحة لم يلحقها نقص ، والكماة : جمع كمى : الشجاع المتكى أى المتغطى بسلاحه ؛ إذ أنه كمى نفسه : أى سترها بالدرع وخلافه .

(١) المجاسد : جمع المجسد ، وهو المصبوغ بالجساد : أى الزعفران ؛ والمسوح : جمع مسح ، وهو ما ينسج من الشعر الأسود . يقول : لكثرة ما يسفك من الدم صبغت الأرض به حتى كأن عليها مجاسد ، واسودت السماء بالغبار فكأن عليها مسوحا .

(٢) رب الجواد : فاعل يخطو ، يعنى الفارس . يقول : قد اكتظت المعركة بالقتلى ، فترى الفارس يخطو من قتيل إلى قتيل ، ويخلف وراءه فارسا مبطوحا ـ أى قتيلا أيضا ـ ويجوز أن يكون المراد برب الجواد : الممدوح .

(٣) المقيل : المقام ، المستقر ؛ قال تعالى : « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا » وقال ابن رواحة :

اليومَ نضرِبْكم على تنزيلِهِ ... ضَرْباً يُزِيلُ الهامَ عَنْ مَقِيلِهِ

« الهام : جمع هامة ، وهى أعلى الرأس ؛ ومقيله : موضعه ، مستعار من موضع القائلة » ومقيل الحب ، ومقيل الغيظ : القلب . يقول : إن قلب محبة فرح به مبتهج ، وقلب عدوه مقروح مكتئب .

(٤) فاعل يخفى ضمير العدو ، يقول : إن عدوه يخفى العدواة خوفا منه . يد أن

---

(١) قال المبرد : « وهذا البيت طريف عند أصحاب المعانى وتأويله : لم يشيموا لم يغمدوا ولم تكثر القتلى ، أى لم يغمدوا سيوفهم إلا وقد كثرت القتلى حين سلت .

يَا ابْنَ الَّذِي مَا ضَمَّ بُرْدٌ كَابْنِهِ شَرَفًا وَلَا كَالْجَدِّ ضَمَّ ضَرِيحُ(١)
نَفْدِيكَ مِنْ سَيْلٍ إِذَا سُئِلَ النَّدَى
هَوْلٍ إِذَا اخْتَلَطَا دَمٌ وَمَسِيحُ(٢)

العداوة لا تخفى ، لأن نظر العدو إلى من يعاديه يظهر ما بقلبه من العداوة . قال ابن الرومى :

تخبّرنى العينان ما القلبُ كاتمٌ ولا جن بالبغضاء والنظرِ الشزْرِ

« لا جن : لاخفاء » وقال يزيد بن الحكم بن أبى العاص الثقفى :

تكاشرُنى كرْهًا كأنكَ ناصح وَعَينكَ تُبْدِي أنْ صَدْرَكَ لِي دَوِى(١)

وقال الآخر :

خليلىّ لِلبَغضاء عَيْنٌ مُبِينـة وَلِلْحُبِّ آيات ترى ومَعارِفُ

(١) البرد : شكل من الثياب . والكاف — من قوله كابنه — بمعنى مثل : صفة لموصوف محذوف ، هو مفعول ضم : أى ما ضم برد أحداً مثل ابنه ولا ضم قبر مثل الجد . وشرفاً : تمييز . والضريح : القبر كله ؛ وقيل الشق فى وسط القبر ، واللحد فى جانبه ، وسمى كذلك لأنه يشق فى الأرض شقا ، وكل ماشق فقد ضرح . قال ذو الرمة :

ضَرَحْنَ البُرودَ عن تَرائِبَ حُرّة وعن أعينٍ قتلننا كلَّ مقتل

يقول : ليس فى الأحياء مثلك شرفا ، ولا فى الأموات مثل جد أبيك فى الشرف .

(٢) المسيح : العرق ؛ سمى مسيحا لأنه يمسح إذا صب . قال الراجز :

يا رَيّها وقد بَدَا مَسِيحِى وابتلّ ثَوباىَ من النضيحِ

« ياريها : يروى ناديتها » وقوله: هول، أى وهول . فهو عطف على سيل . وكان الوجه أن يقول إذا اختلط دم ومسيح ، ولكنه قال اختلطا — على لغة من يقول : قاما أخواك — يقول : أنت سيل عند العطاء : أى مثل المطر ، وهول عند القتال إذا سالت الدماء وامتزجت بالعرق .

---

(١) مطلع أبيات جيدة فى بابها يعاتب فيها يزيد هذا ابن عمه — [أمالى القالى ج ١ ص ٦٨ ، والخزانة ج ٣ ص ١١٨ سلفية] وفى الأغانى : ودوى صدره مرض وضغن

لَوْ كُنْتَ بَحْرًا لَمْ يَكُنْ لَكَ ساحِلٌ
أَوْ كُنْتَ غَيْثًا ضَاقَ عَنْكَ اللُّوحُ(١)
وَخَشِيتُ مِنْكَ عَلَى البِلَادِ وَأَهْلِهَا
ما كَانَ أَنْذَرَ قَوْمَ نُوحٍ نُوحُ(٢)
عَجْزٌ بِحُرٍّ فاقَةٌ وَوَرَاءَهُ رِزْقُ الإِلَهِ وَبَابُكَ المَفْتُوحُ(٣)
إِنَّ القَرِيضَ شَجٍ بِعِطْفِي عَائِذٌ
مِنْ أَنْ يَكُونَ سِوَاكَ المَمْدُوحُ(٤)

---

(١) الغيث : السحاب فيه مطر . واللوح : الهواء بين السماء والأرض . والمعنى ظاهر .

(٢) يقول : لو كنت غيثا لخشيت منك الطوفان الذى أنذر به نوح قومه . فقوله وخشيت : عطف على قوله ضاق ــ فى البيت قبله ــ .

(٣) يقول : من العجز أن يقاسى الحر الفاقة مع وجود رزق الإله ، وبابك الذى لا يحجب عنه طالب : يعنى أن الله قد وسع بك الرزق على الناس ، فمن لم يصمد إليك ملتمساً الرزق فذلك لعجزه ، كما قال أبو تمام :

خابَ امْرُؤٌ بَخَسَ الحَوَادِثُ رِزْقَهُ وَأَقامَ عَنْكَ وَأَنْتَ سَعْدُ الأَسْعُدِ

وما أجمل قول بعضهم :

وَعَجْزٌ بِذِي أَدَبٍ أَنْ يَضِيقَ بِعِيشَتِهِ وُسْعُ هَذِي البِلَادِ

وعجز : خبر مقدم عن فاقة ، وبحر : متعلق بفاقة ، والضمير فى وراءه : للحر ؛ قال العكبرى : عجز ابتداء ، وقد تفيد النكرة ؛ وخبره : فاقة ، فالباء متعلقة بفاقة ؛ ويجوز أن تكون فاقة ابتداء ، والخبر عجز مقدم عليه ، وتقديره فاقة بحر عجز ؛ فعلى هذا تكون النكرة قد تقدم عليها خبرها ؛ وقيل: بل عجز خبر ابتداء محذوف دل عليه المعنى ، تقديره : القعود عن قصدك عجز بحر ؛ وفاقة ابتداء ثان خبره محذوف تقديره : به فاقة . قال : ووراءه أى قدامه ، قال تعالى « وكان وراءهم ملك » أى قدامهم ــ من الأضداد .

(٤) شج : حزن . والعطف : الجانب . وبعطفى : متعلق بعائذ ، وعائذ : لاجىء ،

وَذَكِيُّ رَائِحَةِ الرِّيَاضِ كَلاَمُهَا ... تَبْغِى الثَّنَاءَ عَلَى الْحَيَا فَتَفُوحُ(١)
جُهْدُ الْمُقِلِّ فَكَيْفَ بِابْنِ كَرِيمَةٍ ... تُولِيهِ خَيْراً وَاللِّسَانُ فَصِيحُ(٢)

والقريض : الشعر ؛ ويقال: قرضت الشعر أقرضه : إذا قلته ، ومنه قول عبيد بن الأبرص: حال الجريض دون القريض ؛ « الجريض : الغصص ، قاله للنعمان بن المنذر حين أراد قتله فقال له أنشدنى من قولك » وقوله سواءك : فسواك إذا فتحت مدت ، وإن كسرت قصرت . يقول : إن الشعر لا يجىء إلى مستجير بى من أن أمدح به غيرك ؛ إذ لا يستحقه أحد سواك .

(١) الحيا : المطر . يقول : إن الرائحة الطيبة من الرياض بمنزلة الكلام لها ، تحاول أن تثنى على المطر الذى أحياها فتسطع رائحتها فتكون بذلك قد أثنت على المطر. وهذا من قول ابن الرومى يصف روضة :

شَكَرَتْ نِعْمَةَ الْوَلِيِّ على الْوَسْـ ... ـمِيِّ ثُمَّ الْعِهَادِ بَعْدَ الْعِهَادِ(١)
فَهِىَ تُثْنِى عَلَى السَّمَاءِ ثَنَـاءً ... طَيِّبَ النَّشْرِ شَائِعاً فى البِلادِ
مِنْ نَسِيمٍ كَأَنَّ مَسْرَاهُ فى الْخَيْـ ... ـشُومِ مَسْرَى الأَرْوَاحِ فى الأَجْسَادِ

وأخذه السرى الرفاء فقال :

وَكُنْتَ كَرَوْضَةٍ سُقِيَتْ سَحاباً ... فأَثْنَتْ بالنسيمِ عَلَى السحابِ

(٢) جهد المقل : أى ذلك جهد المقل . والجهد : الطاقة والوسع ، والمقل الذى قلت ذات يده : وتوليه : تعطيه . يقول: إن رائحة الرياض جهد المقل لأنها لا تستطيع النطق، فكيف ظنك بى إذا أحسنت إلى وأنا شاعر فصيح ؛ أى أننى لا أغادر شكرك والثناء عليك . والجهد ـ بالفتح والضم ـ قال العكبرى ؛ وقال الفراء بالضم ، الطاقة ، وحجته قراءة الجمهور : « والذين لا يجدون إلا جهدهم » . والجهد ـ بالفتح ـ من قولهم أجهد جهدك فى الأمر : أى ابلغ غايتك ، ولا يقال اجهد جهدك ـ بالضم ـ والجهد ـ بالفتح ـ المشقة ، يقال : جهد دابته وأجهدها : إذا حمل عليها فى السير فوق طاقتها ، وأجهد فى كذا : أى جد فيه وبالغ .

---

(١) الوسمى : مطر الربيع الأول ، لأنه يسم الأرض بالنبات ؛ والولى المطر يأتى بعد الوسمى ويليه . والعهاد : جمع عهد ، وهو مطر بعد مطر .

وقال يصف لعبة على صورة جارية :

جارِيَةٌ ما لِجِسْمِهَا رُوحُ ‌‌ ‌‌ بِالقَلْبِ مِنْ حُبِّهَا تَبارِيحُ (١)
فى كَفِّهَا طَاقَةٌ تُشِيرُ بِهَا ‌‌ ‌‌ لِكُلِّ طِيبٍ مِنْ طِيبِهَا رِيحُ (٢)
سَأَشْرَبُ الكَأْسَ عَنْ إشَارَتِهَا ‌‌ ‌‌ وَدَمْعُ عَيْنِى فى الخَدِّ مَسْفُوحُ (٣)

وأراد الانصراف من عند سيف الدولة ليلا فقال :

يُقَاتِلُنِي عَلَيْكَ اللَّيْلُ جِدًّا ‌‌ ‌‌ وَمُنْصَرَفِى لهُ أَمضَى السِّلاحِ (٤)

---

(١) التباريح : الشدائد . يقول : إن القلوب تحبها للطف صورتها . وجارية — كما قال العكبرى — ابتداء ، وروح اسم ما المشبهة بليس ؛ والجار والمجرور الخبر . وقوله تباريح : ابتداء خبره المقدم عليه : وهو الجار والمجرور ، وحرف الجر يتعلق بالاستقرار ، ومن حبها : يتعلق بالابتداء .

(٢) يقول : إن كل طيب يستفيد طيب الرائحة من هذه الطاقة ؛ لأنها أطيب الأشياء ريحا .

(٣) يقول : إننى سأشرب الكأس امتثالا لإشارتها ، برغم أنى أكره الخمر : ومن ثم سيسيل دمعى على خدى استبشاعا للخمر .

(٤) منصرفى : مصدر ميمى بمعنى انصرافى . قال الواحدى : إن الليل يقول له انصرف ، وهو يميل إلى مجلس الأمير وإطالة اللبث فيه ويعصى الليل وبذلك حصل تنازع وجعل ذلك قتالا . ثم قال : وإذا انصرفتُ فقد أعنته على نفسى . ويجوز أن يكون المعنى: إن الليل يرده ندماءه وتفريقه جلساءه يعمل على الخلو به ، فانصرافى أمضى سلاح له وأعون على مراده . وقال العكبرى — فى قوله منصرفى — يريد انصرافى ، وإذا زاد الفعل على الثلاثى استوى فيه المصدر واسم الزمان والمكان ، وإذا كان متعدياً ساوت هذه الأشياء لفظ المفعول ، فالمنصرف يقع على المصدر ، والموضع الذى ينصرف عنه ، وعلى الوقت الذى يقع فيه ذلك ، وانصرف فعل لايتعدى إلى مفعول فلو بنى مثل هذه الأشياء مثل اجتذب ونحوها — مما هو على أربعة أو أكثر — استوت فيه الأشياء الأربعة المصدر

لِأنّى كُلّما فارَقْتُ طَرْفِى　　بَعيدٌ بَيْنَ جَفْنِى وَالصَّباحِ (١)

وجَرَى حديث وقعة أبى الساج مع أبى طاهر صاحب الأحساء ، فذكر أبو الطيب ما كان فيها من القتل ، فهال بعض الجلساء ذلك وجزع منه ، فقال أبو الطيب لأبى محمد بن طغج ارتجالا :

أباعِثَ كلِّ مَكْرُمَةٍ طَمُوحٍ　　وَفارِسَ كلِّ سَلْهَبَةٍ سَبُوحِ (٢)

والزمان والمكان والمفعول ، يقال حبل مجتذب وعجيب من مجتذبى حبلك أى اجتذابى وهذا مجتذب حبلك أى الموضع الذى يجتذب فيه والوقت الذى كان فيه الاجتذاب .

(١) البيت تعليل لقوله: ومنصرفى له أمضى السلاح . يقول : لأنى كلما فارقت عينى ، ولم أرك ، لم أنم من شوق إلى لقائك ، فطال ليلى وبعد مابين جفنى والصباح : هذا ؛ ويجوز رفع بين على إخراجه عن الظرفية وجعله مبتدأ وخبره بعيد . قال العكبرى : ويجوز أن يكون فاعلا يعيد ؛ كقول الشاعر :

كَأَنَّ رِماحَهُم أَشْطانُ بِئْرٍ　　بعيدٍ بينُ جالَيْها جَرورِ (١)

ويجوز نصبه على الظرفية وتقدير المبتدأ محذوفاً : أى بعيد مابين جفنى ؛ قال الواحدى : ولو قال بين عينى الصباح لكان أظهر ، لأن الصباح إنما يرى بالعين لا بالجفن .

(٢) الباعث : المحيى — من بعث الله الميت : إذا نشره — والطموح : الجموح ، وهى العزيزة الممتنعة . والسلهبة : الطويلة من الخيل : والسبوح : التى تسبح فى جريها . يقول : يامحيى كل مكرمة تستعصى على غيرك ، ويافارس الخيل الشديدات الجرى .

---

(١) الأشطان : جمع شطن ، وهو الحبل الطويل الشديد الفتل الذى يستقى به وتشد به الخيل ؛ والجال : كل ناحية من نواحى البئر من أسفلها إلى أعلاها ؛ والجرور البئر البعيدة القعر ، وبين : قال ابن منظور : البين ههنا الوصل ، قال لأن البين فى كلام العرب من الأضداد ؛ إذ يكون بمعنى الفرقة ويكون الوصل كما فى هذا البيت

وَطَاعِنَ كُلَّ نَجْلَاءٍ غَمُوسٍ وَعَاصِيَ كُلَّ عَذَّالٍ نَصِيحِ (١)
سَقَانِي اللهُ قَبْلَ المَوْتِ يَوماً دَمَ الأَعْدَاءِ مِنْ جَوْفِ الجُرُوحِ (٢)

وأرسل أبو العشائر بازياً عَلَى حَجَلة فأخذها فقال المتنبي :

وَطَائِرَةٍ تَتَبَّعُهَا المَنَايَا عَلَى آثَارِهَا زَجِلُ الجَنَاحِ (٣)
كَأَنَّ الرِّيشَ مِنْهُ فِي سِهَامٍ عَلَى جَسَدٍ تَجَسَّمَ مِنْ رِيَاحِ (٤)

---

(١) النجلاء : الواسعة ، والغموس : التي تغمس المطعون في الدم . يقول : إنه كان يطعن كل طعنة واسعة تغمس صاحبها المطعون في الدم ، ويعصى كل من يعذله في الجود والإقدام .

(٢) يقول : أمكنني الله من الأعداء حتى أهريق دماءهم وآتي عليهم ، والعرب تقول شربنا دم بني فلان يريدون قتلناهم وأرسلنادماءهم على الأرض كالماء . هذا : وسقى وأسقى لغتان فصيحتان نطق بهما القرآن الكريم قال تعالى : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً »وقال جل شأنه « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » .

(٣) المراد بالطائرة : الحجلة ، والحجلة : واحدة الحجل ؛ طائر في حجم الحمام أحمر المنقار والرجلين يعيش في الصرود العالية يستطاب لحمه . والزجل ذو الصوت ؛ وأراد بالزجل : جناح البازي — يعني حفيف جناحيه في الطيران . قال العكبري : من رفع زجل يكون الكلام تاماً في النصف الأول ؛ ويرتفع على الابتداء ؛ والخبر، الجار والمجرور وهو متعلق بالاستقرار وقال الواحدي : من نصبه نصبه على الحال إذا جعل المنايا البازي لأنه سبب منايا الطير ، وتبعها هي تتبعها . ورواها العكبري تتبعها وقال : يقال تبعته واتبعته وتتبعته . ثم قال : تبعت القوم إذا كنت خلفهم ومروا بك فمضيت معهم وكذلك اتبعتهم وهو افتلعت وأتبعت القوم على أفعلت إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم وأتبعت غيري يقال: أتبعته الشيء فتبعه ، وقال الأخفش: تبعته وأتبعته بمعنى.مثل، ردفته وأردفته .

(٤) جعل قصب ريشه سهاما لاستوائها وسرعة مرها ، وجعل جسده جسما من رياح لسرعة انقضاضه على الصيد ، فالضمير منه : يعود على زجل الجناح ، وفي سهام متعلق بمحذوف تقديره ظهر في سهام ، وعلى جسد : في موضع الصفة ، ومن رياح : متعلق بتجسم .

كَأَنَّ رُؤُوسَ أَقْلَامٍ غِلَاظٍ ... مُسِحْنَ بِرِيشِ جُؤْجُؤِهِ الصِّحَاحِ (١)
فَأَقْعَصَهَا بِحُجْنٍ تَحْتَ صُفْرٍ ... لَهَا فِعْلُ الْأَسِنَّةِ وَالصِّفَاحِ (٢)
فَقُلْتُ لِكُلِّ حَيٍّ يَوْمُ مَوْتٍ ... وَإِنْ حَرَصَ النُّفُوسُ عَلَى الْفَلَاحِ (٣)

* * *

---

(١) الجؤجؤ: الصدر . شبه سواد صدره بآثار مسح رءوس أقلام حبر غلاظ في ثوب أبيض ؛ وروى ابن جنى : غلاظا — نصباً على النعت للرؤوس — وهو أجود ، لأن المراد غلظ الرؤوس حتى يكون أثر الحبر عريضاً ؛ والصحاح : جمع صحيح ، وروى الصحاح — بفتح الصاد — على النعت للجؤجؤ أو للريش على اللفظ لا المعنى .

(٢) أقعصها : قتلها قتلاوحياً سريعاً . والحجن : جمع أحجن ، وهو المعوج — يريد مخالبه — والصفر . أصابعه ؛ والأسنة : نصال الرماح ؛ والصفاح : السيوف ، يريد أن البازى قتل هذه الحجلة قتلا سريعاً . هذا : ويقال مات فلان قعصا إذا أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه ، وضربه فأقعصه أى قتله مكانه ، وأقعصه بالرمح وقعصه : طعنه طعنا وحياً . والقعاص داء يأخذ الغنم لايلبثها أن تموت ؛ وفي الحديث : من أشراط الساعة موتان يكون فى الناس كقعاص الغنم . والحجن ـ بالتحريك ـ الاعوجاج، وصقر أحجن المخالب :معوجها ، والمحجن: الصولجان لاعوجاجه .

(٣) لكل حى : خبر مقدم، ويوم موت : مبتدأ مؤخر ، والفلاح : البقاء والفوز والنجاة ، والفلاح السحور ومنه : حتى خفنا أن يفوتنا الفلاح أى السحور لأنه به بقاء الصوم ، وحى على الفلاح أى أقبل على النجاة .

قافية الدال

وقال يمدح سيف الدولة ، ويرثى ابن عمه أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان ، وقد توفى فى حمص سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة :

مَا سَدِكَتْ عِلَّةٌ بِمَوْرُودِ ... أَكْرَمَ مِنْ تَغْلِبَ بْنِ دَاوُدِ (١)
يَأْنَفُ مِنْ مِيتَةِ الْفِرَاشِ وَقَدْ ... حَلَّ بِهِ أَصْدَقُ الْمَوَاعِيدِ (٢)
وَمِثْلُهُ أَنْكَرَ الْمَمَاتَ عَلَى ... غَيْرِ سُرُوجِ السَّوَابِحِ الْقُودِ (٣)
بَعْدَ عِثَارِ الْقَنَا بِلَبَّتِهِ ... وَضَرْبِهِ أَرْؤُسَ الصَّنَادِيدِ (٤)

---

(١) سدك الشىء بالشىء : لزمه ؛ والعلة : المرض ؛ والمورود المحموم فى لغة أهل اليمن وقد وردته الحمى فهو مورود قال ذو الرمة :

* كأنَّنِي مِنْ حِذَارِ البَيْنِ مَوْرُود *

والورد يوم الحمى إذا أخذت صاحبها لوقت ، ويقال : أكل الرطب موردة ، أى محمة وقال أعرابى لآخر : ما أمار إفراق المورود ؟ فقال : الرحضاء . وروى بمولود . يقول : مالزمت علة مورودا أكرم من هذا الرجل .

(٢) أصدق المواعيد : الموت . يقول : إنه يأنف من موته على الفراش لأنه شجاع أخو حروب ؛ وهذا ينظر إلى قول أبى تمام :

لَوْ لَمْ يَمُتْ بَيْنَ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ إِذَنْ ... لَمَاتَ إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ

(٣) القود : الطوال من الخيل . يقول : مثله فى شجاعته وملابسته الحروب ينكر موته على غير السروج : أى فى غير الحروب . يحكى عن خالد بن الوليد أنه قال وهو يحتضر : ليس فى جسدى موضع شبر إلا وفيه طعنة أو ضربة أو رمية وها أنا ذا أموت موت الحمار ، فلا نامت أعين الجبناء .

(٤) يقول : مثله ينكر موته على الفراش بعد أن كانت الرماح تتعثر بصدره فى الحرب ، وبعد ضربه رؤس الأبطال . وتعثر الرماح بصدره : إصابتها إياه ، وجعله

وَخَوْضِهِ غَمْرَ كُلِّ مَهْلَكَةٍ لِلذِّمْرِ فِيهَا فُؤَادُ رِعْدِيدِ (١)
فَإِنْ صَبَرْنَا فَإِنَّنَا صُبُرٌ وَإِنْ بَكَيْنَا فَغَيْرُ مَرْدُودِ (٢)
وَإِنْ جَزِعْنَا لَهُ فَلَا عَجَبٌ
ذَا الْجَزْرُ فِي الْبَحْرِ غَيْرُ مَعْهُودِ (٣)

مطعونا إشارة إلى أن قرنه يخاف جانبه فيقاتله بالرمح ، وجعله ضاربا إشارة إلى أنه لا يخاف أن يدنو من قرنه . والصناديد جمع صنديد وهو السيد الشجاع ، ومنه الصناديد من الأمور وهى الشدائد والدواهى ، وكان الحسن يقول : نعوذ بالله من صناديد القدر — أى من دواهيه ونوائبه العظام الغوالب — ومن جنون العمل — وهو الإعجاب — ومن ملخ الباطل ، وهو التبختر فيه .

(١) الغمر : الكثير ، والمراد هنا أصعب مواضع الحروب ، والذمر : الشجاع والرعديد : الجبان . يقول : وبعد خوضه كل حومة فى الحرب صعبة إذا خاضها الشجاع خاف خوف الجبان .

(٢) صبر : جمع صبور . يقول : فإن صبرنا على فقده فإن الصبر عادة لنا وإن بكينا لم يردده علينا البكاء ، فلا نفع فى البكاء ولا غناء . وإن شئت قلت : فغير مردود . أى لم يرد علينا البكاء : أى لا نعاب به ، لاستحقاقه ذلك وشدة الفجيعة به .

(٣) شبهه بالبحر وشبه موته بالجزر . يقول : وإن جزعنا لموته فلا عجب ، لأن مثل هذا الجزر لم يعهد فى البحر إذ المعهود فى البحر إذا جزر أن يتراجع ماؤه حسب ، ولكن لم يعهد فيه أن يجزر حتى ينضب ويجف . والمعنى : قد تقع المصائب ، ولكن لم تعهد مثل هذه المصيبة ، وهذا كقول أعشى باهلة :

فإنْ جَزِعنا فمثل الشر أجْزَعنا وإن صبرنا فإنّا معشر صُبُرُ

أخذه أبو تمام فقال :

فلئن صَبَرت فأنت كوكبُ مَعْشَرٍ صبَروا وَإن تجـزَع فغيرُ مُفَنَّد

وأخذه الخريمى فقال :

ولو شِئتُ أن أبكِى دمًا لبكيته عليه ولـكن ساحةُ الصبر أوسعُ

أَيْنَ الْهِبَاتُ الَّتِى يُفَرِّقُهَا عَلَى الزَّرَافَاتِ وَالْمَوَاحِيدِ[١]

سَالِمُ أَهْلِ الْوِدَادِ بَعْدَهُمُ يَسْلَمُ لِلْحُزْنِ لَا لِتَخْلِيدِ[٢]

فَمَا تُرَجِّى النُّفُوسُ مِنْ زَمَنٍ أَحْمَدُ حَالَيْهِ غَيْرُ مَحْمُودِ[٣]

إِنَّ نُيُوبَ الزَّمَانِ تَعْرِفُنِى أَنَا الَّذِى طَالَ عَجْمُهَا عُودِى[٤]

وَفِىَّ مَا قَارَعَ الْخُطُوبَ وَمَا آنَسَنِى بِالْمَصَائِبِ السُّودِ[٥]

---

(١) الزرافات : الجماعات ؛ والمراد بالمواحيد : الأفراد ، كأنه أخذها من مواحيد الجبال ، وهى أكمات منفردات كل واحدة بائنة عن الأخرى . يقول : إن العطاء انقطع بموته وانقطع ما كان يعطى الجماعات والأفراد من الهبات .

(٢) يقول : إن الذى يسلم من القوم المتحابين بعد ذهاب أصحابه إنما يسلم ليحزن لفقدهم ، لا ليخلد ، لأنه يتبعهم ، وإن تأخر أجله عن آجالهم .

(٣) قال ابن جنى : أحمد حاليه أن يبقى بعد صديقه وذلك غير محمود لتعجل الحزن : فحالاه الموت والحياة ، أى وإذا كانت الحياة ــ وهى أحمد حالى الزمان ــ غير محمودة لأنها تقطع بالحزن على الراحلين ، فماذا نرجى من الزمان ؟ وقال الواحدى : أى لا رجاء عند زمان أحمد حاليه البقاء وهو غير محمود لأن معجله بلاء ، ومؤجله فناء ، وإن شئت قلت أحمد حاليه البقاء ، ومن بقى شاب ، والشيب مكروه مذموم . فيكون كما قال محمود الوراق :

يَهْوَى البقاء فإن مُدَّ البقاء له وساعَدتْ نفسَهُ فيه أمانيها

أبقَى البقاء لهُ فى نفسِه شُغُلاً بِمَا يُرَى مِنْ تصاريفِ البلا فيها

(٤) عجم العود : عضه ليعرف أصلب هو أم رخو ؟ وعجمت عوده : بلوت أمره وخبرت حاله . قال :

أَبَى عُودُكَ المعجومُ إلا صلابَةً وكفاكَ إلا نائِلاً حين تُسأَل

يقول : قد طالت صحبتى للزمان ، وقد جربنى وعرف صلابتى وصبرى على نوائبه .

(٥) يقول : فى من الجلادة والصبر ما يقارع الخطوب ويدافعها عن توهينى ، ومن

مَا كُنْتَ عَنْهُ إِذِ اسْتَغَاثَكَ يَا ... سَيْفَ بَنِي هَاشِمٍ بِمَغْمُودِ (١)

يَا أَكْرَمَ الأَكْرَمِينَ يَا مَلِكَ الأَمْـلَاكِ طُرًّا يَا أَصْيَدَ الصِّـيدِ (٢)

قَدْ مَاتَ مِنْ قَبْلِهَا فَأَنْشَرَهُ ... وَقْعُ قَنَا الخَطِّ فِي اللَّغَادِيدِ (٣)

وَرَمْيُـكَ اللَّيْـلَ بِالْجُنُودِ وَقَدْ ... رَمَيْتَ أَجْفَانَهُمْ بِتَسْـهِيدِ (٤)

طول إلفى للمحن ما نفى عنى الجزع وصيرنى آنس بالمصائب . وعلى هذا يكون : وما آنسنى عطفا على ما قارع ويجوز — كما قال العكبرى — أن تكون ما — فى وما آنسنى — تعجبا . وعبارة الواحدى : فى ما يقارع الخطوب ويؤنسنى بالمصائب العظام ، وهو عليه بثواب الصابرين كما قال صلى الله عليه وسلم « ليودن أهل العافية يوم القيامة لو أن جلودهم قرضت بالمقاريض . . . لما يرون من ثواب أهل البلاء » والذى آنسه بالمصائب رأيه الذى يريه المخرج منها . . . والخطوب جمع خطب : الشدة تلق الإنسان . والمصيبة إذا عظمت قيل : مصيبة سوداء .

(١) يقول : لما استغاثك وهو فى أسر بنى كلاب أغثته واستنقذته من أيديهم ولم تكن سيفاً مغموداً عنه .

(٢) يا أصيد الصيد ، يا ملك الملوك . وأصل الصيد : داء يأخذ البعير فى عنقه فلا يستطيع معه أن يلتفت يمنة أو يسرة ، واستعمل فى الملك والرجل العظيم صاحب النخوة ، وأصيد أفعل وصف لا أفعل تفضيل والصيد جمعه قال العكبرى : وأصيد الصيد ههنا بمعنى ملك الملوك ولا يكون هنا أعظمهم صيداً لأن ذلك يفتح كما يفتح أعور العور أى أشدهم عوراً ، لأن الخلق والعاهات لا يستعمل فيها أفعل ولاما أفعله .

(٣) اللغاديد : لحمات بين الحنك وصفحة العنق ، وأنشره : أحياه ، قال تعالى « ثم إذا شاء أنشره ، وقنا الخط : الرماح والخط : موضع باليمامة تنسب إليه الرماح وجعل أسره قبل ذلك موتا قبل هذه الموتة . يقول : لقد مات قبل هذه الموتة بأسر الخارجى إياه ، فنشرته من ذلك الموت بطعن الرماح فى لغاديد الأعداء حتى استنقذته منهم .

(٤) يقول : وأنشره سيرك ليلا بجنودك لاستنقاذه وقد سهروا خشية هجومك عليهم ، فكأنك رميت عيونهم بالسهر ، ورميت الليل بالجنود إذ سرت فيه بجنودك ، فقوله : ورميك ، عطف على وقع القنا .

فَصَبَّحَتْهُمْ رِعَالُهَا شُزَّبًا ... بَيْنَ ثُبَاتٍ إِلَى عَبَادِيدِ (١)
تَحْمِلُ أَغْمَادُهَا الْفِدَاءَ لَهُمْ ... فَانْتَقَدُوا الضَّرْبَ كَالْأَخَادِيدِ (٢)
مَوْقِعُهُ فِى فَرَاشِ هَامِهِمِ ... وَرِيحُهُ فِى مَنَاخِرِ السِّيدِ (٣)
أَفْنَى الْحَيَاةَ الَّتِى وَهَبْتَ لَهُ ... فِى شَرَفٍ شَاكِرًا وَتَسْوِيدِ (٤)
سَقِيمَ جِسْمٍ صَحِيحَ مَكْرُمَةٍ ... مَنْجُودَ كَرْبٍ غِيَاثَ مَنْجُودِ (٥)

---

(١) الهاء — فى رعالها — كناية عن الخيل ، وإن لم تذكر ، والرعال : جمع رعلة القطعة من الخيل ، والضمير للجنود ، والشزب : جمع شازب ، وهو الضامر . والثبات : جمع ثبة ، وهى الجماعة ، والعباديد : الفرق ، ولا واحد لها من لفظها . يقول : انصبت عليهم الخيل صباحا زرافات ووحدانا .

(٢) انتقد الدراهم : قبضها ، والأخاديد : جمع أخدود ، وهو الشق فى الأرض ، كنى بما تحمل الأغماد عن السيوف : أى حملوا إليهم السيوف فى الأغماد وجعلوها فداءه لأنهم استنقذوه بها ، ولما جعل السيوف فداءً جعل الضرب بها مقبوضا كما تقبض الدراهم والدنانير التى تدفع عادة فى الفداء . يعنى : إن فداء أبى وائل كان ضرباً أثر فيهم تأثير الأخدود فى الأرض : أى نالتهم جراح واسعة كأنها الأخاديد .

(٣) الفراش : عظام رقاق تلى قحف المرأس ، والهام : الرءوس . والسيد : الذئب . يقول : إن هذا الضرب يقع فى عظام رءوسهم فتستنشق الذئاب والوحوش منه رائحة تدلها فتأتى لأكل لحومهم .

(٤) يقول : إن الحياة التى وهبتها له بعد تخليصك إياه من الأسر والقتل أفناها فى بناء الشرف والسيادة شاكراً لك تلك النعمة — نعمة الحياة — التى أنعمت عليه بها . ويجوز أن يكون التسويد إقراره بسيادة سيف الدولة ، وشاكراً : حال من ضمير أفنى ، والتسويد : مصدر سوده أى جعله سيداً .

(٥) المنجود : المكروب ؛ ويقال استنجدنى فأنجدته : أى استعان بى فأعنته ، واستنجد الرجل أى قوى بعد ضعف أو مرض ، ويقال للرجل إذا ضرى بالرجل واجترأ عليه بعد هيبته إياه : قد استنجد عليه ، وكان المرثى قد أصابته جراحة فى الحرب فبقى فيها إلى أن مات . يقول : أفنى بقية حياته سقيم جسم بسبب هذه الجراحة ، مكروباً لتلك الجراحة ، وهو مع ذلك عون المكروب .

ثُمَّ غَـــدَا قَيْدُهُ الْحِمَامُ وَمَا   تَخْلُصُ مِنْهُ يَمِينُ مَصْفُودِ(١)
لاَ يَنْقُصُ الْهَالِـكُون مِنْ عَدَدٍ   مِنْهُ عَلِيٌّ مُضَـــيِّقُ الْبِيدِ(٢)
تَهُبُّ فِى ظَهْرِهَا كَتَائِبُهُ   هُبُوبَ أَرْوَاحِهَا الْمَرَاوِيدِ(٣)
أَوَّلَ حَرْفٍ مِنِ اسْمِهِ كَتَبَتْ   سَنَابِكُ الْخَيْلِ فِى الْجَلاَمِيدِ(٤)
مَهْمَا يُعَزَّ الْفَتَى الْأَمِيرَ بِهِ   فَلاَ بِإِقْدَامِهِ وَلاَ الْجُــودِ(٥)

---

(١) الحمام : الموت ، والمصفود : المقيد . يقول : بعد أن خلصته من أسر العدو غدا أسيراً للموت . ومن قيد بالموت وصفدبه لم يتخلص منه : هذا ، وجملة قيده الحمام : مبتدأ وخبر فى موضع نصب كأنه قال ثم غدا هو ، وروى قده الحمام ، والقد : الغل والقيد ، وروى قده الحمام أى غدا الحمام قده .

(٢) يقول : من هلك من عشيرتك لاينتقص به عددك لأن الفلوات تضيق بأتباعك ومن معك من الجيوش : ومن — فى قوله من عدد — زائدة ، وعدد : مفعول ينقص ومنه على : مبتدأ وخبر صفة لعدد ، وعلى هو سيف الدولة .

(٣) الضمير — فى ظهرها — للبيد ، وأرواحها : رياحها ، والمراويد : الرياح تجىء وتذهب . قال ذو الرمة :

يا دارَ مية لم يَترُكْ بها عَلَماً   تقادُمُ العَهْدِ والهُوجُ المراويدُ

يقول : إن جيوشه تطلع على الفلوات وتنتشر فيها انتشار الرياح عند هبوبها . يريد أن جيوشه كثيرة فهى تعم البيد كما تعمها الرياح عند هبوبها ، وهذا على حد قوله :

إذا سار فى مَهْمَهٍ عَمَّهُ   وإن سارَ فى جَبَلٍ طاله

(٤) أراد بأول حرف من اسمه : العين ، لأن اسمه على . والسنبك : طرف الحافر ، والجلاميد : الصخور . يقول : إن حوافر الخيل لشدة وقعها على الصخور كانت تطبع فيها أثراً يشبه حرف العين فى استدراته وفراغ وسطه .

(٥) يقول : مهما عزاه معز بهذا الميت ، فلا عزاء بجوده وشجاعته : أى لافقدهما فالفتى : فاعل يعز ، والأمير : منصوب بوقوع العزاء عليه ، وتقديره : مهما يعز معز الأمير ، والضمير فى به : للميت . وروى — يعز الفتى الأمير — على أن الأمير صفة للفتى ، والفتى : نائب فاعل يعز المبنى لما لم يسم فاعله .

وَمِنْ مُنَـــانَا بَقَاؤُهُ أَبَدًا   حَتَّى يُعَزَّى بِكُلِّ مَوْلُودِ(١)

وقال يمدحه، ويذكر هجوم الشـــتاء الذى عاقه عن غزو خرشنة، ويذكر الواقعة :

عَوَاذِلُ ذَاتِ الْخَالِ فِى حَوَاسِـــدُ
وَإِنَّ ضَجِيعَ الْخَـــوْدِ مِنِّى لَمَاجِدُ(٢)
يَرُدُّ يَدًا عَنْ ثَوْبِهَـــا وَهْـــوَ قَادِرٌ
وَيَعْصِى الْهَوَى فِى طَيْفِهَا وَهْوَ رَاقِدُ(٣)

---

(١) يقول : أمنيتنا أن يبقى على الدوام حتى يتقدمه كل من ولد فيعزى بهم قال ابن جنى : وهذا دعاء حسن، كما يقال للمعزى : جعلك الله وارث الجماعة، وهو أجود فى المعنى من قولهم : لا أعاد الله إليك مصيبة أبداً .

(٢) الخود : المرأة الناعمة الحسنة الخلق. يقول : إن اللواتى يعذلن هذه المرأة ـ التى هى صاحبة الخال على خدها ـ فى لأجل محبتها إياى هن حواسد لها على، لأنها ظفرت منى بضجيع ماجد .

(٣) يرد : أى الضجيع، والطيف : الخيال فى النوم . يقول : إننى أعف عنها مع كونى قادراً على ترك العفاف، وقد صار ذلك سجية لى حتى صرت أعف عن طيفها أيضاً إذا زارنى فى نومى . يصف نفسه بالعفة والرغبة عن مغازلة النساء، كما قال هدبة :

وإنى لأُخْـــلِى لِلْفَتَاةِ فِرَاشَهَا   وأُصْرِمُ ذَاتَ الدَّلِّ والقلبُ آلِفُ

قال ابن جنى : لو قدر على أن يقول موضع قادر : يقظان أو مستيقظ لكان أجود فى الصناعة، ولكنه لم يقدر . قال أبو الفضل العروضى : هذا النقد ـ نقد ابن جنى ـ غير جيد، وذلك أنه لو قال يقظان أو ساهر : لم يزد على معنى واحد، وهو الكف فى حالة النوم واليقظة، وإذا قال قادر : زاد فى المعنى أنه تركها صلف نفس وحفظ مروءة لا عن عجز ورهبة، ولو أن رجلا ترك المحارم من غير قدرة لم يأثم ولم يؤجر، وإذا تركها مع القدرة صار مأجوراً . قال : والعجب من أبى الفتح يقصر فيما فرض على نفسه من التفسير ويخطىء ثم يتكلف النقد، وقال فى قوله وهو راقد : إن الراقد قادر أيضاً

مَتَى يَشْتَفِى مِنْ لاعِجِ الشَّوقِ فى الحَشَى
مُحِبٌّ لَهَا فى قُرْبِهِ مُتَبَاعِدُ[1]

إِذَا كُنْتَ تَخْشَى العَارَ فى كُلِّ خَلْوَةٍ
فَلِمْ تَتَصَبَّاكَ الحِسَانُ الخَرَائِدُ[2]

أَلَحَّ عَلَىَّ السُّقْمُ حَتَّى أَلِفْتُهُ وَمَلَّ طَبِيبِى جَانِبِى وَالعَوَائِدُ[3]

أن يتحرك فى نومه ويصيح ، وليس هذا بشىء ، ولم يقله أحد ، والقدرة على الشىء أن يفعله متى شاء ، فإن شاء فعل وإن شاء ترك ، والنائم لا يوصف بهذا ولا الغشى عليه ولا يقال للنائم إنه مستطيع ولا قادر ولا مريد ، وأما عصيانه الهوى فى طيفها فليس باختيار منه فى النوم ، ولكنه يقول لشدة ماثبت فى طبعى وغريزتى صرت فى النوم كالجارى على عادتى .

(١) اللاعج : المحرق ، يقال : هوى لاعج ، لحرقة الفؤاد من الحب ، ولعج الحب والحزن فؤاده يلعج لعجا ، استحر فى القلب ؛ ولعجه الضرب ، آلمه وأحرق جلده ، قال عبد مناف بن ربع الهذلى .

ماذا يَغِيرُ ابنتَىْ رِبْعٍ عَوِيلُهما لا تَرقُدانِ ولا بُؤْسَى لمن رَقَدَا
إذا تَأَوَّبَ نَوْحٌ قامتَا معه ضرْبًا أليمًا بِسِبتٍ يَلعَجُ الجِلِدَا

« يغير : ينفع ؛ أى لا يغنى بكاؤهما على أبيهما من طلب ثأره شيئا ، والسبت: جلود البقر المدبوغة واحتاج إلى حركة اللام من الجلد فكسره » والحشا : ما اضطمت عليه الضلوع . وقوله فى قربه : حال من فاعل متباعد . يقول : متى يجد الشفاء من الشوق المحرق محب لهذه المحبوبة إذا دنا منها بشخصه نأى عنها بعفافه ؟ وعبارة ابن جنى : يريد متى تشفى مما بك وأنت كلما قدرت امتنعت ؟

(٢) تتصباك ، تدعوك إلى الصبوة ، والخرائد ، الحييات . ينكر على نفسه صبوته إلى الحسان مادام يخشى العار فى الخلوة بهن . يقول : إذا كنت فى الخلوة بهن تنأى عنهن وتعف ، فمالك ولعشق الحسان والنزاع إليهن ؟

(١) ألح عليه : لازمه . ويقال: ألح عليه بالمسألة ، وألح الرجل على غريمه فى التقاضى إذا واظب ؛ وسحاب ملحاح : دائم ، وألح السحاب بالمكان : أقام به مثل ألث؛ وألحت

مَرَرْتُ عَلَى دَارِ الْحَبِيبِ فَحَمْحَمَتْ
جَوَادِي وَهَلْ تَشْجُو الْجِيَادَ الْمَعَاهِدُ(١)

وَمَا تُنْكِرُ الدَّهْمَاءُ مِنْ رَسْمِ مَنْزِلٍ
سَقَتْهَا ضَرِيبَ الشَّوْلِ فِيهَا الْوَلَائِدُ(٢)

أُهِمُّ بِشَيْءٍ وَاللَّيَالِي كَأَنَّهَا   تُطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ وَأُطَارِدُ(٣)

الناقة وألح الجمل : إذا لزما مكانهما فلم يبرحا كما يحرن الفرس ؛ وكله من اللزوق . والعوائد : جمع عائدة ، وهى التى تعود المريض . يقول : لازمنى السقم فلا يفارقنى حتى لقد ألفته ، وقد ملنى طبيبى وعوائدى لشدة مابى من السقم .

(١) يقال : فرس جواد للذكر والأنثى . والحمحمة : دون الصهيل ، كالتنحنح . وشجاه يشجوه : إذا أحزنه ؛ وأشجاه إذا غصه . والمعاهد جمع معهد ، وهو الموضع الذى عهدت به شيئا ، وتسمى ديار الأحبة : معاهد . يقول : مررت على دار الحبيب فحمحمت جوادى حنينا إليها لأنها عرفتها . ثم استفهم متعجبا فقال : وهل الديار تشجى العجاوات كما تشجى الإنسان ؟ ! وقد أخذ أبو الحسن التهامى هذا وزاد عليه فقال :

بكيتُ فحنّت ناقتى فأجابها   صَهيل جيادِى حين لاحت ديارُها

ثم زاد السرى الرفاء على هذا فقال :

وقفتُ بها أبكى وتُرزِمُ ناقتى   وتصهَلُ أفراسى ويدعو حَمامُها

(٢) ما : استفهام إنكارى والفرس الدهماء : السوداء . والضريب : اللبن الخاثر يحلب من عدة لقاح . والشول : النياق التى بعد عهدها بالنتاج فجف لبنها . والوليدة : الجارية التى تخدم . نفى التعجب ورجع عنه . يقول : كيف تنكر الفرس الدهماء رسم منزل أقامت به تسقيها الولائد فيه لبن النياق فألفته ؟ وقال الواحدى : «ما» ههنا نفى .

(٣) عن كونه : أى عن حصوله . يقول : أريد الأمر الخطير وأحاول فعله والليالى تدافعنى عنه وتحول بينى وبينه ، فكأنها بذلك تطاردنى عن الوصول إليه ، وأنا أطاردها عن حيلولتها بينى وبينه .

وَحِيدٌ مِنَ الْخُلانِ فِى كُلِّ بَلْدَةٍ　　إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ(١)

وَتُسْعِدُنِى فِى غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ　　سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ(٢)

تَثَنَّى عَلَى قَدْرِ الطِّعَانِ كَأَنَّمَا　　مَفَاصِلُهَا تَحْتَ الرِّمَاحِ مَرَاوِدُ(٣)

مُحَرَّمَةٌ أَكْفَالُ خَيْلِى عَلَى الْقَنَا　　مُحَلَّلَةٌ لَبَّاتُهَا وَالْقَلائِدُ(٤)

---

(١) وحيد: خبر مبتدأ محذوف : أى أنا وحيد ؛ ويروى وحيدا ــ على أنه حال من ضمير أهم ــ يقول : إن مطلوبى عظيم ، ومن ثم لا أجد من يساعدنى على ما أطلب، لأن المطلوب إذا كان عظيما قل من ينهض بالمساعدة عليه ، والخلان : جمع خليل : كرغيف ورغفان

(٢) الغمرة : الشدة « والسبوح : الفرس التى كأنها تسبح فى جريها ، يقول : وتعيننى على توارد الغمرات فى الحروب فرس سبوح يشهد بكرمها خصال لها منها أدلة عليها وفى الشطر الثانى من كثرة التكرار ــ وهو قوله لها منها عليها ــ ما قد يعاب به ولها خبر مقدم عن شواهد ؛ والجملة : صفة ؛ وعليها : متعلق بشواهد ؛ ومنها : حال،

(٣) المراود : جمع مرود ، وهو حديدة تدور فى اللجام ــ من راد يرود : إذا ذهب وجاء . يقول : إن هذه السبوح ــ للين مفاصلها ــ تميل مع الرماح كيفما اتجهت شبه مفاصلها فى سرعة استدارتها ــ إذا لوى عنانها لدى الطعان ــ بمسمار المرود يدور مع حلقته كيفما أديرت ، كما قال كشاجم :

وإذا عطفتَ به على مووردهِ　　لِتُديرَهُ فكأنه بِرْكارُ(١)

وهنا قال الواحدى : أخطأ القاضى ــ يريد القاضى أبا الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى ــ فى هذا البيت ، وزعم أن هذا من المقلوب ، وقال : إنما يصح المعنى لو قال كأنما الرماح تحت مفاصلها مراود ؛ وعنده أن المرود مثل المكحلة ، شبه الرماح فى مفاصلها بالميل فى الجفن يفعل فيها كما يفعل الميل فى العين ، وهذا فاسد ، لأنه يخص المفاصل ، وليس كل الطعن فى المفاصل لأنه قال تثنى على قدر الطعان ، وإذا كانت الرماح ومفاصلها كالميل فى الجفن فلا حاجة إلى تثنيها .

(٤) اللبات : أعالى الصدور . ومحللة القلائد : أى مواضع القلائد من الأعناق .

---

(١) البركار والبيكار : آلة ذات ساقين لرسم الدوائر ــ البرجل ــ

وَأُورِدُ نَفْسِي وَالْمُهَنَّدُ فِي يَدِي مَوَارِدَ لا يُصْدِرْنَ مَنْ لا يُجَالِدُ (١)

وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يَحْمِلِ الْقَلْبُ كَفَّهُ عَلَى حَالَةٍ لَمْ يَحْمِلِ الْكَفَّ سَاعِدُ (٢)

خَلِيلَيَّ إِنِّي لا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَلِمْ مِنْهُمُ الدَّعْوَى وَمِنِّي الْقَصَائِدُ (٣)

فَلا تَعْجَبَا إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ وَلَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدُ (٤)

يقول : إنه يخوض الحرب فتنال الرماح من صدور خيله وأعناقها ولا تنال من أعجازها لأنه لا يهرب منها .

(١) يقول : وأورد نفسى فى الحرب — وسيفى فى يدى — موارد مهلكة لايصدر واردها حيا ما لم يكن جلدا شجاعا مثلى — أو ما لم يقاتل مثلى — وعبارة ابن جنى : من وقف مثل موقفى فى الحرب ولم يكن شجاعا جلدا ، هلك . هذا: والواو فى والمهند:واو الحال ، والمهند : السيف الهندى ، أو السيف المشحوذ .

(٢) يقول : إن قوة الضرب إنما تكون بالقلب لا بالكف ، فإذا لم تقو الكف بقوة القلب : لم تقو بقوة الساعد وقوله : على حالة ، صلة يحمل .

(٣) يقول : إن من عداه من الشعراء يدعون الشعر ، والقصائد له ، لأن كلامهم لا يستحق أن يسمى شعراً . ولعله يريد أنهم يأخذون شعره ويدعونه لأنفسهم : وإذن : فهو الشاعر فى الحقيقة ، أما غيره فهو شاعر بانتحال شعره . وعبارة الواحدى : يريد كثرة من يرى من الشعراء المدعين وأن له التحقيق باسم الشاعر لأنه هو الذى يأتى بالقصائد لا هم . قال ابن جنى : لو قال: فكم منهم الدعوى ومنى القصائد لكان أحسن وأشد مبالغة ، لأنها تدل على كثرة فعلهم .

(٤) فى هذا البيت من البديع حسن التخلص . يقول إنه فى الشعراء كسيف الدولة فى السيوف ، فكل منهما منقطع النظير — وإن كا له أشباه ونظائر فى التسمية — وهذا كما يقول الفرزدق :

وقد تلتقى الأسماء فى الناسِ والكُنَى كثيراً ولكنْ فرّقوا فى الخلائق

لهُ مِنْ كَرِيمِ الطَّبْعِ فى الْحَرْبِ مُنْتَضٍ
وَمِنْ عَادَةِ الْإِحْسَانِ وَالصَّفْحِ غَامِدُ(١)

وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ دُونَ مَحَلِّهِ ... تَيَقَّنْتُ أَنَّ الدَّهْرَ لِلنَّاسِ نَاقِدُ(٢)

أَحَقُّهُمُ بِالسَّيْفِ مَنْ ضَرَبَ الطُّلَى ... وَبِالْأَمْنِ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ الشَّدَائِدُ(٣)

---

(١) انتضى السيف سله وجرده . يقول : إنه ليس كسيوف الحديد التى تنتضى وتغمد ، وإنما ينتضيه فى الحرب كرم طبعه وما آثره الله به من الشجاعة والأنفة ، ويغمده ماتعوده من العفو والإحسان . هذا : وكما يقال: انتضى السيف . يقال : نضاه أيضاً ، ونضا الخضاب : ذهب لونه ونصل ، ونضوت البلاد : قطعتها. قال تأبط شراً

ولكننى أرْوى من الخمر هامتى ... وأنْضُوا الفَلاَ بالشاحِبِ المُتَشلشل(١)

(٢) يقول: لما رأيت الناس دونه فى المنزلة تيقنت أن الدهر ناقد لهم يعطى كلا على قدر ما يستحقه ، وهذا على خلاف ما يفعل الدهر ، لأن الدهر يرفع من لا يستحق ، ويحط من يستحق ، فهو على العكس مما قال المتنبى .

(٣) الطلى : الأعناق ، وهذا كالشرح لما ذكره فى البيت السابق يقول : إن أحق الناس بأن يتقلد السيف أو يكون صاحب سيف وإمارة : من كان ضارباً للأعناق — أى شجاعا — وأحقهم بأن يأمن جانب عدوه من هانت عليه الشدائد وغمرات الحروب. وعبارة بعض الشراح : لا يستحق أن يحمل سيفاً إلا من يضرب به الأعناق : وقوله وبالأمن : يروى وبالأمر : أى يتولى أمور الناس ، أو بمنصب الإمارة . هذا : وقد أسلفنا أن الطلى: الأعناق ، وقيل: أصول الأعناق . الواحدة طلية ، ويقال الطلاة أيضاً، وأطلى الرجل والبعير إطلاء فهو مطل : مالت عنقه للموت أو لغيره قال :

وسائلةٍ تسائِلُ عن أبيها ... فقلتُ لها وَقَعْتِ على الخبيرِ

تركتُ أباكِ قد أطْلى ومالت ... عليه القَشعمانُ من النسور

وفى الحديث « ما أطلى نبى قط » أى ما مال إلى هواه وأصله من ميل الطلا أى

---

(١) يعنى بالمتشلشل الرجل المتخدد القليل اللحم الخفيف ، والشاحب — على هذا — يريد به الصاحب ، وقيل: يريد به السيف . قال الأصمعى : هو سيف يقطر منه الدم ، والشاحب : الذى أخلق جفنه.

وَأَشْقَى بِلَادِ اللهِ مَا الرُّومُ أَهْلُهَا ... بِهٰذَا وَمَا فِيهَا لِمَجْدِكَ جَاحِدُ(١)
شَنَنْتَ بِهَا الْغَارَاتِ حَتَّى تَرَكْتَهَا ... وَجَفْنُ الَّذِى خَلْفَ الْفَرَنْجَةِ سَاهِدُ(٢)
مُخَضَّبَةٌ وَالْقَوْمُ صَرْعَى كَأَنَّهَا ... وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا سَاجِدِينَ مَسَاجِدُ(٣)
تُنَكِّسُهُمْ وَالسَّابِقَاتُ جِبَالُهُمْ ... وَتَطْعَنُ فِيهِمْ وَالرِّمَاحُ الْمَكَايِدُ(٤)

الأعناق إلى أحد الشقين ؛ والطلاء : ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه ، وبعض العرب تسمى الخمر: الطلاء . يريد بذلك تحسين اسمها لا أنها الطلاء بعينها . وفى الحديث : « سيشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها » يريد أنهم يشربون النبيذ المسكر المطبوخ ، ويسمونه طلاء تحرجاً من أن يسموه خمراً . والطلاء : القطران ، وكل ما طليت به ، والطلا : الولد من ذوات الظلف والخف والجمع أطلاء .

(١) يقول : إن أشقى بلاد الله البلاد التى أهلها الروم ، وشقاؤها إنما هو بهذا : أى بكونك تضرب الطلى ولا تكترث لغمرات الحروب ، ومع هذا فهم كلهم معترفون بمجدك ولا يجحدون ما أنت عليه من الشجاعة والإقدام .

(٢) شن الغارة : صبها عليهم وفرقها من كل وجه ؛ والفرنجة : قرية بأقصى بلاد الروم . يقول : صببت الغارة على بلاد الروم فشاع خوفك فيهم جميعا حتى بات الذى فى أقصى بلادهم لا ينام خوفا وإن كان بعيداً عنك.

(٣) يقول : إن هذه البلاد ملطخة بدمائهم كأنها مساجد مخلقة — أى مطلية بالخلوق: ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران — وهم مقتولون طرحون فيها كأنهم سجد على الأرض ، وإن لم يسجدوا حقيقة . فقوله : مخضبة — بالرفع — خبر ابتداء محذوف ، ومن نصبه جعله حالا من الضمير فى تركتها . والقوم صرعى : يروى والخيل صرعى ، وصرعى : جمع صريع : أى طريح ، ومساجد : خبر كأن ، والجملة المعترضة : حال .

(٤) يقول : تنزلهم منكوسين من جبالهم التى تحصنوا بها ، فهى لهم بمنزلة الخيول السابقة . وتأتى عليهم بكيدك : يعنى أنه يكيد لهم حتى ينزلوا فيوقع بهم فيقوم فيهم كيدك مقام الرماح . ولك أن تقول والسابقات جبالهم : أى أنك تنزلهم منكوسين من خيولهم التى كأنها الجبال يستعصمون بها فتنكسهم عنها . وعبارة الواحدى : تطعنهم برماح من كيد وتنزلهم عن خيولهم منكوسين ؛ ونكسه : قلبه ، والسابقات ؛ الخيول .

وَتَضْرِبُهُمْ هَبْراً وَقَدْ سَكَنُوا الْكُدَى
كَمَا سَكَنَتْ بَطْنَ التُّرَابِ الأَسَاوِدُ(١)

وَتُضْحِى الْحُصُونُ الْمُشْمَخِرَّاتُ فِى الذُّرَى
وَخَيْلُكَ فِى أَعْنَاقِهِنَّ قَلائِدُ(٢)

عَصَفْنَ بِهِمْ يَوْمَ اللُّقَانِ وَسُقْنَهُمْ
بِهِنْرِيطَ حَتَّى أَبْيَضَّ بِالسَّبْىِ آمِدُ(٣)

وَأَلْحَقْنَ بِالصَّفْصَافِ سَابُورَ فَانْهَوَى
وَذَاقَ الرَّدَى أَهْلاهُمَا وَالْجَلامِدُ(٤)

---

(١) الهبر : تقطيع اللحم ؛ والكدى : جمع كدية ، وهى الأرض الصلبة . وأصلها فى البئر يصل إليها الحافر فيقف عندها لصلابتها ، فيقال : أكدى أى انقطع ، قال تعالى « وأعطى قليلا وأكدى » قيل أى وقطع القليل ؛ وقيل أمسك عن العطية وقطع ، قالوا : وأصله من الحفر فى البئر ، يقال للحافر إذا بلغ فى حفر البئر إلى حجر لا يمكنه من الحفر : قد بلغ إلى الكدية ، وعند ذلك يقطع الحفر . والأساود : الحيات العظيمة : يقول : وتمعن فى تقطيعهم بالسيوف وقد اكتمنوا تحت الصخور وفى المغاور والكهوف كما تسكن الحيات فى التراب .

(٢) المشمخرات : المرتفعات . والذرى : أعالى الجبال . يقول : وتضحى الحصون العالية الشامخة فى رؤوس الجبال وخيلك محيطة بها إحاطة القلائد بالأعناق وروى ابن جنى : القلائد ـ بالتعريف ـ

(٣) اللقان : وهنريط من بلاد الروم ، وآمد : بلد بالثغور مما يلى الروم بينها وبين ديار بكر . يقول : عصفت بهم خيلك وأتت عليهم هلاكا يوم أغرت عليهم بهذا المكان وساقتهم أسارى حتى ابيضت أرض آمد بكثرة من حصل بها من الأسارى من الجوارى والغلمان ، فالضمير فى عصفن للخيل ، وتطلق الخيل ويراد بها الفرسان .

(٤) الصفصات وسابور : حصنان منيعان للروم ، وانهوى : هوى وسقط . يقول : وألحقن ـ أى الخيل ـ أحد الحصنين بالآخر فى التخريب حتى سقط مثله ، وهلك أهل الحصنين وحجارتهما ، لأنه أحرقهما بالنار فصارت الصخور رماداً ، فجعل ذلك هلاكا وقوله : وانهوى . قال الواحدى : هو غريب فى القياس ، لأن انفعل إنما يبنى مما الثلاثى منه متعد ، وهذا غير متعد ؛ وفى الفصيح من الكلام : هوى قال تعالى « والنجم إذا هوى » .

وَغَلَّسَ فى الْوَادِى بِهِنَّ مُشَيَّعٌ ... مُبَارَكُ مَا تَحْتَ اللِّثَامَيْنِ عَابِدُ (١)
فَتًى يَشْتَهِى طُولَ الْبِلَادِ وَوَقْتِهِ ... تَضِيقُ بِهِ أَوْقَاتُهُ وَالْمَقَاصِدُ (٢)
أَخُو غَزَوَاتٍ مَا تُغِبُّ سُيُوفُهُ ... رِقَابَهُمُ إِلَّا وَسَيْحَانُ جَامِدُ (٣)
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ حَمَاهَا مِنَ الظُّبَا ... لَمَى شَفَتَيْهَا وَالثُّدِىُّ النَّوَاهِدُ (٤)
تُبَكِّى عَلَيْهِنَّ الْبَطَارِيقُ فى الدُّجَى ... وَهُنَّ لَدَيْنَا مُلْقَيَاتٌ كَوَاسِدُ (٥)

---

(١) غلس : سار غلسا ، أى آخر الليل ؛ وبهن : أى بالخيل ، والمشيع : الجرىء المقدام ، وما تحت اللثامين : الوجه ، واللثام : ما يكون على الوجه . والتلثم عادة العرب فى أسفارها ؛ وعنى باللثام الثانى : ما يرسله على الوجه من حلق المغفر . ومبارك الوجه عابد لله ، هو سيف الدولة .

(٢) يقول : إنه يتمنى أن تكون البلاد أوسع مما هى والزمان أطول . لأن الأوقات تضيق بما يريد ، وما يقصد إليه من البلاد يضيق بهمته وجيوشه ؛ وهذا كقوله الآتى :

تجمّعت فى فؤادِهِ هِمَمٌ ... ملْءُ فُؤادِ الزمان إحداها
فإنْ أتى حظها بأزمنة ... أوسعَ منْ ذا الزمان أبداها

وعبارة ابن جنى : يشتهى طول البلاد والزمان ليظهر ما عنده من الفضل والكمال وهو مع ذلك تضيق به أوقاته ومقاصده : أى تضيق عن همته .

(٣) أغب فلان القوم وغب عنهم : إذا جاءهم يوما وغاب عنهم يوما ، وسيحان . نهر ببلاد الروم ، وهو غير سيحون . يقول : هو مقيم على غزو الروم لا تفارق سيوفه رقابهم إلا إذا اشتد البرد وجمدت أنهارهم ، لأن ذلك يحول دون غزوه إياهم .

(٤) الظبا ـ جمع ظبة ـ حد السيف . واللمى : سمرة فى الشفة تستملح . ونهد الثدى : ارتفع . يقول : إنه عصف بالروم وأتى عليهم حتى لم يبق منهم إلا النساء ، فقد حماها المعنى النسوى من حد السيف ، وقد أخذ السرى الرفاء هذا المعنى فقال :

فما أبقيت إلا مُخْطَفاتٍ ... حَمَى الإخْطَافُ منها والنهود

« الإخطاف : الضمور » .

(٥) البطاريق : قواد الروم . يقول : إنه أسر بنات البطاريق فهم يبكون عليهن

بِذَا قَضَتِ الأيَّامُ مابَيْنَ أهْلِهَا ... مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ(١)
وَمِنْ شَرَفِ الإقْدَامِ أنَّكَ فِيهِمِ ... عَلَى القَتْلِ مَوْمُوقٌ كَأنَّكَ شَاكِدُ(٢)
وَأنَّ دَماً أجْرَيْتَهُ بِكَ فَاخِرٌ ... وَأنَّ فُؤاداً رُعْتَهُ لَكَ حَامِدُ(٣)
وَكُلٌّ يَرَى طُرْقَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى ... وَلَكِنَّ طَبْعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قَائِدُ(٤)
نَهَبْتَ مِنَ الأعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ ... لَهُنِّئَتِ الدُّنْيَا بِأنَّكَ خَالِدُ(٥)

ليلا ، وهن لدينا فى دار الإسلام مطروحات ذليلات لا يرغب فيهن ، وبكاه : بمعنى بكاه والتشديد للمبالغة .

(١) وفى هذا المعنى يقول أبو تمام :

ما إنْ تَرَى شيئاً لشيء محيياً ... حتى تُلاقِيَهُ لآخَرَ قاتلا

وهو معنى قديم ، ولكن المتنبى صاغه أبدع صياغة وأوجز .

(٢) موموق : محبوب . والمقة : المحبة ، وفيهم : صلة موموق ، وعلى : بمعنى مع ، والشاكد: المعطى ، شكده يشكده ويشكده شكدا: أعطاه أو منحه ، والإقدام : الشجاعة. يقول : أنت على قتلك إياهم محبوب فيما بينهم حتى لكأنك تعطيهم شيئاً ، وذلك من شرف الشجاعة لأن الشجاع محبوب حتى عند من يقتله .

(٣) يقول : ومن شرف الإقدام أن الدم الذى تسفكه يفخر بأنه سفك بيدك ، وأن القلب الذى تخيفه يحمدك إعجابا بشجاعتك ، كما يقول القائل :

فإن كنتُ مقتولا فكن أنت قاتلى ... فبعض مَنايا القوم أكرم من بعض

(٤) يقول : إن كل أحد يعرف طرق الشجاعة والكرم ، لأنه لا خفاء بهما ، بيد أنه إنما يسلك طريقهما من قادته نفسه إليهما وكان مطبوعا عليهما . يعنى أنك أنت مجبول عليهما ، ومن ثم تقودك نفسك إليهما .

(٥) قال الواحدى : هذا من أحسن ما مدح به ملك ، وهو مدح موجه — أى ذو وجهين — وذلك أنه مدحه فى المصراع الأول بالشجاعة وكثرة قتل الأعداء فقال : نهبت من أعمار الأعداء بقتلهم ما لوعشته لكانت الدنيا مهنأة ببقائك فيها خالداً ، وهذا هو الوجه الثانى فى المدح — أنه جعله جمالا للدنيا تهنأ الدنيا ببقائه فيها ، ولو قال : ما لو عشته لبقيت خالداً : لم يكن المدح موجها .وقال الربعى : المدح فى هذا من وجوه :

فأَنْتَ حُسَامُ المُلْكِ وَاللهُ ضَارِبٌ وَأَنتَ لِوَاءُ الدِّينِ وَاللهُ عَاقِدُ(١)
وأَنتَ أَبُو الهَيْجَا ابْنُ حَمْدَانَ يَا ابْنَهُ تَشَابَهَ مَوْلُودٌ كَرِيمٌ وَوَالِدُ(٢)
وَحَمْدَانُ حَمْدُونٌ وَحَمْدُونُ حَارِثٌ وَحَارِثُ لُقْمَانٌ وَلُقْمَانُ رَاشِدُ(٣)

أحدها : أنه وصفه بنهب الأعمار لا الأموال. الثانى: أنه كثر قتلاه بحيث لو ورث أعمارهم خلد فى الدنيا . الثالث : أنه جعل خلوده صلاحاً لأهل الدنيا بقوله لهنئت الدنيا . الرابع أن قتلاه لم يكن ظالما فى قتلهم لأنه لم يقصد بذلك إلا صلاح الدنيا وأهلها فهم مسروورون بقائه ، فلذلك قال لهنئت الدنيا : أى أهل الدنيا ، وقال ابن جنى : لو لم يمدحه إلا بهذا البيت لكان قد أبقى ما لا يمحوه الزمان .

(١) يقول : أنت للملك بمنزلة السيف ؛ ولكن الضارب بك هو الله ، وأنت للدين راية الله سبحانه الذى عقدها وأحكمها .

(٢) أبو الهيجاء : كنية عبد الله بن حمدان ، والد سيف الدولة . والهيجاء : الحرب تمد وتقصر - يقول : يا ابن أبى الهيجاء أنت أبو الهيجاء . يريد قوة الشبه بينهما ، حتى كأنه هو . وذلك قوله * تشابه مولود كريم ووالد *

(٣) هؤلاء آباء سيف الدولة . يقول : أنت تشبه أباك ، وأبوك يشبه أباه ، وأبوه أباه . . الخ ، أى أن كل واحد من آبائك يشبه أباه فى كرمه وسائر محاسنه ، وقد عاب الصاحب هذا البيت قال : لم نزل نستحسن جمع الأسامى فى الشعر ، كقول الشاعر :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب

واحتذى هذا الفاضل حذوهم فقال : وأنت أبو الهيجا - البيتين - وهذا من الحكمة التى ذخر أرسطو وأفلاطون لهذا الخلف الصالح . قال ابن فورجة أما سبك البيت فأحسن سبك : يريد أنت تشبه أباك ، وأبوك كان يشبه أباه ، وأبوه أباه . فأنت أبوك إذ كان فيك أخلاقه ، وأبوك أبوه — إلى آخر الآباء — فليت شعرى : ما الذى استقبحه ؟ فإن استقبح قوله: وحمدان حمدون : فليس فى حمدان ما يستقبح من حيث اللفظ ، بل والمعنى ، كيف يصنع والرجل اسمه هكذا وهكذا آباؤه ؟ وبعد : فللعلامة العكبرى هنا كلمة لمناسبة ترك المتنبى صرف حمدون نثبتها هنا - حسبما شرطنا على أنفسنا فى هذا الشرح — قال العكبرى الكوفى : ترك صرف حمدون وحارث ضرورة ، وهو جائز عندنا ، غير جائز عند بعض البصريين ، ووافقنا الأخفش وابن برهان

. . . .

والفارسي ، وحجتنا : إجماعنا على جواز صرف مالا ينصرف في الشعر ضرورة ، فلذلك جوزنا ترك صرف ما ينصرف في الشعر ، وقد جاء كثيراً في أشعارهم . قال الأخطل : —

طلبَ الأزارقَ بالكتائبِ إذ هوتْ بِشَبيبَ غائلةُ النفـوس غَدُورُ(١)

فترك صرف شبيب ، وهو منصرف ، وقال حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه :

نَصَرُوا نبيَّهُمْ وشَدُّوا أزْرَهُ بِحُنَيْنَ يومَ تواكلِ الأبطالِ(٢)

فلم يصرف حنيناً ، وهو مصروف ؛ وقال الفرزدق :

إذا قالَ غاوٍ مِنْ تَنوخَ قَصِيدَةً بها جَرَبٌ عُدت عليَّ بِزَوْبَرا(٣)

فترك صرف زوبر وهو منصرف ، وقال الآخر :

والى ابنِ أمِّ أُناسَ أرْحَلُ ناقتي عَمْرٍو فتُبْلِغُ حاجَتي أو تُزْحِفُ(٤)

---

(١) من قصيدة للأخطل يذكر فيها ما جرى بين سفيان بن الأبرد نائب الحجاج ، وبين شبيب بن يزيد رأس الأزارقة — طائفة من الخوارج — وفاعل طلب : يعود على سفيان المذكور ، والأزارق : مفعول ؛ وغائلة : فاعل هوت ؛ وغدور : بدل من غائلة.

(٢) تواكل الأبطال : أي تخاذلهم واتكالهم على غيرهم .

(٣) يروى هذا البيت لابن أحمر ، هكذا :

* وإنْ قال عاوٍ من معَدٍّ قصيدة *

ويقال أخذ الشيء بزوبره : أي بجميعه فلم يدع منه شيئاً ، فهو يقول : نسبت إلى بكمالها ولم أقلها ، وقيل بزوبرا : أي كذباً وزوراً .

(٤) بعده :

مَلِكٍ إذا نَزَلَ الوُفودُ ببابِهِ عَرَفوا مَوارِدَ مُزْبِدٍ لا يُنْزَفُ

وقد صححنا هذين البيتين على كتاب سيبويه ، وشارح شواهده الإمام الشنتمرى الأندلسى . وقد نسبهما صاحب اللسان لبشر بن أبي خازم ، وأخطأ النساخ فورد في اللسان على غير هذه الصورة الصحيحة . وورد في سيبويه أناس — بالتنوين — وهو خطأ . وعمرو : بدل من ابن أم أناس ، وملك : بدل من عمرو ؛ وتزحف — يقال

. . . .

= وعمرو هو ابن حجر الكندى — فترك صرف أناس ، وهو متصرف وأم أناس هى بنت ذهل بن شيبان ، وقال الآخر :

أؤملُ أن أعيشَ وأنْ يومِي   بأولَ أو بأهـــونَ أو جُبارِ

أو الثانى دُبارَ فإنْ يَفتنى   فمؤنِسَ أو عَروبَةَ أو شِيارِ

فترك صرف مؤنس ودبار ، وهما مصروفان ، فهذه أسماء الأيام فى الجاهلية : أول : الأحد، وأهون: الاثنين، وجبار: الثلاثاء ،ودبار: الأربعاء، ومؤنس: الخميس،وعروبة: الجمعة ، وشيار : السبت ، وقول الآخر :

قالت أُمَيمـــةُ ما لثابت شاخصاً   عارِى الأشاجِـع ناحلا كالمُنصُلِ (١)

فترك : صرف ثابت ، وهو مصروف ، وقول العباس بن مرداس السلمى :

وما كان حِصْنٌ ولا حابسٌ   يفوقانِ مِرْداسَ فى مجمع (٢)

وبهذه الرواية جاء فى الصحيحين ، وليس بعد الصحيحين شىء يرجع إليـه ؛ وقول الآخر :

وقائلةٍ ما بالُ دَوْسرَ بعدنا   صحاَ قلبهُ عن آلِ ليلىَ وعن هِندِ

فترك صرف دوسر ، وشواهدنا كثيرة ، وأما القياس فاذا جاز حذف الواو المتحركة للضرورة كبيت الكتاب :

أزحف البعير أعيا فجر فرسنه — ما قابل الحافر — يمدح عمرو بن هند الملك ، وأم أناس بعض جداته ؛ والوارد : مناهل المـاء الموردة . شبه بها عطاياه ، وجعله كالبحر المزبد لكثرة جوده ، ومعنى ينزف : يستنفد ماؤه .

(١) الأشاجع : مفاصل الأصابع ، واحدها أشجع . وعارى الأشاجع : أى خفيف اللحم ، وقيل :الأشاجع رؤوس الأصابع: وقيل: عصبها . والمنصل : السيف .

(٢) من أبيات لا بن مرداس . يعاتب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أعطى رجالا من المؤلفة قلوبهم أكثر مما أعطاه ؛ ومنهم عيينة بن حصن الفزارى والأقرع بن حابس : [راجع سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٤٠ التجارية ، والخزانة ج ١ ص ١٤٥ ط السلفية]

أُولَئِكَ أَنْيَابُ الخِلَافَةِ كُلُّهَا ... وَسَائِرُ أَمْلَاكِ البِلَادِ الزَّوَائِدُ[(١)]

أُحِبُّكَ يَا شَمْسَ الزَّمَانِ وَبَدْرَهُ ... وَإِنْ لَامَنِي فِيكَ السُّهَى وَالفَرَاقِدُ[(٢)]

وَذَاكَ لِأَنَّ الفَضْلَ عِنْدَكَ بَاهِرٌ ... وَلَيْسَ لِأَنَّ العَيْشَ عِنْدَكَ بَارِدُ[(٣)]

فبيناهُ يَشْرِى رَحْله قالَ قائلٌ ... لمن جَمَلٌ رِخْوُ المِلاطِ نجيبُ[(١)]

فجواز حذف النون للضرورة أولى ، والواو من هو متحركة ، والتنوين ساكن ، ولا خلاف أن حذف الساكن أسهل من حذف المتحرك ، ولهذا الذى ذكرناه، وصححه، وافقنا أبو على وأبو القاسم بن برهان ، ولم ينكره أبو بكر بن السراج . وحجة البصريين أن الأصل فى الأسماء : الصرف . فلو جوزنا لأدى ذلك إلى رده عن الأصل إلى غير الأصل ، والتبس ما ينصرف بما لا ينصرف .

(١) الزوائد من الأسنان : التى تنبت خلف الأضراس . يقول : إن هؤلاء الذين ذكرهم هم للخلافة بمنزلة الأنياب ، تمتنع الخلافة بهم امتناع السبع بنابه ، أما بقية الملوك فهم بمنزلة الزوائد ، لا حاجة للخلافة بهم .

(٢) السهى : نجم خفى من بنات نعش الصغرى ؛ ومنه المثل — أريها السهى وتريني القمر — والفرقد : نجم قريب من القطب الشمالى يهتدى به ، وبجانبه آخر أخفى منه ، فهما فرقدان ، وإنما جمع على إرادة كل نجم يشبههما . جعله بين الملوك كالشمس والبدر ، وغيره من الملوك كالنجوم الخفية ؛ يقول : إنى أميل إليك بهواى وإن لامنى فى ذلك من لا يبلغ منزلتك . وعبارة ابن جنى : جعله بالنسبة إلى أعدائه كالشمس والقمر إلى السهى والفرقدين .

(٣) الباهر : البارع قال ذو الرمة .

---

(١) قال الإمام الشنتمرى شارح شواهد سيبويه — : يصف الشاعر بعيراً ضل عن صاحبه فيئس منه وجعل يبيع رحله ، فبينا هو كذلك سمع مناديا يبشر به — إنما وصف ما ورد عليه من السرور بعد الأسف والحزن . والملاط ماولى العضد من الجنب . ويقال للعضدين : ابنا ملاط . ووصفه برخاوته لأن ذلك أشد لتجافى عضديه عن كركرته صدره أو زوره — وأبعد له من أن يصيبه ناكت أو ماسح أو ضبب ؛ وهذه كلها آفات وأعراض تلحقه إذا حك بعضده كركرته — ومعنى يشرى : يبيع . وهو من الأضداد .

فإنَّ قَلِيلَ الْحُبِّ بِالْعَقْلِ صَالِحٌ   وإنَّ كَثِيرَ الْحُبِّ بِالْجَهْلِ فَاسِدُ(١)

وقد بَهَرْتَ فلا تَخْفَى على أحدٍ   إلا على أكمهٍ لا يعرف القمرا(١)

وعيش بارد : رغد هنيء يقول : إن ذاك الحب إنما هو لظهور فضلك على غيرك لا لطيب العيش عندك ؛ إذ أن العيش قد يطيب عند غيرك ولكن لا يظهر فضله ظهور فضلك فلا يستحق الحب ، وعبارة ابن جنى : محبتى لك لفضلك لا للخير الذى أصيبه عندك .

(١) الجهل : الحمق . قال العكبرى : يريد : أنا أحبك بعقل فينتفع بى ؛ وغيرى يحبك بجهل فلا ينتفع به . . ثم قال : ولو قال المتنبى بالعلم صالح ، لكان أمدح وأحسن فى صناعة الشعر ، لأن الجهل ضد العلم والعقل ضد الحمق :

---

(١) تقدم أنه من أبيات يمدح بها ذو الرمة عمر بن هبيرة . وقبله :

ما زِلْتَ فى درجات الأمر مرتقياً   تَنْمِى وتسمو بك الفرْعانُ مِنْ مُضَرَا

[وروى : حتى بهرت] .

انتهى الجزء الأول ، ويليه ـ بعون الله وتوفيقه ـ الجزء الثانى وأوله :

وقال يمدح سيف الدوله بعيد الأضحى الخ

لكل امرىء من دهره ماتعودا   وعادات سيف الدولة الطعن فى العدا

فهرست الجزء الأول